



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الجزائر-2- أبو القاسم سعد الله

كلية الآداب واللغات الشرقية

قسم اللغة العربية وآدابها

تمثيل القمع السلطوي في الرواية العربية المعاصرة

- دراسة تداولية سردية لنماذج مختارة -

**The Representation of Authoritarian Repression in the
Contemporary Arab Novel: a Pragmatic-Narrative Study of
Selected Models**

رسالة مقدمة لنيل درجة دكتوراه العلوم

تخصص: قضايا الأدب والدراسات النقدية والمقارنة

إشراف الأستاذة:

أ/د حياة أم السعد

إعداد الطالبة:

صبرينة لقمان

الصفة	أعضاء اللجنة
مقررا	أ.د حياة أم السعد
رئيسا	أ.د عبد الحميد بورايو
عضوا	د. سعيد شيبان
عضوا	د. حبيب عمي
عضوا	د. حميد بوحبيب
عضوا	د. حبيبة العلوي

السنة الجامعية: 2022/2021

People's Democratic Republic of Algeria
Ministry of Higher Education and Scientific Research
University of Algiers 02 Abul-Qasim Saad Allah
Faculty of Letters and Oriental Languages
Department of Arabic Language and Literature

The Representation of Authoritarian Repression in the Contemporary Arab Novel: a Pragmatic-Narrative Study of Selected Models

**A dissertation submitted in partial fulfillment of the requirements for the
degree of. Doctor of Science**

Specialization: Literature issues, critical and comparative studies

Prepared by the student:

Sabrina Lokmane

Under the supervision of:

Prof. Hayet Oumssad

Members of The commission	capacity
Oumssad Hayet	rapporteur
Bourayou Abdelhamid	president
Chiban Said	Member
Habib Aami	Member
Bouhbib Hamid	Member
Lalaoui Habiba	Member

University year: 2021/2022

كلمة شكر وتقدير

أحمد الله أولاً وآخراً في أن وفقني بفضلته لإتمام هذا العمل

كما لا يسعني في هذه الأسطر إلا أن أرفع عبارات الشكر والامتنان الى

المشرفة، أستاذتي الفاضلة الدكتورة "حياة أم السعد" التي لولاها لما عرف هذا

البحث طريقاً الى الوجود، لقد أحاطتني بالدعم والتشجيع منذ أن كان هذا

العمل بذرة صغيرة فتعاهدته بالرعاية والتوجيه، فلها دعوات صادقة في ظهر

الغيب.

-حفظها الله وجزاها عنا خير جزاء.

كما أرفع عبارات الشكر الى السادة الأساتذة أعضاء لجنة المناقشة لما تكبدوه

من عناء في قراءة وتمحيص هذا العمل.

الإهداء

إلى روح أمي الطاهرة

ها أنا ذا في الموعد، إنَّها دعواتك يا أمي.

إلى أبي أطال الله في عمره.

إلى زوجي، بقدر صبره علي.

إلى لؤلؤتي منزلي: عبد الجليل ونافع.

مقدمة

إنّ اتجاه التحليل النقدي للخطاب من أحدث مقاربات تحليل الخطاب التي تبحث في العلاقات الجامعة بين الخطاب والسلطة، باختلاف السياقات التي ينطلق منها وإليها يؤول. فهو بحث عن تعالقات اللّغة بالمجتمع والسلطة، ممّا يجعله يفتح على مجموعة من الميادين المختلفة (سياسيّة، اجتماعية، دينية، وفلسفية وغيرها). ساهم هذا الانفتاح في تعدّد رؤى منظري ومؤسسيّ هذا الاتجاه، الذين يستعينون بمجالات معرفيّة أخرى (كالتداوليّة، وعلم التراكيب، وعلم النحو، والتحليل السردى، وتحليل الخطاب...الخ)، لتمثيل أساليب إساءة استعمال السلطة داخل الخطاب.

تتضوي تحت هذا الاتجاه مجموعة من النظريات والمقاربات المستقاة من مشارب مختلفة باختلاف روادها ومؤسسيها، وتقسّم في كتاب "مناهج التحليل النقدي للخطاب" لمؤلفيه "روث فوداك Ruth.Wodak " و"ميشيل ماير Michel Meyer" إلى جزأين:

1/الإجراءات اللّغوية المفصلة وينضوي تحت هذا الاتجاه مقاربة الفاعلين الاجتماعية (ثيو فان لوفن Theo.Vanleewen) والمقاربة التاريخية للخطاب (روث فوداك Ruth.Wodak ومارتن ريسيجل Martin Reisigl) والمدونات اللغوية (جيرليند ماوتنر Gerlinde Mautner).

2/الإجراءات اللغوية الكبرى: نجد المقاربة المعرفية الاجتماعية (تيون فان دايك Siegfried Jaeger) وتحليل التصرفات (سيجفريد ياجر Teun.Van Dijk) وفلورننتين ماير Florentin maier) والمقاربة الجدلية العلائقية (نورمان فيركلف Norman Fairclough).

جلّ هؤلاء الباحثين يقرّون بأنّ الخطاب هو ممارسة اجتماعية كاشفة لعلاقات السلطة المباشرة أو غير المباشرة المتبدية في صور مختلفة كالهيمنة، أو سوء استعمال السلطة في الخطاب على حدّ قول "فان ديك"، أو ما يصطلح عليه في بحثنا بـ القمع

السلطوي... فالقمع لصيق بالسلطة حيث أنّ الحديث عن السلطة هو حديث عن القمع في مختلف أساليبه كالسجن وقهر الآخر والقتل والإنقاص من إمكانية الآخرين وغيرها من صور القمع المادي، وصور أخرى معنوية تستفيد من الطاقات الكامنة للغة لتجعل الإنسان العربي مبرمجا على تقبل هذا القمع بغير وعي منه، وهو ما تجهت الأنظمة المستبدّة في حياكته من خلال خطاباتها المختلفة (السياسية، والاعلامية، والدينية... الخ) المدمرة، لتبثّ سمومها بغية المحافظة على كيانها المتعلق بتمسكها الرهيب بكرسي السلطة، بالإضافة إلى تحكمها في جميع الأجهزة الايديولوجية والقمعية، التي جعلت الفرد العربي بصفة عامة والمنقف بصفة خاصة حبيس مأساة حقيقة، يتجرع القهر والاضطهاد، ويقف عند حدود عتبة التغيير الذي نراه مستحيلا.

شغلّ موضوع القمع السلطوي حيّزا مهما في الرواية العربية المعاصرة، لاعتبارات سياسية وأخرى سلطوية جعلت الرواية أداة فنيّة لتمثلات الوعي يمكن بواسطتها رصد وضع المجتمع، وتقديم الممكنات في قراءته، واكتشاف آماله، وتجسيد أزماته العامة، من خلال أحداث لا تحاكي الواقع بقدر ما ترسم صورا عنه، تحمل بوعي أو من غير وعي وجهة نظر صاحب النص وآفاق تطلعاته، ممّا جعلها الملجأ الوحيد للتعبير عن الأمور السياسيّة والسلطويّة القائمة، التي لا يستطيع النقاد والمبدعون على حد سواء التعبير عنها مباشرة في كتابات سياسية صريحة، وذلك جراء السياسات المستبدّة التي تقف سدّا منيعا أمام جميع محاولات التغيير التي ترجوها الشعوب في انتفاضاتها، ويأملها الكتّاب في إبداعاتهم الأدبية خاصّة الروائية منها.

من بين أسباب اختيارنا لهذا البحث ما أسفرت عنه نقاشاتنا مع الأستاذة المشرفة، فتلمسنا مجموعة من النصوص العربية التي تحاكي موضوع دراستنا من جهة، ومن جهة أخرى حاجتنا الماسّة إلى تجريب مدى استيعابنا لآليات تحليلية منهجية نقرأ على ضوءها النصوص المختارة، ورأينا أن المقاربة الملائمة لدراستنا هي

التحليل النقدي للخطاب الذي يتحرى علاقات السلطة داخل الخطابات وفق ممارسات اجتماعية تكشف صوراً للسلطة كالهيمنة والقمع والسيطرة، تنهض بالوعي الجمعي للمجتمع وتدفع به نحو التطلع إلى سبل التغيير الذي يأبى التحقق.

وقبل الخوض في مجموعة الدراسات التي تتناول موضوع بحثنا، علينا أن ننوّه بأمر نرى ضرورة شرحه للقارئ، ألا وهو تسمية هذا البحث الذي حمل عنوان "تمثيل القمع السلطوي في الرواية العربية المعاصرة-دراسة تداولية سردية لنماذج مختارة- قد يتساءل الدارس أين التحليل النقدي للخطاب في العنوان؟ نعرّج على هذا التساؤل بالقول: أننا كنّا نعتقد في التصور النظري المبدئي لهذا البحث أنّ التحليل النقدي للخطاب هو فرع من فروع التداولية، لكن بعد قراءتنا للعديد من الكتب المظان في هذا التوجه ك:

*نورمان فيركلف، كتاب اللغة والسلطة، ترجمة: محمد عناني، وله كتاب آخر اسمه الخطاب والتغير الاجتماعي لنفس المترجم.

*توين فان ديك، كتاب الخطاب والسلطة، ترجمته: غيداء العلي، راجعه وقدم له: عماد عبد اللطيف. وكذلك مجموعة من المقالات الرائدة في هذا المجال أبرزها لعماد عبد اللطيف، ومحمد يطاوي، دفعت بنا إلى القول أن التحليل النقدي للخطاب توجه جديد يفتح على مجموعة من التوجهات المعرفية الأخرى كما سبق وأشرنا في بداية هذه المقدمة، (لرؤيتنا أن "فان ديك" أبرز رواد هذا الاتجاه نحا منحى تداولياً في بداياته، فلن يخلو توجهه الجديد هذا مما تبناه سابقاً، وهو الاعتقاد الذي دفعنا إلى صياغة العنوان على هذا النحو)، لنستنتج بعد ذلك أن التداولية ليست فرعاً من التحليل النقدي للخطاب، وهذا الأخير ليس فرعاً تداولياً، إنّما هو مقارنة تدرس الكيفية التي تمارس بها اللغة السلطة اجتماعياً، متوسلة باقي الفروع والمباحث اللسانية التي تعينها على الوصول إلى منابها.

وعلينا أن نشير كذلك إلى الدور الحثيث الذي لعبته الأستاذة المشرفة في إقناعنا أن "التحليل النقدي للخطاب" هو التوجه الأمثل لدراسة موضوع القمع السلطوي في الخطاب الأدبي، بالرغم من مخاوفنا التي رأَت العكس كون أبرز مؤسسي هذا الاتجاه، درسوا خطابات إعلامية وإشهارية وأخرى سياسية ... ولم يشيروا في كتاباتهم أو مقالاتهم إلى الطريقة التي يقارب بها التحليل النقدي للخطاب النصوص السردية.

أما بالنسبة للدراسات التطبيقية التي تتقاطع مع موضوع بحثنا فيما يخص التحليل النقدي للخطاب الروائي فهي نادرة جداً نذكر منها:

1/ كتاب "جدل التمثيل السردى واللساني والممارسة الاجتماعية نحو مقارنة لسانية نقدية لسلطة الخطاب الروائي (رواية المغاربة "عبد الكريم جويطي أنموذجاً)، لمؤلفه: محمد يطاوي الذي لم نتمكن من الحصول على نسخة منه بسبب تداعيات الأزمة الصحية "كورونا" التي حالت دون توزيعه.

2/ عماد عبد اللطيف، التحليل النقدي للخطاب ودراسة السرد، محاضرة، وأيضاً كتابه المعنون: تحليل الخطاب السياسي -البلاغة، السلطة، المقاومة-.

كانت الانطلاقة إذن من الخطابات السياسية التي درسها رواد هذا الاتجاه، حيث رأينا أننا يمكن اعتبار الرواية خطاباً سياسياً، وهو ما جسّدته رواية المصرية رضوى عاشور "فرج"، ورواية الكاتب الجزائري عمارة لخص "طير الليل"، فأردنا البحث في مظاهر القمع السلطوي التي جسّدها المضمون السياسي للروايتين، عبر الدمج بين مقولات التحليل النقدي للخطاب وأطر التحليل التداولي ... وغيرها من المجالات المعرفية التي رأينا ضرورة الاستعانة بها للكشف عن طاقات اللّغة الكامنة التي يلجأ إليها السارد ليمرر عوالم سياسية من جهة، وخصوصية النص السردى وفرادته التي تختلف عن الخطاب السياسي من جهة أخرى.

للإجابة عن إشكالية مفادها: هل يمكن مقارنة النصوص الروائية انطلاقاً من آليات التحليل النقدي للخطاب، التي لم تكن به أصلاً؟ وكيف ساهم التحليل التداولي للرواية من منظور باختين Bakhtine في خدمة هذا التوجه الذي خصص بالأساس لدراسة خطابات سياسية، وإعلامية، وإشهارية...؟

بناءً عليه قررنا تقسيم الدراسة إلى فصلين نظريين وثالث تطبيقي.

أمّا الفصل الأول فعني بالحديث عن التداولية وكيفية انتقالها من اللغة إلى الأدب - ، وتوضيح أهمّ الجهود التي نادت بالتداولية الأدبية وأبرز منطلقاتها المفاهيمية المعتمدة...، والوقوف أيضاً على الإطار النظري والمفاهيمي للتحليل النقدي للخطاب، بالإضافة إلى المبادئ التحليلية المتفقّة أحياناً، والمتباينة أحياناً أخرى، والتي اجتهدنا في تلخيصها في مجموعة من الآليات والاستراتيجيات الإجرائية من مختلف توجهات رواد التحليل النقدي للخطاب، حيث قاربت معظم تطبيقاتهم نصوصاً إعلامية أو خطابات سياسية أو إشهارية كما سبق وأشرنا، إلا أننا حاولنا تطويع تلك المفاهيم والمعطيات لتنمّاشي ومعطيات النص الروائي.

في حين تضمّن الفصل الثاني مجموعة من المفاهيم التي رأينا ضرورة الوقوف عندها تبريراً للإطار النظري العام الذي تسعى الأطروحة إلى لملمة حثيثاته، فقدّمنا مفهومًا للتمثيل والدور الذي يلعبه في استقرار العلاقة التي تجمع بين الخطاب والسلطة والأيديولوجيا، مع رؤية تمهيدية لحضور القمع في الرواية العربية المعاصرة المفضية إلى جدلية العلاقة التي تجمع بين الرواية والسياسية كونها المجال الخصب لتمظهراته.

عُنِيَ الفصل التطبيقي في شقّه الأول بالكشف عن جدلية التمثيل السردية والإدراك الاجتماعي للقمع السلطوي وتشكيل الوعي في رواية "فرج" لرضوى عاشور، الذي استعان بمقولات المقاربة المعرفية الاجتماعية لـ "فان ديك"، فكانت البداية مع السياق الاتصالي لرواية فرج الذي عرجنا من خلاله على تصريحات رضوى الصحفية

وحواراتها حول الرواية "قيد الدراسة"، وكذا مفهوم الرواية عندها وهاجس التاريخ الذي يورق الروائي العربي، بعدها وقفنا على البنى الدلالية الكبرى التي تصور لنا أساليب تمثيل السلطة القمعية في الخطاب الروائي، والتمثيل هنا مرتبط بعقائد الايديولوجيا ومقاصد الكاتب وانتقائه، مع ما يتماشى ولحظته التاريخية ورؤيته للعالم، وهو ما أبرزه الجزء المخصص لأصوات القمع وتشكيل الوعي بمسائل الواقع والذاكرة، وكيفية تشكيلها وبنائها ووجهة النظر، والرؤية التي تنقلها أو توصلها، لنقف عند النخب الرمزية على تنوعها وطرق خلقها للوعي، وصولا الى النظام المؤسساتي وتراتبية السلطة وما يطبعه من خطابات سلطوية.

أما الشق الثاني من التطبيق فركزنا فيه على كيفية استعارة أدب الجريمة لتمثيل القمع السلطوي بين فضح لواقع سياسي متأزم وتصوير لفساد متجذر في رواية طير الليل لعماره لخصوص، وذلك بالوقوف على ثلاثة أبعاد سنّها "فيركف" في مقاربتة الجدلية العلائقية، فقمنا في البداية بتحليل خطاب المؤلف وحواراته التي نوهت بدور التاريخ في التشكيل الروائي المعاصر وفي كشف الحقائق التي أغفلها أو أهملها التاريخ عمداً، بعد ذلك سجلنا انتقالاً من ممارسات المؤلف الخطابية على المستوى العام إلى الممارسات الخطابية على مستوى النص. وهذا ما حقّقته دراسة مناصات "طير الليل" انطلاقاً من العنوان إلى النصوص الموازية وصولاً إلى التيمات الكبرى التي نسجت خيوط هذه الرواية، باعتبارها مرّة تجسّداً لسلطة المؤلف (الممارسات الخطابية) على نصّه، ومرّة أخرى سلطة تأثيرية على المتلقي (المجتمع-الممارسات الاجتماعية) تبغي استجابات معينة. ثم البحث في وجهة النظر التي تبثّها الشخصية من خلال صوتها الذي يكشف عنه تتبع الحوارات الداخلية والخارجية وتقابلاتها التي تتجاوز حدود الظاهرة اللسانية، لننتقل إلى البحث في صورة لغة "طير الليل" كونها ممارسة اجتماعية تفضي إلى العديد من الحقائق والأدلة الدامغة، التي تدين المؤامرة

السياسية في جزائر قبل وما بعد الاستقلال، وتدعو بشدّة إلى الثورة والتحرر، وهو ما مثّله التضمينات المبطنّة لهذه التتويجات اللّغوية، كالباروديا الساخرة والأجناس المتخلّلة، لنختم بالممارسة الاجتماعية وعلاقات التأثير والتأثر.

أما الخاتمة فجاءت لتكشف أهمّ النتائج والأفكار التي خلصنا إليها في هذا البحث.

وكأيّ بحث علمي يحاول البحث عن حقيقة ما لا بدّ أن تصادفه عراقيل وصعوبات واجهتنا نحن أيضا في عملنا هذا، كانت دافعا للتحدي أهمّها:

- قلة المراجع المترجمة التي تتحدث عن التحليل النقدي للخطاب، وتتيح للقارئ التعرف على آلياته المنهجية والإجرائية.

- قلة الدراسات التطبيقية التي تتخذ من التحليل النقدي للخطاب مجالا للدراسة بصفة عامة، وندرتها في الرواية بصفة خاصة.

- وأخيرا حادثة هذه المرحلة وحساسيتها، ثمّ راهنية الموضوع التي جعلت البحث فيه يختص بكم ضئيل من الدراسات، وهنا نذكر بعض المراجع المعتمدة في هذا البحث أو بالأحرى أبرزها والتي أفادتنا من بداية البحث لنهايته هو الكتاب الموسوم بـ كتاب "مناهج التحليل النقدي للخطاب" لمؤلفيه: روث فوداك وميشيل ماير، ترجمه الثنائي: أحمد فرح وعزة شبل محمد، راجعه وقدم له: عماد عبد اللطيف. الذي فتح لنا آفاق هذا البحث، بالإضافة إلى المراجع التي تدخل في صلب العمل، وهي لرواد هذا التوجه كما سبق وأشرنا.

وأخيرا أقتطع هذه المساحة لأقول أنّ هذا البحث ما كان ليخرج إلى حيّز الوجود لولا مساعدة الأستاذة المشرفة الدكتورة "حياة أم السعد"، التي رافقتني طيلة هذا البحث ولم تبخل عليّ بتصويباتها المتكررة وجميل صبرها وعنايتها، والشكر كذلك موصول للجنة المناقشة.

الفصل الأول:

التداولية مدخلا بينيا للتحليل

النقدي للخطاب

1/ التداولية وتحليل الخطاب الأدبي (نقطة الالتقاء والانتقال)

برزت التداولية اليوم كعلم جديد في التواصل يعنى بدراسة الخطاب، ولكن هذه الدراسة تعلقت في بداية الأمر بالخطاب البسيط العادي أو التواصل أو بالأحرى البراغماتي (النفعي)، إلا أن دائرة اهتمام المجال التداولي توسعت مع مرور الزمن، وظهرت مجموعة من الدراسات المعاصرة تنتقل من الخطاب التواصل لتشمل الخطاب الأدبي الإبداعي أو التخيلي بمختلف أنواعه (رواية، شعر، قصة...الخ).

يقوم هذا الفصل على توضيح أهم الجهود التي نادت بالتداولية الأدبية وأبرز منطلقاتها المفاهيمية المعتمدة... فلئن كانت التداولية في زمن غير بعيد تعنى بالجانب الاستعمالي للغة، أي أنها تدرس اللغة لاعتبارات ثلاث أولها الاستعمال، ثانيها من يستعملها وثالثها النتائج المفضية إلى ذلك الاستعمال، أو بعبارة أخرى تهتم ب: العناصر المكونة للعملية التخاطبية التواصلية كما هو موضح فيما يلي:

المرسل ← المرسل إليه (المتلقي) ← الرسالة (الخطاب التواصلية)...

وهي مجموع العناصر المشكلة للعملية التواصلية، في مقابل ذلك تبرز التداولية الأدبية التي تعنى بالخطاب التخيلي كونها منهجا قائما بذاته والتي "وجدت معارضة من البنويين والأسلوبيين والإنشائيين بسبب مخالفتها لهذه المناهج في التعامل مع النص الأدبي، والاعتراض على المنوال التداولي في تحليل الخطاب هو اعتراض على ما بين الموضوع والمنهج من تعارض، فمن ناحية يغلب على المنهج التداولي الانصراف إلى تحليل الكلام في بعده التواصل والإنجازي، ومن ناحية أخرى يغلب على الخطاب الأدبي قيمته في ذاته لا في وجوه استخدامه"¹.

إلا أنه بالرغم من هذا الاختلاف القائم بين التداولية والأدب فإن هناك من يرى قاسما مشتركا يجمعهما حيث يقول "بالرغم من هذا الاختلاف المفروق منه بين التداولية

¹-المقاربة التداولية للأدب، الوفاء الدائم، 31 مايو 2013، منتدى تونس التربوي،

www.tunisie.education.com، مقال من الأنترنت، تاريخ التصفح: يوم 2018/11/27.

والأدب يبقى القاسم المشترك والمهمّ هو استعمال العلامة، واللّغة كوسيط للتواصل والتفاعل¹.

بمعنى أنّ الخطاب التخيلي، هو خطاب تواصل يستدعي متلقيا وسياقا وغيرها من الأمور، التي تفرضها العملية التواصلية في الخطاب العادي، وسنحاول تتبع هذا المسار التطوري للتداولية عبر انتقالها من اللّغة إلى الأدب، بالحديث عن تداعيات التداولية في النقد العربي المعاصر.

1. 2/ التداولية في النقد العربي المعاصر: (بؤادر التغيير والانتقال)

تحولت التداولية في النقد المعاصر من اللّغة والمنطق والفلسفة إلى التداولية الأدبية أو ما يصطلح عليه بالذرائعية الأدبية "وتعود بؤادر التغيير أو الانتقال إلى ضرورة فهم النص انطلاقا من ارتباطه بالسياق أو التحديدات السياقية"²، ليستمر هذا التغيير والانتقال الجوهري لتصبح التداولية في وقت لاحق "نظرية السياقات تبحث في سياق الإنتاج والاستقبال"³.

التداولية في وقتنا الراهن وباعتبارها مجالا معرفيا ليست تداولية لغوية محض، وإنما هي علم "يهتم بدراسة التواصل اللّغوي داخل الخطابات، والبحث في طبيعة العلاقة بين الأقوال الخطابية، وألأفعال الاجتماعية، ومن ثمّ التعامل مع الخطاب الإبداعى بوصفه تعبيراً عن تواصل معرفي اجتماعي في سياق ثقافي"⁴. وبهذا تعدّ التداولية علما جديدا يدرس الخطاب الأدبي بالنظر إلى العلاقات التواصلية التي

¹- Elfie Poulain, Approche pragmatique de la littérature, L Humattan, France, 2006, p08.

²- راضية خفيف بويكري، مقال تحليل الخطاب الأدبي - مقارنة نظرية-، إتحاد الكتاب العرب بدمشق، مجلة الموقف، العدد 399، السنة الرابعة، الجزائر، ص16، الموقع: www.academia.edu/4660247/

تاريخ التصفح: 2018/12/02، الساعة: 07: 18 صباحا.

³- المرجع نفسه، ص16.

⁴- عبد الفتاح يوسف، التداولية وتنوع مرجعيات الخطاب- حدود التواصل بين لسانيات الخطاب والثقافة، جامعة المنصورة، عالم الفكر، مصر، ط1، دت، ص 675.

تكوّنه، وبالرجوع إلى السياق الثقافي والاجتماعي الذي يحكمه، فيصبح بذلك المعنى التداولي لا يستشف انطلاقا من اللغة فقط، إنّما هو مرتبط أساسا بانفتاحه على مجموع السياقات... وهذا ما يجعل النص مفتوحا لعدّة تأويلات، يتطلّع البعد الثقافي فيها بالصدارة وهذا ما ذكرته "فرانسواز أرمينكو" **Francoise Armingaud** بقولها أنّه "بعد لا يمكن التغافل عنه، لأنّه بعد يكشف عن حقيقة المعنى الذي تكوّن في وعي المتلقي"¹. يسهم عنصر الثقافة المبعوث في المعنى والمتلقي معا، في فك شفرات النصوص والكشف عن الكنه الذي يتلبسها، ويتمّ ذلك عبر البحث في العناصر الثقافية المبعوثه داخل الخطابات والتي "تحتوي الهيكل الاجتماعي، كالأعراف والتقاليد والدين، والطقوس والإيديولوجيات..."².

وغيرها من الأمور التي نلاحظها تتغيّر داخل النصوص الأدبية بتغير الأزمنة والأمكنة وفقا للمبدع الذي أنتج ذلك النص... إلى جانب تداول نسق ثقافي معين دون غيره... هذه الأمور مجتمعة تعين المتلقي على تأويل النص حيث أن "تداول نمط معين من الإبداع يؤدي دورا رئيسيا في التعرف على البعد الثقافي في فترة تداول هذا النسق"³. نستنتج من خلال هذا القول أن استعمال نمط معين من الإبداع دون غيره يكشف لا محالة عن ثقافة تلك الفترة، إلى جانب البعد الثقافي يبرز البعد التداولي كونه "يأخذ في الاعتبار الإحالات السابقة، بالإضافة إلى انفتاحه على البعد المرجعي والثقافي"⁴. يتضح ممّا سبق أن التداولية كمجال معرفي تتفتح على مجموعة من المناهج تعينها على فهم النص الأدبي وتأويله وأبرز هذه المناهج النقد الثقافي والذي من ركائزه أثناء التحليل يبرز البعد التداولي.

¹ - فرانسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، ترجمة: سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، دط، دت، ص13.

² - عبد الفتاح يوسف، التداولية وتنوع مرجعيات الخطاب، ص 677.

³ - المرجع نفسه، ص 677.

⁴ - نفسه، ص 679.

تتميّز التداولية بسعتها في دراسة اللّغة، مما أدى إلى تفرع مجموعة من النظريات عنها، لم تقتصر هذه الأخيرة على الباحثين اللغويين فحسب بل نجد لها امتدادا في مجموعة من التخصصات كالفلسفة والمنطق وغيرها، أما بالنسبة لأطرها اللّغوية في تحليل الخطاب فقد عنت بمجموعة من الجوانب يمكن تصنيفها إلى ثلاثة مسارات تضمنت بدورها مجموعة من الدراسات المتلاحقة بشكلها العام، هذه المسارات العامة هي: الأفعال الكلامية، القصد ، أو المعنى التداولي، الإشارات ولا يتمّ تحديد هذه الجوانب بدقّة إلا في الخطاب المستعمل¹.

انطلاقا من هذا الاعتبار سنسعى إلى إبراز أهم جهود الدارسين والنقاد الذين نادوا بهذا الاتجاه على اختلافهم (سواء من الباحثين الغربيين أو العرب)، وأرسوا دعائم المقاربة التداولية للأدب، كونها ضرورة ملحة تجعل من الخطاب الأدبي خطابا يولي عناية فائقة بمجموعة من الأمور أبرزها السياق، التواصل، المقاصد والحوار بمعنى أن الخطاب الأدبي هو خطاب تواصل ذي سياق، هو خطاب حوارى وهو أيضا خطاب ذو مقاصد نبدأ بالخاصية الأولى وهي أن الخطاب الأدبي خطاب تواصل ذي سياق.

1. 3/ الخطاب الأدبي خطاب تواصل ذي سياق:

يختلف مفهوم التداولية باختلاف وجهة نظر باحثيها، ولذا قد يقتصر الباحث على دراسة المعنى التواصلى أو بالأحرى التبليغي أي الطريقة التي يستعملها المرسل لإفهام المرسل إليه، أو دراسة المقاصد والمرجعيات أو اهتمام الباحث بالمعايير والمبادئ التي توجه المرسل في إنتاج خطابه ومن هذا التفاوت تظهر التداولية بمفهومها العام كونها: " دراسة الاتصال اللّغوي في السياق"². وبالنسبة لنا نجده المفهوم

¹- أنظر، عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب- مقارنة لغوية تداولية-، دار الكتاب الجديدة المتحدة، لبنان، ط1، 2004، ص24.

²- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب- مقارنة لغوية تداولية-، المرجع نفسه، ص22.

الأقرب حيث يدرس أثر الخطاب من خلال مرجعيته ومعناه وصولاً إلى القصد الذي يريده المتكلم.

حيث يرى "سبرير وولسون" Sperber et Wilson أن السياق **Contexte** هو شعبة الافتراضات المستمع بشأن العالم، وهذه الافتراضات هي التي تؤثر في تفسيرنا للقولة... ولا يقتصر (السياق) على المعلومات الخاصة بالبيئة المادية المباشرة أو القولات التي سبقت... فالتوقعات بشأن المستقبل والفرضيات العلمية أو المعتقدات الدينية والحكايات المخزونة في الذاكرة والافتراضات الثقافية العارمة، والمعتقدات بشأن حالة المتكلم العقلية كلها يمكن أن تؤدي دوراً في التفسير¹.

وهنا تبرز الأهمية التي يضطلع بها السياق، فالسياق بهذا يتمثل في مجموعة الأمور الخارجة عن العملية التواصلية أو بالأحرى تشمل مقام التلفظ، الزمان والمكان للتلفظ، الحالة التي كان عليها المتحدثين أثناء إلقاء خطابهم، وغير ذلك من "المكونات الخارجية الكفيلة بأن تنقل المتخاطبين من التعامل مع المستوى اللغوي إلى التأويل التداولي"².

وتأويل هذه الأقوال عند "سبرير وولسون" انطلاقاً من هذا التعريف للسياق "يتم من خلال عمليات استدلالية لها مقدمات هي الصيغة المنطقية للقول إضافة إلى معلومات أخرى... ويتكوّن السياق في الآن نفسه من المعارف الموسوعية التي نتوصل إليها من خلال مفاهيم الصيغة المنطقية ومن المعطيات التي يمكن إدراجها مباشرة والمستقاة من المقام أو المحيط المادي، ومن المعطيات المستقاة من تأويل الأقوال

¹ - دان سبرير وديديري وولسون، نظرية الصلة أو المناسبة في التواصل والإدراك، ترجمة: هشام عبد الله الخليفة،

مراجعة: فراس عواد معروف، دار الكتاب الجديدة، ليبيا، ط1، ص42.

² - آن ربول وجاك موشلار، التداولية اليوم علم جديد في التواصل، ترجمة: سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني،

مراجعة: لطيف زيتوني، دار الطليعة للطباعة والنشر، لبنان، ط2، 2003، ص53.

السابقة وسمي "سبرير وولسون" مجموع مصادر هذه المعلومات بالمحيط المعرفي للفرد¹.

إن المقصود بالمعلومات الأخرى هو السياق، وهذا الأخير يتمثل في المعلومات المعرفية، التي توصل إليها عبر فهمه لمقاصد الباث، أو سيتوصل إلى تأويلها لاحقا، فالسياق بهذا يشكل محيطا معرفيا للفرد يعينه على فهم نوايا القول وخباياه. فالسياق يساوي "فرضيات الأقوال السابقة الضمنية أو الصريحة + المداخل الموسوعية"². فالفهم لا يتأتى من الفرضيات باختلافها فقط، وإنما يستدعي مدخلا موسوعيا لتحقيقه.

وهو ما دعا إليه كلا من "سبرير وولسون" كما رأينا سابقا في كتابهما نظرية "الصلة والمناسبة" حيث يريان بإضافة نظرية أخرى يدعيان فيها أن "السياق الخاص بالاستيعاب لا يقتصر على الافتراضات المعبر عنها أو الملوح بها في القولات السابقة، وإنما يتعداها أيضا إلى الأبواب الموسوعية"³، المتعلقة بالمفاهيم المستعملة في الافتراضات السابقة الذكر.

أما "محمد خطابي" في كتابه "لسانيات النص" يتحدث عن السياق وخصائصه قائلا أنه عند تأويل نص ما لابد من "أن تعرف (على الأقل) من هو المتكلم ومن هو المستمع، وزمان ومكان إنتاج الخطاب"⁴. هنا تظهر الأهمية الكبيرة التي يضطلع بها السياق في فهم النصوص وتأويلها وتأويلا مقبولا في نسقه العام، عبر البحث في

¹ - Ducrot, O, Dire et ne pas dire.principe de sémantique linguistique, éd Herman, Paris, 1972, 113-114.

بالعودة للمرجع الأصلي نقلا عن ترجمة سعيد جبار في كتابه التخيل وبناء الأنساق الدلالية نحو مقارب تداولية، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2013، ص35.

² - مفتاح بن عروس، الاتساق والانسجام في القرآن، رسالة دكتوراه دولة، جامعة الجزائر، 2007-2008، ص182.

³ -دان سبيرير وديري ولسون، نظرية الصلة أو المناسبة في التواصل والإدراك، ص237.

⁴ -محمد خطابي، لسانيات النص(مدخل إلى انسجام الخطاب)المركز الثقافي العربي، ط1، 1991، ص 297.

مجموعة من العناصر أهمّها: الباث، المتلقّي، الزمان والمكان وغيرها من العناصر السياقية التي تساعد على استقراء النصوص وكشف مقاصدها.

بعدها يتساءل "خطابي" عن إمكانية الحديث عن سياق نص شعري؟ مقترحا إجابة لهذه الإشكالية تتعلق بـ "التمييز بين السياق المعطى والسياق المستنبط (أو السياق الداخلي: العالم الذي يخلقه الشاعر داخل القصيدة)" حيث يكون الشاعر بهذا مرتبطا بالسياق الذي عليه خلقه داخل نصه الشعري... فهذا الأخير إذن "ليس لعب ألفاظ، وليس نقل تجربة ذاتية وحسب وإنما يهدف فوق ذلك كلّه، إلى الحثّ والتحريض، وبهذا المفهوم الأخير تشمله نظرية "الكلام فعل"، أو التداولية، وتعني هذه النظرية: أنّ التحدث يقصد به تبادل الأخبار، وفي الوقت نفسه يهدف إلى تغيير وضع المتلقّي وتغيير نظام معتقداته أو تغيير موقفه السلوكي"¹.

وعن تعدّد السياقات المولدة للنصوص انطلاقا من اختلاف التأويلات من قارئ لآخر يرى "فرناند هالين" Fernand Hallin "المعروف بإسهاماته الظاهرة في التنظير للأدب والأشكال الأدبية فضلا عن بحوثه المتعلقة بطبيعة وآليات حضور المجتمع في النص الأدبي أنّ الملفوظية* الأدبية أو الخطاب الأدبي الذي يشبه بطائر الفينيق، خطاب مبني على البعث من جديد في كلّ مرة استنطقه قارئ معين باختلاف السياقات الوارد فيها، ممّا يجعل تأويل الخطاب الأدبي تأويلا متجددا ومنفتحا على مختلف الآراء في نفس الوقت.

¹ -محمد مفتاح، في سيمياء الشعر القديم، دراسة نظرية وتطبيقية، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، ط1، 1989، ص55..ملاحظة (هذا أيضا ما يقوله سيرير وولسون في نظرية الصلة).

*الملفوظية: يقصد بها المنتج اللغوي بوصفه فعلا مجددا يتم خلاله تحقق الجمل المنوطة بمتكلم معين، ضمن ظروف زمانية ومكانية بعينها.

وفي حديثه عن الدراسات التداولية يرى بأنها دراسات حديثة، في أوج تطورها وانتشارها، بحيث أنه من المبكر جدًا تقديم حصيلة حقيقية لها¹. أي أن التداولية من الدراسات الحديثة التي تشهد تطورًا واسعًا، يسعى نقادها إلى جعلها منهجًا متكاملًا عبر توسيع آليات البحث في ركانزه، وجعلها مواكبة للحركة النقدية المعاصرة، وفعالة في قراءة الخطابات التخيلية وتأويلها.

"إن فكرة" كل ملفوظ موسوم إنجازيا" تقضي "إلى فكرة القراءة التداولية، فمع ضمنية الخطاب يكون الملفوظ موسوماً "إنجازيا" بصفة دائمة... فعندما نكون أمام مواقف حيث نجر على قول أشياء قبيحة، صعبة القول، فكأننا نلبس قفازات لحماية أنفسنا ويمكن في الوقت ذاته تجاهل القول المضمّر بقول: "أنا لم أقل ذلك أبداً"، ونجعل المخاطب يتحمل مسؤوليته"².

فالفاعل الإنجازي حسب "هالين" ينبغي أن يثير الاهتمام بوصفه موضوعاً مطروقا وليس غاية للاتصال، إنه يقدم بوصفه موضوعاً جديراً بالقراءة خارج السياق الذي أنتج فيه، وضمن عدد غير محدد من سياقات التلقي"³.

بمعنى أن العمل الفني - النص الأدبي - ينبغي النظر إليه على أنه خطاب تخيلي صالح لكل زمان ومكان، وعدم تقييده بأزمة محددة ... ليصبح مفتوحاً على عدة تأويلات، قراءات تختلف باختلاف أزمته وأمكنة التلقي، مما يعني أن "الملفوظ

¹ -أنظر، فرناند هالين، مقال التداولية، ص74 الى ص76.

² -ذهبية حمو الحاج، التداولية وإستراتيجية التواصل، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2015، ص192.

³ - فرناند هالين، مقال التداولية، ص78.

الأدبي* شيء مغلق: غير مصمم ليخترق باتجاه إدراك مقصد ما، قد يعبر عن نفسه من خلال علامات (لغوية أو ما سواها) معادلة له، بهذا المقدرا أو ذاك¹.

يقترح "محمد خطابي" في حديثه عن انغلاق النص الأدبي مجموعة من الحلول للتمييز بين الخطاب الأدبي والخطاب غير الأدبي، لكنّه يراها حلولا باهتة جعلته يقف أمام حلّين "إما أن نعتبر النص الشعري مغلقا على نفسه، لا يحدث إلّا نفسه... وإما أنّ النص الشعري فعل تواصل، وفي هذه الحالة لابدّ له من سياق"².

بالنسبة لنا نرجح الرأي الثاني القائل بأن النص الشعري هو نص تواصل بالضرورة لابد له من سياق، حيث أنّه لا يمكن بأية حال من الأحوال دراسة خطاب أدبي ما بنوعيه (شعري أو سردي) دون الوقوف على سياق كتابته، وما يطمح الشاعر أو الروائي إلى تصويره أو تبليغه عبر النص، انطلاقا من تأويل العلاقات الداخلية التي تحكمه وتضبطه.

يرى هنا كلاً من "سبرير وولسون" أن تفسير أو تأويل القولة يتطلب معالجة الافتراضات المذكورة إلى جانب الافتراضات التي سبقت معالجتها أو "بتعبير آخر، يتطلّب النظر إلى التأثيرات السياقية لهذا الافتراض في سياق تحدّد في الأقل جزئياً عمليات فهم سابقة له"³.

فالنص الأدبي بهذا هو نص لا يعبر عن نفسه بسهولة العبارة والتصوير أو التمثيل، ولا يتأتى لأي شخص تأويله والوصول إلى أعماقه، إنّما يستدعي قارئاً نوعياً يسعى إلى تأويله والوصول إلى دلالاته، والكشف عن حثيثاته عبر القراءات المتعددة

*الملفوظية الأدبية: "لا تستهدف (إحداث) تغيير مباشر في العلاقات الاجتماعية أو غيرها، تلك التي تصل بين المرسل والمتلقين، فإن ما ينتج عن (فعل القول) يكرّس نفسه - بوصفه موضوعاً، أنموذجاً علينا فحصه، علينا تقيّمه". أنظر، فرناند هالين، مقال التداولية، ص 80.

¹ - المرجع نفسه، ص 80.

² - محمد خطابي، لسانيات النص، ص 309.

³ - دان سبرير وديديري ولسون، نظرية الصلّة أو المناسبة في التواصل والإدراك، ص 118.

له باعتباره نصا مغلقا غير قابل للاختراق. وهذا الذي يسميه بـ "فعل التأثير بالقول"، حيث أن أي نص أدبي ما "لا يهدف إلى إثارة إجابة مباشرة، خلال تسلسل الأحداث بل إلى إثارة إجابة (بالقبول، أو بالرفض، بالتحليل أو بالانفعال... الخ)، إزاء نموذج فعل أو أفعال اللّغة التي يقترحها"¹. هذه الإثارة تستدعي بين ثلاثة أنواع لأفعال التشكيل الأدبي*، حيث لا يمكن أن ننكر تأثير الأمور خارج نصيّة "الذي يمكن أن يمارسه في القارئ الذي تصدّه النصوص باحثا عن بصيص ضوء ينير له سراديبها ومتاهاتها"².

وهو الأمر نفسه الذي يلحّ عليه "محمد خطابي" في كتابه قائلًا: "إن السيّاق بالنسبة للنص الأدبي جهاز من المعلومات الخارج نصية المعقودة في النص كتقليد أدبي، أو كإقتضاء سيّاق"³.

وهذا الاقتضاء متوقف على القارئ النموذجي أو النوعي عند قراءته لنص من النصوص، فيستحضر بوعي أو من دون وعي النصوص المشابهة لنصه ويغفل النصوص المخالفة، محاولة لفهم النص وتأويله، وقد يدفعه ذلك إلى الاستعانة بمجموعة من الأمور* التي حتى وإن لم تختزنها ذاكرته، فإنّه يلجأ إلى ما كتب حول ذلك النص أو تعاريف الشاعر أو الروائي وغيرها من العناصر* خارج نصيّة التي

¹-فرناند هالين، مقال التداولية، ص78.

* وهذه الإثارة تستدعي التمييز بين ثلاثة أنواع لأفعال التشكيل الأدبي هي: 1/ يمكن لعملية التشكيل الأدبي أن تجعل نماذج الواقع المقبول إشكالية (إذ يبتكر الأدب، نماذج بديلة للعالم: نماذج خيالية، عجائبية... الخ) 2/ يمكن للتشكيل الأدبي أن يتلاعب بأداة الاتصال اللّغة، بقواعد تركيبها، بالشروط التداولية لاستخدامها. 3/ أخيرا يمكن للتشكيل الأدبي أن يتصرف بالمضطلعين بالاتصال، أو يتصرف بقيمهم ومعاييرهم، أو بكيونونتهم ذاتها (...). وكذلك بعلاقاتهم الذاتية المتبادلة". أنظر، فرناند هالين، مقال التداولية، من 78 إلى 79.

²- محمد خطابي، لسانيات النص، ص 310.

³- المرجع نفسه، ص 309.

* المقصود هنا بالأمور والعناصر هي المعرفة الموسوعية التي على المحلّ أن يمتلك ولو جزءا بسيطا منها ليستطيع قراءة النص وتأويله تأويلا حتى وإن لم يكن صحيحا لكنه يتبدى منطقيا ومقبولا في نسقه العام. للتوسع في الموضوع، انظر، حياة مختار أم السعد، تداولية الخطاب الروائي - من انسجام الملفوظ إلى انسجام التلفظ، دار كنوز المعرفة، عمان، ط1، 2015.

توجه القارئ في بناء سياق نصه حيث: "إنّ البحث في سياق النص الأدبي ينبغي أن يعتمد فيه على النص نفسه إذ أن هذا الأخير يبني هذا السياق طوعا أو كرها من أجل أن يحيا كنص ... وإن المعلومات الموسوعية المرتبطة بالتقاليد الأدبية، وبمنتج النص غالبا ما توجه القارئ في بناء سياق النص"¹.

تتضح بهذا أهمية السياق كونه فاعلا أساسيا به يحيا النص ويتحقق، وبه يتمكن القارئ من الوصول إلى السياق الأساسي، أو بالأحرى الأولي الذي ولد فيه النص، أو الدافع وراء إنشاء هذا النص إن أمكن، حيث جاءت التداولية كمنهج لتخالف ما أرسته البنيوية من دعائم (دراسة اللغة في ذاتها ولذاتها)، بإيعاز عناية فائقة للسياق كون كل نص هو نص في سياق ما، وهذا الأخير على علاقة مع الحوار كون كل سياق يشمل كلام الآخرين مرتبط بخلفية حوارية تكتسي أهمية كبيرة حيث "أن كلام الآخرين، مفهوما في سياق ما... فالسياق الذي يشمل كلام الآخر، يوجد خلفية حوارية يمكن لتأثيرها أن يكون على درجة كبيرة من الأهمية، وبالأجود إلى طرائق تضمين ملائمة"². لهذا " فإننا عندما ندرس مختلف أشكال نقل خطاب الآخرين، لا نستطيع فصل طريقة بناء هذا الخطاب عن طريقة تأطيره السياقي (الحواري): فالطريقتان مرتبطتان ارتباطا وثيقا"³. وهذا الارتباط جعل منظري التداولية الأدبية يرون أن كلّ خطاب أدبي هو خطاب حوارى كما سنوضح فيما يلي.

¹ - محمد خطابي، لسانيات النص، ص 325 و 326.

² - ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، ترجمة: محمد برادة، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1987، ص 107.

³ - ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، ص 107.

1. 4/ الخطاب الأدبي خطاب حوارى:

إنّه لمن الضروريّ "بمكان في كلّ بحث تداولي الاحتفال بالحوار بوصفه بنية كبرى **macro-structure** والفعل اللّغوي بوصفه بنية صغرى **micro structure**"¹. فالحوار يكتسّي أهمية في الخطاب لأنّ هذا الأخير "يفهم موضوعه بفضل الحوار"²، وهذا الحوار يتجلّى في مجموعة من الأمور أبرزها: "وراء صورة الحوار العلائقية **interindividuels** التي تتدرج تحتها نقاطا لغوية صرف كأفعال الخطاب والاستراتيجيات المسخّرة بهدف إنجاح التبليغ والحديث ***énonciation**"³. ونظرا للأهمية التي يكتسبها الحوار بالنسبة للنص الأدبي لابد من الحديث عن رائد الحوارية، وتنظيراته لجنس الرواية كما يوضح في العنوان التالي.

1. 4.1/ التحليل التداولي للرواية من منظور باختين:

ولا يخفى علينا كدارسينّ للأدب أن "مikhail باختين" حسب ما قاله "تودوروف" **Todorov** (في المبدأ الحوارى) هو أكبر المفكرين* السوفيات في مجال العلوم

¹ -الجيلالي دلاش، مدخل إلى اللسانيات التداولية لطلبة معاهد اللغة العربية وآدابها، ترجمة: محمد يحياتن، جامعة تيزي وزو، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، دت، دط، ص 38.

² - ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، ص 54.

* هناك من يترجم هذا المصطلح باللفظ.

³ -أنظر، الجيلالي دلاش، مدخل إلى اللسانيات التداولية لطلبة معاهد اللغة العربية وآدابها، ص 38 و 39.

* مفكر لأنه يطرح الأسئلة كما قال أحد أشهر مترجميه: G.Veret، ما يميز فكر باختين هو أنّه يطرح قبل كل شيء أسئلة وبهذا المعنى حسب S.Averinstsev ((فهو مفكر أكثر منه عالم يبحث عن إجابات)).

Catherine Depretto et les autres, L'heritage de Mikhail Bakhtine. Edition presses universitaires de Bordeaux 1997. P11.

أنظر، حياة أم السعد، تداولية الخطاب الروائي، نقلا عن ترجمتها، ص 122.

-تركة ميخائيل باختين" وهو كتاب خصص له مجموعة من المهتمين بتنظيراته، بمناسبة مرور سنة عن ولادته، وعشرين سنة من وفاته، قدموا دراسات جادة عرضوا فيها أهم الخلفيات المعرفية التي اتكأ عليها... لبناء مفاهيمه، اللافت في هذا الانجاز أن كاتبة المقدمة "كاترين دبرتو" Catherine Depretto، الواردة في عنوان: "ميخائيل باختين اليوم"، عرجت على جملة من الأعمال التي تناولته انطلاقا من فرنسا، مع ما كتبه كريستيفا وتودوروف، إلى روسيا التي ساهمت في إجلال معالم هذا الرجل، غير أنّها تحدثت عن صعوب حصر كل الدراسات التي

الإنسانية، وأكبر منظري الأدب في القرن العشرين... كما أن "باختين" حسبه هو منظر النص *théoricien du texte* ولا يقصد هنا النص الأدبي فقط، بل مختلف النصوص¹.

وعناية "باختين" حسبه بالنصوص على اختلافاتها تجعله أول منظر للرواية، بالنسبة للرواية العربية ونقدها، حيث شكّلت تنظيراته أهمية في اتجاه تطورها وتجديدها "أما عن سبب اهتمامه بالجنس الروائي، فيعود ذلك، إلى أن الرواية هي الشخصية الأساسية في التطور الأدبي"، فهي التي تترجم بطريقة أفضل تطورات العالم الحديث². أما "محمد برادة" فيقول في مقدمة ترجمته لكتاب "الخطاب الروائي لمؤلفه "باختين" أن "الرواية جسم مركب من اللغات والملفوظات والعلامات، والروائي هو منظم علائق حوارية، متبادلة بين اللغات والأجناس التعبيرية، بين لغة الماضي ولغة الحاضر والمستقبل"³.

نخلص إلى نقطة مفادها أن الرواية بالنسبة لـ "باختين" لصيقة بالتطور الأدبي ومواكبة للتطورات الحاصلة في العالم، ووصفه لها بالجسم المركب نظرا لتفاعل اللغات داخل هذا الكيان، ويعني ذلك أن الرواية غير محصورة في لغة واحدة، إنما تتحاور

تأملت باختين. أنظر، حياة أم السعد، حضور بعض مقولات لسانيات النص في المسند الباختي، جامعة الجزائر 2، الجزائر، مجلة الأثر، العدد 13، مارس 2012، ص 147.

¹ - حياة مختار أم السعد ، تداولية الخطاب الروائي، ص 123.

* انطلاقا من تنظيرات باختين نرى مع حياة أم السعد أن الرواية ليست جنسا لقيطا، جاء من العدم، كل كتابات باختين تؤكد هذه النقطة، بل وتعتبر على أساسها أن الرواية جنس تطوري، لم تولد حقة بعينها إنما عرف تطورات أسهمت في بناء شكله كما هو عليه الآن، ليس شكله النهائي طبعاً، لأن الرواية جنس مفتوح لم يكتمل بعد ولن يكتمل. أنظر: حياة مختار أم السعد، تداولية الخطاب الروائي، ص 124. وأنظر كذلك الفصل الثاني من هذه الدراسة. الجزء المتعلق بنشأة الرواية.

² Mikhail Bakhtine: De la préhistoire du discours romanesque: in Esthétique et théorie du roman: P444.

بالعودة إلى المرجع الأصلي نقلا عن ترجمة حياة مختار أم السعد في كتابها تداولية الخطاب الروائي، ص 124.

³ -ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، ص 22.

مجموعة من اللغات داخلها وتتعلق في ملفوظات وعلامات (هي أيضا لغات)، ينظمها الروائي مجاريا تطورها المستمر عبر الأزمنة.

تجاوز "باختين" في تنظيراته للرواية حدود الجملة في الدرس اللساني، وهو ما سمّاه بالدراسات عبر اللسانية* حيث يقول: " أن اللسانيات لم تستطع لحد الآن الاهتمام بالزمر اللفظية الكبيرة: الملفوظات الطويلة التي نستعملها، الحياة اليومية: الحوارات، والخطابات، والروايات...، فلحدّ الساعة لم تتقدم اللسانيات عليها خارج حدود الجملة المعقدة"¹. إنّ الدرس اللساني المتمركز في دراسة الجملة والأبنية المشكلة لها (صوتية، صرفية، نحوية) تبعا للتنظير السوسيري كان محل نقد وبحث في التنظير الباختيني فتح له آفاق بحث جديد سماه بالدراسة عبر اللسانية يعنى بما وراء الجملة. كما كان له أثر كبير في إثراء مفاهيم التداولية وتحليل الخطاب" من خلال بعض المفاهيم التواصلية كتناقل النصوص (Transtextualite) والحوارية (Dialogisme) وتعدّد الأصوات (Polyphonie)، وأيضا مفهوم أجناس الخطاب (Genres du discours)². حيث يرى أن "الخطاب الروائي لا يمكن إلا أن يكون حواريا ومتعدّدا لغويا، لأنّه لا يمكنه أن يتخلّى عن التعدّد اللغوي المحيط به"³. فالخطاب الروائي عنده هو حوارى بالضرورة ومتعدّد لغويا.

*نجدها مترجمة بـ"ماوراء اللسانية" عند زياد العوفي ونراه المصطلح الأقرب مضمونا، أنظر: زياد العوفي، الأثر الأيديولوجي في النص الروائي، ثلاثية نجيب محفوظ نموذجا، مؤسسة الثوري للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط1، 1993، ص150.

¹ - Jean Michel Adam ;Eléments de La Linguistique textuelle ;Théorie et pratique de l'analyse textuelle ;Deuxième édition Margage .1990.P07.

نقلا عن حياة أم السعد، مقال حضور مقولات لسانيات النص في المسند النظري الباختيني، ص146.

² - محمود طلحة، تداولية الخطاب السردى، دراسة تحليلية في وحي القلم للرافعي، تقديم: مسعود صحراوي، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2012، ص21.

³ -حياة مختار أم السعد، تداولية الخطاب الروائي، ص160.

على هذا الأساس سنقدم لتتظير "باختين" الروائي بالتركيز على ثلاثة دعائم تطرق إليها بالدراسة والتمحيص وهي: الحوارية والتعدد الصوتي والايديولوجيا كونها تشكل ركائز يبنى عليها الكيان الروائي في لمحة بسيطة وفقا لما يخدم بحثنا في الجزء التطبيقي وان استدعى منا التطبيق التفصيل في مفاهيم أخرى(كالباروديا والأجناس المتخللة... وغيرها) كما سيوضحه الفصل الثالث.

1. 4. 2/ ميخائيل باختين ومفهوم الحوارية:

يعرّف باختين الحوارية بقوله أن : "كلّ تواصل، كلّ تبادل لفظي، إلّا ويتحقق في شكل تبادل ملفوظات، أي في بعد حوارى"¹. بمعنى أن الخطابات المنتجة من قبل المتكلم الواعي بشروط وظروف الإنتاج تستدعي مستمعا يعي هذه الأمور ويتفاعل معها لغويا أو علاماتيا.

أما الحوارية عند "فرانسواز أرمينكو" فتعدّ "مكونا لكلّ كلام، وتعرف كتوزيع لكلّ خطاب إلى لحظتين تلفظيتين توجدان، في علاقة حالية، ويقدم المبدأ الحوارى من خلال الحدود التالية: "كلّ تلفظ يوضع في مجتمع معنى، لا بدّ أن ينتج بطريقة ثنائية، تتوزع بين المتلفظين الذين يتمرسون على ثنائية الاصااتة وثنائية الغرض". ويتمّ التشكل بشكل راديكالي حيث... إنّ لفكرة الكلام الحوارى، ولكلّ كلام مالكين تقريبيين، وربما كان من المضبوط القول: بأنّ سيدة الكلام الحوارى هي العلاقة التخاطبية ذاتها"².

بيّن من المقولتين أن الحوارية بالنسبة لـ باختين أعمّ وأشمل عن الحوارية عند "أرمينكو" حيث يرى باختين أن الحوار هو ظاهرة شاملة تتخلل جميع حديث البشر حتى أثناء تفكيرهم، فهي تتعلق بكل ماله فكرة ومعنى ومتعلقة أيضا بالبعد الاجتماعى.

¹- Bakhtine/Voloshinoov : la structure de l'énoncé : in le principe dialogique todorov ;P292. نقلا عن حياة أم السعد، مقال-من الحوارية إلى المتعاليات النصية-جيناالوجيا مفهوم التناص في الدراسات الغربية،

مجلة مقاليد، جامعة قاصدي مرباح ورقلة، العدد05 ، 2013 ، ص125.

²-فرانسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، ص44.

أما الحوارية عند "أرمينكو" فتحصره في العلاقة التخاطبية أي لا بدّ له من مرسل ومتلقي، في حين يرى باختين أنّ كلّ واحد منا يستطيع أن يتحاور مع نفسه وهو ما يصطلح عليه بالحوار الداخلي أو الذاتي أو بالأحرى المونولوج.

يفضي ذلك إلى القول أنّ "باختين" كان سباقا إلى الانزياح في المقاربة السردية عن اللسانيات إلى التداولية، وأكدّ دور ما أسماه الدراسة عبر اللساني في مقارنة مستويات أخرى من النص، غير أن طموح باختين لم يتحقق مع ما قدّمه من دراسات، بل وجد ضالته لدى جيل لاحق ألحّ بعمق على التداولية، وعمل على ترسيخ نظريتها وتطوير آلياتها في مقارنة الخطاب اليومي كما الخطاب الأدبي¹.

ومن ذلك أيضا إضفاء التوجه الاجتماعي على البعد الحوارية حيث أن جميع الخطابات المنتجة على اختلافها تحتكم لأطر اجتماعية تفعلها، حيث يصرّ على الطابع الاجتماعي لجميع الملفوظات "لهذا كان التوجه الحوارية سمّة تطبع الملفوظ، فكلّ خطاب حسب باختين موجه نحو أحد قادر على فهمه، وتقديم إجابة حقيقة أو افتراضية، وهذا التوجه نحو الآخر يقود حتما إلى الأخذ بعين الاعتبار العلاقة الاجتماعية والهرمية الموجودة بين المتكلمين. كلّ هذا يؤثر على شكل النص إضافة طبعا للوضعية المتلفظ فيها، والسيّاق الاجتماعي للنص"².

بناء عليه تتجاوز رؤية باختين الدرس اللساني فيما سمّاه بالدراسات عبر اللسانية، فانقل من مبدأ دراسة الكلمة في ذاتها ولذاتها، أو الجملة إلى البحث في النصوص والأبعاد والسياقات الاجتماعية الناجمة عن ايديولوجيات معينة مبنوثة داخلها. وهذا في صميم الدرس التداولي مؤكدا على الطابع الحوارية للرواية، وما يكتنفها من تعدّد صوتي ايديولوجي اجتماعي كما سنوضحه في الجزء الموالي.

¹ - سعيد جبار، التخيل وبناء الأنساق الدلالية نحو مقارنة تداولية، ص22.

² - حياة أم السعد، مقال-من الحوارية إلى المتعاليات النصية-جينالوجيا مفهوم التناص في الدراسات الغربية، ص125.

1. 4. 3/التعدد اللغوي* في التنظير الباختيني:

نظرَ باختين في فصل كتابه "علم الجمال ونظرية الرواية"، المعنون بـ "أسلوبية الرواية" لمفاهيم لعلم لم يسمّيه ولأطر تداولية بامتياز*، معرّفا الرواية المتعددة الأصوات بأنها " ذات طابع حوارى على نطاق واسع، وبين جميع عناصر البنية الروائية، توجد دائما علاقات حوارية، أي أن هذه العناصر جرى وضع بعضها في مواجهة البعض الآخر مثلما يحدث عند المزج بين مختلف الألحان في عمل موسيقي"¹. يعني أن الحوارية أعم وأشمل من التعدد الصوتي الذي يعدّ خاصيّة نجدها داخل الرواية ذات الطابع الحوارى بامتياز.

*ينطلق باختين من نقطة أساسية مهمة مفادها أن فهم أسلوب الرواية يحتم ضرورة النظر إليها ككل، وهذا ما سمح باعتبارها ظاهرة متعددة أسلوبيًا ; pluristylistique ومتعددة لغويًا plurilangal ومتعددة صوتيًا plurivocal، حتى أن المحلل يجد فيها بعض الوحدات الأسلوبية المتنافرة، وهذا نابع من وجود العديد من العناصر المختلفة المكونة لها، مثل: السرد المباشر، أسلوب مختلف أشكال السرد المكتوب: مثل الرسائل والمذكرات... كما نعثر على مختلف الأشكال الأدبية، إضافة إلى خطاب المؤلف، وخطاب الشخصيات... وكلّ هذه العناصر تتوحد في الرواية لتشكّل نظاماً أدبياً متناغماً، يشكّل الوحدة الكلية الأسلوبية العليا للمجموع/هذا القول يتماشى مع ما تحدث عنه آدم في كتبه النصوص نماذج ونماذج أصلية، من أن النص بنية متنافرة، فنجد السرد ثم الوصف، ثم الحوار... أنظر، حياة أم السعد، تداولية الخطاب الروائي، ص 144.

باختين في كتابه "esthétique du roman" تحدث عن le discours romanesque وقال أن الخطاب الروائي يمتلك خصوصية تتبع من أسلوبه الخاص "وهو تعدد في الأساليب وتعدد في اللغات" ومن بين أشكال التعدد اللغوي في الرواية نجد "الأسلبة، التهجين، التعدد الصوتي... وغيرها"، وجميعها تحقق الحوارية، أما بالنسبة للتعدد الصوتي فغالبا ما يترجمه النقاد على أساس أنه هو التعدد اللغوي نفسه في حين هو جزء منه، وهناك من يربطه بوجهة النظر. ومرد ذلك لمشاكل الترجمة.

*ملاحظة: استنتاج من خلال ندوات ومقالات الأستاذة الدكتورة حياة أم السعد حيث تصرّح دائما بقولها "أن باختين تداولي بامتياز".

¹ -ميخائيل باختين، شعرية دوستوفسكي، ترجمة: جميل نصيف التكريتي، مراجعة: حياة شرارة، دار توبقال للنشر، المغرب، ط 1، 1986، ص 59.

التعدّد اللغوي في الرواية مهما اختلفت أشكال تواجده هو "خطاب الآخر في لغة الآخر، يعين على تفسير التعبير عن مقاصد الكاتب، هذا الخطاب يقدّم التفرد في أن يكون ثنائي الصوت، إنه يخدم المتكلمين ويعبر عن نواياهم المختلفة"¹. وهذا التعدّد اللغوي المتواجد في الرواية يفصح عن "الموقف الاجتماعي المغيّر للمؤلف في داخل التعدّد اللغوي لعصره"². ما يعني أننا أثناء تأويلنا للنص الروائي ننطلق من السياق الاجتماعي للتعدّد اللغوي المتواجد في النص الروائي، مع الأخذ بعين الاعتبار السياق الداخلي لهذا التعدّد. للكشف عن المقاصد المبنوثة في الرواية وليكتسي هذا الجسم المركّب المنفتح على هذا التعدّد (ملفوظات، لغات، علامات، التي تنتظم وفق علائق حوارية) فرادته التكوينية.

وباعتباره منظرا بارزا لجنس الرواية، يرى بأن اللغة المكونة للخطاب الروائي "ليست اللغة النسق ذات البنية الثابتة، وإنما اللغة - الملفوظ-الكلمة- الخطاب- المحمّلة بالقصدية، والوعي والسائرة من المطلقية إلى النسبية، والتي تبتعد عن دلالة المعجم لتحضن معاني المتكلمين داخل الرواية، فتكشف لنا أنماط العلائق القائمة بين الشخص وعن القصدية الكامنة وراء كلامهم وأفعالهم... فالروائي إذا لم يسمع إلى الثنائية الصوتية العفوية، وإلى الحوار الداخلي للكلمة الحية المتحولة، فإنه لن يفهم ولن يحقق أبدا، الإمكانيات والمعضلات الحقيقية للرواية"³.

فاللغة بالنسبة باختين هي ليست اللغة العادية البسيطة أو المعجمية إنما هي لغة تتزاح عن دلالة المعجم، وتحثفي بدلالات أخرى غامضة تكشف عبر ضمنيّاتها

¹-ويقولها في المرجع الفرنسي "Le Plurilinguisme introduit dans le roman.C'est le discours d'autrui "dans le langage d'autrui.Servant à réfracter des intention de l'auteur أنظر، حياة أم السعد، تداولية الخطاب الروائي، ص149.

²- Mikhail Bakhtine : du discours romanesque : in Esthétique et théorie du roman ;Traduit de russe par Daria Olivier ;Edition Gallimard ;1978 ; P103

نقلا عن ترجمة المرجع نفسه، ص147.

³- ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، ص16.

العلائق التي تربط بين الشخص والافعال ... داخل النصوص الروائية، وهنا تبرز أهمية اللغة بالنسبة له حيث أن الروائي الذي لم يرتق بلغته، ولم يستمع إلى حوارات شخصه مع ذواتها فهو غير قادر على فهم الرواية، وتحقيق مطامحها.

وفي فصل كتابه "الخطاب الروائي" الموسوم "التعدد اللغوي في الرواية" وأثناء تحليله واكتشاف الصور التي يتجلى بها الآخر في النص الروائي، تحدث عن مجموعة من العناصر أهمها: " اللعب الهزلي، الخطاب الذي يأتي على لسان الكاتب المفترض (لا على لسان السارد الحقيقي)، أقوال الشخصيات وما تخلقه من مناطق المحكي المباشر، والأجناس المتخللة المدرجة في نص الرواية (شعر، أمثال، رسائل، حكم، ...)¹. هذه الأشكال المتنوعة للملفوظات أو بالأحرى هذا التعدد اللغوي يجعل من الرواية خطابا ثنائي الصوت الذي "هو دائما ذو صيغة حوار داخلي"².

فباختين يركز على خاصيتين مميزتين لنسيج الخطاب الروائي هما: " الملفوظات والتناص * فقد أفاض في توضيح ما يقصد بالملفوظ بوصفه موضوعا لعلم لساني جديد يسميه أحد الباحثين عبر-اللساني La Transe Linguistique، أو ما أصبح يعرف اليوم بالتداولية La pragmatique، ويربطه في معناه بالخطاب وبالكلمة، وكلها عناصر مشتملة على علائق حوارية تلتقي مع مفهوم التناص في معناه العام"³. نختم

¹ - ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، ص 17.

² - المرجع نفسه، ص 17.

* باختين تحدث في مؤلفاته عن الحوارية والبوليفونية التي خصص لها كتاب "شعرية دوستوفسكي" أما مصطلح التناص فهو من وضع جوليا كريستيفا. حيث "استلهمت كريستيفا" من باختين مفهومه للحوارية، لترى أن التحليل النصي لا يتم إلا في ضوء تناصه، فالنص يعيد توزيع اللغة، بل هو حقل إعادة التوزيع، يرمي التحليل التناصي الذي تقترحه كريستيفا البحث في الوظيفة التي تربط بنية نصية أدبية ببنى أخرى وهو ما تسميه الايديولوجيم، وبما أن النص عندها هو تقاطع ملفوظات عديدة يلتقي فيها المؤلف والقراء، فهو إنتاجية لأنه لا يتوقف عن أعمال اللسان. أنظر، حياة أم السعد، مقال من الحوارية إلى المتعاليات النصية-جينالوجيا مفهوم التناص في الدراسات الغربية.

³ -ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، ص 15.

بالقول أنّ الرواية حسب هذا التنظير هي رواية ذات طابع حوارِي، تقتضي تعدّدا صوتيا يفضي الاثنين داخل الجسم الروائي إلى التحريّ عن مجموعة من الضمانيات والمقاصد تكشف ايدولوجيات ووجهات نظر معينة، وفق ما يتضمنه العنصر الموالي.

1. 4. 4/ ميخائيل باختين وايدولوجية الرواية:

ننتقل إلى الحديث عن مفهوم آخر ألا وهو مفهوم الايدولوجيا* عند "باختين" حيث هي "مجموع الانعكاسات والانكسارات داخل المخّ البشري، للواقع الاجتماعي والطبيعي الذي يعبر عنه ويثبته بواسطة الكلمة، والرسم، والخط..."¹. وفي كتابه "الكلمة في الرواية" يقول أنّ "الخصوصيّة الاستثنائية للجنس الروائي تكمن في أنّ الإنسان في الرواية هو جوهريا، إنسان متكلم، فالرواية تحتاج إلى أناس متكلمين يحملون كلمتهم الايدولوجية المتميزة، ويحملون لغتهم الخاصة"².

بمعنى أنّ الإنسان المتكلم في الرواية يمتلك لايدولوجيا "مشخص، محدد تاريخيا، وكلمته لغة اجتماعية...وليست لهجة فردية. والإنسان المتكلم هو دائما صاحب إيدولوجيا بقدر أو بآخر، وكلمته هي دائما قول إيدولوجي، واللغة الخاصة في الرواية هي دائما وجهة نظر خاصة إلى العالم تدعي قيمة اجتماعية، والكلمة قولا إيدولوجيا هي التي تصبح موضوع تصوير في الرواية"³. فالإيدولوجيا بالنسبة له تعني كلّ ما هو مخزن في فكر الإنسان من خيبات وإخفاقات للواقع الذي يعيشه، هذا المفهوم ينبغي أن يستقرّ بوضوح في ذهنية المتلقي أثناء مقارنته للنصوص الروائية.

فالروائي المجسّد للبناء الروائي، والمتحكم في شخوصه وفي إطاره الزمني والمكاني، يستحيل أن يخلو من ايدولوجية خاصة توجهه، وتحكم توزيعه للأدوار

*أنظر الفصل الثاني من هذه الدراسة تضمن حديثا مفصلا عن الايدولوجيا وعلاقتها بالخطاب.

¹ - ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، ص22.

² - ميخائيل باختين، الكلمة في الرواية، ترجمة: يوسف حلاق، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ط1، 1988،

ص109.

³ - ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، ص110.

والأحداث داخل المتن الروائي، فتحمل بذلك كل شخصية من شخصيات الرواية ايديولوجيتها الخاصة، تتفاعل في صرح الرواية للوصول إلى مبتغاها عبر الملفوظات أو اللغات أو العلامات، التي تأتلف وتتنظم من قبل الروائي وفق تعالقات حوارية تكتسي طابعا ايديولوجيا بحث.

وهو عينه الذي يتحدث عنه في جزء "المتكلم في الرواية" في كتابه "الخطاب الروائي" قائلا: " بفضل التشخيص الحوارى الخطاب له قيمة ايديولوجية"¹. يضطلع الحوار إذن بوظيفة ايديولوجية، كونه حامل لمضامين اجتماعية داخل الخطاب الروائي، تحرّك عناصره جميعا سواء المتعلقة بالشكل أو المضمون .

تعتمد الرواية على تنوع أشكال الحوار، لنقل كلام الآخرين المستمد والمتشكل في الخطابات العادية للمتخاورين وايديولوجياتهم،...فالحياة التاريخية للأعمال الأدبية أو الروائية على وجه الخصوص هي "إجمالا، سيرورة متصلة من إعادة التتير والإبراز اجتماعيا وايديولوجيا، وبفضل الكامن من النوايا والمقاصد التي تنطوي عليها فإنها تستطيع...أن تكشف مظاهر دلالية أكثر جدّة"².

إذن الرواية هي إعادة تدوير للخطابات المتخاورة داخل الحياة العادية، والارتقاء بها للكشف عن خباياها، وذلك عبر اللغة كونها تمثل مجموعة من الملفوظات والعلامات اللغوية وغير اللغوية المشبعة بالايديولوجيات التي يربطها"باختين" بالواقع الاجتماعي باختلاف طبقاته المكونة له، وباختلاف توجهاتهم حيث "إن المعنى اللغوي لقول ما يفهم على خلفية اللغة، أمّا مرماه الحيوي فعلى خلفية الأقوال الأخرى المشخصة في الموضوع ذاته، على خلفية الآراء ووجهات النظر والتقويمات المتضاربة، أي بالضبط على ما يعقّد طريق أي كلمة إلى موضوعها"³.

¹ - ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، ص102.

² - ميخائيل باختين، الكلمة في الرواية، ص166.

³ - المرجع نفسه، 23.

كل ذلك يحتم على الايديولوجيا كونها عنصرا بارزا في الرواية، والأهم على الإطلاق أن تكتسي وظيفة تتمثل في إطلاق الراوي "مواقف من الشخصيات الرئيسية معلنة غالبا وخفية أحيانا، فقد يطلق أحكاما على خلقها وخلقها وفكرها، ويعبر عن عواطفه تجاهها، فرسم بينه وبينها ضربا من المسافة"¹.

وهذا في صميم وجهة النظر حيث أن مفهوم الايديولوجيا كما يراه "عبد الله العروي" ليس مفهوما عاديا يعكس شفافية الواقع "وإنما هو مفهوم اجتماعي تاريخي، وبالتالي يحمل في ذاته آثار تطورات وصراعات ومناظرات اجتماعية وسياسية عديدة، إنه يمثل "تراكم معان"². هذا التراكم المعرفي الذي نسج خيوطه حول هذا المصطلح، جعله يضطلع بمجموعة من الاستخدامات أهمها القول مثلا: "إن فلانا ينظر إلى الأشياء نظرة أدلوجية، نعني أنه يتخير الأشياء ويؤول الوقائع بكيفية تظهرها دائما لما يعتقد أنه الحق"³.

تتعلق الايديولوجيا باعتبارها علما للأفكار بالذات، فالفرد من يفسر مجموع الظواهر التي تعترضه وفقا لما يراه مناسبا، وفقا للخلفيات المعرفية التي توجهه بوعي منه أو بدونه و"هذا البعد الذاتي للايديولوجيا هو ما رشحها لتصف اشتغال وجهة النظر من حيث الاستمرارية، في الخطاب السردى، حيث يتحرك النص بواسطة علاقة ايديولوجية بين ذات وموضوع معين، أو عدة ذوات تتبادل وجهات نظر متفقة أو مختلفة، حول موضوع معين فيتحرك الخطاب ويغتني بفعل هذه الحوارية بين الذوات التخيلية، أو بين الذات وذاتها"⁴.

¹ - محمد نجيب العمامي، تحليل الخطاب السردى (وجهة النظر والبعد الحجاجي)، منشورات وحدة الدراسات السردية، كلية الآداب والفنون بمنوبة، دار مسكيلاني للنشر، دط، 2009، ص 69.

² - عبد الله العروي، مفهوم الايديولوجيا، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط8، 2012، ص 05.

³ - المرجع نفسه، ص 10.

⁴ - أسماء بنت صالح حسن الزهراني، وجهة النظر السردية في البناء القصصي في القصة القصيرة السعودية، إشراف: صالح بن معيض الغامدي، رسالة دكتوراه، جامعة الملك سعود، ص 208.

وهذا الذي جعل تطبيقات الايديولوجيا في الخطاب السردى ترتبط "بتعدد وجهات النظر، على يد رائد التعددية الصوتية، "الحوارية"، "ميخائيل باختين"، وكان توظيف البعد الإيديولوجي في الخطاب السردى قبل باختين يكاد يحصر في سياقات النص الخارجية، فجاءت دراسة باختين للتعددية الصوتية لدى دوستوفسكي، بمثابة إعادة بناء للمنظور الإيديولوجي للخطاب السردى"¹.

شكل إضفاء الطابع الايديولوجي للخطاب السردى سمّة بارزة، ونقطة نوعية في تنظير باختين فيما سمّاه بالدراسات عبر اللسانية، المهمة بالعلاقة الحوارية الناجمة عن التفاعل اللفظي "فهما كان الملفوظان إذا قابلنا بينهما على صعيد المعنى سيكونان علاقة حوارية، فالتحليل اللساني لا يهتم إلا بالمادة **Le materiau**، ووسائل التبادل اللفظي، ولا يهتم بالتبادل اللفظي نفسه، ولا بالملفوظ كوجود"². ولا حتّى بالتعالقات الحوارية الموجودة بين هذه الملفوظات التي تشكّل الأساس في نظر باختين فالدرس السوسيري اعتنى بدراسة الملفوظ، وفق نظام بحث للغة منها ينطلق وإليها يعود، في حين عنيّ التنظير الباختيّ بالبحث عن العلاقات الحوارية بين الملفوظات في علاقتها مع الواقع، وفي طابعها الايديولوجي وفي بعدها الاجتماعي والواقعي، التي تشكّل تفاعلاتها مع بعضها البعض علاقات حوارية.

يُعدّ أول ظهور "لهذا المصطلح في مجال القول في دراسة باختين للملافيظ الروائية لدى دوستوفسكي، وقد استعمل مصطلحا رديفا للتعدّد الصوتي هو الحوارية، ومن أهم ما يعنيه هذا المصطلح أنّ أي قول يقال يشتمل على أصوات وآراء منسوبة إلى آخرين غير الذي قال القول"³. أمّا "ديكرو" Ducrot فقد استعمل هذا المصطلح

¹-المرجع نفسه، ص209.

²-حياة أم السعد، مقال من الحوارية إلى المتعاليات النصية، ص125.

³-محمد القاضي آخرون، معجم السرديات، دار محمد علي للنشر، تونس، ط1، 2010، ص101.

"موازيا لمفهوم المصطلح السابق ومطوّرا إياه، وهو ينطلق من منطلق باختين أي نعني أحادية الصوت في القول وقوام المصطلح لدي "ديكرو" تعدّد الأصوات ووجهات النظر، في الملفوظ الواحد أي أن يحضر صوتان أو أكثر في القول الواحد"¹.
نخلص إلى القول مع "العمامي" بربط وجهة النظر بالتعدّد الصوتي لأنها تحيلنا إلى سؤال مفاده من يتكلم داخل النص الروائي؟ فوجهة النظر تنتقل عبر صوت داخل الرواية، لكن هل هذا الصوت هو من يرى؟ ومن رأى الشيء هل يتكلم به أم لا؟ ومردّ هذه التساؤلات بالنسبة لنا هو لأسباب ايديولوجية من وضع الروائي، ونمثّل لذلك بوضعه لفكرة مهمّة على لسان بطل هامشي لكي يتخفى وراءه، ولا يتحمل المسؤولية، لكن هل هذه الشخصية الهامشية رأت الحدث؟ وهو نفس ما يراه "باختين" حيث يقول أن التعدّد الصوتي "ليس تعدّداً لأصوات جوفاء... بل هو تعدّد لأصوات مشحونة بإيديولوجيات مختلفة، ومنطلق "باختين" في ذلك أن الرواية في حاجة إلى قائلين يحملون إليها خطاباتهم الإيديولوجية الخاصة"².

*تعلق على هذا بالقول أن الحوارية هي ليست نفسها التعدد الصوتي ... فباختين في كتابه قال "إن الرواية المتعدّدة الأصوات ذات طابع حوارى على نطاق واسع" بمعنى أن الحوارية Dialogisme أعم وأشمل من البوليفونية Polyphonie حيث يقول باختين: "بين جميع عناصر البنية الروائية، توجد دائما علاقات حوارية، أي إن هذه العناصر جرى وضع بعضها في مواجهة البعض الآخر مثلما يحدث عند المزج بين مختلف الألحان في عمل موسيقي...، حقا إن العلاقات الحوارية هي ظاهرة أكثر انتشارا بكثير من العلاقات بين الردود الخاصة بالحوار الذي يجري التعبير عنه خلال التكوين، إنها ظاهرة شاملة تقريبا، تتخلل كلّ الحديث البشري وكلّ علاقات وظواهر الحياة الإنسانية، تتخلل تقريبا كلّ ماله فكرة ومعنى" مما يعني أن الرواية المتعددة الأصوات هي ميزة نجدها في الرواية تحتكم إلى علاقات حوارية، في حين أن الحوارية هي مرتبطة بكل العلاقات الإنسانية أي كل ماله فكر ومعنى على حد قول "باختين". أنظر، ميخائيل باختين، شعرية دوستوفسكي، ص 59.
ويجب التفريق أيضا بين الحوارية والبوليفونية عنده، لأن الثانية ليست ميزة تطبع كلام الإنسان ومختلف الخطابات التي ينتجها، إنّما ترتبط بدرجة إبداعية الوصول إلى دمج صوتين في صوت واحد. أنظر، أيضا: حياة أم السعد، مقال من الحوارية إلى المتعاليات النصية، ص 127.

¹ -محمد القاضي وآخرون، معجم السرديات، ص 102.

² - المرجع نفسه، ص 101.

وهذه الخطابات الإيديولوجية تتجلى في دراسته لشخصية دوستوفسكي المزدوجة "بوصفه شخصية اجتماعية وعدم أهليته الشخصية لاتخاذ حلول إيديولوجية محددة، إن كل ذلك يعتبر -إذا ما أخذ بذاته إجمالاً- أمراً سلبياً وعابراً من الناحية التاريخية، ومع ذلك فقد اتضح أن كلّ هذه الأشياء قد شكلت شروطاً مثلى لإيجاد الرواية المتعددة الأصوات... هذه التعددية التي تعتبر دون شك خطوة إلى أمام في تطور الرواية"¹.

وهذه المساهمة في تطوير الرواية تقضي إلى القول بأنه " ليس كثرة الشخصيات والمصائر داخل العالم الموضوعي الواحد، وفي ضوء وعي موحد عند المؤلف هو ما يجري تطويره في أعمال دوستوفسكي، بل تعدد الأشكال المتساوية الحقوق مع مالها من عوالم، هو ما يجري الجمع بينه هنا بالضبط، في الوقت نفسه تحافظ فيه على عدم اندماجها مع بعضها"². نلاحظ من خلال هذه الوظيفة أنّها تجمع عناصر مهمة في أي بناء روائي، هي تمثل جوهره وهدفه الذي تتصارع مختلف شخصياته بغية تحقيقه، بعد الحديث عن الحوار كونه خاصية تداولية بامتياز، ننقل إلى الحديث عن خاصية أخرى لا تقل أهمية عن سابقتها وهي المقاصد.

1. 5/ الخطاب الأدبي خطاب ذو مقاصد:

بعد القول بعدمية وجود نص دون سياق وحوار على اختلافاتهما، نجد التداوليين يتبنون مقولة أخرى، وهي أنّ كل خطاب هو خطاب ذو مقاصد حيث يشترط "أن يكون استعمال المعاني مفيداً ومحققاً لقصد المتكلم أي فيه منفعة"³.

وهنا يبرز الجانب البراغماتي النفعي للتداولية، حيث أنّ الخطاب الذي لا يحقق منفعة لا يُعدّ خطاباً تواصلياً، في مقابل ذلك يبرز الخطاب التواصلية النفعي، والمقصود بالمنفعة هنا هو الوصول إلى مقصديات المتكلم المبنوثة في خطابه

¹ - ميخائيل باختين، شعرية دوستوفسكي، ص 52.

² - ميخائيل باختين، المقدمة، ص 6.

³ - راضية خفيف بوبكري، مقال تحليل الخطاب الأدبي - مقارنة نظرية-، ص 15.

وغاياته، فلا يتواصل الإنسان من أجل لا شيء، ولا يتجه المتلقي نحو خطاب ما إلا وفي نيّته وغايته وقصده تحقيق منفعة أو غاية ما. "لأجل ذلك نلجّ باستمرار، على المظهر الغيري، الدلالي، والتعبيري، أي القصدي لأنّه القوة التي تنضد وتنوع اللغة الأدبية"¹.

وفي حديثنا عن مفهوم القصد علينا أن نشير إلى أهمية هذا المصطلح، الذي اهتم به التداوليين على اختلاف منابعم المعرفية، وتتبع مسار تطوراته عند من أرسوا دعائم التداولية بداية بـ"أوستين" Austin وتلميذه "سيرل" Searle وصولا إلى "غرايس" Grice وبعدها سبربر وولسون في نظرية الملاءمة أو المناسبة.

1. 5. 1 / أوستين وسيرل ونظرية أفعال اللغة:

أضحى مفهوم الفعل الكلامي عنصرا هاما في الكثير من الدراسات التداولية، وفيه يتضمن كلّ قول شكلا دلاليا لتحقيق أغراض إنجازية (كالوعد والوعيد...) تسعى للتأثير في المخاطب، يعود الفضل في التنظير لهذا المفهوم إلى الفيلسوف أوستين وبلور مفاهيمه بعدها وطورها سيرل وهو "الوحدة الصغرى التي بفضلها تحقق اللغة فعلا بعينه (أمر، طلب، تصريح، وعد...) غاية تغيير حال المتخاطبين، أن المتلفظ المشارك co-énonciateur لا يمكنه تأويل هذا الفعل إلاّ إذا اعترف بالطابع المقصدي لفعل المتلفظ"².

يحقق مفهوم القصد Intention وفقا لهذه الرؤية فعلا معينا بغية التأثير على السامع وحمله على القيام بفعل ما، وبشكل هذا المفهوم ركيزة في نظرية أوستين لفعل التلفظ أو الفعل الكلامي الكامل "Acte de discours intégral" المتضمن لثلاثة أفعال فرعية هي:

¹ - ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، ص 62.

² - دومينيك مانغونو، المصطلحات المفاهيم لتحليل الخطاب، ترجمة: محمد يحياتن، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2008، ص 7.

"1/ فعل القول * Locutionary act، وهو التلفظ بقولة مفيدة تستوفي متطلبات اللسان، ولها دلالة ومرجع.

2/ فعل القصد بالقول illocutionary act، وهو مراد المتكلم من قولته، وما يتحقق عند قولها.

3/ فعل التأثير بالقول Perlocutionary act، وهو الأثر الذي تحدثه القولة في المخاطب، إن ذهنيا، على مستوى المشاعر والأفكار، وإن سلوكيا، على مستوى التصرفات"¹.

وعند استقراء هذا التقسيم يتضح لنا أن أوستين يقسم أفعال الكلام باعتبار (فعل الكلام) و (قوة فعل الكلام) و (لازم فعل الكلام)، سنشرح هذا التقسيم عبر تحليل هذه

*أما بالفرنسية فيترجم 1/ فعل القول Acte locutoire ويطلق عليه أيضا الفعل اللغوي، العمل القولي، أو العبارة ومثال ذلك قولنا أغلق النافذة. معنى الجملة يمكن أن يفهم لكن لا نعلم إن كان أمرا بارتداء معطف، أو تحذير ببرودة الطقس، وغير ذلك إلا إذا عدنا إلى السياق أو الوضعية التلفظية لنتمكن من تحديد قصد المتكلم. 2/ الفعل المتضمن في القول Acte illocutoire ويدعى أيضا بـ "العمل اللاقولي" أو "اللاعبارة" ونلاحظ من الفعلين أن الأول هو مجرد قول في حين أن الثاني هو القيام بفعل من خلال قول ما. 3/ الفعل الناتج عن القول: Acte perlocutoire ويسمى أيضا بعمل التأثير بالقول وأثر العبارة ويقصد به الآثار التي تنجم عن قيام المتكلم بفعل القول من تثبيط أو نصح أو إرشاد... وغيرها. الترجمة مستمدة من كتاب: فيليب بلانشيه، التداولية من أوستين إلى غوفمان، ترجمة: صابر الحباشة، دار الحوار، ط1، 2007، ص59. أما "ثروت مرسي" في كتابه "في التداوليات الاستدلالية" فيتحدث عن هذا التعدد في الترجمة ويقول: "وقد تعددت ترجمات هذه الثلاثية، ونحن نسعى إلى توحيد المصطلحات ما استطعنا إلى ذلك سبيلا، ولا نلجأ إلى المخالفة إلا عندما يقتضي ذلك الضرورة العلمية، وقد ترجمت في أعمال سابقة على النحو الآتي: 1/ (فعل الكلام، قوة فعل الكلام، لازم فعل الكلام) قنيني عبد القادري ترجمته لكتاب أوستن، نظرية أفعال الكلام العامة، ص120. 2/ (عمل قولي-عمل في القول-عمل تأثير بالقول) المبخوت، شكري. دائرة الأعمال اللغوية. ص10. 3/ (الفعل اللفظي-الفعل غير اللفظي-الفعل المترتب عن النطق) علي، محمد م. بونس. مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب، ص34-35، 4/ (فعل القول-الفعل الانجازي-الفعل التأثيري) أدراوي، العياشي. الاستلزام الحوارية في التخاطب اللساني. ص86. 5/ (العمل القولي-العمل المضمن في القول-عمل التأثير بالقول) غنيم، أميرة. في ترجمتها لكتاب "جون سيرل" الأعمال اللغوية. بحث في فلسفة اللغة، ص48. وبعدها. أنظر، ثروت مرسي" في التداوليات الاستدلالية-قراءة تأصيلية في المفاهيم والسيرورات التأويلية، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، ط1، 2018، ص58.

¹ - ثروت مرسي" في التداوليات الاستدلالية-قراءة تأصيلية في المفاهيم والسيرورات التأويلية، ص58.

الجملة: إن لم تتعلم فسأعاقبك يتمثل فعل الكلام في التلفظ بهذه الجملة، أما الثاني فيتمثل في التحذير والتهديد، أما الفعل الثالث فيتجلى في الشعور بالخوف أو العدوانية أو العزم على التعلم. وما يهمنا من هذا التقسيم "هو فعل القصد بالقول" الذي كان محل اهتمام أوستين نفسه، والذي يقصد به المعنى المستشف أو المتحقق من انجاز قولة مما.

يعد الفيلسوف "جون سيرل" واحد من أبرز تلامذة أوستين، الذي سار على دربه لكنه أعاد طرح نظريته، وطوّرها عنها أمرين هما: المقاصد والمواضعات، حيث يمكننا "اعتبار الأعمال اللغوية والجمل التي أنجزت بواسطتها، وسيلة تواضعية للتعبير عن مقاصد وتحقيقها، وهذا المظهر كان حاضرا لدى أوستين ولكن سيعرف أوج تطوره لدى سيرل"¹.

وذلك في كتابيه المهمين "القصدية: بحث في فلسفة اللغة (1983) و"الذهن واللغة والمجتمع: الفلسفة في العالم الواقعي (1999) حيث يرى "أن القصدية مصطلح جامع لكل الأشكال المتنوعة التي يستطيع الذهن بواسطتها أن يهتدي إلى الأشياء وحالات الواقع في العلم، أو يكون حولها/عنها، أو يتعلق بها"².

اقترح "سيرل" مجموعة من الشروط التي تتحكم فيه كونه أساسيا في تحقيق عملية تواصل ناجحة بين المتخاطبين، حيث لابد من توافق سياقي فإن وعد المتلفظ أن يكون صادقا عند إنجاز³ هذا الفعل (مثلا: عندما يعدّ شخصا ما، ولا يعدّه بالشيء

¹ -آن روبول وجاك موشلار، التداولية اليوم علم جديد في التواصل، ص33.

² - ثروت مرسي، في التداوليات الاستدلالية، ص62.

* أما التصنيف الخاص لأفعال الانجاز فنجدته يشتمل على خمسة أبواب هي: 1/"التأكيدات: (Assertifs) وتجعل "وجهة" التأكيدات المنكّم ينخرط (بدرجات مختلفة) في حقيقة القضايا المعبر عنها، على أن يكون شيء ما حالة بالفعل، لتعين قيم الحقيقي والخاطيء. 2/الأوامر: (Directifs) وتقوم وجهة "الإنجاز" في الأوامر على حصول المتكلم بواسطتها على قيام المستمع بشيء ما، ويمكن لهذه الأوامر أن تنطلق من الاقتراح الخجول، لتصل إلى المطالبة الإجبارية. 3/الالتزامات: (Commissifs) هي الأفعال الانجازية، التي تكون فيها الوجهة، في جعل المتكلم

المستحيل حصوله). وهذه الشروط تعنى: "بالظروف ومنزلة المشاركين في الفعل اللغوي، ومقاصدهم والآثار التي من شأنه إحداثها"¹.

وبهذا "فإن نظرية أفعال الكلام **theory of speech acts** لأوستين، ونظرية قصد المتكلم **theory of speaker's meaning** لغرايس، كلتاهما تسعيان إلى تأسيس نظرية للغة، أو بالأحرى نظرية المعنى اللساني"². إن جهود "سيرل" بخصوص "الفعل اللغوي" هي إضافة قيمة ومكملة لما بدأه أستاذه أوستين، أمّا فيما يخص الفعل اللغوي غير المباشر فإنّه سيلقى اهتماما لدى "غرايس" في نظريته حول قصد المتكلم، الذي يتركز في مفهوم الدلالة غير الطبيعية.

1. 5. 2 / الدلالة غير الطبيعية والتعرف على القصد:

تطرح الأفعال غير المباشرة موضوعا رئيسا يكمن في "معرفة كيف يمكن للباحث أن يقول شيئا، ويعني ذلك، وهو في الوقت نفسه يريد أن يقول شيئا آخر"³. وهذا في صميم البحث التداولي، وهو كيف للباحث أو المرسل أن يضمن حديثه قصدا غير القصد المفهوم من الكلام أثناء العملية التواصلية التخاطبية... إن العبارة اللغوية بالنسبة لـ "غرايس" تتطوي على فعلين لغويين أحدهما مباشر، وهو ما يسمّى بالدلالة

ينخرط في انجاز فعل مستقبلي. 4/ التصريحات: (Expressifs)، وتعد وجهة الانجاز تعبيراً عن الحالة السيكولوجية المخصصة، ضمن شروط الإخلاص، وتتعلق بحالة أشياء محددة في المضمون القضوي "5/ الادلاءات: (Déclaration) يقوم الانجاز الناجح لطابع طبقة الادلاءات في تحصيل أحد أعضائها على التقارب المطلوب بين المضمون القضوي والواقع". حاول سيرل في خطوة موائية أن يجد تبريراً لهذا التصنيف، وبحثاً عن الخصائص التي تسمح بإدراج فعل ما ضمن صنف محدد وضع جملة من المقاييس التي تؤسس لهذا التصنيف "أنظر، فرانسواز ارمينكو، المقاربة التداولية، من ص 63 إلى ص 68.

¹ - دومينيك مانغونو، المصطلحات المفاهيم لتحليل الخطاب، ص 7.

² - فرانسوا ريكاناتي، المعنى الحرفي، ترجمة: أحمد كروم، مراجعة: عز الدين لحكيم بناني، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ط 1، 2018، المقدمة، ص 11.

³ - مؤيد آل صونيت، التداولية مرجعيات ورؤى، التداولية قراءة في النشأة والمفهوم، مقال ضمن كتاب جماعي لبشرى البستاني، التداولية في البحث اللغوي والنقدي، مؤسسة السياب، لندن، ط 1، 2012، ص 50.

الطبيعية، وتشير إليه المكونات البنيوية، وثانيهما غير مباشر وهو ما يصطلح عليه بالدلالة غير الطبيعية.

انبنت نظرية "غرايس" حول القصد للتمييز بين نوعين من المعنى هما المعنى الطبيعي* والمعنى غير الطبيعي "ويرتبط المعنى غير الطبيعي عنده لزومياً، بعملية التواصل، حيث يمكننا تحليل هذا النوع من المعنى اعتماداً على ثلاثة أركان: متكلم يعني شيئاً ما (غير طبيعي)، بقولة أو إيماءة، إذا وفقط إذا قصد بقولته/إيماءته أن يحدث تأثيراً معيناً في مخاطب بعينه-حاضراً كان أو محتملاً-عن طريق إدراك المخاطب هذا القصد"¹.

وتضيف "فرانسوا ريكاناتي" بخصوص نظرية "غرايس"، التي تقضي إلى أن الكلام هو نفسه دلالة غير طبيعية، والتي من أبرز سماتها "حمل المخاطب على تعرف قصده الأولي (مثلاً قصدية تبليغ عدد من المعلومات، أو قصدية حمل المتلقي على التصرف على نحو معين)، أي: من خلال التعبير (الصريح) عن ذلك القصد بالصورة التي تجعله قابلاً للإدراك. وهذا يمكن تحديده بجميع الطرق الشفوية وغير الشفوية"².

يتضح مما سبق أن "غرايس" في مقاربتة للأفعال اللغوية اهتم بالفعل اللغوي غير المباشر أي بالدلالة غير الطبيعية، التي تمثل الدور الأبرز في عملية التواصل،

* وقد مثل غرايس للمعنى الطبيعي بجملة: " تلك الرقطة تعني الحصبة"، فنحن لا نستطيع أن نقول: "تلك الرقطة تعني الحصبة لكنه غير مصاب بالحصبة"، فأولاً وجود الرقطة يعني الحصبة، ووجود الرقطة يستلزم وجود الحصبة، وثانياً أننا لا يمكننا أن نقدم استنتاجاً من هذه الجملة عن ماذا يعني بـ"تلك الرقطة"، فعلى سبيل المثال لا يمكننا أن نقول أن دلالة "تلك الرقطة" المستفادة من كلماتها هي أنه مصاب بالحمى، وثالثاً لا يمكننا أن نستنتج من الجملة التأثير الذي يعنيه شخص أو آخر بتلك "الرقطة"، ورابعاً فإن أية إعادة صياغة تقريبية لهذه الجملة لتكون أكثر وضوحاً ستبدأ بعبارة: " في الحقيقة أن ... مثلاً: " في الحقيقة" أن وجود تلك الرقطة يعني أنه مصاب بالحصبة" أنظر، ثروت مرسى، في التداوليات الاستدلالية، ص 59.

¹ - ثروت مرسى، في التداوليات الاستدلالية، ص 59 و 60.

² - فرانسوا ريكاناتي، المعنى الحرفي، ص 29.

بخلاف الدلالة الطبيعية التي تعنى بالجانب الدلالي التواضعي للجمل...ولهذا فمنطق الحوار بالنسبة له يقتضي على كل من المرسل والمتلقي أثناء تحاورهما أن يسعى كل طرف إلى إيصال مقاصده ونواياه للطرف الآخر، وهذا المنطق يقتضي وجود مبدئين يحتكم إليهما كل من المخاطب والمخاطب، وهما الاستلزام الخطابي ومبدأ التعاون... ويتضمن مبدأ التعاون* أربعة قواعد على المتخاطبين احترامها وهي قاعدة الكم، قاعدة النوع، قاعدة العلاقة (أو المناسبة) وقاعدة الكيف. أمّا الاستلزام الخطابي فهو مرتبط بعملية التأويل بالنسبة للقول. فالدلالة غير الطبيعية بالنسبة لغرايس مبنية على فهم مقاصد المتكلم أثناء العملية التواصلية عبر الوصول إلى نواياه أثناء إلقاء خطابه أو كلامه، وللوصول إلى ذلك القصد أو المعنى حسبه.

لكن ما يأخذ على النظريتين (أوستين وغرايس) هو "إقصاؤهما المخاطب من سيرورة إنتاج المعنى، فدوره ينحصر في الانفعال بالقولات، والاستجابة لقصد المتكلم"¹ وفقط.

1. 5. 3/ مبدأ المناسبة والكشف عن المعنى:

أفادت ديدري ويلسون ودان سبرير ضمن إطار نظرية "الملاءمة" أو "المناسبة" من "مبدأ المناسبة القابع ضمن مبدأ التعاون الرباعي عند غرايس، وعدّته الأهم من بين تلك المبادئ لكونه مناسباً واستدلالياً في الوقت نفسه"². ويقترح كل من "سبرير

* يفترض غرايس أن المتخاطبين المساهمين في محادثة مشتركة يحترمون مبدأ التعاون، فالمشاركون يتوقعون أن يساهم كل واحد منهم في المحادثة بكيفية عقلانية ومتعاونة لتسيير تأويل أقواله/" يوجد فرق بين ما قيل Dit) الدلالة التواصلية للجملة) أو ما تم نقله (Transmis) أو ما تم تبليغه (Communiqué) (تأويل القول)، ووافق هذا التمييز الذي أهمله سيرل مفهوم الاستلزام الخطابي، فالدلالة هي ما قيل، والاستلزام الخطابي هو ما تم تبليغه، ويختلف ما تم تبليغه عما قيل"أنظر، آن روبول وباك موشلار، التداولية اليوم علم جديد في التواصل، ص55 و56.

¹ - ثروت مرسى، في التداوليات الاستدلالية، ص60.

² - سامي شهاب أحمد، مقال: التداولية وصلتها باللسانيات البنيوية والسيمائيات، ضمن كتاب جماعي لمؤلفه بشرى البستاني، التداولية في البحث اللغوي والنقدي، ص89.

وولسون مفهوما آخر هو مفهوم: "التواصل الإشاري الاستدلالي"¹. ضمن هذا المبدأ تبرز نظرية الملاءمة أو المناسبة، التي تعدّ عندهما "مسألة جهد(خصوصا الجهود الضرورية لبناء السياق) ونتائج الاستنتاجات التي نتوصل إليها من العملية الاستدلالية"². بعد ذلك تقترح "آن ريبول" **Anne Reboul** تعريفا تراه مؤقتا لمناسبة عمل التواصل الإشاري الاستدلالي ينبني على ركيزتين:

" أولا: كلما تطلب عمل التواصل الإشاري الاستدلالي جهدا أقل في تأويله ازدادت مناسبته

ثانياً: كلما كان لعمل التواصل الإشاري الاستدلالي نتائج أكثر ازدادت مناسبته"³.

وذلك وفق فرضية مفادها " تولّد القولات مجموعة من التوقعات بصورة آلية، يهتدي المخاطب عن طريقها إلى قصد المتكلم"⁴. وهذه "التوقعات المناسبة التي تثيرها قوله ما تكون محكمة وقابلة للتنبؤ بها، على نحو كاف، كي ترشد المخاطب إلى قصد المتكلم. ومن ثم ذهبنا إلى أن التواصل الاستدلالي-الإيضاحي **Ostensive-Inferential** يتكوّن من طبقتين من القصد:⁵

1. القصد الإخباري **The informative intention**: وهو إخبار مخاطب ما

بشيء ما، فتجعل مجموعة من التوقعات واضحة، أو أكثر وضوحا، بالنسبة إلى المخاطب"

¹ - آن ريبول و جاك موشلار، التداولية اليوم علم جديد في التواصل، ص79.

² - المرجع نفسه، ص85.

³ - نفسه ، ص85.

⁴ - ثروت مرسي، في التداوليات الاستدلالية، ص61.

⁵ - المرجع نفسه، ص61.

2. القصد التواصلي **The communicative intention**: وهو إخبار المخاطب بالقصد الإخباري للمتكلّم فيكون من الواضح، بصورة متبادلة، لكلّ من المخاطب والمتكلّم أن لدى المتكلّم هذا القصد الإخباري¹.

وبعنى بالتوقعات الاستدلالية هو الاحتمالات التي تستقر في ذهن المتلقي عبر عمليتين هما القصد التواصلي ويفيد الإخبار مع التواصل، ويفيد القصد الإخباري الإخبار الذي يستدعي مجموعة من التوقعات المناسبة لتأويل القولة أو التنبؤ بفحواها.

التقسيم نفسه نجده عند كل من "جاك موشلار Jacques Moeschler وآن روبول" حيث يقسم الباحثان مقصدية المتكلم إلى مقصديتين تواصلية وإخبارية، مفاد الأولى التواصل أما الثانية فتقضي بوجود شيء جديد يريد المتكلم إيصاله عبر القولة، وتقسّم هذه المقصدية الإخبارية بدورها إلى قسمين اثنين محلية وشاملة، أما المقصديات الإخبارية المحلية "هي كل ما يرتبط بالمقاصد الموجودة في ملفوظات الخطاب، أما المقصدية الإخبارية الشاملة فهي ما يتعلق بكلية الخطاب، وهي أكثر تعقيدا من المقصديات الإخبارية المحلية، إلا أن الاثنتين محملتان بمقصدية تواصلية، ونجاح تواصل ما مرهون باسترجاع المقصديات المحلية والشاملة معا"².

"كما أشار الباحثان في سياق حديثهما عن المقصديات الموجودة في الخطاب، إلى أن المتكلم قد يضمن خطابه بعضا من الفرضيات الاستباقية، توظف بطريقتين من قبل المتكلمين: وهي أن المتكلم قد يثبت هذه الفرضيات الاستباقية، *hypothèses anticipatoires* وفي خضم خطابه، وقد لا يثبتها، ولمزيد من التوضيح أورد الباحثان مثالين في هذا الصدد: في المقطع السردي الأول يبدأ المتكلم ببناء جملة من الفرضيات الاستباقية التي يدعمها طيلة نصّه، أما في المقطع الثاني يبدأ الكاتب

¹ - ثروت مرسي، في التداوليات الاستدلالية، ص 61.

² - Dominique Maingueneau : Elements de linguistique pour le texte littéraire : Dunod.Paris.1993.P157.

نقلا عن حياة أم السعد، تداولية الخطاب الروائي، ص 67.

بفرضيات استباقية توهمنا أن النص سيركز عليها، ولكن ما أن نواصل القراءة حتّى نجده يخرق الأفق الذي بنيناه من خلال قراءتنا للفرضيات الاستباقية، ليفاجئنا بأن النص سيدور على ما لم يكن مهتما به في بداية نصه¹، وهو نفسه مفهوم التوقعات في نظرية الملاءمة.

"كما تطرق الباحثان كذلك إلى المقصديات الوسيطة intermédiaires، التي نجدها داخل الخطاب، ويقصدان بها العناوين والعناوين الفرعية، والفصول...وكلّ هذه العناصر ترتبط بمستويات الترتيب النصّي، وفي هذا الصدد فإن تنظيم النص، تقسيمه التيبوغرافي، يلتقي جزئيا بمستويات مقصدية المتكلم، والتي يستطيع المستمع إعادة بنائها²: " لهذا فإن التقسيم الذي نجده في صفحات مؤلف ما، هو بمثابة مساعدة للقارئ للوصول إلى تشكيل فرضيات حول المقصديات الإخبارية الوسيطة، وبالتالي الوصول إلى المقصد الاخباري الشامل"³. وهنا تبرز أهمية هذه المقصديات الوسيطة في تحرّي ضمنيات النص وقراءة ما بين سطوره حتى يتحقق المقصد الإخباري الشامل. إنّ الغاية المرجوة من المقاصد هي أن يتمكن المرسل من إبلاغ رسالته للمرسل إليه، إلا أن هذا يتطلب من المرسل أن يكون ملما بالّلغة في جميع مستوياتها التركيبية والسياقية وحتّى الدلالية، حيث يجب عليه أن يكون عارفا بالعلاقة التي تربط بين الدال والمدلول. فالقصد أو المقصدية " إذن تحدد كيفية التعبير والغرض المتوخّى، وهي البوصلة التي توجه تلك العناصر، وتجعلها تتضامّ و تتضافر وتتجه إلى مقصد عام، فالمقصدية تحدّد اختيار الوزن، والألفاظ الملائمة، وتركيبها بطرق معينة لتؤدي المعنى العام المتوخّى، ولذلك نجد البحر الواحد ينظم فيه الشاعر مدحا أو فخرا أو هجاء أو

¹ - Dominique Maingueneau : Elements de linguistique pour le texte littéraire,P167.

نقلا عن حياة أم السعد ، تداولية الخطاب الروائي، ص67.

² - حياة أم السعد ، تداولية الخطاب الروائي، ص67.

³ - Dominique Maingueneau : Elements de linguistique pour le texte littéraire,P172.

نقلا عن حياة أم السعد، تداولية الخطاب الروائي، ص67.

رثاء ... فالمقصد يتحكم في نسج القصيدة أو المقطوعة بل في البيت أو شطره مبنى ومعنى¹، هذا بالنسبة للقصيدة الشعرية فعناصر القصيدة تنتظم وفقا لمقاصد الشاعر، فهذه النصوص الشعرية على اختلاف أغراضها" تحتوي على مقاصد متعددة، وكل مقصد يستدعي ألفاظا وهيأة من التركيب معينة تتجم عنها معان أول (صريحة) ومعان ثانية (متضمنة)، ولكن هذه المقاصد على (اختلافها) تتضام وتتجه نحو مقصد رئيسي، فإذا كان المقصود المتعة كان، وإن كان الهدف العظة والاعتبار كان، وإن كانت الغاية (افعل) و (لا تفعل) كان ذلك، وربما كان مقصد الفعل والترك في الشعر العربي هو الغالب عليه إذ لا يقال شعر بدون غاية².

يرى الكاتب عبد الهادي بن ظافر الشهري، في كتابه - استراتيجيات الخطاب - مقارنة لغوية تداولية- أن هناك عاملان مهمان من العوامل المهمة التي تتحكم في استعمال اللغة وتأويلها ولها الأثر البالغ في تداول الخطاب، وترجيح إستراتيجية على إستراتيجية أخرى واختيارها، وهذان العاملان هما المقاصد والسلطة، هذه الأخيرة سنتجاوز الحديث عنها في هذا الجزء لأننا سنتحدث عنها في الفصل الثاني من هذه الدراسة في الجزء المخصص لعلاقة السلطة بالرواية وعلاقة السلطة بالأدب وعلاقة الخطاب بالسلطة عموما، وسنعود لتحدث عنها أيضا في الفصل الثالث التطبيقي.

تعنى المقاصد بثلاثة أمور هي العناية بالمعنى وبالسياق وباللغة، أما المعنى فيتم بتجسيده كما هو عند المرسل ولكنه يجب أن يتمشى في الوقت نفسه مع ما تستدعيه المتطلبات السياقية بحسب اختلافها، أما اللغة فهي التي تربط بين المعنى والسياق لتحقيق التفاعل بين طرفي الخطاب.

أدرك النقاد القدماء والمحدثون المهتمين بلغة الخطاب، أهمية المقاصد في الخطاب كونها لب العملية التواصلية "لأنه، لا وجود لأي تواصل عن طريق

¹-محمد مفتاح، في سيمياء الشعر القديم، دراسة نظرية وتطبيقية، ص53.

²-المرجع نفسه، ص54.

العلامات، دون وجود قصدية وراء فعل التواصل، ودون وجود إبداع أو على الأقل دون وجود توليف للعلامات"¹.

ونختم هذا الفصل بالتساؤل مع سعيد جبار "إن السؤال الذي طرح نفسه بإلحاح ونحن ننقل عبر هذه الاتجاهات التداولية، وما قدمته من مقاربات تطبيقية: ما مدى قدرة التداولية على استيعاب الخطاب الأدبي أو التخيلي بصفة عامة؟ خصوصا وأن جلّ الأمثلة التي تأسست عليها مفاهيمها ترتبط باللغة العادية، وما تتضمنه من انزياحات في التعبير، والطريقة التي يتلقى بها المخاطب هذه الأقوال ويتعرف على مقصدياتها أو دلالاتها غير الطبيعية"².

ما يدفعنا للحديث عن **التخيل Imagination** كونه موضع جدل بين الكثير من النقاد، حيث يبدو للوهلة الأولى عند سماع كلمة التخيل أنه مفهوم بسيط لا يستدعي شرحا أو تفصيلا، ولكن عند اطلاعنا على بعض الدراسات اتضح لنا أن التخيل مفهوم معقد يستدعي التوضيح، وهذا ما سنروم إبرازه في هذا الجزء المعنون بالتداولية والتخيل. كون هذا الأخير تجلياً من تجليات التواصل الإنساني.

2/ التداولية والتخيل: Pragmatique et Fiction

1. 2/ التخيل: Fiction

استفادت التداولية كثيرا من الدراسات البنيوية السابقة لها، ومن النتائج المحققة من قبل هذه الدراسات، حيث نجد التداولية تنهل من هذه المناهج محاولة تطويرها لتتماشى وآفاق المجال التداولي المعاصر... فإن وجدنا التداولية في بداياتها مهمة بالخطاب التواصل اليومي، إلا أنها وفي الوقت الراهن أو بالأحرى التداولية في النقد المعاصر تولي عناية فائقة بالخطاب الأدبي كما الخطاب اليومي ومع ذلك: "فإنها لم

¹ - عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب - مقارنة لغوية تداولية-، ص 183.

² - سعيد جبار، التخيل وبناء الأنساق الدلالية نحو مقارنة تداولية، ص 38.

تغفل جانب التخيل باعتباره تجليًا من تجليات التواصل الإنساني، وحاول التداوليون أن يجدوا لخطاب التخيل أرضية تداولية لمقارنته، وتعرف حقائقه وأهدافه، والنتائج التي يحققها على مستوى التطور المعرفي لفعل التواصل¹.

يمكن القول إذن بأن التخيل كونه "خطابا مفتحا قابلا لاستيعاب عوالم مختلفة، وغير متجانسة، وتظهر قوته في قدرته على منح هذا الكلّ اللامتناهات انسجاما نوعيا يساعد على مقروئته وتلقيه"². حيث هو خطاب "يتداخل فيه الصادق والكاذب على مستوى الفضاءات والشخصيات والأزمنة والأحداث، لكنّها تتآلف جميعها لتكون عوالم غير صادقة ولكنّها تلميحية"³.

تجتمع مجموعة من العوالم المختلفة في الخطاب التخيلي، محققة بذلك تآلفا وانسجاما من نوع خاص بين هذه الفضاءات فهو "إذن محيط معرفي ممتد الأطراف تتحرك فيه الذاكرة الإنسانية لتبدع من خلاله ما تعتقد أنّه يلامس الحقيقة"⁴.

بين هذا وذاك يتضح لنا أن التداولية كعلم جديد في التواصل لم تكن في بدايتها **بالخطاب التخيلي Discours de Fiction** لاعتنائها بالخطاب التواصلية البراغماتي، إلا أنّ روادها ومؤطريها سرعان ما تداركوا الأمر وحاولوا إرساء ترسانة من القواعد والآليات، لمقاربة الخطاب التخيلي واستكناه أغواره، وهذا ما نروم تحقيقه من هذه الدراسة عبر مقارنة نصوص تخيلية بامتياز ألا وهي النصوص الروائية.

قبل ذلك ننتقل إلى الحديث عن "سيرل"، ورؤيته للتخيل والكذب حيث هما بالنسبة له: "نشاطان لغويّان يتخذان غالبا شكل الإخبار أو الإثبات دون أن يكونا مع ذلك إخبارا أو إثباتا خالصين، وبالفعل لا يتمّ احترام القواعد المتحكّمة في نجاح عمل

¹ - سعيد جبار، التخيل وبناء الأنساق الدلالية نحو مقارنة تداولية، ص 77 و 78.

² - المرجع نفسه، ص 80.

³ - آن ربول و جاك موشلار، التداولية اليوم علم جديد في التواصل، ص 198.

⁴ - سعيد جبار، التخيل وبناء الأنساق الدلالية نحو مقارنة تداولية، ص 83.

الإخبار وإخفاقه عند التخييل أو الكذب، فهذه حالات يجري فيها انتهاك شرط النزاهة (الذي يقتضي بأن يعتقد القائل في صدق ما يثبته) فمن يكذب أو ينتج نصا تخييليا لا يعتقد في صدق ما يثبته¹.

فالخطاب التخيلي هو خطاب لا يفترض بالضرورة أن يكون صادقا، والمقصود بشرط النزاهة هو اعتقاد الباث بصدق قوله عند الإخبار في الخطاب العادي، في مقابل ذلك نجد أن من يكذب أو ينتج نصا تخييليا لا يعتقد بذلك (الصدق)، حيث أن افتراض وجود لغة خاصة بالتخييل تختلف في معناها عن لغة الخطاب العادي هي لغة لا تبرز معنى الجمل بل تعطّله، (أي أنّها قد تحمل دلالات خفية لا يوحي بها المعنى الأصلي للكلام) ... خصوصا عند انتهاكها لشرط النزاهة.

بعد ذلك يرى "سيرل" أنّ الجمل في الخطاب التخيلي ليست كلها كاذبة بالضرورة... حيث نجد الجمل الصادقة المتعلقة بالإخبار حيث يقول: " أنّ الجمل في نص تخيلي ليست كلّها كاذبة، فبعضها صادق وهي... تقابل الإخبار الخالص (كتلك التي تدور على الوصف الجغرافي من قبيل: "كانت لندن عاصمة إنجلترا، في الوقت الذي نحدّثكم عنه، أكثر مدن أوروبا سكانا"².

من خلال هذا القول يتضح لنا أنّه من الممكن أن يجتمع في نص تخيلي جمل كاذبة تخرق شرط النزاهة (ليست صادقة أو بالأحرى لا يعتقد الباث بصدق قوله)، وجمل صادقة متعلقة بالإخبار لكنّها لم تخرق شرط النزاهة... " إذ يؤكد سيرل أن الأقوال التي تعبّر في نص تخيلي ما تتوافق تماما مع الأعمال المتضمنة في الأقوال الحقيقية التي تفيد الإخبار"³.

¹ - أن ربول وجاك موشلار، التداولية اليوم علم جديد في التواصل، ص38.

² - المرجع نفسه، ص38.

³ - جاك موشلار وأن ريبول، القاموس الموسوعي للتداولية، ترجمه مجموعة من الأساتذة والباحثين، اشراف: عز الدين مجدوب، مراجعة: خالد ميلاد، دار سيناترا للنشر والتوزيع، تونس، 2010، ص 470.

يقسم "سيرل" الجمل في النص التخيلي إلى قسمين اثنين هما: جمل كاذبة وهي في نظره لا تشكل عملا متضمنا في القول لخرقها قاعدة النزاهة أو لعدم إحالتها على واقع حقيقي ... وجملا صادقة تشكل عملا متضمنا في القول لمطابقتها الواقع الحقيقي.

أما "آن ريبول" فنجدها قد أفاضت الحديث عن التخيل في مؤلفاتها المختلفة ورأت أن مفهوم **الملاءمة** * **Pertience** وعاء جامع قادر على استيعاب الإشكالات المتعلقة بالتخيل حيث: " 1/ لا مجال للتفريق داخل الخطابات التخيلية بين الأقوال الصادقة والأقوال الكاذبة فجميعها يخضع للمعالجة نفسها.

2/ جميع الأقوال التي تظهر في الخطاب التخيلي توافق بالضرورة عمل الإيهام بتحقيق عمل متضمن في القول يفيد الإخبار دون نية المغالطة.

3/ ... خطاب التخيل غير حرفي¹.

* تختلف تسمية هذه النظرية باختلاف الترجمات حيث نجد أن لها أسماء متعددة منها: الملاءمة، المناسبة، الوجهة، الحصافة وهذه الترجمات المختلفة هي لمقابل أجنبي واحد وهو: **Pertience** باللغة الفرنسية و **Relevance** باللغة الانجليزية. /أوجد كتاب "نظرية الصلة أو المناسبة" ثورة في مجاله وطوفانا من البحوث والمجالات بشأن النظرية التي أسسها الأنثروبولوجي الفرنسي "دان سيرير" واللغوية البريطانية حيث يقدمان لكتابهما بالقول: "في عام 1986 نشرنا كتابنا نظرية الصلة أو المناسبة في التواصل والإدراك" الذي اقترحنا فيه مقتربا للعمليات هو نظرية الصلة أو المناسبة ، وهو يستوحي عمل "غرايس" وآخرين ... وقد ذهبنا إلى أن ما من جانب من جوانب تأويل القولة يتم تحديده بواسطة المعنى اللغوي كليا، وأن معنى القولة اللغوي كليا، وأن معنى القولة اللغوي هو في كل الأحوال ليس تشفيرا لمعنى المتكلم، ولا حتى تشفيرا جزئيا له، إنه دليل يستدل منه على معنى المتكلم، فالتشفير وحده لا يكفي أبدا فعلى سبيل المثال، لا تكفي إزالة اللبس في كلمة "حار" Hot وبيان أنها تشير إلى درجة حرارة الحساء، بل إن المتكلم باستعماله الكلمة "حار" لم يشر فقط إلى أن الحساء من السخونة بقدر يكفي لوصفه بأنه "حار"، ولكن أيضا وبشكل أكثر تحديدا، إلى أنه اسخن من أن يؤكل في الوقت الحاضر، وفضلا عن ذلك فإن نظرية الصلة أو المناسبة لا تحاول أن تجيب عن الأسئلة الفلسفية واللغوية بشأن المعنى فحسب، وإنما أيضا عن الأسئلة السيكلوجية الخاصة بكيفية تكشف التأويل في ذهن المستمع، إنها نظرية إدراكية معرفية لها أساسها في التأمل الشامل بدور الصلة أو المناسبة في الإدراك المعرفي والتواصل، أنظر: دان سيرير وديديري ولسون، نظرية الصلة أو المناسبة في التواصل والإدراك، ص 05.

¹ - جاك موشلار وآن ريبول، القاموس الموسوعي للتداولية، ص 471.

يظهر من خلال هذا أن "آن ريبول" ترفض التقسيم الذي أقره "سيرل" حول الخطاب التخيلي والخطاب الجاد (كما يسميه سيرل)، فكلاهما واحد من وجهة نظر تداولية، وكلاهما ينجز فعلا متضمنا بالقول... فالخطاب التخيلي خطاب لا يخرق شرط النزاهة، وهذا لا يتوافق مع ما جاء به "سيرل" في تقسيمه حيث يرى أن "الخطاب التخيلي هو خطاب غير جاد والمؤلف غير ملزم بتبني الفكرة التي يعبر عنها وليس مطلوباً منه إثبات صحتها"¹. فالنص التخيلي "يتضمن أعمالاً بالقول تختلف من حيث طبيعتها عن تلك الجارية في الخطابات الأخرى، فيما يدور من إثباتات في القصص المتخيّل إنّما يندرج في المصطنع وغير الجاد والمزعوم"².

بعد التخيل نسجل انتقالاً بالحديث عن "مشكل تعدّد التداولية محورياً، وهو مشكل لا يطرحه السرد بقدر ما يطرحه التخيل، ولكي نبين السمة المحورية للتخيل في علاقته بالسرد"³. أول سؤال يتبادر إلى أذهاننا هل توجد لغة خاصة بالتخيل أو بالأحرى لغة التخيل.

وإذا أقررنا بالفرق بين اللغتين لغة التخيل ولغة الخطاب العادي، فنجد غير ممكناً إلا إذا أخذنا بوجود لغة، يشترك كل من الخطاب التخيلي والخطاب العادي فيها، حيث تكتسي اللغة في الخطاب التخيلي حمولة معنوية غير التي تصبغها في الخطاب العادي... غير أن هناك من يرفض القول بوجود لغة خاصة بالتخيل، ويدعم أطروحته بالحجة التالية "فإذا كان التخيل يقتضي أن نمثّل شخصيات وأشياء وأحداثاً لا وجود لها في عالم الحقيقة، فإنّها يمكن أن تمثّلها إلا أنّها تستعمل نفس اللغة التي نستعملها في تمثيل شخصيات وأشياء وأحداث موجودة في عالم الحقيقة، بل إن نفس

¹ - Danielle Forget, Sens et Expression, John Searle, 1982, Trad et Préf. de Joelle Proust. coll. 'Le sens commun' Paris ; Minuit ; Québécoise de linguistique. P.233.

² - محمد القاضي آخرون، معجم السرديات، ص 77.

³ - جاك موشلار وأن ريبول، القاموس الموسوعي للتداولية، ص 455.

الأمر يحدث في التمثيل التابع لفن الرسم لشيء أو لشخصية أو لحدث تخيلي إذ يمثل نفس الوسائل التي يمثل بها شيء أو شخصية أو حدث موجود¹.

نستنتج مما سبق أننا لا نستطيع بأي حال من الأحوال القول بوجود لغة خاصة بالتخيل، وهنا نستدعي فكرة التمثيل أو التعبير عن أشياء خيالية بنفس اللغة التي نعبر بها عن تلك الأشياء في عالم الواقع، حيث يمكن للتخيل أن يستعمل وسائل أخرى للتمثيل كالرسم والمسرح والسينما وغيرها، إلا أننا في هذا الإطار لا نهتم إلا بالوسائل اللغوية المستعملة من قبل التخيل، وهذا ما يفعله كتاب الرواية حيث "يمكننا أن نفترض أن خطاب التخيل يختلف عن اللغة العادية، وليس ذلك من حيث اللغة التي يستعملها بل ربما من حيث الطريقة التي يستعمل بها هذه اللغة، وهذه الفرضية التي تجعل التخيل يكتسي في غياب خصوصيات لغوية خالصة خصوصيات تداولية نريد الآن أن ننظر فيها"². أو بمعنى آخر أن لغة التخيل تختلف عن اللغة العادية بالنسبة للتحليل التداولي لأنها تتطلب معلومات غير لغوية (السياق) لتتمكن من فهم العلامات اللغوية وغير اللغوية.

رأينا أننا إمكانية القول بوجود لغة خاصة بالتخيل وغيرها من الأمور، التي ترفض بالقول بخصوصية أشياء نجدها في الخطاب التخيلي، ولا نجدها في الخطاب العادي بعد الحديث عن لغة التخيل والقول بعدم إمكانية وجود لغة خاصة بالتخيل، نختم حديثنا بالقول أن التداولية كمنهج معاصر تدرس النصوص الأدبية واللغوية، أو بالأحرى النصوص التواصلية والتخييلية على حد سواء، بالتركيز على نقطتين: أولها النظر إلى النصوص التخييلية على أنها نصوص تواصلية، ثانيهما إيعاز أهمية قصوى للسياق باعتباره الآلية التي يمكن بها ولوج عالم النص والغوص في أعماقه، بالرغم من رؤية البعض أن النص التخيلي نص بعيد عن السياق الذي أنتج فيه،

¹ - المرجع نفسه، ص 461.

² - جاك موشلار وأن ريبول، القاموس الموسوعي للتداولية، ص 462.

باعتباره خطابا خياليا أو بوصفه عملا لغويا غير مباشر... أي باعتباره ضربا من الاستعارة القصوى على حد قول "سيرل" حيث "يقدّم الخطاب الخيالي بوصفه عملا لغويا غير مباشر... ضربا من الاستعارة القصوى (hypermétaphore)، فدلالته تتجاوز الملفوظ ذاته، وترتكز مواضع (مضمرة) خاصّة وعلى عقد... واقع بين الكاتب والقارئ، إنّها طريقة مخصوصة في اللّعب مع العلامة"¹.

بعد الحديث عن إمكانية وجود لغة خاصة بالتخييل، وعن التداولية وعلاقتها بالخطاب التخيلي وصولا إلى القول أنّه لا يمكن القول بوجود لغة خاصة بالتخييل، وأن التداولية تعنى بالنص الأدبي كما النص التخيلي باعتبارهما خطابان تواصلان بامتياز... سنستعين بتحليل (الخطاب الروائي) بالاعتماد على ما وضعناه سابقا من إجراءات تداولية، وأخرى متعلقة بالتحليل النقدي للخطاب كما سنبرز في هذا العنصر.

3/ التحليل النقدي للخطاب: Critical Discourse Analysis

نروم في هذا الجزء المعنون بالتحليل النقدي للخطاب، تبين العلاقة الجامعة بين الاتجاهين أو الميدانين المعرفيين (التحليل النقدي للخطاب والتداولية)* الملتقيان في نقطة واحدة وحاسمة وهي السياق، وسنوضح ذلك عبر الحديث عن اختلاف وجهات النظر عند مجموع الباحثين الذين تبنا هذه الطريقة في التحليل وباعتبارهم روادا أرسوا دعائم هذا الاتجاه... معتمدين في ذلك على مختلف ما كتب حول هذا التوجه،

¹ -فيليب بلانشيه، التداولية من أوستين إلى غوفمان، ص 194.

* إذا كان تحليل الخطاب ولغويات النص يضيفان إلى التداولية بعدا نصيا كليًا ويخلصانها من انكفائها على المفردات والعبارات والجمل والحوارات المجتثة من نصوصها أو المفتعلة فإن التحليل النقدي للخطاب critical discourse analysis وهو ينتمي إلى نفس الاتجاهات الوظيفية في تناول اللّغة والخطاب ويتفق معها في رفض السلوكية والبنبوية المجردة، وفي الاهتمام بالسياق والمقام وبالوظيفة والغاية، يخلص، ويضيف انشغالا لا بد منه وهو صراع القوى والإرادات والمعتقدات، بالتحايل والاحتيايل والقمع والقهر، والتمييز، والدعاية والترويج و"غسيل المخ" والتشويه والتجميل في اللّغة وباللغة... يتسم التحليل النقدي للخطاب بالوعي بالذات وتوجهاتها وانحيازاتها، لأنّ من يمارسونه هم بشر كالبشر. أنظر: بهاء الدين محمد مزيد، تبسيط التداولية -من أفعال اللغة إلى بلاغة الخطاب السياسي، شمس للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2010، ص105.

وكذلك لتقديم المسووعات التي تسمح لنا بتبني هذا التوجه في التحليل، ولكي نعين أنفسنا ونعين الباحث على فهم الجزء المخصص للتطبيق ولملمة حثيثاته.

بادئ ذي بدئ سنرصد أهم ما تضمنه كتاب "مناهج التحليل النقدي للخطاب"

الحاوي

لمجموعة من المقالات لرواد هذا التوجه في التحليل، تحمل كل واحدة منها مجموعة من الأطر والمفاهيم النظرية، بالإضافة إلى المبادئ التحليلية المتباينة من ناقد إلى آخر، إلا أنهم يجمعون في أنه على المحلل النقدي للخطاب ألا يطبق تلك المبادئ قاطبة، وإنما يأخذ منها الذي يتماشى ومقتضيات بحثه، بناء عليه سنقدم خلاصة عن بعض هذه المقالات، بالتركيز على أهم الأفكار إلى جانب المفاهيم النظرية والتطبيقية الماثرة في هذه المتون، والتي تعيننا في دراستنا لتمثيل القمع السلطوي في الرواية العربية المعاصرة.

تتصوي تحت اتجاه التحليل النقدي للخطاب مجموعة من الاتجاهات أو النظريات المستقاة من مشارب مختلفة لاختلاف روادها ومؤسسيها، وعليه يرى كل من "روث فوداك" * و"ميشال ماير" * في مقالهما أنه لا توجد سمة منهجية واحدة للبحث

* كتاب "مناهج التحليل النقدي للخطاب"، تحرير: روث فوداك وميشال ماير ترجمة: حسام أحمد فرج وعزة شبل محمد ومراجعة وتقديم: عماد عبد اللطيف، تضمن هذا الكتاب سبع مقالات وهي كالاتي: 1/ التحليل النقدي للخطاب: التاريخ والبرنامج والمنهجية، بقلم روث فوداك وميشال ماير 2/ الجوانب النظرية والمنهجية في التحليل النقدي للخطاب وتحليل التصرفات لدى فوكوه، بقلم سيجفريد ياجر وفلورنتاين ماير. 3/ دراسات الخطاب النقدي: المقاربة المعرفية-الاجتماعية، بقلم: أ.تون فان ديك. 4/ المقاربة التاريخية للخطاب بقلم مارتن رايزجل وروث فوداك. 5/ فحوص وتوازنات: كيف تصيف المدونات اللغوية إلى التحليل النقدي للخطاب، بقلم: جيرلاند ماوتتر. 6/ الخطاب باعتباره إعادة تشكيل سياق الممارسة الاجتماعية: دليل إرشادي، بقلم: ثيو فان ليفن. 7/ مقارنة جدلية -علائقية للتحليل النقدي للخطاب في البحث الاجتماعي، ب قلم، نورمان فيركلف.

* روث فوداك: أستاذة متميزة لدراسات الخطاب بجامعة لانكستر. اهتماماتها الخطابية تتركز على دراسات الخطاب، ودراسات النوع، واللغة و/في السياسة، والتحيز والتمييز، وأيضا على المنهج الاثنوگرافي في العمل اللغوي الميداني. وتتضمن قائمة كتبها التي نشرت مؤخرا: Ist ostreich ein deutsches land (مع آ ردي سيليا،

في التحليل النقدي للخطاب، بل على العكس من ذلك تماما فإن الدراسات المتنوعة في التحليل النقدي للخطاب شديدة التباين، وتدرس بيانات مختلفة بمنهجيات متباينة، وتعريفات ومصطلحات مثل: "الخطاب" أو "نقدي" و"إيديولوجي" و"السلطة" وغيرها تعدّ متعددة أيضا، ولهذا فإن أي نقد للتحليل النقدي للخطاب يجب أن يحدد أي بحث أو باحث يتوجه إليه، ومن ثمّ فإننا نقترح استخدام مصطلح "مدرسة" للإشارة إلى التحليل النقدي للخطاب، أو استخدام تعبير "برنامج" يجده الباحثون مفيدا، ويمكن أن ينتسبوا إليه¹.

ويؤكد توين فان ديك * على هذا التوجه إلا أنّه يرى في التحليل النقدي للخطاب وسيلة للتحليل بقوله: "لا يعدّ تحليل الخطاب النقدي اتجاها ومدرسة أو تخصصا إلى

(2006)، و Qualitative Discourse Analysis in the Sosial Sciences (مع ام كرزيزانرفسكي،

(2008)... وغيرها. أنظر: الموقع الالكتروني:

www.ling.lancs.ac.uk/profiles/265 للمزيد من المعلومات عن مشروعاتها البحثية الجارية وإصداراتها

الأخيرة أنظر: البريد الالكتروني: r.wodak@lancaster.ac.uk. أنظر، روث فوداك وميشيل ماير، مناهج التحليل النقدي للخطاب، ترجمة: أحمد فرح وعزة شبل محمد، مراجعة وتقديم: عماد عبد اللطيف، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2014، ص405 و406.

*ميشال ماير: أستاذ إدارة أعمال بوحدة الإدارة غير الهادفة للربح بجامعة العلوم الاقتصادية بفيينا (جامعة فيينا للعلوم الاقتصادية وشؤون الأعمال WU)، وهو باحث ذو خبرة في مجال السلوك المؤسسي، وتتضمن مجال تخصصه وبحوثه الحالية: الفنون الإدارية، والمؤسسات غير الهادفة للربح، والمجتمع المدني والمشاركة الوطنية، ونظرية النظم الاجتماعية، والنظرية المؤسسية والوظائف. لإصداراته انظر: الموقع الالكتروني-www.wu-wien.ac.at/npo/english/team/mm البريد الالكتروني: Michael.meyer@wu-wien.ac.at أنظر، روث فوداك وميشيل ماير، مناهج التحليل النقدي للخطاب، ص403.

¹ - روث فوداك وميشيل ماير ، مناهج التحليل النقدي للخطاب، ص25.

*توين فان دايك: كان أستاذا لدراسات الخطاب بجامعة امستردام حتى عام 2004 وحاليا هو أستاذ بجامعة بومبيو فابرا ببرشلونة. وبعد إبداعاته الخلاقة حول الشعرية التوليدية ونحو النص وسيكولوجية معالجة النصوص- اتخذ عمله منذ عام 1980 منظورا أكثر نقدية، متناولا العنصرية الخطابية، والأخبار في الصحافة والايديولوجية، والمعرفة والسياق. وهو مؤلف لعدة كتب في معظم هذه المجالات، فقد قام بتأليف كتاب The Handbook of discourse Analysis (4 مجلدات 1985)، والكتاب التمهيدي Discourse Studies والكثير من الكتب. لمزيد من المعلومات انظر: الموقع الالكتروني:

www.discourses.org البريد الالكتروني: teun@discourses.org أنظر، المرجع نفسه، ص404 و405.

جانب "المقاربات" العديدة في دراسات الخطاب، بل يرمي إلى تقديم "وسيلة" أو "منظور" مختلف في وضع التنظير والتحليل والتطبيق في الحقل برّمته، فقد نجد منظورا أكثر أو أقل أهمية في المجالات المختلفة كالتداولية، وتحليل المحادثات وتحليل السرد، والبلاغة والأسلوبية، و علم اللّغة الاجتماعي، وعلم وصف الأصول العرقية(الاثنوغرافيا)، وتحليل وسائل الإعلام وغيرها¹.

أما بالنسبة لهذا التوجه في التحليل عريبا فـ" لا بدّ أولا أن نوضح اللبس الذي أفرزه مصطلح"التحليل النقدي" الذي كثيرا ما يحيل إلى أن الأمر يتعلق بالدراسات النقدية للأعمال الأدبية، بمعنى أن التصور الغالب لهذا المصطلح هو أن التحليل النقدي للخطاب منهج نقدي للتمييز بين مواطن الجودة والرداءة، أو إته منهج نقد أدبي معاصر، والحقيقة أن مفهوم "النقد" هنا لا علاقة له بالنقد الجمالي أو البنيوي أو النفسي أو الثقافي... وإنّما المفهوم المقصود هو فضح النوايا والمرامي السلطوية غير الصريحة، التي تضمهرها الاختيارات اللسانية في الخطاب الأدبي، أو السياسي، أو الإعلامي، أو القانوني، أو الاقتصادي، أو الدعوي، أو الإعلانّي، أو أي صنف من أصناف الخطابات"².

وعليه فعلى الباحث على هذا البرنامج في التحليل أن يحدّد البحث الذي سيعتمد عليه في التحليل والباحث الذي سينتسب إليه، إلا أنّي أرى أنّه لا ضير من محاولة الجمع بين هذه الآليات المتباينة في التحليل، كما سبق وأشرنا، كون أن جل هؤلاء الباحثين يجمعون على أن الخطاب هو ممارسة اجتماعية كاشفة لعلاقات السلطة المباشرة أو غير المباشرة عبر الهيمنة أو سوء استعمال السلطة وغيرها من الطرائق.

¹-توين فان ديك، الخطاب والسلطة، مراجعة وتقديم: عماد عبد اللطيف، المركز القومي للترجمة، ط1، 2014، ص190.

²- مؤلف جماعي، التحليل النقدي للخطاب، مفاهيم ومجالات وتطبيقات، إشراف وتحرير: محمد يطاوي، المركز الديمقراطي العربي، برلين، ط1، 2019، ص13.

3. 1/ التحليل النقدي للخطاب* الإطار النظري والمفاهيمي:

ظهر اتجاه التحليل النقدي للخطاب في تسعينيات القرن العشرين ويصرح "فان ديك"، أحد أهم أقطاب هذا الاتجاه وبيّن موضوعه وحدوده* حيث يمثل بالنسبة له: " نمطا من بحوث الخطاب التحليلية التي تدرس-أساسا- سوء توظيف السلطة واستمرارها ومقاومتها والهيمنة الاجتماعية وعدم المساواة بواسطة النص والحديث في السياق الاجتماعي والسياسي، ويتمكن محللو الخطاب النقدي في مثل هذا الحقل البحثي من اتخاذ موقف يتحدى السلطة الاجتماعية المهيمنة بوضوح، لكي يفهموا ويفضحوا عدم المساواة الاجتماعية ومن ثم يقاومونها "1.

* التحليل النقدي للخطاب هو أفضل ما في الإمكان في ترجمة مصطلح Critical Discourse Analysis، وهو الترجمة الرائجة... أما تحليل الخطاب النقدي فربما ينجم عنه التباس المصطلح بالنقد الأدبي، لأن المقصود ليس تحليل "خطاب النقد الأدبي" (وهو ما يفعله النقد الشارح والنظرية النقدية الشارحة)، المقصود هنا هو تحليل الخطاب من وجهة نظر ناقدة، فيها تمحيص وتنفيذ ومساءلة، على معنى أن التحليل النقدي للخطاب لا ينكفي على السياقات الاجتماعية المهيمنة، ولا ينخدع بالمقولات الجاهزة، ولا بما تمارسه الايديولوجيات من تعمية، وتعتيم، وخداع، ولا يتوقف عند ما هو كائن، بل يتجاوز إلى ما يمكن أن يكون، ويسعى إلى إحداث تغييرات اجتماعية تبدأ من الوعي ولا تنتهي إلا به. أنظر: بهاء الدين محمد مزيد، تبسيط التداولية - من أفعال اللغة إلى بلاغة الخطاب السياسي، ص 105.

* يفضل فان ديك بالنسبة للتسمية مقولة الدراسات النقدية للخطاب بدلا من اسم التحليل النقدي للخطاب إلى جانب تفضيله اسم دراسات الخطاب بدلا من تسمية التحليل النقدي للخطاب ويعلل ذلك بقوله: "فعلى الرغم من شيوع تسمية تحليل الخطاب النقدي Critical Discourse Analysis الآن عموما، إلا أننا نود أن نقترح تغييرها إلى دراسات الخطاب النقدية Critical Discourse Studies لعدة أسباب أهمها: أن دراسات الخطاب النقدية ليست منهجية لتحليل الخطاب، كما هو المفترض في أغلب الأحيان، لاسيما في مجال العلوم الاجتماعية، ففي الواقع ليست هناك منهجية من هذا القبيل، إذ إن دراسات الخطاب النقدية تعتمد أي منهج ملائم بتحقيق أهداف مشروع بحثها. ومثل هذه المناهج هي التي اعتمدت -إلى حد كبير- في دراسات الخطاب عموما. وللسبب نفسه، لا يعدّ تحليل الخطاب -بحد ذاته- منهجا، بل هو مجال للممارسة العلمية يتوزع بين ميادين العلوم الإنسانية والاجتماعية كلّها، وللسبب نفسه -أيضا- أفضل إطلاق تسمية دراسات الخطاب على هذا الميدان من المعرفة. أنظر: فان ديك، الخطاب والسلطة، ص 31.

¹ - توين فان ديك، الخطاب والسلطة، ص 189.

إن التحليل النقدي للخطاب حسب "فان ديك" يهدف إلى القول بوجود سلطة اجتماعية خفية تتحكم في الكلام وفي النصوص على حدّ سواء، حيث يبرز دور المحلل النقدي للخطاب في الكشف عن هذه السلطة ومقاومتها عبر السياقات الاجتماعية والتاريخية وحتى الثقافية المفعلة لها، "وانطلاقاً من مجال التداوليات، من النقاد من زعم أن التحليل النقدي للخطاب لا ينظر عن كثب دائماً إلى السمات اللسانية للتفاعلات، بل ثمة شروع تجاه القفز السريع نحو السياق الكبير، وذلك بواسطة صياغة إثباتات تخصّ كيفية ربط العلاقات الكبرى بالتفاعلات الصغرى"¹.

يقوم التحليل النقدي للخطاب وفق هذا التصور على ركيزة أساسية مفادها أن الخطابات اليومية العادية منها وغير العادية... العلمية أو غير العلمية الموجودة في تعاملاتنا في مؤسساتنا، في عاداتنا، في تقاليدنا في موروثاتنا وحتى في أدبنا هي نصوص أو خطابات غير بريئة توجهها مجموعة من المعتقدات والإيديولوجيات، عبر سلطة اجتماعية يطمح هذا الاتجاه إلى الكشف عنها والتصدي لها.

يفصّل "نورمان فيركلف" * أحد أهم مؤسسي هذا الاتجاه في الأهداف المرجوة من التحليل النقدي للخطاب، ويظهر ذلك جلياً في مقدمة كتابه التأسيسي "اللغة والسلطة" عند حديثه عن الأسباب التي دفعته إلى الكتابة حول الروابط بين استعمال اللغة وعلاقات السلطة غير المتكافئة ويديرها في هدفين "الأول نظري: وهو المساعدة

¹ - روث بريز، مقال التحليل النقدي للخطاب ونقاده، ترجمة: أحمد الملاخ، مجلة جامعة أم القرى لعلوم اللغات وآدابها، العدد 23، مارس 2019، ص 337.

* نورمان فيركلف: أستاذ اللغة في الحياة الاجتماعية غير المتفرغ بجامعة لانكستر بالمملكة المتحدة. وقد كتب باستضافته في مجال التحليل النقدي للخطاب وتتضمن مؤلفاته الرئيسية: 1979 Language and Power،

Discourse and Social Change 1992، وغيرها من المؤلفات... واهتمامه الحالي الرئيسي هو

باللغة (الخطاب) بوصفه عنصراً في التغييرات الاجتماعية المعاصرة، كما هي مشار إليها بالعولمة، و"الليبرالية الجديدة"، و"الرأسمالية الجديدة"، و"المعرفة الاقتصادية" وما إلى ذلك. وعبر السنوات الثلاثة الأخيرة بات يشغل تحديداً على أبعاد "التحول" في أوروبا الوسطى والشرقية، خاصة في رومانيا، من منظور تحليلي للخطاب. أنظر:

الموقع الإلكتروني: www.ling.lancs.uk/profiles/263 البريد الإلكتروني:

n.fairclough@lancaster.ac.uk

على تصحيح ظاهرة واسعة الانتشار ألا وهي التقليل من أهمية الدور الذي تضطلع به اللغة، في إنشاء علاقات السلطة الاجتماعية والحفاظ عليها وتغييرها، والثاني عملي وهو المساعدة على زيادة الوعي بالأسلوب الذي تسهم به اللغة في تمكين بعض الناس من السيطرة على البعض الآخر، لأن الوعي يمثل الخطوة الأولى على طريق التحرر¹.

يرتبط التحليل النقدي للخطاب بالنسبة لـ"فيركلف" بقوة اللغة في إنتاج علاقات السلطة وتحقيقها، وذلك عبر نشر الوعي بالطريقة التي تسهم بها اللغة في سيطرة مجموعة بشرية على مجموعة أخرى عاملة بذلك على التحرر وينحو في ذلك نفس منحى "فان ديك"، بالنظر إلى أن جميع الخطابات حتى البسيطة هي خطابات متضمنة لسلطة ما، على المحلل النقدي تأويلها عبر ربطها بعلاقات السلطة في المجتمع.

يرتكز التحليل النقدي للخطاب على مقولة "الخطاب متجذرا اجتماعيا"، فهو من جهة مبني اجتماعيا، ومن جهة ثانية يلعب دورا في بناء واستدامة (إعادة الإنتاج) البنيات والعلاقات الاجتماعية-يعلم التحليل النقدي للخطاب عن التزامه الاجتماعي². يوعي هذا الالتزام الناس بالطريقة التي تتحور بها اللغة لتهيمن على البشر خدمة لمقاصد وتوجهات خفية.

يكتسي التحليل النقدي للخطاب في أطره العامة مجموعة من المقاربات المتباينة نوعا ما ولكنها تشترك في نقطة واحدة هي النظر إلى قوة اللغة في إنتاج الهيمنة، أما أسسه ومنطلقاته تنبع من التزامه الاجتماعي وقوة اللغة التي "تشكل المجتمع والثقافة كما تتشكل بهما، وأن اللغة أو الخطاب حقيقة تاريخية وفعل اجتماعي مؤثر، وأن اللغة تحقق غايات إيديولوجية، وأن هناك ما يتوسط العلاقة بين النص والمجتمع/العالم ألا

¹ - نورمان فيركلف، اللغة والسلطة، ترجمة: محمد عناني، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2016، ص15.

² - روث بريز، التحليل النقدي للخطاب ونقاده، ترجمة: أمحمد الملاح، ص 335.

وهو الوعي أو الإدراك، وأنّ مهمة تحليل الخطاب لا تقتصر على الشرح والوصف بل تتجاوزهما إلى التفسير والتأويل¹.

يؤكد "فيركلف" على هذا التصور حيث أن على المحلل النقدي للخطاب أن لا يكتفي بمجرد وصف دور اللغة في المجتمع، بل استقراء فعل اللغة والمضمرات الناجمة عنه بعبارة فيركلف: "يستلزم الفعل النقدي إبراز الروابط والأسباب الخفية-، ممّا يعني فك شفرة العمليات الايديولوجية، مادامت الأنظمة الخطابية للايديولوجيا تسعى إلى إخفاء صراعات السلطة التي تعتمل في العالم الاجتماعي"².

يتفق رواد التحليل النقدي للخطاب على هذا التصور، حيث يصرّ "فان ديك" كذلك أنه على المحلل وفق هذا التوجه أن يتجاوز مجرد الوصف والشرح لبنى الخطاب بل "يجب شرحها وفقا لخواص التفاعل الاجتماعي والبنية الاجتماعية... وبالتركيز على السبل التي تنتهجها بنى الخطاب في تفعيل علاقات السلطة والهيمنة في المجتمع وتنفيذها وتأكيدا واستمرارها أو تحديها أو إضفاء الشرعية عليها"³.

يجعل عنصر إضفاء الشرعية على الاستعمال المضلل للغة الوضع معقدا حين تجد لغة الهيمنة (هذه) سندا لها من السلطة القائمة (ف) تفضي عمليات الحذف ومقصّ الرقابة، وإن كانت صارخة بما تحمله من التسليط والقمع إلى التعتيم (Mystification) على تلك الهيمنة وإخفاء ذلك القمع⁴.

¹ - بهاء الدين محمد مزيد، تبسيط التداولية - من أفعال اللغة إلى بلاغة الخطاب السياسي، ص 106.

² - روث بريز، مقال التحليل النقدي للخطاب ونقاده، ص 303 و 304.

³ - أنظر فان ديك، الخطاب والسلطة، ص 191.

⁴ - محمد لطفي الزليطي، مقال: من تحليل الخطاب إلى التحليل النقدي للخطاب، جامعة الملك سعود السعودية، مجلة الخطاب، العدد 17، ص 11.

ومن التساؤلات التي تشغل أقطاب هذا الاتجاه من هو "المسؤول عن استعمال اللغة على هذا النحو المضلل المربك، الذي ييقي الجهل قابعا على العقول وبقيد الناس بأدوار حدّدت لهم مسبقا ضمن المنظومة الاجتماعية والاقتصادية القائمة"¹.
يمنح هذا التقييد الشرعية للمسؤولين، أو لمن يملكون سلطة داخل المجتمع باختلاف توجهاتهم أو الأماكن التي يشغلونها، أو المناصب التي يتقلدونها وحتى الهيئات التي ينتمون إليها ما يبرر هذا الاستعمال السيء لسلطة اللغة ويبرر القمع المنتهج.

إلا أن المحلل النقدي للخطاب يواجه مجموعة من العقبات في طريقة تأويله للخطاب، وهي الاكتفاء بالتأويل دون النظر في السياقات الاجتماعية التي أنتجت ذلك الخطاب وفعلته فيقع المحلل في تأويل ذاتي، عبر محاولة لتعرية السلطة المتضمنة في الخطاب والموجهة له "أي إن ثمة طابعا شبه ذاتي يطبع النتائج التي يتوصل إليه المحللون الناقدون للخطاب وأظن أن هذا راجع إلى إغفال التلقي الفعلي للخطابات من قبل جمهور معين في سياق محدد"². وعليه سنحاول في الجزء المخصص للتطبيق أن نأخذ بعين الاعتبار أن النصوص الروائية المختارة، هي نصوص أنتجت في زمن معين لجمهور معين وأفرزها سياق معين.

رأينا في مقدمة هذا الجزء أن هناك تباين، في اختلاف وجهات نظر محللي الخطاب النقديين، في الكيفية التي تشغل بها اللغة لتحقيق السلطة والايديولوجيا داخل الخطاب، ولذلك نركز جّل تعريفات الرواد حول العلاقة التي تجمع هذا الثالث (الايديولوجيا، السلطة، الخطاب)، ركائز هذا التوجه إلى جانب مفاهيم أخرى كالهيمنة، السيطرة، سوء استعمال السلطة، اللامساواة، الصراع السياسي... وغيرها، وعليه سنحاول تسليط الضوء على أبرز هذه المفاهيم وشرح مضامينها، بالنسبة لأهم

¹ - محمد لطفي الزليطي، مقال: من تحليل الخطاب إلى التحليل النقدي للخطاب، ص12.

² - روث فوداك وميشيل ماير، مناهج التحليل النقدي للخطاب، المقدمة، ص09.

رواد هذا الميدان من المعرفة وأبرزهم على الساحة النقدية وذلك وفق ما يتماشى ومعطيات الدراسة.

3. 2/ مفهوم الخطاب عند رواد التحليل النقدي للخطاب:

يتجلى مفهوم الخطاب عند كل من "روث فوداك وميشال ماير" بالنظر إلى اللغة، على أنها ممارسة اجتماعية حيث: "يعتبر سياق استخدام اللغة أمرا حاسما... فإنه يثير قضايا اجتماعية مهمة للسلطة، وقد يكون لممارسات الخطابات تأثيرات إيديولوجية رئيسية -أي أنها تساعد على إنتاج أو توالد علاقات سلطوية غير متكافئة بين الطبقات الاجتماعية، وبين السيدات والرجال، وبين الأغلبية والأقلية الثقافية والعرقية على سبيل المثال من خلال أساليب تمثيل الأشياء، وتقسيم الأفراد"¹. يعني ذلك أن الخطاب هو ركيزة اجتماعية أو ممارسة ذات تأثير إيديولوجي، تقضي إلى معرفة الهويات الاجتماعية للأفراد والجماعات والعلاقات المبنية بينهم، والتي تحتكم في جوهرها إلى أساس سلطوي.

يرى كلا من "سيجفريد ييجر" * و"فلورنتين ماير" * في مقالهما المعنون الجوانب النظرية والمنهجية في التحليل النقدي للخطاب وتحليل التصرفات لدى فوكوه

¹ - روث فوداك وميشال ماير، مناهج التحليل النقدي للخطاب، ص 25 و 26.

* سيجفريد ييجر: كان أستاذ اللغة الألمانية بجامعة دويسبورغ/ايسن (ألمانيا) منذ عام 1972، ومنذ عام 1987 كان أيضا عميد معهد دويسبورغ للغويات والبحوث الاجتماعية. ومجالات بحثه الرئيسية هي نظرية الخطاب والتحليل النقدي للخطاب بناء على نظرية ميشال فوكوه. وقد قام بعدة مشروعات تتناول نطاقا متسعا من الموضوعات مثل: الحواجز اللغوية، الهجرة والعنصرية في وسائل الاعلام والحديث اليومي وغيرها... ولإصداراته أنظر: الموقع الإلكتروني: www.diss-duisburg.de

البريد الإلكتروني: s.jaeger@diss-duisburg.de أنظر: روث فوداك وميشال ماير، مناهج التحليل النقدي للخطاب، ص 401 و 402.

* فلورنتين ماير: باحثة مساعدة في الوحدة الأكاديمية للإدارة غير الهادفة للربح بجامعة العلوم الاقتصادية بفينا، وأولى مجالات بحثها هو انتشار الإدارية بالمؤسسات غير الهادفة للربح، وتوظيف كبار السن من العاملين. البريد الإلكتروني: florentine-maier@wu-wien.ac.at أنظر: روث فوداك وميشال ماير، مناهج التحليل النقدي للخطاب، ص 402.

Foucault أن الخطابات على اختلافاتها ليست تعبيراً محضاً عن الممارسات الاجتماعية "بيد أنها تخدم كذلك أهدافاً محددة، هي على وجه التحديد، ممارسة السلطة"¹.

يصبح الخطاب هو السلطة في حد ذاتها، ويسعى إلى تحقيق مجموعة من الأهداف المحددة وهو نفس منحى "فوكو" في أطر نظريته* التي قوامها أن الخطاب يشكل سلطة في حد ذاته، والتي يتخذ الباحثان منها أساساً في دراستهما.

نعلم بوجود اختلافات لدى الباحثين في هذا الاتجاه حول تعريف الخطاب وتحديد ماهيته، لكنهم يستمدون من نقد "فوكو" للبنوية "في تركيزه على الطبيعة المنفلتة للبناءات الاجتماعية، والطبيعة المتحولة لعلائق السلطة، والدور المركزي للخطاب في تشكيل العلاقات الاجتماعية...ممحوراً اهتمامه حول الممارسات الخطابية في عالم تصير فيه كلّ الخطابات نسبية وفي تحول مستمر"².

تشكّل الممارسات الخطابية للمجتمع والمؤسسات على حد سواء نظام الخطاب، وهي في حقيقتها خطابات سلطوية غير بريئة ونمّثل لهذه الممارسات الخطابية السلطوية المؤسسية حوار بين المدير والعامل حول انجاز مهمة ما، فالطريقة التي سيأمر بها المدير العامل هي طريقة فيها نوع من السلطة، وهذه السلطة تقتضي بالضرورة عدم الاعتراض من قبل العامل على انجاز هذه المهمة، والخضوع التام لرغبة المدير وأوامره... والذي يفسّر تلك الطاعة هو كون المدير محل سلطة عالية تفوق السلطة الموجودة عند العامل البسيط، الذي قد يفقد عمله لمجرد رفضه القيام بهذه المهمة، أو حتّى التقاعس على أدائها.

¹ - روث فوداك وميشيل ماير، مناهج التحليل النقدي للخطاب، ص 82.

*أنظر: الفصل الثاني من هذه الدراسة، سيتضمن حديثاً مفصلاً عن علاقة السلطة بالخطاب بالنسبة لـ "فوكو".

² - روث بريز، مقال التحليل النقدي للخطاب ونقاده، ص 295.

وقس على ذلك في معاملاتنا ومؤسساتنا وحتى حواراتنا العائلية...تستند كلّها أو تحكمها مجموعة من القيود الاجتماعية المفروضة ، على التمتع بممارسات خطابات معينة على حدّ قول فوكو حيث يفترض على من هم في "من هم في وضع السلطة أن يستخدموا صيغا من اللّغة مهذبة في ظاهرها، حتّى يحملوا غيرهم على أداء أعمال لهم"¹.

ومثال ذلك أن يطلب المدير من سكرتيّته أن تنجز له أمرا ما فيقول لها من فضلك هل يمكنك تحضير الأوراق الخاصة بالاجتماع في غضون ساعة؟ فتجيبه بالقول حسنا سأفعل. هذه الطريقة في الطلب تندرج عند "فيركلف" وفق ما يسمى معيار "التأدب"، ... في حين أن المدير لو طلب من السكرتيرة إنجاز هذا العمل بصفة غير مؤدبة فذلك يقتضي الرفض من قبلها أو حتّى التماطل في إنجاز المهمة المؤكدة لها.

يقترح "فيركلف" في كتابه "الخطاب والتغيّر الاجتماعي" في الفصل الثالث المعنون بنظرية اجتماعية للخطاب في استعماله لمصطلح الخطاب "اعتبار استخدام اللّغة شكلا من أشكال الممارسة الاجتماعية، لا مجرد نشاط فردي أو ردّ فعل للمتغيرات الموقفية وتترتب على هذا أمور شتّى، وكذلك بعض الخطاب نوعا من التمثيل، وقد أصبحت هذه النظرة إلى اللّغة مألوفة، وإن كانت كثيرا ما تصطبغ بصفة فردية، بفضل الفلسفة اللغوية والتداولية اللغوية"². ينحو في مفهومه للخطاب منحى تداوليا في اعتباره للخطاب فعلا، يجسّد ردة فعل للأشخاص في معاملاتهم مع بعضهم البعض في الحياة.

¹ - سارة ميلز، الخطاب، ترجمة : عبد الوهاب علوب، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2016، ص54.

² - نورمان فيركلف، الخطاب والتغيّر الاجتماعي، ترجمة: محمد عناني، المركز القومي للترجمة، ط1، 2016، ص86 و87.

ويعصرّ على هذا المفهوم للخطاب المستخدم للغة كونها ممارسة اجتماعية... ويظهر ذلك جلياً في كتابه "اللغة والسلطة" في عنوانته للفصل الثاني "الخطاب باعتباره ممارسة اجتماعية" قائلاً: "مفهوم اللغة الذي نحتاج إليه في الدراسة النقدية للغة هو الخطاب، أي اللغة باعتبارها ممارسة اجتماعية تتحكم فيها الأبنية الاجتماعية. الخطاب ونظم الخطاب: الخطاب الفعلي تتحكم فيه نظم الخطاب التي يشكلها المجتمع، وهي مجموعات من الأعراف المرتبطة بالمؤسسات الاجتماعية".¹ يضيف على ما سبق أن أنظمة الخطابات المتمثلة في القوانين المنتهجة من قبل المجتمع، والمتعلقة بالمؤسسات الاجتماعية هي المتحكم الرئيسي في خطاباتنا والمحافظ على علاقات السلطة داخل المجتمع.

يلح فيركلف على هذا التصور في الجزء المسمى "بجدلية الأبنية والممارسات" في كتابه "اللغة والسلطة"، أين ينوّه بالأهمية الكبرى للخطاب فيقول: "إن الخطاب يكتسب أهمية كبرى من حيث علاقات السلطة والصراع على السلطة، إذا أن تولي أصحاب السلطة في المؤسسات والمجتمع السيطرة على نظم الخطاب يمثل أحد عوامل الحفاظ على السلطة".² أي أن الهيمنة على الوسائل السمعية البصرية، ووسائل الاعلام بصفة عامة من قبل رؤساء الدول أو قادة الأحزاب وغيرهم، ممّن لهم شأن في سلك السلطة، الذين يستثمرون هذه السيطرة للحفاظ على مكانتهم، وبتمرير خطابات مخاتلة تساهم لا محالة في ترسيخ جذورهم السلطوية، وفروعها الممتدة على مختلف أجهزة الدولة الايديولوجية.

يضيف أيضاً في الجزء المسمى "إعادة إنتاج الطبقة: المرامي الخفية" حديثاً حول كون الأنظمة الخطابية المشكلة من قبل المجتمع والسيطرة على خطاباتنا هي:

¹ -نورمان فيركلف، اللغة والسلطة، ص35.

² - المرجع نفسه، ص60.

سيطرة غير مباشرة و"خفية" مثل تأثيرها في المستويات للبناء الاجتماعي، ولذلك لا تبدو السيطرة واضحة، ولا يبدو تأثيرها المذكور واضحا للذوات [الأفراد] في المسار المعتاد للأحداث، ويقول "بورديو" لما كانت الذوات، إن شئنا دقة التعبير لا تعرف ما تفعل، فإن ما تفعله ذو معنى يتجاوز ما تعرفه¹. يتضح أنّ هناك سلطة خفية ومسيطرة كما سبق وأشرنا تتحكم في البنى الخطابية الاجتماعية، لشتى المؤسسات ومنها إلى الخطابات ذاتها مما يجعلها تبدو عادية إن لم نقل طبيعية للأفراد الذين يتلقونها، ممّا يجعل تصرفات الأفراد اتجاهها تبدو عفوية، إلّا أنّهم قد برمّجوا ليتصرفوا وفق ذلك المنطلق، حتّى وإن تبدى لهم بأنهم يعرفون ما يفعلون لكن ردة فعلهم تتجاوز ما يعرفونه وفق رؤية "بورديو" Bourdieu.

أما بالنسبة لـ "سارة ميلز" Sara Mills* في كتابها "الخطاب" فتضمنه تعريفا للخطاب قالت به جماعة من اللغويين على حدّ قولها واللغويون هاهنا باعتبارهم محلي "خطاب نقدي" أي أنهم يحلّلون نصوصهم وفق منظور سيّاسي وذلك لقولهم "إنّ اللغة أداة محورية في العملية التي تشكل الناس باعتبارهم أفرادا و-أو ذوات اجتماعية بما أن اللغة والايديولوجيا متداخلتان بصورة وثيقة، فإن التحليل النظامي الدقيق للغة النصوص يمكن أن يكشف بعضا من جوانب النصوص، وبصورة أعمّ الطريقة التي يقهر بها الناس في البنى الاجتماعية الراهنة، فهما تدمجان قضايا السلطة والحقيقة والمعرفة، بعد البنيوية واهتمام الماركسية بالظلم والقهر في مناهجها التحليلية اللغوية، وتشمل هذه الجماعة "محلي خطاب نقدي" من أمثال "نورمان فيركلو" و"روث ووداك"

¹ - نورمان فيركلف، اللغة والسلطة، ص 64.

*أستاذ بحوث في مدرسة الدراسات الثقافية التابعة لجامعة شيفيلد هالام، نشرت أعمالا من النظرية اللغوية والأدبية النسوية والنظرية النسوية بعد الاستعمارية، وهي مؤلفة مجلد "مفكري روتلج النقديين" عن ميشيل فوكو (2003).

و"توني تريو" و"جونثر كريس" و"جوانا ثورنبور" و"وجرفاولر" *... الذين وجدوا أن مصطلح خطاب يفيد في وصف البنى فوق مستوى الجملة لكنهم أكثر تأثرا بأعمال ميشيل فوكو... والنظرية السياسية من محلّي الخطاب¹.

وترى "ميلز" بأنّ تعريفهم للخطاب شديد التأثير بتعريف "فوكو" بقولها: "وتعريفهم للخطاب أكثر تأثرا بتعريف فوكو، ولو أنهم أدخلوا تعديلا جوهريا على المصطلح، وذلك لاهتمامهم بموقف أكثر قربا للأرض من فوكو، لذا فهم يقدمون نماذج عمل، وأمثلة ملموسة على كيفية عمل النصوص على إيجاد تفاوتات في القوة، وكيف أنّها أكثر اهتماما بآليات أداء العمل الخطابي"².

يتبين لنا التأثير الواضح لمحلّي الخطاب النقدي بتعريف "فوكو" للخطاب، حيث أن هذا الأخير اهتم بالآليات والإجراءات التي تتحكم في الخطابات والتي هي سلطوية بالضرورة كما وضعنا سابقا، وهذا نفسه ما ذهب إليه محلّي الخطاب النقدي عبر اهتمامهم بآليات العمل الخطابي، وإيجاد تفاوتات في قوة اللغة المنتجة للسلطة، وهو الأمر نفسه عند كل من "فوكو" في تعريفه للخطاب و"فيركلف" في حديثه عن الأهداف المرجوة من التحليل النقدي للخطاب كما سبق وذكرنا، وهم يركزون على اختيار بعض وسائل التعبير، والصيغ دون غيرها وكيفية مساهمتها في تجسيد السلطة. تبرز الإضافة التي أتى بها محلّو الخطاب النقدي إلى الفرق بين تعريف التحليل النقدي للخطاب عند كل من "فيركلف" و"فوكو" حيث يسمّيه محلّو الخطاب

*يمثلون حركة أكاديمية انتشرت بسرعة في علم اللسانيات والعلوم الاجتماعية منذ نشر أول كتاب لها في العالم 1979. بعنوان "اللغة والسيطرة" لمؤلفيه "روجر فاولر" Roger Fowler، و"بوب هودج" Bob Hodge و"جونثر كريس" Gunther Kress و"توني ترو" Tony Trew هم فريق من الباحثين تبنا ما أطلقوا عليه حركة "اللسانيات النقدية" إذ إنها مهمة -بصورة أساسية- بكيفية إعادة إنتاج السلطة عموما، وسوء توظيفها في المجتمع. يتناول هذا الكتاب ظاهرتين أساسيتين في المجتمع، هما الخطاب والسلطة، وهما كذلك من المفاهيم الأساسية لدراسات الخطاب النقدية Critical Discourse Studies أنظر: فان ديك، الخطاب والسلطة، ص19.

¹ -سارة ميلز، الخطاب، ص148.

² -المرجع نفسه، ص148 و149.

النقدي أو بالأحرى تسميتهم" لا تصف البنى الخطابية وحسب بل تبين أيضا أن الخطاب تصوغه علاقات قوة وايدولوجيا، وتوضح ما للخطاب من تأثيرات بناءة على الهويات الاجتماعية وأنساق المعرفة والعقيدة، والتي لا تظهر أي منها لأطراف الخطاب"، وهذا التحول من مجرد الوصف إلى منظور أكثر تحليلا ونقدا وهو ما يعدّ إعادة تأويل مهمة لآراء فوكو، من خلال اهتمام قالب علم اللغة بالتحليلات القابلة للتكرار والإثبات¹. بعد هذا التنظير والاختلاف حول التسمية لكل من الخطاب والتحليل النقدي للخطاب، لاحظ أن محلي الخطاب النقدي يجمعون على كون الخطاب هو ممارسة اجتماعية، إلا أنّها ممارسة مرتبطة بشقين مهمين وهما السلطة والايديولوجيا.

3.3/ الايدولوجيا والسلطة عند رواد التحليل النقدي للخطاب: رؤية كاليديوسكوبية (متعددة الجوانب).*

لن نقف عند هذا الجزء على تعريفات السلطة والايديولوجيا والعلاقة التي تجمعهما بالخطاب (سيتم التفصيل في هذه النقطة في الفصل الثاني من هذه الدراسة)، إنّما سنحاول الوقوف على أهم المحطات أو القضايا التي ربطها رواد هذا الاتجاه بهذه الركائز (الخطاب، السلطة، الايدولوجيا) لنستشف أهم الاستراتيجيات المطبقة داخل الخطابات المحلّة. عبر استنباط أبرزها من خلال مختلف اتجاهات التحليل النقدي للخطاب، ورؤاه المتفكّة أحيانا والمتباينة أحيانا أخرى. وحتى لا نخفي على القارئ حثثيات هذا الجزء الذي تغير برمته* بعد لقائنا الأول بأطروحة ماجستير الحاملة

¹ - سارة ميلز، الخطاب، ص166.

* كنا سنتطرق في هذا الفصل إلى أهم ركائز التحليل النقدي للخطاب وهي النقد السلطة التاريخ والايديولوجيا مع التطرق أيضا إلى مختلف اتجاهات التحليل النقدي للخطاب ومحاولة لملمة أهم فنيات التحليل إلا أن لقاءنا بالأطروحة السابقة الذكر جعلنا نلغي ذلك ونرى أن التطرق النظري للبحث لهذه الركائز والاتجاهات سيكون مشوبا بالنقص لقلة المراجع المترجمة حول هذا التوجه في التحليل، وكذلك كونه في بداياته الأولى بالنسبة لنا عربيا ما دفعنا إلى محاولة استنباط مجموعة من الاستراتيجيات من ذلك التنظير مستفيدين من ذلك من التقسيم الذي جاء به عبد الله حسن عبد الله بلقايد في أطروحته لكننا سنضيف عليها ما يتماشى مع المدونة قيد التحليل لأن الباحث

لعنوان التحليل النقدي للخطاب: "الخطاب الإعلامي للدول المحاصرة لقطر مثالا" إعداد عبد الله حسن عبد الله بلقايد الذي تطرق في دراسته إلى استراتيجيات التحليل النقدي للخطاب. وقسمها إلى قسمين الأول أدوات التحليل النقدي وسماتها اللغوية والثاني آليات التحليل النقدي للخطاب وسماتها اللغوية. سنوضحها في المخطط الآتي:

قارب خطابا إعلاميا ، ونحن في بحثنا هذا سنقارب نصا روائيا أي مع مراعاة خصوصية كل نص وفردته وكل ميدان وتوجهه عن الآخر.

أ/ أدوات التحليل النقدي للخطاب وسماتها اللغوية¹

أدوات التحليل النقدي للخطاب وسماتها اللغوية			
على مستوى التراكيب	على مستوى الجمل	على مستوى الصور البلاغية	على مستوى المفردات و العبارات المستخدمة
الأدوات النحوية	1/ اختيار الجمل الاستفهامية. 2/ اختيار الجمل الاسمية. 3/ اختيار الجمل الخبرية أو الإنشائية. 4/ اختيار الجمل المتبنة أو المنفية.		1/ استخدام الألفاظ والعبارات المقنعة. 2/ استخدام الألفاظ والعبارات العقلانية. 3/ استخدام الألفاظ والعبارات الملزمة. 4/ استخدام الألفاظ والعبارات المنحازة. 5/ استخدام الألفاظ المسلمة. 6/ استخدام الألفاظ التي توحى بالإدانة. 7/ استخدام الألفاظ التي تدل على التعميم. 8/ استخدام عبارات التهويل. 9/ استخدام العبارات التلطيفية أو التعريضية
الصيغ النحوية	1/ صيغة المبني للمجهول. 2/ اختيار صيغة الأمر. 3/ اختيار صيغة المضارع.		
1/ استخدام الضمائر. 2/ أدوات الوصل. 3/ أسماء الإشارة. 4/ أداة التعريف.			

¹ -أنظر، عبد الله حسن عبد الله القايد، التحليل النقدي للخطاب: الخطاب الإعلامي للدول المحاصرة لقطر مثالا - رسالة ماجستير-، إشراف: أ.دحافظ اسماعيلي، جامعة قطر، يونيو 2019. من 82 الى 102.

ب/ آليات التحليل النقدي للخطاب وسماتها اللغوية¹:

آليات التحليل النقدي للخطاب وسماتها اللغوية					
آلية التضامن	آلي التوجيه	آلية التلميح	آلية الحجاج	آلية الدين	آلية الدعاية الإعلامية (البروباغندا)
					1/ نشر الأكاذيب.
					2/ وسيلة التكرار.
					3/ تحفيز الإثارة العاطفية في المتلقين.
					4/ استعمال المثيرات.
					5/ تحفيز مشاعر الذعر والخوف في المتلقين.
					6/ الهجوم على الشخصيات والرموز.
					7/ تقديم النفس إيجابا والآخر سلبا (شيطنة الآخر).
					8/ الربط الزائف.
					9/ الإسقاط Projection.

إلى جانب الاستراتيجيات السابقة الذكر المتعلقة بأدوات التحليل النقدي للخطاب وسماتها اللغوية، رأينا ضرورة إضافة نوع آخر من الاستراتيجيات المبنية داخل الخطابات، والتي تتجاوز حدود الاختيارات اللسانية، كونها متعلقة بالايديولوجيا والسلطة أساس كل الخطابات لذا ارتأينا بتسميتها الاستراتيجيات الضمنية أوالمقنعة والتي سنوضحها في مايلي:

¹ -أنظر، عبد الله حسن عبد الله القايد، التحليل النقدي للخطاب: الخطاب الإعلامي للدول المحاصرة لقطر مثالا، للتوسع حول هذه الاستراتيجيات أنظر الصفحات من 103 الى 127.

3.3. 1/ الاستراتيجيات الضمنية/المقنعة:

1/السلطة والتحكم في الوعي الفردي: تلتف نظريات التحليل النقدي للخطاب حول أمر مهمّ وتسعى جاهدة لتحقيقه ألا وهو محاولة التخلص من الهيمنة، أي السلطة التي تفرضها الخطابات المتحكمة فينا من غير وعي منّا بقوة الايديولوجيا واللغة معا، وهو ما يصطلح عليه "ببيار بورديو" بالعنف الرمزي الذي يربطه بالدولة كونها أحد مبادئ النظام العام(العمومي) "والنظام (العمومي) العام ليس مجرد البوليس والجيش كما يوحي بذلك تعريف ماكس فيبر Max Weber له، أي احتكار العنف المادي. النظام (العمومي) العام يستند إلى الرضى: واقعة النهوض من النوم عند ساعة محددة يفترض قبولنا بالساعة المحددة"¹.

هذا القبول التلقائي والعفوي بالنهوض يوميا عند نفس الساعة، هو في صميم العنف المطبق على عقولنا بغير وعي منّا من قبل الدولة "على أكثر أفكارنا حميمية واقع إمكان أن يكون فكرنا مأهولا بالدولة، أو أن تكون الصلة مستقرة فيه، إنّما يشكّلان المثال القاطع على القسورات (غير المرئية)، التي تمارس على أولئك الذين يتعرضون لها ويتلقونها بتواطؤ منهم، وهو ما أسميه العنف الرمزي أو السيطرة أو الغلبة الرمزية، أي صور وأشكال القسر التي تستند إلى اتفاقات غير واعية بين البنى الموضوعية والبنى الذهنية"².

يشير "بورديو" في حديثه عن العنف إلى ضرورة خلق الوعي لتتمكن المجتمعات من تحقيق ذواتها، وكشف الهيمنة ولهذا تعمل المقاربة النقدية في التحليل "على نمو التنوير والتحرير ومثل هذه النظريات لا تسعى فقط إلى الوصف والشرح، ولكن أيضا

¹ -بيار بورديو، عن الدولة-دروس في الكوليج دو فرانس (1989-1992)، ترجمة: نصير مروة، المركز الثقافي

العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، ط1، 2016، ص27.

² -بيار بورديو، عن الدولة-دروس في الكوليج دو فرانس (1989-1992)، ص262.

إلى القضاء على كلّ ما يتعلق بالوهم، وحتىّ مع اختلاف المفاهيم الإيديولوجية، فإن النظرية النقدية تسعى إلى خلق الوعي لدينا باحتياجاتنا ومصالحننا الخاصة¹.

نستج من خلال ما ورد في هذا الجزء المتعلق بالاطر النظري للتحلل النقد للخطاب، أن هذه الرؤية في التحليل تدين "بشكل خاصّ لكتاب مجديين من قبيل غرامشي Gramsci الذي يدين له باستبصار دال مفاده أن القمع الاجتماعي، يتحقق غالبا عبر هيمنة مستبطنة، لتشمل مظاهر الإرغام والإجماع (مما يستلزم استعمال اللّغة)، كما اقتبسوا من بورديو... وكذلك هابرماس Habermas ...لم يكن هؤلاء المنظرون لسانيين وإن كان لهم اهتمام باللّغة، غير أن تأثيرهم في التحليل النقدي للخطاب يقترن أساسا بتأويلاتهم حول المجتمع، ونظراتهم بخصوص الآليات المتعلقة باشتغال الايديولوجيا، ودورها في خلق ودعم الأنساق الاجتماعية"².

2/ التحكم في الوعي الجمعي للمجتمع وتشكيل الواقع:

تتدرج السلطة بالنسبة للتحليل النقدي للخطاب في الخطاب بحسب نسبة امتلاكها عند منتجها، وتمثّل الخطابات أو النصوص حقلا لصراع هذه السلطة، عبر عكس الايديولوجيات والمعتقدات المختلفة وتتنازع فيما بينها، وصولا إلى الهيمنة مما يجعل التحليل النقدي للخطاب "يهتم أساسا بتحليل العلاقات البنائية الغامضة أو الجلية والمهيمنة، والتميز، والسلطة، والتحكم كما تتجلى في اللغة، وبعبارة أخرى يهدف التحليل النقدي للخطاب إلى فحص عدم المساواة الاجتماعية، التي تمّ التعبير عنها وتشكيلها وإخفاء الشرعية عليها، من خلال استخدام اللّغة (أو الخطاب).

¹ - روث فوداك وميشيل ماير، مناهج التحليل النقدي للخطاب، ص29.

² - روث بريز، مقال التحليل النقدي للخطاب ونقاده، 302 و303

تؤيد معظم تحليلات الخطاب النقدي افتراض هابرماس بأن "اللغة أيضا هي وسيلة للهيمنة والقوة الاجتماعية، وأنها خادمة لشرعية علاقات السلطة المنظمة، بقدر ما تعطي شرعية لعلاقات السلطة... فإن اللغة هي أيضا الايدولوجيا"¹.

يذكر فوكوه في مقاله التحليل النقدي للخطاب وتحليل التصرفات بقلم فلورنتاين ماير مجموعة أهداف للتحليل النقدي للخطاب من بين العناصر المتضمنة في هذا العنصر نجد الخطابات والواقع والخطابات والسلطة، أما الأولى فيطرح حولها نظرة ماركس Marx للوجود الاجتماعي الذي يحدد من قبل الوعي، في حين أن "فوكوه" يقلب هذه النظرية بالقول أن الوعي هو الذي يحدد الوعي الاجتماعي، أما في العنصر الثاني فيرى أن العلاقات بين الخطابات والواقع والسلطة تلخص في ممارسة "الخطابات السلطة نتيجة لاضطلاعها بنقل المعرفة* التي يتغذى عليها الوعي الجمعي

¹ - روث فوداك وميشيل ماير، مناهج التحليل النقدي للخطاب، ص 35.

* يتجلى التحليل النقدي للخطاب الذي يتأسس على نظرية الخطاب" لدى فوكوه حول مفهوم المعرفة، و يشار إليها على أنها "كافة أنواع المحتويات التي تشكل أيا من أشكال الوعي الإنساني، أو بمعنى آخر، هي كافة أنواع المعاني التي يعنى للبشر استخدامها لتفسير بيئتهم الخاصة وتشكيلها، يلجأ البشر إلى اشتقاق هذه المعرفة من البيانات الخطابية التي يولدون فيها، و التي يعيشون في نسيجها طوال فترات حياتهم بالكامل، ومن ثم فإن المعرفة شرطية بمعنى أن مدى صلاحيتها أمر يعتمد على الحقبة التاريخية التي يحيا فيها البشر، والحدود والظروف الجغرافية التي يعيشون فيها، العلاقات فيما بين الطبقات وغير ذلك من العوامل" بعد هذا يحيلني مفهوم المعرفة بالنسبة لي إلى مجموعة من المصطلحات الرديفة التي التقيت بها في مسار بحثي ألا وهو مفهوم السياق عند التداوليين السرديين... كذلك إلى مفهوم الخلفية المعرفية عند محمد خطابي في كتابه لسانيات النص، وإلى مفهوم يضطلع به القارئ في مقارنته للنصوص بنوع من المعرفة الموسوعية عبر اطلاعه على خلفيات النصوص التي يقرأها والحقبة التاريخية التي كتبت فيه، وهذا ما وجدته في كتاب حياة أم السعد تداولية الخطاب الروائي في مقارنتها لنصوص العروى الروائية... (سنفصل في هذه الآلية في الجزء المعنون بـ"الآليات الإجرائية للتحليل النقدي للخطاب" إلا أن المعرفة بالنسبة لفوكوه لصيقة بالسلطة وخاضعة للنقد عبر "الوقوف على المعارف التي تحتويها الخطابات وأشكال التصرفات المختلفة، وكيف أن هذه المعارف ترتبط بعلاقات السلطة على نحو وثيق في أشكال مركبة تشتمل على السلطة و المعرفة جنباً إلى جنب، يخضع تحليل الخطاب وتحليل التصرفات هذه العلاقات بين المعرفة والسلطة للنقد" انظر، روث فوداك وميشيل ماير، مناهج التحليل النقدي للخطاب، ص 80.

والفردى على حدّ سواء، وتشكل هذه المعرفة أساس الفعل الخطابى وغير الخطابى الفردى والجمعى، والذي يعمل بدوره على تشكيل الواقع¹.

3/ الايديولوجيا والقضاء على الوهم:

هناك تحول جوهري مسّ مضامين الايديولوجيا حيث تغيّرت النظرة إليها، ولم تعد تفهم بطريقة إيجابية...وهي (الايديولوجيا) باعتبارها محلّ اهتمام محلّي النقدي للخطاب، فقد لخصّ العلماء السياسيون الخصائص المحورية للايديولوجيا في:

"1/السلطة أهم من المعرفة.

2/ (الايديولوجيات) قادرة على توجيه القيم الذي يقوم به الأفراد.

3/الايديولوجيات تقدّم التوجيه والإرشاد عن طريق الأفعال.

4/لا بدّ أن تكون (الايديولوجيات) متماسكة منطقيا². مسّ مفهوم الايديولوجيا إذن وفق هذا التصور، العديد من التحوّلات والتغيّرات بتغير المراحل الزمنية المتباعدة التي مرّ بها، حيث أنّنا لا يمكننا أن نعزل مصطلح الايديولوجيا باعتباره نظاما من القيم، والمعتقدات المرتبطة ببعضها البعض، عن المفاهيم السلبية اللصيقة به.

أمّا الايديولوجيا في مقال "فان ديك" المعنون المقاربة المعرفية الاجتماعية" فهي أساس السيطرة المعروفة بإساءة استخدام السلطة "وتستمد منها مشروعيتها، والايديولوجيا هي المعتقدات الاجتماعية الأساسية التي تنظم الصور الاجتماعية للمجموعات وأعضائها وتحكمها، وتسعى العديد من بحوث دراسات تحليل الخطاب إلى هذا التحليل الايديولوجي، وخاصة أن ما يعبر عن تلك الايديولوجيات ويظهرها هو الخطاب³. فالعناية بأشكال التعبير في استعمال اللغة، أو الخطابات كونها من أشكال

¹ - المرجع نفسه، ص 89.

² - نفسه، ص 29.

³ - روث فوداك وميشيل ماير، مناهج التحليل النقدي للخطاب، ص 166.

التعبير الاجتماعي والثقافي، تزداد يوما بعد يوم لأهميتها الايديولوجية، وهذا ما اتفق عليه مجموعة من الباحثين حيث يقول "فيركلف" في كتابه "الخطاب والتغير الاجتماعي" "إننا رأينا في إطار النظرية الماركسية، أن جرامشي والتوسير Althusser يؤكدان أهمية الايديولوجيا لإعادة الإنتاج الاجتماعي الحديث... وأقول ثانيا: إن فوكوه قد أكد أهمية التكنولوجيات* في الأشكال الحديثة للسلطة، ومن الواضح أن هذه الآليات تعتمد اعتمادا أساسيا على اللغة"¹.

فالايديولوجيا بالنسبة لـ"التوسير" تعمل عن طريق تشكيل الأشخاص باعتبارهم ذواتا اجتماعية، وتثبيتهم في مواقع ذات معينة، وإيهامهم في الوقت نفسه بأنهم أحرار وتقع هذه العمليات داخل شتى المؤسسات والمنظمات، مثل: التعليم أو الأسرة أو القانون، وهي في نظر التوسير باعتبارها أبعادا ايديولوجية للدولة، أو ما أطلق عليه "أجهزة" الدولة الايديولوجية"².

* أما ميشيل فوكوه باعتباره مؤسسا نظريا للتحليل النقدي للخطاب فهو يعني "بتكنولوجيا السلطة" نظام يعد بمثابة حزمة من تكنولوجيا السلطة التي تم تطويرها خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وهكذا فإن ممارسة السلطة تكون قرينة الرغبة وهي ليست رغبة فردية، يركز فوكوه على نمط المعرفة المقبولة حول كيفية ممارسة السلطة، إحدى هذه الطرق تكون عبر ممارسة التهديد والعنف وأخرى تكون عن طريق الإقناع مثل مجال التسويق الاستهلاكي وإقناع الأفراد باقتناء أدواتهم ببساطة عبر السلطة. أنظر، روث فوداك وميشيل ماير، مناهج التحليل النقدي للخطاب ص 33. للتوسع في مسألة التكنولوجيات أنظر الفصل الثاني من هذه الدراسة.

¹ - نورمان فيركلف، الخطاب والتغير الاجتماعي، ص 166.

* إن جهاز الدولة وفق النظرية الماركسية يحتوي، على الإدارة، الجيش، الشرطة، المحاكم، السجون... الخ، والتي يسميها "التوسير" فيما بعد بـ"جهاز الدولة القمعي"، القمعي تويح بأن جهاز الدولة المقصود هنا يعمل بالاستعانة بالعنف". (بما أن القمع: مثلا: القمع الإداري... قد يتخذ أشكالا غير مادية)... فيمكننا اعتبار المؤسسات التالية من أجهزة الدولة الايديولوجية" مثل: الديني (نظام مختلف الكنائس)، التعليمي (نظام مختلف المدارس العامة والخاصة)، الأسري، القانوني، السياسي (النظام السياسي، مشتملا على مختلف الطوائف)، النقابي، الاعلامي، (الصحافة، الاذاعة، التلفزة... الخ)، الثقافي (الأدب، الفنون، الرياضة الخ). أنظر، لوي التوسير، الايديولوجيا وأجهزة الدولة الايديولوجية (ملاحظات نحو التحقيق)، ترجمة: عمرو خيرى، نقلا عن الترجمة الانجليزية، لبين بريوستر، المصدر "البنين والفلسفة ومقالات أخرى"، 1971، نشر هذا المقال للمرة الأولى عام 1970، (الجزء 1)،

2014/11/23، 2021/01/21.

² - نورمان فيركلف، الخطاب والتغير الاجتماعي، ص 48.

نظرية "التوسير" هذه حول الايديولوجيا* حظيت بنفوذ واسع لم تحظ به نظريات الايديولوجيا قبلها، حيث أن الايديولوجيا تلعب دورا رئيسا في تشكيل الذوات وإيهامها بأمور تفعلها دون وعيها منها، وذلك عبر الخطابات المبنوثة في المؤسسات التي سمّاها "التوسير" الأجهزة الايديولوجية للدولة* وهذا ما يفضي إلى "أن الصراع حول الخطاب-داخل الخطاب- قضية يركز عليها تحليل الخطاب ذو التوجه الايديولوجي"¹. يجعل هذا التوجه الايديولوجيا لصيقة بنا وتشكلنا، وتشكل خطاباتنا وأفعالنا وحتى عاداتنا من غير وعي منا، حيث "ينبغي ألا نفترض أن الناس على وعي بالأبعاد الايديولوجية لممارساتهم، فالايديولوجيات التي تتحول إلى جزء لا يتجزأ من الأعراف قد تصبح إلى حدّ ما مطبوعة وذات صبغة تلقائية، وقد يصعب على الناس أن يدركوا أن ممارساتهم المعتادة قد تتخذ لها صورا ايديولوجية محدّدة"².

*يلنقي كل من فيركلف والتوسير في اعتبار الايديولوجيا ممارسة للسلطة عبر أساليب قسرية قمعية أو حتى قهرية، لكن "فيركلف" يرى بأن السلطة ليست قمعية فقط، وإنما يضيف جانبا آخر ويرى بأنه الأكثر شيوعا واستخداما في العصر الحديث وهو الذي أورده عند حديثه عن تحليل للمجتمع وتحليل الخطاب فأشار إلى "العلاقة الخاصة بين الايديولوجيا وممارسة السلطة من خلال الرضى لا من خلال القسر، واعتقد أن المجتمع الحديث يشهد ازدياد ممارسة السيطرة الاجتماعية من خلال الرضى وهو ما جاء به "بورديو". أنظر، الفصل الثاني من هذه الدراسة.

*يرى "التوسير" أن الفرق الأساسي بين جهاز الدولة القمعي وجهاز الدولة الايديولوجي، في كون الأول يعمل بالاستعانة بالعنف، بينما يعمل الثاني بالايديولوجيا، لكن علينا أن نوضح أن القمع هنا ليس مطلقا، والأمر نفسه بالنسبة للايديولوجيا. فعلى سبيل المثال: فإن الجيش والشرطة يعملان بالايديولوجيا لضمان تماسكهما، وإعادة انتاج نفسيهما، وتتمثل الايديولوجيا أيضا بالنسبة لهذين المثالين في القيم التي يروج لها خارجيا. من الضروري القول أيضا أن أجهزة الدولة الايديولوجية من جانبها تعمل بشكل ثانوي باستخدام القمع، حتى وإن كان قمعا غير مباشرا، ولو بشكل مخفي ومتخفي بل وحتى رمزي (لا يوجد جهاز ايديولوجي صرف)، وهكذا فإن المدارس والكنائس تستخدم أساليب مناسبة للعقاب والطرده والاختيار الخ، من أجل فرض انضباط/تهذيب Discipline عمالها، الأمر نفسه ينسحب على الأسرة، وينسحب أيضا على جهاز الدولة الايديولوجي الثقافي (الرقابة، من بين أمور أخرى) الخ. انظر، لوي التوسير، الايديولوجيا وأجهزة الدولة الايديولوجية (ملاحظات نحو التحقيق)، ترجمة: عمرو خيرى، المرجع نفسه.

¹ - نورمان فيركلف، الخطاب والتغير الاجتماعي، ص 133.

² - المرجع نفسه، ص 116.

وهذا ما جاء به "بورديو" وتبناه "فيركلف" في توجهه، عبر حديثه عن العلاقة الجامعة بين الايديولوجيا التي لا تتشكل بالقسر فقط إنما بالرضى أيضا. انطلاقا من هذا ومن اعتبار الايديولوجيات مساهمة في إنشاء علاقات السلطة عبر الخطابات قسرا أو عن طريق الرضى، فإن السلطة تعدّ ركيزة أساسية في نظريات التحليل النقدي للخطاب، عبر محاولة الباحثين في هذا المجال الكشف عن علاقات الهيمنة الاجتماعية والسلطوية المبنوثة في الخطابات وسبل مقاومتها.

4/ التطبيع والمنطق السليم:

يتحدث "فيركلف" عن العلاقة التي تجمع بين الخطاب والايديولوجيا، تحت عنوان "الخطاب والمنطق السليم والايديولوجيا" في الفصل الرابع من كتابه "اللغة والسلطة" بعد حديثه في الفصل الثالث عن العلاقة التي تجمع بين الايديولوجيا والسلطة*، ويبرجها في بعدين هما السلطة في داخل الخطاب والسلطة من وراء الخطاب... أما فيما يتعلق بالعلاقة التي تجمع بين الايديولوجيا والخطاب، فنجدّه يفصل في هذه الفكرة حيث يرى "أنّ الأعراف التي تنهل منها باستمرار في الخطاب، تجسّد افتراضات ايديولوجية، ينتهي بها الأمر إلى أن تعتبر من "المنطق السليم" وحسب، وبذلك تسهم في الحفاظ على علاقات السلطة القائمة"¹.

تتضح هنا العلاقة المتكاملة بين السلطة والايديولوجيا، التي لم يسلم منها أي شيء، فالايديولوجيا تشكلنا وتشكل ذواتنا، أما عن الكيفية التي يخدم بها المنطق السليم السلطة فتكون عبر "أساليب إضمار الايديولوجيات في معالم معينة من الخطاب، بحيث يسلم المرء بصحتها باعتبارها من سمات المنطق السليم"². وهذه الأساليب التي تضرع عبرها الايديولوجيات في معالم معينة من الخطاب جمعها "فيركلف" في ثلاثة

* سنضمن الفصل الثاني من هذه الدراسة تفصيلا في العلاقة الجامعة بين الايديولوجيا والسلطة.

¹ - نورمان فيركلف، اللغة والسلطة، ص 111.

² - المرجع نفسه، ص 111.

أساليب هي الافتراضات المضمرة، والمعنى المترابط (Coherence) والاستنباط والترابط.

يصرّ "فوكو" على الجانب القمعي للسلطة التي تتطلب الطاعة لا محالة حيث "يبدو أن الفكر الماركسي بصفة خاصة يضع السلطة ضمن ما يطلق عليه فوكو "فرضية الكبت"، أي أنّه يرى السلطة مجرد تعبير سلبي على حقوق الغير، فالسلطة هنا تؤخذ أو تسلب من الغير، وتعدّ شيئا يمتلكه المرء أو يمسك به"¹. وهذا ما يشير إليه فيركلف" بتسمية أنماط الخطاب المهيمنة والخاضعة للمهيمنة، وهنا يحاول أن يبرز لنا عنصرا مهما ألا وهو "التطبيع والمنطق السليم" وهو في هذا الجزء يتبنى ما جاء به عالم الانثروبولوجيا الفرنسي "بيير بورديو" بقوله "الإقرار بالمشروعية من خلال عدم تبين التعسف" ويعيد صياغة هذه الفكرة بقوله: " إذا هيمن نمط من أنماط الخطاب على مؤسسة ما، أي الحد الذي يتيح القمع أو الاحتواء الكامل تقريبا للأنماط الخاضعة للمهيمنة... ولسوف أشير إلى هذا، كما أشار إليه الآخرون، بمصطلح "تطبيع" * Naturalization نمط الخطاب، والتطبيع يعتمد على الدرجة، وقد يتغير مدى تطبيع

¹ - سارة ميلز، الخطاب، ص48 و49.

*إن تطبيع مواقع الذات يفرض بدهة قيودا على الذات، ويسهم هذا وذاك، في الأجل الطويل، في التكيف الاجتماعي للأشخاص وتحديد رصيد الهويات الاجتماعية في أية مؤسسة وأي مجتمع، وإذن فإن التطبيع أقوى سلاح في ترسانة السلطة ومن ثمّ فهو مركز بالغ الأهمية من مراكز الصراع. نورمان فيركلف، اللغة والسلطة، ص145.

يطرح في هذا الصدد "بورديو" فكرة إنشاء لغة رسمية حيث أن الفاعلين الاجتماعيين في جماعة اجتماعية واحدة، يقرنون ذات الصوت بذات المعنى وذات المعنى بذات الصوت، أحد مفاعيل بناء لغة رسمية مفروضة في إقليم ما، هو وضع عقد لغوي، أو code بالمعنى المزدوج لهذه الكلمة (الفرنسية) في القانون وفي الاتصالات: فهي تعني حملة التشريع القانوني (المدني أو الجزئي...الخ)، كما تعني رموز واصطلاحات الاتصالات في آن وضع عقد بين كافة الفاعلين والفاعليات في جماعة، بحيث ينبغي كل فرد أن يحترمه تحت طائلة ألا يعود مفهوما...وبذلك تأسيس اللغة الرسمية التي هي نتاج عمل وتطبيع تاريخيين، ونتاج لسان وقع الفاعلين الاجتماعيين الذين سيستخدمونها. أنظر، بورديو، عن الدولة، ص126 و127.

نمط من أنماط الخطاب، وفقا للتحول في "ميزان القوى" في الصراع الاجتماعي¹. وهذا التطبيع لنمط من أنماط الخطاب المهيمنة، يجعله يبدو طبيعيا غير تعسفيا، ومشروعا كونه الخطاب المتبع والمعمول به والمتعارف عليه.

أما "فيركلف" فنجد أنه يؤكد ذلك، ويشير كذلك إلى ما جاء به الفيلسوف الفرنسي "ألتوسير" حول الصلة المهمة القائمة بين الافتراضات القائمة على المنطق السليم، وهي التي يسميها حالات الوضوح الخاصة بالمعنى، وبين الافتراضات القائمة على المنطق السليم الخاصة بالهوية الاجتماعية أو الذات حيث يقول على لسان ألتوسير "مثل جميع حالات الوضوح بما في ذلك ما يجعل الكلمة" تطلق اسما على شيء "أو" أن يكون لها معنى" (وهو ما يتضمن من ثم حالة الوضوح الخاصة بالشفافية في اللغة) نجد أن 'حالة وضوح' كونك وإياي ذواتا، وعدم تسبب ذلك في أية مشاكل، نتيجة من نتائج الايديولوجيا بل نتيجة ايديولوجية أولية، ويضيف ألتوسير قائلا إن علماء اللغة، والذين يعتمدون على علم اللغة لشتى الأغراض، كثيرا ما يصادفون الصعوبات التي تنشأ من تجاهلهم لعمل المؤشرات الايديولوجية في جميع ضروب الخطاب/ بما في ذلك ضروب الخطاب العلمي نفسها². تتبين لنا خطورة التعامل مع هذين المصطلحين التطبيع والمنطق السليم، اللذان يجعلاننا نتعامل مع المعطيات اللغوية أو الخطابية، وحتى المادية تعاملنا شفافا بسيطا، هو في حد ذاته نتاج ايديولوجي.

يلعب الخطاب إذن دورا بارزا في فرض الهيمنة الاجتماعية عبر "ترسيخ أفكار مرجعه الايديولوجي السياسي، أو العقدي أو التربوي أو الاقتصادي، أو الإعلامي، في عقول النماذج الإدراكية للأفراد والجمهور، ونودّ من ذلك أن كل خطاب يستهدف ما تختزنه العقول من المعارف الاجتماعية، بغرض إخضاعها إلى الوعي الجديد والخادم

¹ - نورمان فيركلف، اللغة والسلطة، ص 129.

² - المرجع نفسه، ص 141.

للايديولوجيا، المتحركة في عملية التواصل، ولتحقيق غرض الاجتماع على أكمل وجه، تتسق الخطابات سياقيا ومعرفيا واجتماعيا وثقافيا، بهدف فرض معرفة اجتماعية بديلة وتبويئها منزلة الحق والصواب¹. يؤدي ذلك إلى غلبة نمط معين من أنماط الخطاب على حساب خطابات أخرى حيث تتحدّد مختلف السياقات لتشكيل ممارسة اجتماعية، وترقيته ليحظى بالقبول من طرف المتلقين وإخضاعهم لفحواه عبر تمرير ايديولوجيته، وهو ما يصطلح عليه "فيركلف" المنطق السليم".

يرى فيركلف في كتابه "اللغة والسلطة" في الجزء المعنون بالطبقة والسلطة في المجتمع الرأسمالي، أنّ نظم الخطاب تتشكل ايديولوجيا عبر علاقات السلطة المتواجدة في المؤسسات الاجتماعية، داخل المجتمع ويستطرد حول هذا العنصر قائلا بوجود السلطة الاقتصادية، وسلطة الدول، والسلطة والايديولوجية وفيهم "تنهض سلطة الدولة التي تشمل الحكومة، والسيطرة والقوات المسلحة وموظفي الحكومة، وما إلى ذلك بدور حاسم في فترات الأزمات، وأما في الأحوال العادية للحياة في المجتمع الرأسمالي، وفي مجموعة كاملة من المؤسسات الاجتماعية مثل التعليم والقضاء والأديان وأجهزة الإعلام، بل والأسرة، تعمل بصورة جماعية وتراكمية على ضمان استمرار سيادة الطبقة الرأسمالية...، ومع ذلك فقد أجريت تحليلات أتت بنتائج مقنعة عن الأسلوب الذي تطبقه المؤسسة التعليمية، وغيرها من المؤسسات لتدريب الأطفال على التكييف، وقبول النظام القائم للعلاقات الطبقية"².

تقوم مختلف الممارسات المؤسسية التي يتعامل معها الناس بدون تفكير، بتكريس مجموعة من الافتراضات غير الشرعية المباشرة وغير المباشرة، لمختلف علاقات السلطة مما يجعل الناس يتعاملون معها على أنها أمر عادي، وهذا الذي يضيف عليه

¹ - محمد يطاوي، مقال -دائرة الخطاب ودائرة السلطة-، مجلة الجديد، جانفي 2019، الموقع الالكتروني:

https://aljadeedmagazine.com/... تاريخ التصفح: 2019/10/21، الساعة 12: 05، ص15.

² -نورمان فيركلف، اللغة والسلطة، ص55.

طابعا طبيعيا "وتعتبر السلطة الايديولوجية أي السلطة التي تتيح للمرء تصوير ما يفعل باعتباره ممارسة عامة يقبلها المنطق السليم، عاملا مهما يستكمل السلطة الاقتصادية والسياسية..."، وهي تتمتع بدلالة خاصة هنا بسبب ممارستها في الخطاب¹.

تحافظ هذه السلطة على مدلولاتها بطريقتين، إما فرض أو إجبار الآخرين على القبول بسلطتهم، أو عدم التعرض لها بالرفض أو عبر القسّر أو الرضى، كما رأينا سابقا عند "بورديو". وهذا ما ختم به "فيركلف" حديثه عن الايديولوجيا قائلا: " وهكذا فعندما تتحول الايديولوجيا إلى منطق سليم، فإنّها تفقد ظاهريا كيانها الايديولوجي، وهذا في ذاته من نواتج الايديولوجيا، إذ أنّ الايديولوجيا لا تمارس فاعليتها الحقّة إلا عندما تكون مقنعة"².

5/الهيمنة والتمييز العنصري:

تطرح "ميلز" فكرة "التحيّز الجنسي" للرجل على حساب المرأة، وترى أن النقاد الايديولوجيون، ومفكرو الخطاب قد يتفقون على أي العبارات الممثلة لذلك " إلا أن التحيّز الجنسي في أيّة رؤية إيديولوجية، قد يعدّ من صور الوعي الزائف، طريقة تستجوب بها الذوات بالمفهوم الألتوسيري، أي تدعى لتعتبر نفسها صورا بعينها من ذوات متميزة جنسيا، وبقبول التحيّز الجنسي في اللّغة تدعى الذوات لتتخذ وضعاً ضمن نسق تراتبي من التمايز الجنسي، وهكذا فالتحيّز الجنسي يدفع الذوات لقبول الأمر الواقع، وتقبل الرؤى السائدة بأن المرأة أقلّ شأنًا من الرجل، والرجل أعلى مكانة وهو المسيطر وما إلى ذلك"³. وتضيف "سارة ميلز" حول التحيّز الجنسي من وجهة نظر ايديولوجية كونه استراتيجية " قهر يلجأ إليها الرجل لدعم قوته، فالتحيّز الجنسي

¹ - نورمان فيركلف، اللغة والسلطة، ص56.

² - المرجع نفسه، ص148.

³ - سارة ميلز، الخطاب، ص56.

في نموذج لنظرية الخطاب هو مجال السّجال: هو الساحة التي تشهد إقرار بعض الذكور في مساعيهم للتفاوض حول موقع سلطة لأنفسهم في علاقتهم بالنساء¹. هذا التفريق بين مكانة المرأة، ومكانة الرجل داخل المجتمع الواحد، خاصة في مجتمعاتنا العربية التي تتناول في كل مرة تتاح لها الفرصة، ضاربة في العمق دور المرأة في المجتمع ومقرّمة له، بينما تشيد بالدور الريادي للرجل، الذي لولاه لما كان للمرأة أن تحقق ذاتها. فالنظرة الدونية لصيقة بالمرأة في حين الثناء والولاء حليف الرجل بامتياز.

أما "فان ديك" فنجدته في كتاباته ودراساته، يصرّ على نقد استعمال السلطة كما تظهر في الخطاب، وهذا الذي يبرز في كتابه "الخطاب والسلطة" عبر "دراسة الخطابات الشخصية والجماهيرية والمؤسسية، بهدف فهم الكيفية التي تمارس بها بعض هذه الخطابات أشكالاً متنوعة من إساءة استعمال السلطة، والظّ لم الاجتماعي، ضدّ الأقليات والمهمّشين مثل السّود أو الملونين أو اليهود أو المسلمين أو المهاجرين في عمومهم"². يطرح "فان ديك" مجموعة من العناصر المهمة التي تعدّ من تجلّيات السلطة عبر الخطاب، ألا وهي "العنصرية، التلاعب السياسي، الهيمنة وغيرها من صور سوء استعمال السلطة التي عنيّ بها في كتابه، وسعى إلى الكشف عن منابقتها، ومضامينها داخل الخطاب السياسي خاصة.

تعني الهيمنة عند "فيركلف" "الزعامة أو القيادة مثلما تعني السيطرة في جميع المجالات الاقتصادية والسياسية والثقافية والايديولوجية، في مجتمع من المجتمعات، والهيمنة خضوع المجتمع كلّ لسلطة إحدى الطبقات الأساسية وفق التعريف الاقتصادي، بالتحالف مع القوة الاجتماعية الأخرى"³. إلّا أن الهيمنة ليست الشكل

¹ - سارة ميلز، الخطاب، ص58.

² - توين فان ديك، الخطاب والسلطة، ص10.

³ - نورمان فيركلف، الخطاب والتغير الاجتماعي، ص119.

الوحيد لتجليات السلطة عبر الخطاب، لكنّها الأبرز لشكل سابق لها وبحققها ألا وهو القسّر أي القمع، حيث "وعلى الرغم من أن الهيمنة هي الشكل التنظيمي السائد فيما يبدو للسلطة في المجتمع المعاصر، فإنّها ليست الشكل الوحيد إذ نرى أيضا بقايا شكل كان أشدّ بروزا يوما، إذ تتحقق الهيمنة فيه بالفرض الصارم للقواعد والمعايير والأعراف"¹. هذه الأشكال المختلفة والمتعددة لسوء استعمال السلطة داخل الخطاب، تلنقي في بوتقة واحدة تجمعها، وتعتبر غذاءها ألا وهو القسّر على حدّ قول "بورديو"، أو القمع الذي أضحى لصيقا بالسلطة يشكّلها، ويجسّدُها ويمثلها، فإذا كانت السلطة كما رأينا سابقا هي الايديولوجيا، وهذه الأخيرة هي التي تشكّل الخطاب فنستخلص هنا أن السلطة هي القمع.

فركيزة التحليل النقدي للخطاب بالنسبة لـ "فان ديك" تعتمد "إلى دراسة مظاهر الايديولوجيا والتسلّط الاجتماعي والهيمنة* والتفاوت الطبقي، وكيف يمكن لها أن تتجسّد وتتجدّد، وتقاوم من خلال الممارسة اللغوية، في سياقاتها الاجتماعية والسياسية، وبمثل هذا المنهج التحليلي الواعي، يتخذ رواد التحليل النقدي للخطاب موقفا صريحا معلنا في مسعاهم إلى استيعاب مظاهر اللامساواة الاجتماعية، ومن ثمّ فضحها ومقاومتها"². نجد كلا من "فان ديك" و"فيركلف" يتفقان في كون الهيمنة التجلي الأبرز للسلطة عبر الخطاب حيث عمد "فان ديك" في كتابه السابق الذكر، إلى دراسة الدور

¹ - نورمان فيركلف، الخطاب والتغير الاجتماعي، ص122.

*كان "فان ديك" من بين أهم من أسسوا هذه المدرسة حين احتك ببلدان العالم الثالث، وأدرك حجم اللامساواة الموجودة بين الطبقات الاجتماعية بين المهيمن والمهيمن عليهم، ووظف كل طاقته العلمية التي هي مسيرة بحث نقدي جاد فجره فتفتحه على تخصصات عديدة في مقارنته لتحليل الخطابات، فطرحة التداولي والمعرفي أخرجه من الجزء إلى البحث في كلية الخطاب وشروط تشكّله لارتباطه بالفعل التواصلية الذي هو نتاج له. أنظر، حياة أم السعد، مقال وظائف تمثيل الخطاب الغيري في الرواية وفق المنظر الباختياني، ضمن مجلة أنساق القطرية، المجلد 1، العدد 2، أكتوبر 2019، ص 131.

² - محمد لطفي الزليطي، مقال من تحليل الخطاب إلى التحليل النقدي للخطاب، مجلة الخطاب العدد 16، جامعة الملك سعود، السعودية، ص13.

الذي تمارسه النخب على اختلاف توجهاتها، في إرساء دعائم السلطة وفي كيفية السيطرة على النظم الخطابية العامة خدمة للجماعات المهيمنة، أو الحاكمة حيث "يتناول هذا الكتاب دراسة إعادة إنتاج الخطاب لسلطة النخبة بشيء من التفصيل، لكنّه لا يركز على السلطة في المجتمع فحسب، وبوجه أعمّ على سوء توظيفها، وهذه هي الهيمنة وبتعبير أدق، يركّز هذا الكتاب على الاستخدامات غير المشروعة لسلطة الجماعة أو سلطة النخبة، التي تؤدي إلى الظلم، وعدم المساواة الاجتماعية"¹.

ترتبط السلطة بالنسبة لـ"فان ديك" بمفهوم السيطرة وسيطرة الخطاب " تعني أفضلية النفاذ إلى إنتاجه، ومن ثمّ السيطرة على مضمونه وأسلوبه، وأخيرا على العقل والرأي العام"². وبهذا الشكل ينتقل الخطاب من كونه أداة للتواصل والإبلاغ، إلى أداة للسيطرة والتحكم على جميع الأصعدة.

6/تراتبية السلطة*:

يتحدث "فيركلف" في كتابه "اللغة والسلطة"، وفي الفصل الثاني المعنون **الخطاب باعتباره ممارسة اجتماعية** عن موقع اللغة في المجتمع، كونها ترتبط "ارتباطا أساسيا بالسلطة وضرورة الصراع على السلطة، هذا يرجع إلى خصائصها الايديولوجية"³. يطمح "فيركلف" في الفصل الثالث من كتابه المعنون **"السلطة والخطاب"** إلى استكشاف العلاقة التي تجمع بين اللغة والسلطة، بالتركيز على طرفين مهمين من أطراف هذه العلاقة وهما السلطة في داخل الخطاب، والسلطة من وراء الخطاب...كما

¹-توين فان ديك، الخطاب والسلطة، ص20.

²-المرجع نفسه ، ص22.

*كلما ذكرت السلطة يفهم أن الأمر يتعلق بسلطة الحكام، غير أن السلطة لا تحتاج فقط إلى الأنظمة المؤسسات والأوامر من الساسة حتى تخلق بوصفها ممارسة واقعية ونشاط إنسانيا، إنها مفعول قيمى مجرد متاح لكل ذات واعية، ويتجه إلى نوعين من الأهداف: إخضاع الوعي والتحكم في الوجدان، وليس من الضرورة أن تنتج في نطاق رفيع المستوى، بل في كلّ نطاق يحتضن توأصلا إنسانيا هناك ممارسة سلطوية.أنظر، محمد يطاوي، مقال -دائرة الخطاب ودائرة السلطة-، ص14.

³-نورمان فيركلف، اللغة والسلطة، ص35.

يرى بشرط ذو أهمية حيوية... وهو أن السلطة في داخل الخطاب، أو من ورائه لا يملكها فرد واحد أو مجموعة بشرية معينة...إنما هي تجد كينونتها في غمار الصّراعات الاجتماعية. أما السّطة في داخل الخطاب فهو مخصّص للحديث عن الخطاب كونه كيانا تبرر فيه علاقات السلطة، وتتجسّد عبر الواقع الفعلي.

6. 1/السلطة داخل الخطاب: * يطرح هنا مثالا عن حوار بين الطبيب والطالب في ورشة دراسية، ويبيّن لنا كيف أن السلطة في هذا النوع من الخطاب مرتبطة بتحكّم المشاركين من ذوي السّطة بأقوال وتصرفات المشاركين من غير ذوي السلطة، وفرض بعض القيود عليهم في ما يقال وما يفعل وغيرها من القيود التي تحول دون استعمالهم للخطاب وفق ما يريدون، ... أما عن تجلّيات السلطة عبر اللّقاءات الثقافية باعتبارها خطابا للهيمنة يتضح في مختلف صور العنصرية الراسخة، ... وهذه الهيمنة تحدّد في وسائل الإعلام التي تخاطب ذاتا مثالية على المشاهدين أن يجتهدوا من أجل إقامة علاقات ما معها، وهذه الذات هي التي يحدّد وفقها طبيعة ما يستقبله المشاهدين من أحداث ورؤى سياسية، بهدف التحكم بهذه الذات المثالية، كونهم أي الذين ينتجون هذه الخطابات يتمتعون بسلطة البتّ فيما يدرج وما يستبعد، وفي تحكّمهم أيضا في حقوق الإنتاج، وفي الطرائق التي تمثّل بها الأحداث وتصور¹.

يجعل الحديث عن احترام التراتبية الاستقرار والتكافؤ، لمختلف الخطابات مستحيلا وذلك " لعلّة واحدة: المؤسسة تتبني بالأساس على معطى اختلاف المراتب من حيث تحمّل المسؤولية، فالنقاش بين الطبيب والممرض أو بين الضابط والعريف، أو بين رئيس الحكومة والوزير، أو بين الأب وأبنائه، ينتظم وفق السلطة المؤسسية

* الأمثلة التي ضربتها في هذا القسم تتعلق بممارسة السلطة الخفية في الخطاب، ولكن ما أسميته، السلطة من " وراء الخطاب" سلطة خفية أيضا، وذلك لأن تشكيل علاقات السلطة لنظم الخطاب لا يتضح بصفة عامة للناس، وإذن فهذه لحظة مناسبة للانتقال إلى ما وراء الخطاب أنظر، نورمان فيركلف، اللغة والسلطة، ص84.

¹ - أنظر، نورمان فيركلف، اللغة والسلطة، ص72 و75 و77 و81.

التي نوزع فيها الأدوار حسب المرتبة، فلا يسع أصحاب الموقف الضعيف إلا الخضوع لمضامين خطابات الفاعلين من ذوي مواقع القوة¹.

حيث أن صاحب السلطة هو صاحب الخطاب المسموع، وهو المتحكم في طريقة تشكّله، أما المتلقي أو الأقل سلطة، فلا يملك إلا الإذعان لما جاء في خطاب القوة لأنّه فاقد للسلطة.

6. 2/ السلطة من وراء الخطاب:

ترى فكرة السلطة من وراء الخطاب أن النظام الاجتماعي للخطاب يصبح كلاً متكاملًا بفضل التجلي الخفي للسلطة عبر بعد التوحيد القياسي*، وهو الذي يتعامل فيه مع لهجة من اللهجات حتى تصل إلى ما يسمّى باللهجة المعيارية أو القومية وهذه اللغة في نظر " فيركلف " ذات أبعاد اقتصادية بالدرجة الأولى واجتماعية في آن واحد، لتحلّيها مكانة متميزة اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا، كونها الأكثر استخداما وانتفاعا من قبل الكتلة المهيمنة...مما يجعلها شبيهة برأس المال الاقتصادي... والسلطة من وراء الخطاب أيّا كان، هي سلطة لا تنتمي إلى المؤسسة نفسها، وإنما إلى من يملكون السلطة في هذه المؤسسات².

ولذلك فإن قضايا استخدام اللغة أفضت إلى أفعال سياسية أوسع نطاقا، يقول "فوكو": " إنّ لغات الخطاب لا تخضع للسلطة بشكل حاسم، وليست مستترة ضدها، وعلينا أن نسمح بالعملية المعقّدة وغير المستقرة، التي يمكن للخطاب أن يكون بها أداة للقوة ونتيجة لها في آن، بل حجر عثرة ونقطة مقاومة، ومنطلقا لاستراتيجية مضادة،

¹ -محمد يطاوي، مقال -دائرة الخطاب ودائرة السلطة-، ص16.

*المقصود به إعلاء لهجة اجتماعية معينة حتى تصل إلى ما يسمى في حالات كثيرة اللغة المعيارية أو حتى القومية.

² - أنظر، نورمان فيركلف، اللغة والسلطة، ص84و86و87و91.

والخطاب ناقل للسلطة ومنتج لها إنه يفرضها فرضا، ولكنه يضعفها أيضا، ويفضح زيفها ويجعلها هشة، ويساعد على إبطال مفعولها"¹.

7/ الصياغة/ الرقابة السلطوية: أما الصياغة فهي من جوانب التحكم في التفاعل*، وهو الجانب الذي اهتم به محللو المحادثة، وهي مجسدة لعنصر الرقابة السلطوية داخل الخطاب، وتوصف بالقول "قد ينظر أحد المشاركين إلى بعض أجزاء المحادثة، باعتبارها فرصة لوصف تلك المناقشة، أو شرحها، أو تحديد طبقتها، أو تفسيرها أو ترجمتها أو تلخيصها، أو تقديم فحواها، أو للإشارة إلى مراعاتها للقواعد أو القول بكسرها للقواعد"².

تعتبر الصياغة وفق هذا التوجه شكلا من أشكال الرقابة للقواعد المفروضة، أو الواجب مراعاتها في العملية التواصلية... حيث أن الهدف المرجو من الصياغة هو "أن تقارن صياغة المعاني في النص بطرائق صياغتها في نص آخر (أو أنماط أخرى) من النصوص. هل يتضمن النص ألفاظا (أو تراكيب لفظية) جديدة؟ وإذا صح هذا، فما الدلالة النظرية أو الثقافية أو الايديولوجية التي تحملها؟ ما علاقة التناص المستفاد بها في صياغة النص؟"³.

¹ - سارة ميلز، الخطاب، ص 57.

* التحكم في التفاعل: "الهدف هنا هو وصف الخصائص التنظيمية الواسعة النطاق للتفاعلات، وهي التي يعتمد عليها انتظام عمل التفاعلات والتحكم السليم فيها، ومن القضايا المهمة تحديد من يتحكم في التفاعلات على هذا المستوى: وإلى أي مدى يعتبر التفاوض حول التحكم انجازا مشتركا من جانب المشاركين فيه، وما مدى عدم التناظر الذي يمارسه مشارك واحد... ما القواعد المطبقة بخصوص تناوب أدوار الحديث؟ هل تتسم حقوق المشاركين و التزاماتهم (فيما يتعلق بتداخل الكلام أو بالصمت مثلا) بالتناظر أم بعدم التناظر؟/ ما هيكل التبادل المعمول به؟/ كيف تقدم الموضوعات وتطور وترسخ؟ وهل يتسم التحكم في الموضوعات بالتناظر أم بعدم التناظر؟/ كيف يحدد نهج العمل؟ ومن الذي يحدده؟ وكيف تجرى مراقبته؟ ومن الذي يراقبه؟ هل يقوم أحد المشاركين بتقييم أحوال الآخرين؟ إلى أي مدى يقوم المشاركون بصوغ مقولات التفاعل؟ وما الدور المنوط بهذا الصوغ؟ ومن من المشاركين يتولى الصوغ؟ أنظر، نورمان فيركلف، اللغة والسلطة، ص 288.

² - نورمان فيركلف، اللغة والسلطة، ص 195.

³ - المرجع نفسه، ص 290.

إنّ الخطاب باعتباره ممارسة اجتماعية تشكّلها الوحدات اللغوية وغير اللغوية، التي تعمل على بنائه وإعادة صياغته "وفق مقاسات منتخبة، لكن السؤال الملح هنا هو: كيف تتم عملية إعادة بناء الأحداث الاجتماعية في الخطاب؟ يجيب ثيو فان ليفن بأن الممارسة (النصية والخطابية) تتكفل بإعادة صياغة سياق الممارسة الاجتماعي، أو عملية التسييق (Recontextualization)، ومعناها أن صناع الخطاب يوظفون اللغة الطبيعية، وما تتيحه من إمكانات نحوية وأسلوبية ونظمية في التحويل الدلالي للممارسة الاجتماعية موضوع الخطاب، وتكييفها حسب مقاصد مرجعهم الإيديولوجي، إن أول ما يستهدفه الخطاب هو التمثيلات العقلية بخصوص موضوع الحدث التواصل، فالوعي الاجتماعي المشترك لدى أفراد المجتمع الواحد يختزن مواقف مسبقة وجاهزة، ولكن الخطابات تستهدف تعديلها أو إثباتها أو هدمها حسب علاقتها مع وجهات نظر الصناع¹.

تعنى عملية إعادة الصياغة بتحويل الخطابات مستهدفة بذلك التمثيلات العقلية المختزنة داخل الوعي الجمعي للمجتمع، بغية المحافظة على هذا المخزون، أو إلغائه وفقا لمتطلبات الايديولوجيا المسيّرة لصناع الخطاب على اختلافهم.

8/ الجو الخلقى وتشكيل الفرد/ المجتمع:

تشير إستراتيجية "الجو الخلقى" إلى الفوارق اللغوية وغير اللغوية أو الجسدية، المساهمة في تشكيل أنواع الهوية الاجتماعية وهي "مسألة تناسية، بمعنى أننا نحاول تحديد النماذج المستقاة من الأنواع النصية الأخرى وأنماط الخطاب الأخرى، والتي يستعان بها في تشكيل الذاتية (الهوية الاجتماعية، أو "النفس") للذين يشاركون في

¹ - محمد يطاوي، مقال -دائرة الخطاب ودائرة السلطة"، ص15.

التفاعلات...¹. ويقول "بورديو" في هذا الصدد "أن لنا أن ننظر إلى اللغة باعتبارها بعدا من الأبعاد الجسدية، التي تعبّر عن العلاقة الكاملة للمرء بالعالم الاجتماعي"². ويمثّل لهذه العلاقة بأسلوب التعبير لدى الطبقات الشعبية، وكيف أننا نجدها لا تتفصل عن العلاقة الكلية بجسد المرء، حيث يطغى على أسلوبهم إعلاء مظاهر الذكورة والرجولة، والابتعاد عن التصنع والتأنق الشديد...، وهذا ما يبرهن لنا أن الجوّ الخلفي بالنسبة للأطباء لا يتركز في لغّتهم، التي يعبرون بها فقط، وإنما في الأمور غير اللغوية أو الجسدية، كطريقة جلوسهم وتعبيرات وجوههم وتعاملاتهم، وردود أفعالهم حول ما يقال، ولمس المرضى والمسافة التي يتركونها بينهم أو وبين المريض، أي الاقتراب أو ترك مسافة وهذا ما يسمّيه "بورديو" بأسلوب الاقتراب وهذا هو "المنظور النقدي البالغ الأهمية للبناء، أي دور الخطاب في تكوين النفوس أو بنائها، وعندما يؤكد المرء البناء تبدأ وظيفة اللغة في بناء الهوية تكتسب أهمية عظمى، لأن طرائق المجتمعات في تصنيف الهويات وبنائها لأفرادها تمثّل جانبا أساسيا من جوانب عملها، وكيف تفرض علاقات السلطة وتمارس، وكيف يعاد إنتاج المجتمعات وكيف تتغيّر"³. يلعب الجوّ الخلفي بهذا دورا فعالا في الكشف عن الأمور التي تساهم في بناء "النفوس" أو "الذوات" أو "الهويات الاجتماعية المختلفة" داخل النصوص المراد تحليلها، وهو متعلق بالأمور اللغوية والجسدية في آن واحد، ممّا يساهم أيضا في الكشف عن علاقات السلطة، والصراعات المجتمعية القائمة على الهيمنة ودورها في بناء هذه الهويات، وإعادة إنتاجها وتغييرها بحسب السلطة الخاضعة لها. السلطة التي نحن بصدد البحث عنها ليست مقتصرة على السلطة السياسية فقط "بل هي سلطة اللغة المتاحة للفاعل السياسي، والداعية، والأب والأم في الأسرة،

¹ - نورمان فيركلف، اللغة والسلطة، ص 205.

² - المرجع نفسه، ص 206.

³ - نفسه، ص 208.

في المصرف، والصوت الإعلامي، إنها سُلطة كل السُلط... فاللغة هي المنجز الفعلي لأطماع السلطة، وبواسطتها تفرض الهيمنة في مساحة الخطاب، فتكون المحرك الرئيسي لدائرتين: دائرة الخطاب ودائرة السلطة¹.

9/ الاستعارة وكشف الايديولوجيا:

انبرت الدراسات اللسانية المشتغلة بالمجاز داخل حدود الجملة فلم تتمكن من البحث عن مضامين الاستعارات ومضمراتها، واعتبرتها نوعا من الانزياح لتأتي التداولية التي مثلت نقطة تحول فاصلة في الدرس البلاغي، "أولا لأنها خطت إلى أبعد من الجملة متجاوزة الطرح اللساني الضيق، الذي يبحث عن المعنى الحرفي، فاهتمت التداوليات بالمعنى المشتق، وبالخصوص المجاز "هذا من جهة، ومن جهة ثانية درست الاستعارة في أبعادها التواصلية، أي في سياقها الواقعي ضمن تشكلاتها وتلقيها أيضا في استعمالها ومقاصدها، كما ركزت على خروج الاستعارة من الاستعمال الحرفي إلى التوظيف المجازي المليء بالمضمرات"².

تعدّ الاستعارة من وجهة نظر تداولية وسيلة مهمة تساهم في الكشف عن العلاقة بين الاستعارات وبدائلها، حيث أن الاستعارات المختلفة تخفي وراءها روابط ايديولوجية مختلفة وذلك ما قال به جورج لاكوف George Lakoff ومارك جونسون Mark Johnsen في كتابهما "الاستعارات التي نحيا بها" "حيث أن جزءا هاما من تجاربنا وسلوكياتنا وانفعالاتنا استعاري من حيث طبيعته، وإذا كان الأمر كذلك، فإن نسقنا التصوري يكون مبنيا جزئيا بواسطة الاستعارة، وبهذا لن تكون الاستعارات تعابير

¹ - محمد يطاوي، دائرة الخطاب ودائرة السلطة، ص14.

² - حياة أم السعد، مقال "الاستعارة التي نحيا و نستعمر بها" المفهوم المعرفي للاستعارة، اللغة والأدب مجلة أكاديمية محكمة، جامعة الجزائر 21، العدد 28، شارع الدين الأفغاني، بوزريعة، الجزائر، جويلية، 2016، ص240.

مشتقة من "حقائق" أصلية، بل تكون هي نفسها عبارة عن "حقائق" بصدد الفكر البشري والنسق التصوري¹.

إنّ الاستعارة وفق منظورهم هي ضرب من الحقيقة، وشبيهة بحواسنا التي تساعدنا على إدراك الأمور، فالمقصود من أن نسقنا التصوري يكون مبنيا بالاستعارة، أي أنّها غير متعلقة باللغة والكلمات إنّما بذهنيات الفاعلين الاجتماعيين كونها تشكّل جزءا لا يتجزأ، منهم ومن إدراكهم للأمور "وهذا يعني أننا لا ندرك مظاهر العالم ومكوناته، ولا نباشر التجربة إلا عن طريق بعض الاستعارات فالاستعارات تلعب دورا يوازي، م ن حيث أهميته، ذلك الدور الذي تلعبه حواسنا في مباشرة وإدراك العالم وممارسة تجربته"². تلعب الاستعارة بهذا دورا بارزا في الكشف عن ذواتنا، وما يختلجها من أحاسيس ومشاعر وأفكار وعن ايديولوجيتنا.

ربطت الدراسات المهمة باللسانيات المعرفية والتحليل النقدي باختلاف توجهاته، مسألة الايديولوجيا كونها صيغة للسلطة بالصياغات التصورية أو الاستعارية المتعارف عليها في المجتمع الواحد، ويصرّ لايفوف على هذا الربط " ففي حوار مع بيير دي أوليفيرا، يقول: " للايديولوجيا مظاهر واعية وأخرى لا واعية، إذ سألت أحدهم عن معتقداته السياسية سيعطيك لائحة من المعتقدات، ومن المحتمل أن يعطيك بعض التعميمات، عندما ينظر اللساني المعرفي فيما يقول، يمكن أن يستخرج أطرا واستعارات لا واعية (وكذلك وحدات تصويرية) كامنة خلف معتقداته الواعية، وهاهنا تكمن إحدى إسهامات اللسانيات المعرفية"³.

¹ -جورج لايفوف ومارك جونسن، الاستعارات التي نحيا بها، ترجمة: عبد المجيد جحفة، دار توبقال للنشر، ط1، 1996، ص12.

² - جورج لايفوف ومارك جونسن، الاستعارات التي نحيا بها، ص12.

³ -أنظر، ريني ديرفن، فرانك بولز هاجن، هانز جورج وولف، اللسانيات المعرفية الايديولوجيا والتحليل النقدي للخطاب، ترجمة: د.أحمد الملاخ، جامعة القاضي عياض، المغرب، مجلة العمدة الدولية في اللسانيات وتحليل الخطاب، المجلد03، العدد03، (2019)، ص152.

فالبحث في الاستعارات يهدف إلى " تحديد طبيعة لغة المجاز المستعملة في عينة الخطاب، في مقابل لغة المجاز المستعملة للتعبير عن معانٍ مماثلة في نصوص أخرى، وتحديد العوامل الثقافية والايديولوجية...الخ)، التي تحدد سبب اختيار هذه المجازات، وينبغي النظر أيضا في تأثير الاستعارات في التفكير وفي الممارسة"¹.

أما النسقية الاستعارية الإظهار والإخفاء بالنسبة لـ"لايكوف"، هي وظيفة " تقترن بالفهم الواسع للخطاب في التحليل النقدي للخطاب، بمعنى أن الخطاب يعرف ويصف ويرسم حدود ما يمكن، وما لا يمكن قوله(وبالمثل ما يمكن وما لا يمكن قوله)(وبالمثل ما يمكن وما لا يمكن فعله)حيث يصوغ: "مجموع الاثباتات الممكنة المرتبطة بمجال معين"².

4/ اتجاهات التحليل النقدي للخطاب:

رأينا من خلال تتبعنا لمختلف اتجاهات التحليل النقدي للخطاب، أن كل اتجاه أو منظور من هذه المنظورات باختلاف رواده هو منظور خاضع للتحول والتغير، بحسب تغير وجهة نظر صاحبه وأصوله الفلسفية التي استمد منها توجهه في البحث... لذلك سنحاول من خلال قراءتنا لبعض الكتب حول الأطر المتبعة في التحليل النقدي للخطاب، تقديم لمحة أو صورة تعيننا في ولوج عالم هؤلاء الرواد ومنظوراتهم لاستنباط مجموعة من الآليات التي تخدم الجانب التطبيقي، والوقوف على أهم المحطات التي سنتبعا في التحليل... لكن هذه الوقفة تعدّ مجرد لمحة تفتح شهية القارئ للبحث في هذا المجال، ولاتغنيه عن العودة إلى الكتب المظان لرأدي هذا التوجه في التحليل.

مما ترتب على تقاطع الدراسات اللسانية للخطابات مع حقول معرفية ونظريات أخرى من خارج اللسانيات، بروز مناهج متعددة داخل مقارنة التحليل النقدي للخطاب،

¹ - نورمان فيركلف، اللغة والسلطة، ص 291.

² -ريني ديرفن، فرانك بولز هاجن، هانزجورج وولف، اللسانيات المعرفية الايديولوجيا والتحليل النقدي للخطاب، ص 152.

فإذا كانت المقاربة تصّف هياكل المادة اللّغوية للخطابات، وتحلّل تفاعلاتها وتداولاتها واستعمالاتها في سياقات اجتماعية فعلية، فإنّ مستنتجات هاتين المرحلتين تستثمر في تغيير الممارسة الاجتماعية موضوع الخطاب، بغية فضح وظائف السلطة اللّغوية وأطماع الهيمنة الناجمة عن التوظيف اللّساني المخصوص، فتتطلب مرحلة تحليل الممارسة الاجتماعية الانفتاح على الدراسات النظرية الإعلامية إذا كان موضوع الخطاب إعلاميا مثلا، أو على علوم التربية إذا كان موضوعه تعليميا، ومنه قاد تقاطع الدرس اللساني مع باقي الحقول المعرفية إلى ظهور سّنة مناهج في التحليل النقدي للخطاب...وهي المقاربة العلائقية الجدلية، والمقاربة المعرفية الاجتماعية، والمقاربة التاريخية لتحليل الخطاب، ومقاربة التفاعل الاجتماعي، والتحليل التنظيمي للخطاب ولسانيّات المدونات¹.

وتقسّم في كتاب: "مناهج التحليل النقدي للخطاب" إلى جزأين: 1/الإجراءات اللغوية المفصّلة وينضوي تحت هذا الاتجاه مقاربة الفاعلين الاجتماعية(ثيو فان ليفن) والمقاربة التاريخية للخطاب(روث ووداك ومارتن ريزيجل) والمدونات اللغوية(جيرليند مونتر).

2/الإجراءات اللغوية الكبرى: نجد المقاربة المعرفية الاجتماعية(تيون فان دايك) وتحليل التصرفات (سيجفريد ياجر وفلورنتين) والمقاربة الجدلية العلائقية (نورمان فيركلف)².

نفيد مما سبق أن أول آلية على الناقد التحلي بها وفق هذا التوجه هي الانفتاح على ميدان أو تخصص الدراسة قيد التحليل، وهذا يبرر لنا التفصيل الذي قمنا به في هذا الفصل وما سنقوم به في بقية الفصول.وقبل الخوض في غمار الحديث عن الآليات أو المفاهيم التي ستعيننا في الجزء التطبيقي، لا يخفى علينا أنّنا نقارب نصا

¹-مؤلف جماعي، التحليل النقدي للخطاب، مفاهيم ومجالات وتطبيقات، ص11.

²-أنظر، روث فوداك وميشيل ماير، مناهج التحليل النقدي للخطاب، ص17.

روائيا سرديا يملك فرادته وخصوصيته المختلفة عن الخطاب السياسي والإعلامي شكلا ومضمونا ، لذلك ارتأينا أنه لا بدّ من تقديم مجموعة من المفاهيم المتعلقة بدراسة النص الروائي لكننا سنجتهد في استخلاصها من مختلف توجهات رواد التحليل النقدي للخطاب، حيث قاربت معظم تطبيقاتهم نصوصا إعلامية أوخطابات سياسية أو إخبارية، إلا أننا سنحاول ترويض تلك المفاهيم والمعطيات لتتماشى ومعطيات النص الروائي.

4. 1/ الآليات الإجرائية للتحليل النقدي للخطاب:

ارتأينا تخصيص هذا الجزء لنشرح بعض الآليات الإجرائية التداولية المتعلقة بالتحليل النقدي للخطاب(الذي يساعدنا على اكتشاف منابت السلطة داخل الخطاب أو النص)، التي يروم الجزء التطبيقي تحقيقها وإبرازها في آن واحد.*

* واستقدينا من مجموعة من الكتب مثل: 1/ "تجيب العمامي" المعنون بـ "تحليل الخطاب السردى" (وجهة النظر والبعد الحجاجي)، باعتبار وجهة النظر والبعد الحجاجي مفاهيم تداولية بامتياز وبالنظر إليها من وجهة نظر التلطف. 2/ "حياة مختار أم السعد" كتاب "تداولية الخطاب الروائي" - من انسجام الملفوظ إلى انسجام التلطف وكتاب حياة مختار أم السعد، النقد والخطاب، مقاربات تداولية سردية وسوسيو ثقافية وميدولوجية. وبالنسبة لي كباحثة في بداية الطريق أرى أنّ هذه الكتب لها السبق في دراسة النصوص الروائية وفق المقاربة التداولية لها (هذه وجهة نظري الخاصة وفقا للدراسات التي اطلعت عليها)... ونرى بأسبقيتها في هذا الخصوص لأن بقاء الدراسات التي اطلعنا عليها نجدها دائما تغفل أو بالأحرى تتحاشى الجانب التطبيقي، المقصود هنا تطبيقات حول الرواية (لاحظنا دائما في الدراسات التداولية دراسة الخطابات السياسية أو التراث لكننا قلما نجد كاتباً يحلل الرواية تداوليا)، فكانت بهذا دراسات مشوبة بالنقص فيما يخص التطبيق بالنسبة للرواية، لذا ارتأى هذا البحث تبني وجهة نظر الباحثين في مقاربتنا التداولية للرواية العربية المعاصرة، عبر دمجها مع ما يتيح التحليل النقدي للخطاب من آليات... حيث أن أول لقاء لنا بكتاب تداولية الخطاب الروائي - من انسجام الملفوظ إلى انسجام التلطف - ... وإن كان هذا الكتاب يرى أن "الحديث عن الانسجام يتطلب رؤية شمولية للنص، متعلقة بمدى فهم سياقه، والوصول إلى مقصديات الكاتب الصريحة والضمنية، المبنية في ثنايا نصه، ومدى احترام النص للاستمرارية الموضوعاتية..." إلا أن دراستنا لا تبحث في انسجام الرواية العربية المعاصرة ، إلا أنها تفيد من الآليات المبنية في ثنايا هذه الدراسة للكشف عن مقصديات الكاتب الخفية والضمنية.أنظر، حياة مختار أم السعد، تداولية الخطاب الروائي، ص 10.

4. 1.1 / تقديم توصيف للمدونة أو المعرفة المسبقة:

أول آلية سنبدأ البحث فيها أو الحديث عنها نجد السياق أو التعريف بالمدونة التي سنتطرق لدراستها والأسباب التي دفعت بنا لاختيارها، وهو ما يسمّى عند فوكو بـ"اختيار الموضوع" حيث يحاول الناقد من خلال هذا العنصر تبرير اختيار لموضوع ما دون غيره، عبر تقديم شروح وتفسيرات تعينه في ترسيخ أهمية الموضوع المطروح، ومعالجته عبر اقتراح الجدائل الخطابية التي يمكن أن تنبثق عن هذا الموضوع مثل: الحديث عن العنصرية يتركز في الحديث عن قضايا اللجوء السياسي، الهجرة واللاجئين، وهذا المفهوم (العنصرية) " قد يتطور...وينمو بشكل أكبر وأوسع في أثناء سير التحليل)، دائما ما تكون المفاهيم النظرية موضع جدل، ويكون الباحث في حاجة إلى توضيح المفهوم الذي يعمل على أساسه مع بيان أسبابه...¹.

يرى فوكو* أن على الناقد تقديم توصيف حول المدونة المراد تحليلها، وتحديد الفترات الزمنية لكتابة تلك المدونة، حيث " يتعين وصف البنية المادية للتحليل... وفي خطوة تمهيدية لإجراء التحليل، تتجلى الحاجة إلى تقديم توصيف عام لصحيفة(صحف) الأخبار محل الدراسة من حيث توجهاتها السياسية وقراءتها ومدى انتشارها وغير ذلك"².

أما "فان ديك" في مقارنته "المعرفية الاجتماعية فيصطلح عليه بالسياق الاتصالي أو المعرفة المسبقة حيث "يركز تحليل السياق على عوامل (الزمان،

¹ -روث فوداك وميشال ماير، مناهج التحليل النقدي للخطاب، ص118.

*أثناء التحليل يرى فوكو بعدمية ضرورة إتباع هذه الخطوات بطريقة صارمة ومتتالية إنما "لا يتوجب الالتزام به على نحو حازم، وعادة ما يتوجب إجراء الخطوات عدة مرات، في مراحل التحليل الموضحة، يجري اكتشاف العلاقات القائمة بين مختلف مستويات التحليل والارتقاء بمستوى التفسيرات والشروح، وتجاهل الحجج الواهية". أنظر، روث فوداك وميشال ماير، مناهج التحليل النقدي للخطاب ، ص120.

² - روث فوداك وميشال ماير، مناهج التحليل النقدي للخطاب، ص119 و120.

المكان) والمشاركين وصفاتهم، والعلاقات القائمة بينهم، وكذلك على أهدافهم ومعرفتهم التي تتشكل من خلال مشاركتهم، وكذلك ايدولوجياتهم¹.

فالكشف عن مضمرات الخطاب "أحوج ما يكون إلى الوعي بقيامه-بالإضافة إلى الوعي ببنية اللغة وبنية النص-على بنى أخرى غير لغوية، ولكنها منصهرة في الخطاب"تقصد بنية* السياق التاريخي، وبنية المعرفة (الجماعية والفردية) فبنية المجتمع، ثم بنية الثقافة².

يعدّ التاريخ ركيزة أساسية في التحليل النقدي للخطاب، حيث لا يمكن بأية حال من الأحوال مقارنة النصوص دون البحث عن سياقاتها التاريخية، والخارجية المنتجة لها، كون التحليل النقدي للخطاب يعتبر هذا الأخير ممارسة اجتماعية هادفة إلى إحداث تأثير في المجتمع، تحتكم الى لحظة تاريخية معينة مرتبطة بإنتاجه، وتلقيه حيث " يمثل مفهوم التاريخ خيطا ناظما للتحليل النقدي للخطاب، حيث لا يمكن عزل الخطاب عن سياقه التاريخي ، وأن هذا السياق لا بد أن يخضع للدراسة والتحقيق، ويؤخذ بعين الاعتبار في التحليل النقدي للخطاب، وذلك حين يتعلق الأمر بتحليل واقعة خطابية بعينها وتأويلها، وذلك عبر دراسته في لحظة تاريخية بعينها هي لحظة إنتاجه، ولحظة تقبله"³.يصبح الحديث عن السياق التواصليّ أو تقديم توصيف للمدونة المراد دراستها ضرورة لا مفرّ منها أثناء التحليل النقدي للخطاب.

¹ - روث فوداك وميشال ماير، مناهج التحليل النقدي للخطاب، ص 147.

*الخطاب والسلطة أوسع من أن نسند إليهما وصف البنية، لأن البنية تضم عناصر أو أجزاء تشكل كلاً متجانساً، أما الخطاب والسلطة فيضم كلاً منهما بنى عديدة بعناصرها وليس بنية واحدة منعزلة، لذلك حرّى بنا أن نقول بنى الخطاب وبنى السلطة بالجمع. انظر، محمد يطاوي، مقال -دائرة الخطاب ودائرة السلطة-، ص 14.

² -المرجع نفسه، ص14.

³ -أنظر، منية عبيدي، التحليل النقدي للخطاب نماذج من الخطاب الاعلامي، كنوز المعرفة، عمان، ط1، 2012، ص101 و102.

تكمّن أهميّة المعرفة الخلفيّة في إنطاق المسكوت عنه في النص، واكتشاف ضمنيّاته، لذا وجب على القارئ أو الناقد عند مقارنته لنص من النصوص أن يمتلك خلفية معرفية تعينه في فهم النص، وتسمح له بتأويله تأويلا صحيحا إن لم يكن صحيحا لكنّه يظهر مقبولا في نسقه العام "بمعنى أنّه لا يواجهه وهو خالي الذهن، فالمعروف أن معالجته للنص المعايين تعتمد... على ما تراكم لديه من معارف سابقة تجمعت لديه كقارئ متمرس، قادر على الاحتفاظ بالخطوط العريضة للنصوص و(التجارب) السابق له قراءتها ومعالجتها"¹.

يوجب هذا على القارئ امتلاك "ذخيرة موسوعيّة، يكون بها قادرا على ملء فراغات النص، فيتسنى له فهمه أكثر، إن أدرك طبيعة الجنس المنتمي إليها، لأنّه يبقى للقارئ دور مركزيّ في الحكم على انسجام نص من النصوص"². هذه المعلومات المسبقة أو الخلفية المعرفية أو المعرفة الخلفية، تسمح لنا بفهم طبيعة النص وإدراك خصائصه عبر الإمساك بخطوطه العريضة .

4. 1. 2/ العنوان: يعتبر العنوان العتبة الأولى التي تسمح لنا بولوج عالم النص الروائي وللملمة حثيثاته، ويعرف بأنّه يجسّد: " أعلى اقتصاد لغوي ممكن يوازي أعلى فعالية تلقّ ممكنة، تغري الباحث والناقد بتشبع دلالاته، مستثمرا ما تيسر من منجزات التأويل"³. انطلاقا من هذا القول يتضح لنا أنّ العنوان باعتباره النص الموازي الأول لعالم النص سواء الروائي منه أو الشعري، يتميز بمكانة تسمح له بالكشف عن مضامين النص عبر استراتيجيات التأويل المعتمدة.

يتيح العنوان للناقد فرصة معرفة مضمون النص وتأويله، لكن هذا التأويل قد يتوافق فيه مضمون النص والعنوان أحيانا، وأحيانا أخرى لا، حيث نجد العنوان لا يمتّ

¹ - محمد خطابي، لسانيات النص(مدخل إلى انسجام الخطاب)، ص 61.

² - حياة مختار أم السعد، تداولية الخطاب الروائي، ص 10.

³ - بسام موسى قطوس، سيمياء العنوان، وزارة الثقافة، عمان، ط1، 2001، ص 60.

بصلة لمضمون النص وإنما يستعمل كآلية لجلب القارئ أو لفت انتباهه أو للتمويه، ومنع القارئ من الوصول إلى التأويل الصائب للعنوان، وهنا يخيب أفق التوقع لدى القارئ، مما يدفعه إلى قراءة النص قراءات عديدة تعينه على الفهم الفعال للنص.

أما العنوان بالنسبة لـ"فان ديك" فهو مرتبط بالسياق الذي يقسمه بدوره إلى نوعين: سياق أكبر وسياق أصغر، أما السياق الأكبر أو الموضوعات أو البنى الدلالية الكبرى: المقصود بالبنى الدلالية الكبرى هي العنوان والملخصات والإعلانات والموجزات وغيرها من الأمور الأكثر بقاء في ذهن القراء وهي "لبّ ما يدور حوله الخطاب (بشكل عام)، وهي هياكل مقصودة في الأغلب، وتحت مراقبة متعمدة من المتحدث، وهي تجسيد المعلومات الأكثر أهمية (بشكل ذاتي للخطاب)"¹.

أما السياق الأصغر أو المعاني الجزئية (الصغرى)، فهو يعنى بدراسة "المعاني الجزئية (الصغرى)، مثل معنى الكلمات (دراسة يمكن كذلك تسميتها معجمية lexical اعتمادا على منظور الشخص) والبنى وطبيعة القضايا والحبك والعلاقات الأخرى بين القضايا، مثل: التطبيقات والافتراضات المسبقة ومستويات الوصف ودرجات موضوعيتها وما إلى ذلك"².

يلج "فيركلف" على أنه من الضروري توجيه عناية خاصة للمفردات والعبارات والجمل والأقوال التي يبدأ بها الكاتب...، لأنها تعيننا في رصد وكشف الافتراضات والاستراتيجيات الخفية، والتي يصعب التصريح بها. والأمر نفسه نجده عند "فوكو" حيث يصرّ في المستوى التحليلي المسمّى بـ: في سطح النص على التقصّي عن العناوين

¹ - روث فوداك وميشال ماير، مناهج التحليل النقدي للخطاب، ص 166.

* نماذج السياق والتداولية: بوصفها نماذج عقلية معينة لصور الشخصية (التعريفات)، الخاصة بالصفات ذات العلاقة الوثيقة بأوضاع الاتصال وضبط الخطاب، وتكيف الخطاب مع البيئة الاجتماعية بحيث تكون مناسبة موقفيًا.

² - المرجع نفسه، ص 149.

الرئيسية والفرعية وعن شكل صفحة الجريدة التي نشرتها المقالة، وكذلك عن أنواع الصور والرسوم البيانية المصاحبة للنص.¹

ينضوي تحت ما جاء به كل من "فوكو" و"فيركلف" ما يسمّى بالنصوص الموازية، وهو حقل معرفي يضم مجموعة من المفاهيم "تستوعي اهتمام الباحثين والدارسين في غمرة الثورة النصية، التي تعتبر إحدى أهم سمات تحولات الخطاب الأدبي بشكل خاص، والخطابات المعرفية التي تقتسم معه إشكاليات القراءة والتفاعل والإقناع والتواصل بشكل عام".²

وهذه المفاهيم تتجلى في "مجموع النصوص التي تخفر المتن، وتحيط به من عناوين وأسماء المؤلفين والاهداءات والمقدمات والخاتمات والفهارس والحواشي وكل بيانات النشر، التي توجد على صفحة غلاف الكتاب وعلى ظهره".³

فالنصوص الموازية تتجلى في مجموعة الأمور السابقة الذكر، أو يمكن أن تبرز في مجموعة من الكلمات أو الجمل المتصدرة لجزء واحد من الرواية، أو مجموعة من الأجزاء، وهذا يظهر جلياً في النصوص الروائية المعاصرة، حيث نجد الكاتب يقسم نصه الروائي إلى مجموعة من المقاطع، في طليعة كل واحد منها قد نجد بيتاً شعرياً، أو مقولة لأحد الفلاسفة أو النقاد أو الاثنين معاً، أو ذكر تواريخ مختلفة تنتمي إلى شهور مختلفة كذلك، وغيرها من صور هذه النصوص التي سندرسها في الجانب المخصص للتطبيق.

بعد دراسة العنوان علينا أن نلخص النص في عدّة قضايا كبرى هي تعبير مباشر عن بعض عقائد الايديولوجيا أو بالأحرى عن المبادئ الايديولوجية العامة، التي يقع

¹ -أنظر، روث فوداك وميشال ماير، مناهج التحليل النقدي للخطاب، ص126.

² -عبد الرزاق بلال، مدخل إلى عتبات النص، دراسة في مقدمات النقد العربي القديم، إفريقيا الشرق، المغرب، دط، 2000، ص21.

³ - المرجع نفسه، ص21.

فيها الحدث التواصلية محل الدراسة، أمّا الهدف من الكشف عن البناء النثمي للنص إجابة عن الأسئلة الآتية"

* يدل على وجود نسق واضح فيما يتعلق باختيار ثيمات العبارات .

* ما البناء النثمي للنص، وما الافتراضات التي يقوم عليها (بشأن بناء المعرفة أو الممارسة مثلا) ؟

* هل يكثر في النص وجود الثيمات المبنية بعلامات معينة؟ و إن صح فما الدوافع من ورائها¹ . بعد استثمار معرفتنا الخلفية نصبو إلى اكتشاف الثيمات التي تضطلع بدور رئيس" كونها مساعد على تنظيم الموضوعات المتدرجة في نص من النصوص"².

وهنا وجب علينا الإشارة إلى مفهوم الاستمرارية الموضوعاتية." ذلك لأن الرواية لها مميزات خاصة جدًا، والانتقال فيها من موضوعة لأخرى لا تبرره سوى المقصديات المبنوثة في النص الروائي ذاته، مما يجعل البحث في الاستمرارية الموضوعاتية أمرا يتعلق بمدى فهم القارئ للطريقة التي اختار بها المؤلف أن يقدم موضوعاته"³.

يفضي الحديث عن الاستمرارية الموضوعاتية إلى القول باختلافها من نص إلى نص آخر، خاصة إذا كان هذا النص روائي يحمل بناءه الخاص وفرادته التي تميزه عن غيره من النصوص... وهي في نفس الوقت آلية تسمح لنا بفهم النص، إلا أن هذا الفهم أو التأويل قد يختلف من قارئ إلى آخر، وهذا الفهم لمضامين النصوص الروائية ومقاصدها يجب أن يكون فهمًا فعالاً.

كما يسمّيه "باختين" وهو الفهم الذي يستدعي بالضرورة العودة إلى وضعية التلفظ والسياق المرتبط بالنص والظروف المحيطة به، وهذا الفهم (الفعال) هو الذي

¹ - نورمان فيركلف، اللغة والسلطة، ص 289 و 290.

² - حياة مختار أم السعد، تداولية الخطاب الروائي، ص 260.

³ - المرجع نفسه، ص 276.

"يسمح لنا بقبول النيمة"¹. فالفهم بالنسبة بالنسبة لـ "باختين" هو فهم حوارى بالدرجة الأولى "فأن تفهم هو أن تضع في مقابل كلمة المتكلم كلاما آخر"².

يتعلق الفهم الحوارى بالعناصر اللفظية وغير اللفظية المبنوثة في النص كالسياق والظروف التاريخية، التي بنت هذا النص وغيرها من الأمور "خارج نصية" إن صح القول، هي التي تمكننا من فهم النص واستخراج تيماته الجوهرية.

4. 1. 3/وجهة النظر/الرؤية /التبئير:

تعددت تسميات هذا المصطلح "منها الرؤية (Vision) والتبئير (Focalisation) وليس تعدد التسميات شكلياً دوماً، وإنما يترجم فويرقات في مستوى تصوّر المفهوم واختلافاً بين الدارسين في مستوى المرجعيات النظرية، وفضلنا استخدام مصطلح "وجهة النظر" على غيره لأنه مصطلح سردي ذو بعد دلالي"³. نرى مع "نجيب عمامي" باستعمال هذا المصطلح كونه يتماشى والمقاربة التداولية للنصوص السردية، بالإضافة إلى أنه مرتبط بالدلالة عبر مساهمته الفعالة في إنتاج المعنى، وكشف المضامين الايديولوجية .

¹ - Bakhtine : Marxime et philosophie de langage : Essai d'application de la méthode sociologique en linguistique ,Traduit du russe et présenté par Mrina Yaguello, les édition de minuit ;1977.p146.

نقلا عن ترجمة: حياة مختار أم السعد، تداولية الخطاب الروائي، ص 197.

² - نقلا عن نفس الترجمة: ص 146. Ibid ; p146.

*ومن النقاد العرب من ذهب هذا المذهب في اعتماد وجهة النظر سبيلا إلى الخوض في الأبعاد الحجاجية في النظر، ومن قبيل ذلك دراسة محمد نجيب عمامي رواية خان الخليلي من خلال وجهة النظر بالمعنى التلغظي.يقول الباحث في هذا النطاق: فلهذا المفهوم (وجهة النظر)أيضا بعد دلالي بما أنه يقرن إلى التبئير الموقف أو الرأي، كما أنه يندرج من منظور "إبائال" والسرديات التلغظية في باب التلغظ.واندرجه في هذا الباب يقيم صلة بينه وبين الحجاج بحكم انتمائهما إلى المباحث التداولية بوصفهما مظهرين من مظاهر ذاتية المتكلم، بل إن الحجاج لا يعدو أن يكون تنويعا على وجهة النظر"أنظر، محمد بن محمد الخبو، مداخل إلى قصصية المعنى، مكتبة علاء الدين، تونس، ط1، 2016، ص77.

³ -محمد نجيب العمامي، تحليل الخطاب السردى (وجهة النظر والبعد الحجاجي)، ص10.

فوجهة النظر "مفهوم قديم جدّد النظر إليه دارسو السرد من ناحية التلفظ مثل: فان دان هوفل (Van dan Heuvel) وريفارا (Rivara) وآلان راباتال (Alain Rabatel)، الذي وفر للدارسين معايير لغويّة تتيح لهم مقارنته في النص القصصيّ التخيلي مقارنة تنزع إلى العلمية"¹.

تعددت تسميات وجهة النظر واختلفت، لكنّها توصف كونها "علاقة بين مكونات الخطاب السردية، حيث يبنى تمييز "السردية" علما على نظرية مستقلة، على اختصاصها بما يتعلق بمستوى السرد، وهو المستوى الذي يعنى بدراسة علاقة الخطاب السردية بالذات التي تنتجها والذوات التي توجه إليها"².

تتيح وجهة النظر للناقد كونها آلية تحليلية معايير لغوية لمقاربة النصوص التخيلية (قصة أو رواية) هي كما سبق وأشرنا نجدها عند "محمد نجيب العمامي" مفتحة على المعنى وهذا الذي صرح به "محمد الخبو" في تقديمه للكتاب قائلا: "وجهة النظر من ناحية التلفظ- دراسة مفتحة على المعنى، وهي تؤدي إليه، فينقاد لها مطوعا... ويكشف بسط وجهة النظر موقف الراوي من موضوع تعاليقه وأحكامه، وهي مواقف يوردها أحيانا في قالب جدّي، ويوردها أحيانا في قالب ساخر يرسم مسافة بينه وبين موضوعها"³. يتضح وفق هذه الرؤية أن وجهة النظر تتمثل في موقف الراوي إزاء موضوعه المطروح، وعبر أحكامه المختلفة والمبثوثة في ثنايا النص،

¹ - محمد نجيب العمامي، تحليل الخطاب السردية (وجهة النظر والبعد الحجاجي)، ص 03.

² -جنيت، عودة إلى خطاب الحكاية، تر: محمد المعتصم، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، ص18. خطاب الحكاية، بحث في المنهج، تر: محمد معتصم، عبد الجليل الأزدي، عمر حلي، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، ط2، 1998، ص39، نقلا عن أسماء بنت صالح حسن الزهراني، وجهة النظر السردية في البناء القصصي في القصة القصيرة السعودية، اشراف: صالح بن معيض الغامدي، رسالة دكتوراه، جامعة الملك سعود، ، ص22.

³ - محمد نجيب العمامي، تحليل الخطاب السردية (وجهة النظر والبعد الحجاجي)، منشورات وحدة الدراسات السردية، كلية الآداب والفنون بمتوبة، دار مسكيلاني للنشر، 2009، تقديم: محمد الخبو، ص 03.

وتتجلى في مواقف يتخذها الرواي تظهر جدية في بعض الأحيان وساخرة أحيانا أخرى.

فالتداولية بهذا المبدأ "وإن أخذت من الدراسات البنيوية السابقة لها التي جعلت النص الأدبي مغلقا على ذاته باعتباره بنية، تتفاعل عناصرها الداخلية لتفيض بالدلالة، نجد التداولية ترسم معالم لمقاربة جديدة تلوح في الأفق وهي مقاربة النصوص التخيلية من منظور نظرية التلفظ، التي تجعل من النصوص الأدبية عالما مفتوحا على استراتيجيات التأويل المختلفة"¹. تضطلع فيها لغة النص الأدبي بوظائف تداولية مختلفة حاملة في طياتها أبعادا ايديولوجية وسياقية وتاريخية وثقافية وغيرها، لتخرج من النسقية البنيوية المغلقة وتتفتح على السياقية، التي ترى بضرورة مراعاة السياق أثناء استقراء النصوص والخطابات الأدبية.

وبما أن اللغة بالنسبة للتداولية هي لغة وظيفية تساعد في الكشف عن وجهة نظر الكاتب يحددها "نجيب العمامي" بثلاثة وظائف تشترك في تأديتها كل من الرواي والشخصية "وأول هذه الوظائف نجد:

4. 1. 4 / الوظيفة السردية:

تتكون هذه الوظيفة من وظيفتين سرديتين "أولاهما بناء المكان والشخصيات... وثانيهما وظيفة الإنشاء التي أدتها ملفوظات وردت صلب تمثيل الإدراك أو الأفكار أوفي التعليق، وهي لا تتضمن إشارات صريحة إلى الأحداث بقدر ما توحى بها"². تجمع هذه الوظيفة عناصر مهمة في أي بناء سردي، فالبناء المكاني لا يمكن أن يقدم للقارئ إلا من خلال وجهة نظر ما يتكفل بنقلها أحد الشخصيات، أو الرواي بحسب موقعهم في السياق السردية وبحسب أيضا وظيفة تقديم تلك الرؤية عن المكان أو الشخصيات، كما أن وظيفة الإنشاء التي لا تقل أهمية عن الشق الأول نستشفها من

¹ - Dominique Maingueneau, pramatique pour le discours littéraire, Bordas, Paris, 1990, P VII

² - أنظر، محمد نجيب العمامي، تحليل الخطاب السردية (وجهة النظر والبعد الحجاجي)، ص 63 و 66.

خلال ملفوظات معينة، تسهم في بناء فكرة تدور في أذهان بعض الشخصيات توحى لنا بها أحد الشخصيات أو الرواي لنوضع في سياق النص وثاني هذه الوظائف:

4. 1. 5/ وظيفة الإيهام بالواقع:

تتجلى وظيفة الإيهام بالواقع في وجهة نظر كل من الرواي والشخصية عبر " الوصف الاستقصائي وتسمية الأماكن بأسمائها المرجعية الكائنة خارج النص، ومشكلة الشخصيات بشر الواقع أسماء وسمّات مادية ومعنوية وأدوار اجتماعية، وتتجلى كذلك من خلال خلق مناسبات ملائمة للإدراك"¹.

تدفع هذه الوظيفة الشخصيات الجديدة داخل المتن الروائي إلى استكشاف وتقديم توصيف للأماكن والشخصيات، وبحسب "العمامي" تتدرج هذه الوظيفة التي تؤديها وجهة النظر هذه في باب التمثيل أو التصوير أكثر من اندراجها في نظرية التلفظ. أمّا الوظيفة الثالثة وهي الوظيفة الأهم والأبرز هي المتعلقة بالايديولوجيا.*

والمتمعن لهذه الوظائف مجتمعة على اختلافاتها السردية والواقعية والايديولوجية "يدرك ترابطها ويتبين تضافرها على تجسيم العالم المتخيّل، ورغم أن هذا العالم مشاكل لعالم البشر في فترة زمنية محددة ورقعة جغرافية معينة فإنّ مختلف وظائف وجهة النظر تبين مجتمعة أنّه عالم قائم بذاته، ومستقل بمكوناته ومحكوم بقيم وأعراف خاصّة به، وهو ما يدل على أهمية وجهة النظر في بناء العالم المتخيّل"².

وتساعدنا هذه الوظائف على اختلاف مرجعياتها وتداعياتها وأهميتها، في بناء الصرح الروائي على الاقتراب من النص الأدبي، كونه كيانا حاملا في مظانّه أبعادا سياقية وثقافية وتاريخية... وغيرها تقضي بدورها إلى مقاصد ومضامين مباشرة وغير

¹ - محمد نجيب العمامي، تحليل الخطاب السردى (وجهة النظر والبعد الحجاجي)، ص 67.

* هذه الوظيفة مشتركة بين وجهتي نظر الشخصية و الرواي. أنظر المرجع نفسه، ص 69. أنظر الجزء الأول من هذا الفصل في المبحث المتعلق بباختين وايديولوجية الرواية تضمن شرحا مفصلا لهذه الوظيفة.

² - محمد نجيب العمامي، تحليل الخطاب السردى (وجهة النظر والبعد الحجاجي)، ص 73.

مباشرة، ووظائف تتبئ عن ايدولوجيات وضمنيات تعمل الدراسة التداولية على استنتاجها بالتقصي في سياقاتها المفعلة والمنتجة لها.

بعد هذا التنظير، نرى أنه لمن الضروري الوقوف على بعض المفاهيم، التي تكمل هذا الشق النظري، وتسهم لا محالة في تجلّي فهم التصور المطروح، كما يبرره موضوع الأطروحة المتعلق بالتمثيل، والقمع السلطوي، والرواية العربية المعاصرة وتعالقاتها مع السلطة والخطاب والايديولوجيا.

الفصل الثاني:

جدلية العلاقة بين

الرواية والسياسة

رأينا في نهاية الفصل الأول ضرورة الوقوف على مجموعة من المفاهيم، التي تكمل الفصل الأول وتضيئه، والبداية ستكون مع مفهوم التمثيل.

1/ في مفهوم التمثيل:

لم يتوان التداوليون مهما اختلفت مشاربهم، من تقديم آراء مختلفة لإشكالية تتعلق باللغة في علاقتها بالعالم والفكر، هذه الثلاثية التي تجعل كلامنا دائما يحيل من جهة إلى جزء صغير من العالم المحيط به ومن أحداث موقف ما، تكون أقل استقامة ووضوحا وترتيباً مما هي عليه في الفكر، وهنا تتبع إشكالية بارزة تتعلق بقضية التمثيل (La représentation)، فخطاباتها ليست تجلياً مطابقاً لأفكارنا بل هي صورة عنها فقط، أي تمثيل لها يمر عبر وسيط، في أغلب حالاته يكون وسيطاً لغوياً.¹ فهذا التعبير أو التصوير عما يختلج ذواتنا، يكون في أغلب حالاته تجسيدا لغوياً، وهذا ما جعل المنظرين يرون في الخطاب تمثيلاً.

حيث تتركز أهمّ المفاهيم التداولية في تحليل الخطاب بـ "... النظر إلى الخطاب على أنه تمثيل (Représentation)، يتخذ فيه كل واحد من المتخاطبين موقعا اجتماعيا، ويكون كل تلفظ وبالتالي كل ملفوظ حاملا نوعيا لهذا الموقع الاجتماعي في السيرة التواصلية، مع الاهتمام أيضا بكيفيات انتقال وتداول الخطاب في هذه السيرة"².

فقضية التمثيل اللغوي كونها وسيطا بين الدال والمدلول، وكونها أساس العملية التواصلية بالنسبة للخطابات العادية، وحتى الإبداعية منها تداوليا تجعله من المفاهيم، التي يصعب تحديدها نظرا لاشتراك فروع معرفية كثيرة فيه، ونجد هذا المصطلح يظهر

¹ - أنظر، أم السعد حياة، مقال "الاستعارة التي نحيا ونستعمر بها" المفهوم المعرفي للاستعارة، ص 243 و 244.

² - محمود طلحة، تداولية الخطاب السردي، دراسة تحليلية في وحي القلم للرافعي، ص 26 و 27.

جليًا في الدراسات الأدبية والنقدية، على حد سواء حيث سنحاول من خلال هذا الجزء أن نحيط بمفهوم التمثيل وأن نلّم بحديثاته، وذلك عبر بعض التعريفات المعجمية له.

ورد في معجم تحليل الخطاب مصطلح التمثيل الاجتماعي **Représentation Sociales**، حيث أن التمثيلات الاجتماعية " تشمل مجموع المعتقدات والمعارف والآراء، التي ينتجها ويتقاسمها أفراد المجموعة الواحدة إزاء شيء اجتماعي معين ¹". ف قضية التمثيلات الاجتماعية هي قضية الراهن بالنسبة للعلوم الإنسانية والاجتماعية، لأنها تفضي إلى أمور معقدة تستدعي البحث في تحديد وهيكل مجموعة من الأمور أبرزها العقائد والإيديولوجيات.

أمّا بالنسبة للتداولية فنجد هذا المصطلح (التمثيل الاجتماعي) يستعمل استعمالات متنوعة، فأحيانا يستعمل منحسرا كما هو الشأن في نظرية الإفادة ل:سبرير وولسون*، وأحيانا أخرى يستعمل هذا المفهوم استعمالا واسعا باسم " تمثيلات يفترض أنها مشتركة" تحيل على المعرفة المشتركة التي تعتبر أن المتخاطبين يتقاسمونها حتى يتسنى حصول التفاهم ².

أمّا في علم السيميوطيقا فنجد التمثيل يستخدم كونه معبرا عن واقع غير لغوي باستخدام اللغة، أمّا في نظرية المعرفة فيقوم "على استعارة مضاعفة تتعلق بالتمثيل

¹ -باتريك شارودو ودومينيك منغو، معجم تحليل الخطاب، ترجمة: عبد القادر المهيري - حمّادي صمود، مراجعة: صلاح الدين الشريف، منشورات دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، تونس، 2008، ص489.

* قضية التمثيل من بين أهم ما يطرح في الدراسات التداولية والمعرفية، تناولها أعلام وفلاسفة متعددون ومن بينهم سبرير وولسون في كتابهما المشترك " الملاءمة"، حين شرحا الفكرة بهذه العبارة " هل يمكن لأفكارنا أن توضع على الورق؟ طبعاً ليست أفكارنا التي على الورق ولكن بعض العلامات السوداء، أما أفكارنا فهي دائماً باقية في عقولنا..."² "الأكد أن ما يتجلى في السطح هو تمثيل لهذه الأفكار لا يمكن اعتباره صورة مطابقة لما يجول في فكرنا ولكنه تمثيل استعمال وسيط معين، أو استعان بالوسيط الذي رآه مناسباً لنقل ما يريد نقله، أنظر، أم السعد حياة، مقال " الاستعارة التي نحيا ونستعمر بها" المفهوم المعرفي للاستعارة. أنظر أيضاً:

Voir, Dan sperber et Deirder wilson, la partience, communication et cognition traduit de l'anglais par Abel Gerchenfeld et Dan Sperber, Les Edition de minuit, 1989, p11.

² -أنظر، المرجع نفسه، ص 489.

الدبلوماسي والتمثيل المسرحي"¹. تحليل الأولى على فكرة النيابة، وفيها يخوّل شخص بالتصرف مكان شخص آخر، أما الثانية فتستدعي وجود ممثلين حقيقيين.

أما الفرق بين المصطلحين التمثّل/ التمثيل فيتبين في كون الأول: مجموعة المعارف والاعتقادات التي تخزن في الذاكرة (التمثّل)، ويتم استرجاعها عند الحاجة ومعالجتها معالجة ذهنية (التمثيل)².

وهو الشيء نفسه وفق هذا التوجه حيث "أن التحديد الأدنى للمعرفة يستلزم فكرة التمثّل، فمعرفة شيء، يعني امتلاك تمثّل عن ذلك الشيء، وهي أيضا القدرة على تحويل هذا التمثّل من أجل استخلاص المعلومات"³. فالإنسان بهذا غير قادر على تمثيل الأشياء حتى يستقرّ في ذهنه تمثّل لها...فاستدعاء التمثيل للوسيط اللغوي لتجسيد الأفكار "يعيدنا حتما إلى الممارسة الحوارية، بما تفرضه من شروط تسمح ببناء حوارات توحى بالطابع الطبيعي للممارسة، أما التمثّل الذهني، فننصّره في تلك المضامين الخفية، التي يتوصل إليها متلقي الخطاب، بما في ذلك من أقوال مضمرة، وافتراسات مسبقة، مروراً بتمثّلاتها الذهنية"⁴.

بيّن مما سبق أن التعاريف المعجمية للتمثيل ترسخه في الوسيط اللغوي، أما عن الفرق بين التمثيل والتمثّل، فهما كالوجهان للعملة الواحدة يستدعي كل واحد منهما الآخر ليتضح ويتجسد، ونسجّل انتقالاً من تعريف التمثيل اللغوي إلى تمظهراته النقدية نبداً بروية "فوكو".

¹ - محمد القاضي وآخرون، معجم السرديات، ص112.

² - آن روبول وجاك موشلار، التداولية اليوم علم جديد في التواصل، ص264.

³ - J.P.Meunier, Approches systémiques de la communication, Deboeck, Bruxelles 2002.

نقلا عن ترجمة ذهبية حمو الحاج، في قضايا الخطاب والتداولية، كنوز المعرفة، عمان، ط1، 2016، ص143. وبالعودة إلى المرجع الأصلي.

⁴ - المرجع نفسه، ص143.

يظهر التمثيل عند "فوكو" بكونه نظاما يستدعي الإدراك أو الاستعادة، بمعنى عودة الأشياء كممثلة عن ذاتها، بدلا من التمثيلات الصورية التي تمحينا وتتسنا ما تمثله حقا فيقول: "إن نظام التمثيل يترك مكانه لاستعادة الأشياء حضورها المباشر، بدلا من غيابها وراء الفعالية الذهنية بكل مراتبها المعرفية من مجرد الإحساس بالإدراك أو التصور فالمفهوم"¹. فالتمثيل لما كان موجودا بحسب إدراكنا وإحساسنا وتصورنا، للأمور يقتضي من الإنسان تمثيل الأشياء الغائبة وراء الفعالية الذهنية لتكتسب وجودا عبر الوسيط اللغوي (الكتابة، الخطابات...الخ)، فالأشياء التي نراها تغيب نمثلها عبر الكتابة لتحضر.

أي أن امتلاك هذه المؤسسات للبنى اللغوية، التي تجسد عبرها جميع الأساليب للسيطرة على المجتمع، وتحديد ماهية "الحقيقة" فهي تجنّد الذات، عبر الخطاب، وتنظمها تنظيما منهجيا كي توائم أهدافها"².

وهذا ما يدفعنا إلى القول بتكامل كل من السلطة والمعرفة، "فالسلطة تبني وتهيمن في الوقت ذاته التي تقصد فيه أن تعرف. وهكذا، فإن المعرفة تنتج السلطة التي لا يمكن أن تمارس، بدورها دون المعرفة"³. وهنا يبرز الخطاب بدوره السلطوي المعرفي، حيث لا وجود لسلطة دون التأسيس لمعرفة، ولا وجود لمعرفة دون تأسيس أو إنتاج سلطة.

برز مفهوم التمثيل في الفكر النقدي العربي مع صعود نجم الناقد والمفكر "إدوارد سعيد" Edward Said، حيث أنه لا يمكن لتمثيل الواقع، بصرف النظر عن زاوية

¹ - ميشيل فوكو، الكلمات والأشياء، المقدمة، ترجمة: بدر الدين عروديكي، مراجعة: جورج زيناتي، مركز الإنماء القومي، لبنان، 1989-1990، ص12.

² - تشيلي واليا، دراسات إدوارد سعيد وكتابة التاريخ، ترجمة: أحمد خريس وناصر أبو الهيجاء، عمان، الأردن، ط1، 2007، ص31.

³ - المرجع نفسه، ص31.

التمثيل، أن يكون فاعلية محايدة إيديولوجيا، بمعنى أننا لا يمكن أن نضع مفهوما للتمثيل بغض النظر عن السياقات الدينية والتاريخية وغيرها، التي تعدّ جزءا منه وتساهم في تشكيله أيضا¹. فالخطاب باعتباره تمثيلا يحمل في طياته العديد من التأويلات والقراءات المباشرة وغير المباشرة، وعليه يرى "إدوارد سعيد" أن "ما علينا تدميره هو أنظمة التصوير، التي تحمل في طياتها نوعا من السلطة القمعية، وهو مبني بشكل أساسي كخطاب تصويري" للآخر"، الذي يتم تعريفه نظريا على أنه أدنى منزلة على نحو جوهرى (إن نعت بالبدائي أو بالمتخلف أو بمجرد الآخر، حيث يعتمد على علم الإناسة وخطابه بأكمله على صمت الآخر²).

يتبين من خلال هذا القول أن "إدوارد سعيد" ينوّه بخطورة التمثيل، أو أنظمة التصوير التي تخترق خطاباتها، إن لم نقل تتجلى فيها وهي حاملة في ثناياها لسلطة قمعية، قد نكتشفها أو بالأحرى نطبقها بوعي أو من غير وعي، حيث أن الخطابات التي نتلقاها هي خطابات غير بريئة البتّة على اختلافاتها، وبهذا يصبح التمثيل ضرورة قصوى للتعبير عن الذات وتجاوز سلطة الخطابات التي تصنعه وتحدّده، فتدعو غياتري سبيفاك * Gayatri Spivak "التابع" Subaltern الذي صمت طويلا إلى أن يتكلم، إذ يجب أن يعطى الحق لتمثيل نفسه لغويا و ثقافيا¹.

2-أنظر، تشيلي واليا، دراسات ادوارد سعيد وكتابة التاريخ ، ص29.

² - غاوري فاسواناثان، السلطة والسياسة والثقافة -حوارات مع ادوارد سعيد- ترجمة : نائلة قلقيلي حجازي، دار الآداب، بيروت، ط1، 2008، ص66.

* غياتري شاكرفورتى سبيفاك Gayatri Chakravorty Spivak وتلقب اختصارا غياتري سبيفاك مفكرة هندية، من بين أهم المحاور التي اشتغلت عليها سبيفاك في النقد الأدبي هو التركيز على هذه الوظيفة الايديولوجية للآداب الاستعمارية في السياق الاستعماري، وقد أفردت لذلك مقالا يشرح ذلك التواشج بين الامبريالية ومهمتها الاجتماعية بعنوان: نصوص ثلاث نساء ونقد الامبريالية " Three Women's Texts and critique of Imperialism " الصادر في سنة 1985. حيث تقدم قراءة لثلاث روايات انجليزية هي: فرانكنشتاين للمؤلفة Mary Shelley ورواية "جين إير" Jane Eyre للروائية "شارلوت برونتي" Charlotte Bronte، ورواية "بحر سارجاسو" Sargasso sea wide للكاتبة "جين ريس" Jean Rhys، تشير هذه النصوص السردية إلى الأدب

ويؤلي سعيد اهتماما بالغاً لمفهوم الخطاب عند "فوكو"، فقد أفاد في ممارسته النقدية المعاصرة من تنظيراته حول العلاقة بين السلطة والمعرفة في تحليل الخطاب، بغية فهم العلاقة بين الثقافة والإمبريالية* فقال "إن الروايات "الحقيقية" للتاريخ ما هي إلا نتائج الاستراتيجيات الثقافية التي أعدت للاحتفاظ بالسلطة والمكاسب المادية، وبإسقاط منظوراته على الثقافة والتواريخ المتأثرة تأثراً عميقاً بالأيديولوجيا المهيمنة والمبادئ السياسية للمجتمع"².

بالنسبة لـ"سعيد" حتى الكتابات التاريخية، ما هي إلا نتاج سلطوي مفروض للاحتفاظ بالسلطة فهو ينظر إلى "التمثيلات الفوكوية المتعلقة بالنظام، والاستقرار، والسلطة التنظيمية للمعرفة بوصفها المفهوم المؤسس لكل مؤسسات الحكم. ويتجلى هذا

البريطاني في تصويره للعلاقات بين الأنا والآخر، أي بينه وبين سكان المستعمرات، في هذا المقال ترى "سيفاك"، أنه ليس بالإمكان قراءة الأدب البريطاني في القرن التاسع عشر دون أن نتذكر بان الإمبريالية تفهم في سياق المهمة الاجتماعية لانجلترا، فقد كانت جزءاً حاسماً من التمثيل الثقافي لانجلترا بالنسبة للغة الانجليزية. للتوسع أكثر، انظر: بيل أشكروفت، جاريث جرفيث، هيلين تيفين، الإمبراطورية ترد بالكتابة آداب ما بعد الاستعمار النظرية والتطبيق، تر: خيرى دومة، أزمنة للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2005، ص31. أنظر أيضاً:

Gayatri Chakravorty Spivak, Three Women's Texts and critique of Imperialism, Critical Inquiry, Vol.12, No.1, (1980), P : 243.

*التابع Subaltern: تعني هذه الكلمة حرفياً "ذا المنزلة الدنيا". والكلمة تتخذ أهمية خاصة في مسعى تمثيل الذات، مقتصد الحط من السرود المتسيّدة القائمة. وهذا الجهد التقويضي قد يأتي بالهوامش إلى المركز، وينتج تاريخاً متعلقاً بالتابع، يتم تجاهله غالباً في الكتابة النخبوية والتفسير. أنظر شيلي واليا، إدوارد سعيد وكتابة التاريخ، ص27.

¹ -رامي أبو شهاب، الرئيس والمخاتلة خطاب ما بعد الكولونيالية في النقد العربي المعاصر، النظرية والتطبيق، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2013، ص62.

*الإمبريالية Imperialism: إن الهيمنة على مناطق ليست لك تؤسس الإمبريالية، والإمبريالية تنسب إلى دولة أوروبية مثل بريطانيا وفرنسا وهولندا والبرتغال وإسبانيا وبلجيكا، التي أنشأت إمبراطوريات في آسيا وإفريقيا وأمريكا الجنوبية لغايات اقتصادية وسياسية. أنظر، شيلي واليا، إدوارد سعيد وكتابة التاريخ، ص28.

² - المرجع نفسه، ص30.

في عمل المؤسسات الرقابية والتكنوقراطية التي تتخبط، دوماً، في استراتيجيات القهر والإقصاء المنطوية على مضمّر واحد هو السيطرة¹.

يضطلع التمثيل وفق هذا التصور بوظيفة " لا تتحدد بسطح النص السردي، إنّما يتخطاه إلى إعادة تشكيل متنوعة، وذات مستويات متعددة، للعوالم والمرجعيات الثقافية (الاجتماعية، الأخلاقية، الدينية، السياسية، الاقتصادية... الخ) ..."².

تلتصق هذه الوظيفة بأغلب الكتابات الأدبية والتاريخية، أو ما يصطلح عليه بالكتابة التاريخية (كما هي عند إدوارد سعيد)، التي يتداخل فيها كل من الأدب والتاريخ، تمرّ عبرها مجموعة من الآليات التصويرية المركزية، التي تسعى للهيمنة على الهامش، وهو الأمر البارز في معظم الكتابات التاريخية الأدبية، التي كتبت تحت وطأة الاستعمار، ولقد حظيت هذه النصوص بعناية من قبل "إدوارد سعيد" الذي كشف من خلال دراساته عن مضامينها الامبريالية* ذات التوجه الاستعماري المحض، وذلك عبر تقديمه " أنظمة إبستمولوجية بديلة لطرح منظورنا الأوروبي المركزي، الذي شكّلته الآداب والتواريخ الغربية، وتتجسّد غايته القصوى في تأكيد الصفة السياسية لهذه الممارسات الأدبية مجتمعة، وقد استثمر سعيد خبرته التعليمية الطويلة للكشف عن العلاقة بين الأدب والتاريخ"³.

فالتمثيل هو " فعل خطابي واستراتيجية تدوينية وقرائية، فالنصوص الكولونيالية التي صاغت الآخر تشكلت منذ زمن بعيد، ولهذا فإن استشراف "سعيد"، وضع التمثيل

¹ - شيلي واليا، إدوارد سعيد وكتابة التاريخ، ص 31.

² - عبد الله إبراهيم، السردية العربية الحديثة، - تفكيك الخطاب الاستعماري وإعادة تفسير النشأة-، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط 1، 2003، ص 60.

الامبريالية Imperialism: إنّ الهيمنة على مناطق ليست لك تؤسس الامبريالية، والامبريالية تنسب إلى دولة أوروبية مثل بريطانيا وفرنسا وهولندا والبرتغال وإسبانيا وبلجيكا، التي أنشأت امبراطوريات في آسيا وإفريقيا وأمريكا الجنوبية لغايات اقتصادية وسياسية. أنظر، شيلي واليا، إدوارد سعيد وكتابة التاريخ، ص 28.

³ - المرجع نفسه، ص 27 و 28.

الغربي للآخر في عمق الحضور الثقافي والتاريخي...¹. فالتمثيل والاستشراق بالنسبة لسعيد هما شيان متلازمان، فغالبا ما يربط بين مفهوم الاستشراق والتمثيل (الخطاب)، حتى إن هناك من نقاد دراسات ما بعد الكولونيالية من عرف الاستشراق بأنه التمثيل.

1.1/ الخطاب وسلطة التمثيل:

بات التمثيل التحدي الأكبر للتابع، كي يتمكن من كسر هيمنة من يشكّلونه ويصنعونه، ومن هنا فإن "سعيد" اشتغل بفكرة الإنشاء أو الخطاب، وعدّها مجال التنافس بين المستعمر والمستعمر، وهو في ذلك ينطلق من فكرة التنظيم التي ميّزت هذا الخطاب²، وتحديدًا خطاب الاستشراق حيث يقول "إننا ما لم نكتنه الاستشراق بوصفه إنشاء، فلن يكون في وسعنا أبدا أن نفهم الفرع المنظم تنظيمًا عاليًا، الذي استطاعت الثقافة الغربية عن طريقه من أن تتدبر الشرق-، بل حتى أن تنتج سياسيا، واجتماعيا، وعسكريا، وعقائديا، وعلميا، وتخييليا، في مرحلة عصر ما بعد التنوير"³.

"لقد استفاد ادوارد سعيد كثيرا من البعد الفوكوي، حينما درس الخطاب الاستشراقي كخطاب بيوسياسي*، ساهم في إعادة توزيع الشرق ومراقبته وتفتيشه أي بتعبير آخر ساهم في خلقه"⁴. يفضي هذا إلى ضرورة اعتبار الاستشراق خطابا حتى نستطيع أن نتفاعل معه ونتدبره.

¹ - شيلي واليا، ادوارد سعيد وكتابة التاريخ، ص 64.

² - ينظر، رامي أبو شهاب، الرئيس والمخاتلة، خطاب ما بعد الكولونيالية في النقد العربي المعاصر، ص 62.

³ - ادوارد سعيد، الاستشراق-المعرفة-السلطة-الإنشاء، ترجمة: كمال أبودييب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط 8، 2005، ص 39.

*مصطلح البيوسياسي Biopolitique: ويقصد به الطريقة التي تحولت بها السلطة ابتداء من نهاية القرن الثامن عشر إلى بداية القرن التاسع عشر، لكي تتحكم في الأفراد ليس فقط بواسطة مجموع من العمليات التأديبية، ولكن يصبح مجموع الأحياء من البشر مكونا للبيوسياسي، بواسطة البيو-سلط المحلية. ومهتما بتسيير الصحة والنظافة والتغذية والجنسانية والولادة، إننا أمام حالة تصبح هذه العناصر رهانات أساسية. أنظر، وحيد بن بوعزيز، جدل الثقافة، مقالات في الآخرة والكولونيالية والديكولونيالية، دار ميم للنشر، ط 1، 2018، ص 17.

⁴ - المرجع نفسه، ص 18.

ومن هنا يمكننا اعتبار التمثيل في حد ذاته آلية أو أسلوب للسيطرة والهيمنة، وعليه يجب تتبع خصائص هذا الأسلوب كما يوضح "سعيد": "الاستشراق ليس مجرد تخيلات مبهمة حول جوهر الشرق، رغم وجود شيء من هذا القبيل فيه، لكنّه بالأساس متعلق بكيفية السيطرة على شعوب حقيقية، إنّه مرتبط بالهيمنة الفعلية على الشرق، ابتداء من نابليون Napoléon"¹.

فخطورة الخطاب الاستشراقي كامنة "في أن هذا النوع من الحقول المعرفية السابقة الذكر، ساهم في قولبة الشرق وفق تنميطات مازالت حيّة إلى عصرنا هذا، فالشرقي يدخل رغما عنه في ترتيبية استشراقية ذات طبع ثنائي (الشرقي مخاتل والغربي فاضل، الشرقي كسول والغربي نشيط، الشرقي شبيقي والغربي معتدل...)، الغاية منها بناء عالم منقسم وفق تقاطب مزدوج يرمي الشرقي في حقل دلالي احتقاري ولا معقول، والغربي في حقل دلالي يصنع التفوق والتفاضلية"².

فالتمثيل والاستشراق كما ذكرنا آنفا هما وجهان لعملة واحدة، حيث يصبح التمثيل الخطابي أو الإنشائي* الوسيلة الأنجع للاستشراق عبر تمرير خطابات عرقية وجغرافية، وحتىّ نصوصا روائية حيث يقول "سعيد": "غير أنّه من المهمّ، أيضا، أن تساءل هذه التمثيلات التي تشهر بوصفها "روايات حقيقية"، و"موثوقة" وأن تمتحن سلطتها وتماسكها عن قرب"³. وبهذا تصبح هذه الكتابات وسيلة تستعملها الشعوب لتأكيد كيانه وذاتها. ويرى "إدوارد سعيد" أنّه من الأجدر الاهتمام أو العناية البالغة بالتفاوت الموجود بين المركز والهامش، لكي نستطيع فهم أشكال أدبية أو ثقافية كالرواية

¹ - غاوري فاسواناثان، السلطة والسياسة والثقافة - حوارات مع إدوارد سعيد - ترجمة: نائلة قلقيلي حجازي، ص 193.

*يفضل كمال أبوديب مصطلح الإنشاء على الخطاب، وهما ترجمة للمصطلح الانجليزي Discours.

² - وحيد بن بوعزيز، جدل الثقافة، مقالات في الآخرة والكلونيالية والديكولوجية، ص 19.

³ - أنظر، شيلي واليا، إدوارد سعيد وكتابة التاريخ، ص 28.

والشعر...الخ، وخاصة التاريخية منها، لأنها تسعى إلى إمطة اللثام عن الحقيقة الإيديولوجية، التي تختفي وراء الواجهات الأكاديمية والحقائق.

تلعب الإيديولوجيا الدور الرئيس في توجيه التمثيل، حيث لا يمكن لتمثيل الواقع أن يتم، أيًا كانت وجهته، باعتباره فاعلية محايدة إيديولوجيا، فهو بالنسبة لـ "سعيد" غدا عمله جزءا من مجموعة واسعة من التحليلات النظرية، التي تلقي ضوءا كاشفا على الإيديولوجيات الكائنة خلف كتابة التاريخ¹.

من بين الخطابات التي تعنى بالسلطة نجد الخطاب السياسي حيث "نعثر على تمثيلات مبدئية في الخطاب السياسي، لقادة وحكام يعملون على تحييد وإقصاء الآخر، فهم من يقرر الخير له أو الشر"². من خلال هذه الخطابات يتم برمجة الأنا على مجموعة من الصفات الدونية، في مقابل الآخر المتعالي المتميز، وهذا ما يكرسه الاستعمار من خلال تلك الخطابات المدروسة، والمبنية على أطر توسع الهوية بين الغرب والشرق، وتجعل هذا الأخير فاقدا للدقة والانضباط والالتزام. "ويتبدى في هذا السياق، مفهوم العلاقات غير المتكافئة للسلطة السياسية والاقتصادية، التي تعمل خلف أساطير التمثيل للشرق، التي تجسد تكاملا للخطاب الأوروبي وحضاراته المادية"³. وانطلاقا من هذا التحليل إلى ماهية الخطاب: "لن يكون بمقدور المرء أن يفهم ذلك الفرع الممنهج والمنظم تنظيما عاليا، الذي استطاعت عبره الثقافة الأوروبية أن تدير الشرق - بل حتى أن تنتج سياسيا، واجتماعيا، وعسكريا، وإيديولوجيا، وعلميا، وتخيليا في عصر ما بعد التنوير"⁴. وبهذا يبرز الدور الرئيس، الذي يضطلع به

¹ - شيلي واليا، ادوارد سعيد وكتابة التاريخ، ص 29.

² - رامي أبو شهاب، الرئيس والمخاتلة، خطاب ما بعد الكولونيالية في النقد العربي المعاصر، ص 69.

³ - شيلي واليا، ادوارد سعيد وكتابة التاريخ، ص 30.

⁴ - المرجع نفسه، ص 30.

الخطاب الغربي في توجيه الشرق والهيمنة عليه عبر سلطة الخطاب. وهذا ما سنفسره في العنصر الموالي المعنون السرد وسلطة التمثيل.

1. 2/السرد وسلطة التمثيل:

تعدّ الرواية أو النصوص السردية مجالا خصبا للتمثيل السردى *représentation narrative*، حيث أضحى هذا الأخير من "من أهمّ القضايا التي تسلط عليها الاهتمام في الدراسات الثقافية، خاصة أنّه مجال تتقاطع في تناوله اختصاصات معرفية وفلسفية بالغة التنوع... فبتياراتها المتعددة، التي تشكلت على امتداد التاريخ كان التساؤل الأساس لنظرية المعرفة متركزا على فهم الكيفية، التي تتحول من خلالها شذرات العالم الخارجي إلى موضوع للمعرفة بالنسبة إلى الذات، إذ لكي تكون هناك معرفة لا بد من ذلك الحضور *La Mise en présence* أمام الذات، والاستبطان للواقع موضوع المعرفة¹.

وهنا تبرز فكرة الاستعارة التي هي في صميم المسرح، فالممثلون فوق خشبة المسرح ينقلون مجموعة من المواقف والعواطف والأحاسيس، التي تدفعنا إلى عدم الاكتفاء بالدلالات المباشرة والبحث عن الخفية منها.

لعلّ أهم ما يبعث على الاهتمام في الحضور، الذي يأخذه مصطلح التمثيل السردى هو خلفيته الإيديولوجية، التي تتعين جسرا للعبور من العلامات النصية إلى المستترة منها، وقبل أن نضع هذا المفهوم في إطار النظرية النقدية المعاصرة، التي يعدّ "إدوارد سعيد" أحد أقطابها وروادها، حيث "لا بدّ من القول إن التمثيل يعدّ من المفاصل الأساسية، التي يقوم عليها بناء الحكايات في السرد الروائي، ذلك أن كلّ تمثيل سردي لابدّ أن يستند إلى ثلاث ركائز ودعامات أساسية، أولا الحوادث التي

¹- إدريس الخضراوي، مقال السرد موضوعا للدراسات الثقافية، مجلة تبين، للدراسات الفكرية والثقافية، العدد 8، المجلد الثاني، شتاء 2014، ص114.

تنتجها الشخصيات انطلاقاً من الوظائف والأدوار المسنودة إليها، وثانياً الأزمنة المتعلقة بالقصة المروية، وثالثاً الفضاء التي تتحرك فيه المحافل السردية وتتبادل الأدوار¹. غير أن ما يميّز حضور هذا المصطلح في النقد المعاصر لسعيد، ينبثق من الاستعمال الإيديولوجي لنص الرواية، بحيث يغدو التحليل الأدبي أداة يتمّ توظيفها من أجل أهداف إيديولوجية.

بهذا المعنى، فإنّ دراسة التمثيل السردية، من منظور إيديولوجي يكشف الكثير من الخبايا "فادوارد سعيد" لا يتصور الإمبراطورية أو الاستعمار، مجرد فعل بسيط من أفعال الاكتساح والتوسع والهيمنة كما قد يظن البعض، وإنما هما في الأصل تخطيط فكري وجمالي استند إلى تشكيلات عقائدية ومفاهيم متعددة، مضمونها أن بعض الشعوب وبعض البقاع يتضرعان إلى أن يخضعوا للسيطرة، وإنّها فضاء مميز لجمع المال وتحسين الطالع والمغامرات الجنسية، كما يكشف عن ذلك الكثير من النصوص مثل رواية "ابنة العم" لبالزاك **Balzac** و"روبنسون كروزو" لدانييل ديفو **Daniel Defoe**. لهذا يرى ادوارد سعيد أن مفردات الثقافة الامبريالية خلال القرن التاسع عشر تحفل بمفاهيم عديدة و تصورات مثل: "دوني" و "أعراق تابعة" و"شعوب خاضعة" و "تبعية" و "توسع" و "سلطة".²

معنى هذا أن النصوص الروائية تضطلع بدلالات خفية، غير مباشرة تستتر وراء الحروف والكلمات، ممّا يجعلها نصوصاً غير بريئة، وهذا ما يتطلب جعل التحليل يدقق في تلك الأنساق المضادة، التي لا تخلو من سلطة تحكمها وتنتجها عبر الخطابات، لذلك سنركز في العنصر الموالي على العلاقة التي تجمع بين الإعلام وسلطة التمثيل باعتباره سلطة رابعة.

¹ - إدريس الخضراوي، مقال السرد موضوعاً للدراسات الثقافية، ص115.

² - أنظر، المرجع نفسه، ص120.

1. 3/الإعلام وسلطة التمثيل: من بين صور التمثيل نجد الإعلام حيث: "أن حكام الكثير من المجتمعات في العالم وفي الوقت الحالي، يوظفون الدعاية عن قصد لإقناع من يحكمونهم بشرعية هذا التنظيم، وهم غالبا ما يتحكمون في وسائل الإعلام ويراقبونها في دولهم لضمان غياب المعارضة تجاه الترابط الاجتماعي الذي يتحكمون فيه"¹. ومن بين وسائل الإعلام المفعلة للسلطة نجد التلفزيون في استخدامه للوسيط الناقل ألا وهو الصورة، كونها "الأكثر رواجاً وتأثيراً... حيث أن العلم المعاصر يفكر بواسطة أجهزته وليس بأعضاء الحواس... كلّ التعابير التي تختتم بـ isme، تؤكد أن الأيديولوجيا تفعل مثل هذا، فالأجهزة هي التي تقود في الحقل الرمزي"².

لا يشكل التلفزيون خطراً كأداة للمشاهدة أو في كونه تلفازاً، إنما يكمن خطره في يد المسيرين له حيث هو "أداة خيرة في يد الأشرار... وأصبحت تستغله خدمة لمطامح خفية سمّاها دوبريه Debray السلطة، خفية تبدو ملامحها عبر ما تنبثه من تأثيرات عبر أجهزتها ف: ليس المشكل في الآلة... الآلة تخفف والسلطة تثقل، لأن همّها الوحيد هو إخضاع الغير للهيمنة وسيلتها في ذلك قوة الصورة"³.

يعمل التلفزيون كآلية للهيمنة على إخضاع المشاهدين، وتلقينهم أيديولوجيا مقبّية عبر وسيط فاعل وقويّ ألا وهو الصورة، وذلك بتمرير رسائل وتخريب عقول والسيطرة

¹-فليب جونز، النظريات الاجتماعية والممارسة البحثية، ترجمة: د. محمد ياسر الخواجة، مصر العربية للنشر والتوزيع، ط1، 2010، ص57.

*نظام الطبقات هو عبارة عن مجموعة من المفاهيم في العلوم الاجتماعية والنظرية السياسية تركز على نماذج من التراتب الاجتماعي الذي يتم من خلاله تصنيف الناس إلى مجموعة من الفئات الاجتماعية الهرمية، أكثر الطبقات شيوعاً هي: الطبقة الغنية والطبقة المتوسطة والطبقة العاملة.

²-حياة أم السعد، النقد والخطاب مقاربات تداولية وميديولوجية، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2017، ص209.

³-المرجع نفسه، ص210.

ليتحول الإنسان من مركز في هذا العالم إلى مجرد هامش تتحكم فيه وتسخره لخدمة مصالحها تارة، ولتمرير قراراتها ونواياها الخبيثة تارة أخرى.

يعتبر "بيير بورديو" من الذين اهتموا بقضية تشكيل الوعي الايديولوجي عبر التلفزيون وخصّص كتاباً كاملاً للحديث عن هذه الآلة وسمّاه "التلفزيون وآليات التلاعب بالعقول" "...لأنّ غداً متيقناً أنّ هذا الجهاز كان وراء كل ما لحق الإنسانية من عبودية واستكانة، جراء ما يبثه من رؤية موحدة للعالم تفرضها القوى المسيطرة"¹. فهو يرى بخطورة الدور الذي يلعبه التلفزيون في توجيه الرأي العام، والحفاظ على الايديولوجيا السائدة ويؤكد ذلك بقوله: " فإذا كان من الممكن اعتبار أن العلم محايد، فإنّ استخدامات العلم وتطبيقاته أي التكنولوجيا ليست محايدة، فيما يتعلق بتكنولوجيا الاتصالات والمعلومات، فإنّ التوظيف والمضمون الايديولوجي لهذه التكنولوجيا يجد أوضح مثال له في الدور الذي يلعبه التلفزيون"².

لا تكمن خطورة هذه الوسيلة في التأثير المباشر على المشاهدين فقط، وإنّما تمتد إلى مجالات الإنتاج الثقافي الأخرى حسب "بورديو"، وذلك عبر تشكيل الوعي والتحكّم في العقول، من خلال الرسائل الناعمة، التي تبثها هذه الآلة عبر قوة الصورة حيث يأمل "بورديو": "أن تسهم هذه التحليلات في إعطاء أدوات وأسلحة إلى أولئك الذين يتعاملون مع مادة الصورة، ويناضلون من أجل ألا يتحول هذا الذي يمكن أن يكون أداة رائعة للديموقراطية إلى أداة للقمع الرمزي"³.

بناء عليه يتضح لنا الدور المهم لوسائل الإعلام في توجيه رأي المجتمع، أما بالنسبة للماركسية: فإنّ الأفكار المسيطرة أو المهيمنة، وكذلك المعتقدات والقيم في

¹ - حياة أم السعد، النقد والخطاب مقاربات تداولية وميديولوجية، ص 214.

² - بيير بورديو، التلفزيون وآليات التلاعب بالعقول، ترجمة وتقديم: درويش الطوجي، دار كنعان للدراسات والنشر والخدمات الإعلامية، ط 1، 2004، ص 23.

³ - المرجع نفسه، ص 37.

"المجتمع الطبقي"، والتي تتمثل في مجموعة من الأفكار حول ما يوجد عليه بشكل كبير وواسع... لم توجد ارتباطاً أو صدفه فهم يتصرفون وفقاً للإيديولوجيات، ويحاولون إيجاد بنية معينة بدون مثل هذا الدعم الفكري ستتلاشى وتنتهي، كما أوضح الماركسيون أنه بالرغم من قيام الطبقات المهيمنة من وقت لآخر بالعودة للطبقات المسيطرة، وتمتلك للقوة المجردة للحفاظ على سلطتها وقوتها فإن غياب مثل هذا الإيجار، لا يمكن أن يؤخذ للاهتمام بغياب الاستغلال، وعلى النقيض فقد اقترحوا جميعاً، غياب القمع أو الظلم المجرد والذي قد يشير بشكل واضح إلى نقص المعارضة ونقص أي حاجة لاستخدام القوة والقمع. وهذا يعني أن السيطرة أو الهيمنة لا تحدث، إلا أنه فقط الأشخاص المسيطرون لا يدركون بمثل هذا الوضع بسبب تأثير الأفكار المختلفة للإيديولوجيات التي يعتنقها المجتمع.¹

بالإضافة إلى أن العديد من وسائل الأخبار باعتبارها خطاباً أو تمثيلاً تؤدي دوراً تضليلياً في المجتمع الرأسمالي كذلك فعلى سبيل المثال: "صحيفة شعبية واسعة الانتشار كالفن و Star أو Daily express وغيرها، تركز على الأخبار التافهة أكثر من اهتمامها بتقارير الأحداث المهمة الحرجة، إن مثل هذا القمع المتعمد والمقصود وتضليل الحقائق والواقع، قد يشجع الأفراد الذين يعيشون في المجتمع الرأسمالي على إبعاد تركيزهم عن الظلم وعدم المساواة والحرمان والاستغلال، ففي الواقع نحن نكتسب معظم معلوماتنا عن الواقع من خلال وسائل الإعلام، والفشل في توفير مثل هذه المعلومات والمعرفة ليس له دور تضليلي فقط، ولكنه وسيلة لتوفير صورة عن المجتمع المخادع الكاذب الذي يريدون رسم صورة له أماناً".²

¹ - أنظر، فليب جونز، النظريات الاجتماعية والممارسة البحثية، ص 104.

² - المرجع نفسه، ص 106.

تعتمد الرأسمالية على القوى البشرية، التي تمّ حشدّها في دعم دورها أمّا الأسرة فتلعب دوراً مهماً في تكريس مفهوم السلطة، "ففي الأسرة نتعلم معنى السلطة لأول مرة، وكذلك معنى الطاعة إن الخضوع لآمال ورغبات وطموحات الوالدين يمدنا بالتدريب المناسب للتلاؤم، مع كون الفرد مكتسب للأجر وإنه كذلك تحت سلطة الموظف، كما أن التعليم يقوي ويشجع هذا التدريب"¹.

تتجذّر السلطة وفق هذه الرؤية في أفعالنا ومجتمعاتنا وحياتنا ومؤسساتنا وتعاملاتنا، وحتّى في خطاباتنا ... فهي لصيقة بنا دون أن نشعر بها نمارسها دون وعي منا، وكأنّه قد تمت برمجتنا لنعيش بها ونتعايش معها دون أن نحس لتصبح ضرورة قصوى لا نستغني عنها... وهي تستمد كيائها اعتماداً على قوة التمثيل، وخطورته في آن واحد. ولها حضور أيضاً حتّى في الخطابات التخيلية والإبداعية بامتياز، مما يدفعنا إلى تقصي حقيقة العلاقة التي تجمع بين الخطاب والسلطة والايديولوجيا كما سنوضح في العنصر القادم.

2/ في علاقة الخطاب بالسلطة والايديولوجيا:

2. 1/ في علاقة الخطاب بالسلطة:

إنّ الحديث عن علاقة الرواية بالسلطة يفضي إلى الحديث عن مجموعة من الأمور المتباينة والمتقاطعة في الوقت نفسه إلى حدّ ما، وذلك عبر التعبير عن وجهات نظر لناقدين ودارسين ربطوا بين الخطاب والسلطة أبرزهم "فوكو" إلى جانب ما يصطلحون عليه بالدراسة النقدية للخطاب عند "فان ديك"، ومنه لا بدّ من التطرق إلى مفهومي كل من الخطاب والسلطة كونهما فاعلان أساسيان في إنتاج الخطاب والمحافظة عليه أو تغييره.

¹ - فليب جونز، النظريات الاجتماعية والممارسة البحثية، ص108.

إنّ السلطة كمفهوم لا يمكننا ضبطه، فهي تنتمى وفقاً لظروف استعمالها وتجليّاتها، فالحديث عن السلطة يحيلنا إلى الحديث عن الكيفية التي تتحقق بها السلطة عبر اللّغة، والتجليّات التي تبرزها، أي الحديث عن الخطاب، ومن بين أهمّ المنظرين الذين ربطوا الخطاب بالسلطة نجد الفرنسي "ميشال فوكو" حيث يقول: "إنتاج الخطاب"، في كلّ مجتمع هو في نفس الوقت إنتاج مراقب، ومنتقى، ومنظم، ومعاد توزيعه من خلال عدد من الإجراءات، التي يكون دورها الحد من سلطاته ومخاطره"¹.

يمرّ هذا الإنتاج حمولات فكرية وعقائدية وفق ما يقتضيه سياق التلفظ، عبر البحث في الأطر التي تراقبه وتتتبعه... يستبعد "فوكو" في مفهومه التعريف اللغوي للخطاب، ويبحث في العلاقات التي يحتكم إليها الخطاب، والتي توجهه في آن واحد وهنا يبرز سؤال السلطة حيث "أن السؤال ما السلطة؟ أو ما مصدرها أو أصلها؟" قد لا يكون في محله، بل ينبغي بالأحرى أن نتساءل عن الكيفية التي تتحقق بها أو كيف تمارس نفسها وتظهر إلى الفعل؟. وتظهر ممارسة السلطة للعيان كعلاقة بين قوتين، وهي علاقة سجال وصراع وتدافع أو تأثير وتأثر"².

فالممارسة الخطابية هي التي تفعل السلطة، وتظهرها للعيان عبر قوتين هما السلطة والخطاب، فالسلطة تعني بأهمية بالغة في تأويل الخطاب وتفسيره، حتى إنّ

*أحد أبرز منظري الخطاب الفيلسوف الفرنسي "ميشال فوكو" Michel Foucault من كتبه: نظام الخطاب، حريات المعرفة، الكلمات والأشياء.

*خطاب (Discours) يتكاثر في هذا الكتاب ورود كلمة خطاب، وهو مصطلح لساني يتميز عن نص وكلام وكتابة وغيرها بشكله لكل إنتاج ذهني، سواء كان نثراً أو شعراً، منطوقاً أو مكتوباً، فردياً أو جماعياً، ذاتياً أو مؤسسياً، في حين أنّ المصطلحات الأخرى تقتصر على جانب واحد، وللخطاب منطق داخلي وارتباطات مؤسسية، فهو ليس ناتجاً بالضرورة عن ذات فردية يعبر عنها أو يحمل معناها أو يحيل إليها، بل قد يكون خطاب مؤسسة أو فترة زمنية أو فرع معرفي ما...

¹-ميشال فوكو، نظام الخطاب، ترجمة: محمد سيلا، دت، دط، ص04.

²- جيل دولوز، المعرفة والسلطة مدخل لقراءة فوكو، ترجمة: سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، لبنان، ط1، 1987، ص78.

هناك من يرى بأن الخطاب هو نفسه سلطة، فحريّ بنا مما سبق أن نحدد مفهوماً للسلطة، ولآليات التي تتميز بها من أجل معرفة دورها الرئيسي الذي تضطلع به في إنتاج الخطاب.

أفاض "فوكو" في كتابه "نظام الخطاب"^{*} الحديث عن العلاقة التي تجمع السلطة بالخطاب، وأخذت هذه العلاقة حيّزاً هاماً من مشروعه النقدي ممّا جعل العديد من النقاد ينحون نحوه في هذا السبيل، وينتقلون من التعريف اللغوي المحض للخطاب إلى تعريف أعمق وأشمل حسبهم فهو: "ممارسة لها قواعدها، تدل دلالة وصف على عدد معين من العبارات وتشير إليها"¹.

فالخطاب بالنسبة له هو ممارسة وهو الميدان العام لمجموع العبارات، إلا أن هذه الممارسة تقتضي أوجهاً أخرى غير خطابية تحكمها، أي أوجه السلطة فإذا كانت ترغب في تفادي ربط الخطاب بالذات المتكلمة، فليس من أجل ضمان استغلال وسيادة ووحدة الخطاب، بل بغية اكتشاف ميدان وجود عمل ممارسة خطابية، أو بعبارة أخرى، يمتد الوصف الحفري للخطابات في اتجاه تاريخ عام، ويسعى إلى اكتشاف ميدان المؤسسات والتطورات الاقتصادية والعلاقات الاجتماعية، التي تتمفصل بها التشكيلة الخطابية². فـ"فوكو" بهذا يجمع بين الخطابات والميادين الأخرى الخاضعة لرقابة سلطوية تفعلها. فالخطاب عنده يتجاوز المتعارف عليه بالنسبة لنا، إنّما هو خطاب له خصوصيته وفرادته التي تكونه، فهو ليس خطاباً متعلقاً بالذات المتكلمة بالضرورة إنّما قد يكون خطاباً مؤسسياً أو اقتصادياً أو اجتماعياً وغيرها من الحقول.

^{*} هذا الكتاب عبارة عن درس افتتاحي ألقاه "فوكو" Foucault في الكوليج دوفرانس في 1970/12/02
Michel Foucault : L'ordre du discours Paris Gallimard 1971، ترجمه إلى العربية: محمد سبيلا بعنوان نظام الخطاب.

¹ - ميشال فوكو، حفريات المعرفة، ترجمة: سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، ط2، 1987، ص76.

² - المرجع نفسه، ص151.

يصرّ "فوكو" على مفهومه الأول للخطاب الذي بدأ به محاضراته، حيث يرى أنّه إنتاج منظم ومراقب ومنتقى" ومعاد توزيعه من خلال عدد من الإجراءات، التي يكون دورها هو الحد من سلطاته ومخاطره والتحكم في حدوثه المحتمل وإخفاء ماديته الثقيلة والرهيبية¹. فإنتاج الخطابات بالنسبة له ليس إنتاجاً عفويًا وبريئًا، إنّما هو خاضع لمقصدية سلطوية رقابية تحكمه تختلف باختلاف الخطابات المنتجة ومضامينها ومنتجيتها.

يستدعينا السياق إلى البحث في مفهوم هذه السلطة، وتصوراتها وحدودها عند "فوكو" ولكن عصيّ علينا كباحثين دائماً ضبط بعض المصطلحات والمفاهيم قيد الدراسة، نظراً لاختلاف وجهات نظر واضعيها أحياناً واختلاف ترجمتها إلى العربية أحياناً أخرى، ومن بين هذه المفاهيم مفهوم السلطة التي يصعب تحديدها "في الخطاب على وجه الدقة، لأن مفهوم السلطة أو السيطرة مفهوم مجازي عندما يستعمل في التفاعل والخطاب، لذلك تعددت تعريفات السلطة وصاحب هذا التعدد في التعريفات تعدد في تحديد مفهوم السلطة نفسه"². أما بالنسبة لـ " فوكو" فهي مفهوم علائقي مرتبط بالقوة أي "بمتغيرات تعبّر عن علاقة قوى أو سلطة، تشكّل أفعالاً في أفعال: كالتحريض، والإثارة والحث، أو التسهيل والتوعير، والتوسيع والتضييق، والزيادة أو النقص في الاحتمال تلك هي مقولات السلطة"³.

بعكس الخطاب الذي شكّل المحور الرئيس في كتابات "فوكو" مرتبطاً بحديثه عن السلطة، فالممارسات الخطابية التي تنتجها وفق ديالكتيك يجعل من الخطاب سلطة في حد ذاته. فمن منطلق "فوكو" "وكأن الخطاب بدل أن يكون هذا العنصر الشفاف أو المحايد الذي يجرد فيه من سلاحه، وتكتسب فيه السياسة طابعاً سليماً، هو أحد المواقع

¹ - ميشيل فوكو، نظام الخطاب، ترجمة: محمد سبيلا، ص 04.

² - عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب - مقارنة لغوية تداولية-، ص 221.

³ - جيل دولوز، المعرفة والسلطة مدخل لقراءة فوكو، ص 78.

التي يمارس فيها هذه المناطق بعض سلطتها الرهيبة بشكل أفضل، يبدو أن الخطاب في ظاهره شيء بسيط، لكن أشكال المنع التي تلحقه تكشف باكراً وبسرعة عن ارتباطه بالرغبة والسلطة. وما المستغرب في ذلك - مادام الخطاب- وقد أوضح لنا التحليل النفسي ذلك - ليس فقط هو ما يظهر أو يخفي الرغبة، لكنّه أيضاً هو موضوع الرغبة¹.

فالخطاب هو ميدان للصراعات التي تفرض لاحقاً أشكالاً للمنع تفصح عن الرغبة في تملك السلطة محل التنازع... "فوكو" لا يبحث في السلطة كمفهوم، وإنما يبحث عن الكيفية التي تترسخ بها الرغبة في الحصول على السلطة اجتماعياً واقتصادياً وثقافياً، عبر الممارسة اللغوية التي تبرز الآليات المطبقة لها.

يحمل الخطاب في مضامينه سلطة ما بغية تطبيقها أو الحصول عليها في أرض الواقع " فأينما ينظر "فوكو"، لا يجد سوى الخطاب وفي أي مكان ينشأ فيه الخطاب، فإنّه يجد صراعاً بين تلك المجموعات التي تدعي الحق بالخطاب، وتلك المجموعات التي تحرم من الحق بأن يكون لها خطاباً خاصاً².

فالخطاب كقوى للسيطرة يوجد صراعاً بين المجموعات التي تملك حقاً في إنتاج خطاب منظم ومراقب، في مقابل مجموعات أخرى تفقد هذا الحق وهذه الأخيرة أخذت اهتمام المنظر "فوكو"، فسعى إلى الكشف عن الآليات الداخلية والخارجية، التي تفيد منها المجموعة التي تملك الأحقية في إنتاج خطاباتها، أما بالنسبة للآليات الداخلية فقد سبق الحديث عنها، وهي التي تعنى بإنتاج خطاب مراقب، أما الخارجية منها فترجع إلى أمور خارج الخطاب أبرزها السلطة التي يحتكم إليها إنتاج الخطاب وقد جمعها "فوكو" في ثلاث إجراءات هي:

¹ - ميشيل فوكو، نظام الخطاب، ص 05.

² - هايدن وايت، نظام الشكل، الخطاب السردى والتمثيل التاريخي، ترجمة: نايف الياسين، هيئة البحرين للثقافة والآثار، المنامة، ط 1، 2017، ص 260.

1/ المنع:

ويعني أن الخطابات المنتجة تخضع لرقابة لا يصح التجرد منها أو تغييبها " إننا نعرف جيّداً أنّه ليس لدينا الحق في أن نقول كلّ شيء، وأننا لا يمكن أن نتحدث عن كل شيء في كل ظرف، ونعرف أخيراً أن لا أحد يمكنه أن يتحدث عن أي شيء كان. هناك الموضوع الذي لا يجوز الحديث عنه، وهناك الطقوس الخاصة بكل ظرف، وحق الامتياز أو الخصوصية الممنوحة للذات المتحدثة"¹.

يحيلني هذا القول إلى الأعراف والتقاليد والسياقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، التي تخضع لها خطاباتنا بغير وعي منّا، حيث نعلم ما يجب أن يقال، وما لا يمكن أن يقال، وفق ما يقتضيه المقام، والحديث عن المقدسات... وغيرها من الأمور.

2/ القسمة والرفض:

ويقسّم الخطاب بالنسبة لهما إلى خطابان متعلقان بالعقل والأحقق "وهو الذي لا يتداول خطابه كما يتداول خطاب الآخرين: فقد يعتبر حديثاً فارغاً ولا قيمة له، حديثاً لا يمتلك أية حقيقة ولا أية أهمية، حديثاً لا يمكن أن يكون محط ثقة من طرف العدالة، ولا يمكن أن يؤخذ كشاهد على صدق عقد أو ميثاق"². ويتمّ استبعاد مثل هؤلاء والتكفل بهم في شبكة من المؤسسات المختصة بذلك (أطباء محللين نفسانيين وغيرهم).

3/ الحقيقة والخطأ:

هو أعمق المبادئ الثلاثة وأثقلها حمولة، فهو (الخطاب الحقيقي) ينتظم وفق عوارض تاريخية، متحرك باستمرار وقابل للتعديل والتغيير، تحمله منظومة كاملة من

¹ - ميشيل فوكو، نظام الخطاب، ص 04.

² - المرجع نفسه، ص 05.

المؤسسات بحيث تفرضه وتقوده...بغية معرفة إرادة الحقيقة عبر خطاباتها، وانتقالها عبر العصور مما أعطى لإرادتنا في المعرفة صورتها العامة، فالتحولات العلمية الكبرى يمكن أن تقرأ أحيانا كنتائج لإكتشاف ما، لكنها يمكن أيضا أن تقرأ على أنها ظهور لأشكال جديدة ضمن إرادة الحقيقة، وهي تركز مثلها مثل سائر منظومات الإبعاد، على دعامة مؤسسية، فهي في الوقت نفسه مدعمة وموجهة من طرف قدر هائل من الممارسات كعلم التربية، ومنظومة الكتب، والنشر والطبع، والجمعيات العلمية سابقا والمختبرات اليوم...فالإجراءات السابقة الذكر تعمل كمنظومات للإبعاد متعلقة في جوهرها بالخطاب المتعلق بالرغبة والسلطة¹. المفعّلان الرئيسيان لهما.

تأثر "فوكو" بـ "فلسفة فريدريك نيتشه" * Fredrich Nietzsche ظاهر وواضح حيث أنهما "يلتقيان في نقطة أساسية وهي أن السلطة عندهما تتموضع فيما وراء الأخلاق، وخارج المعايير الحقوقية والقانونية، والتي تعتبر أوهاما وأقنعة تحجب الطابع التسلطي للدولة"².

يستمدّ "فوكو" من " نيتشه" توجهه الفلسفي، ويتفق معه في رؤيته للسلطة التي يصنفها خارج المعايير الأخلاقية والقانونية، واعتبارها مجرد أوهاما تعمل على إخفاء العلاقات السلطوية القائمة المبنوثة في كيانها.

¹ - ميشيل فوكو، نظام الخطاب ، من 07 إلى 11.

*فيلسوف ألماني فلسفته بأكملها محاولة من أجل إعادة تقويم القيم، أو قلب القيم (Trans-valuation) وذلك بالسعي إلى تجاوز الميتافيزيقا في مواجهة العدمية الأوروبية التي، أراد نيتشه التغلب عليها انطلاقا من الجينالوجيا. يتسم المشروع النيتشوي في الفلسفة بطابع نقدي واضح وصريح، يعتبر نقد الأخلاق العنوان الأساسي لمختلف مؤلفاته، والمهمة الرئيسية التي تنصدر نشاطه الفكري. مجهوده مكرس لفهم ما يطلق عليه ظاهرة الانحطاط أو الروح الإنكارية، التي تعتبرها علّة المرض الغرب الحديث المتمثل في العدمية، وليست الجينالوجيا سوى محاولة لتفكيك الأقنعة الفكرية والسياسية للعدمية، وتشخيص أعراضها من حيث هي ظاهرة شاملة لمختلف مظاهر الثقافة الغربية الحديثة من دين وأخلاق وفن وفلسفة وعلم. أحمد عبد الحليم عطية، "نيتشه وجذور ما بعد الحداثة"، دار الفارابي، لبنان، ط1، 2020، ص 290 إلى 323.

² - محمد أمين بن جيلالي، مقال " ميشيل فوكو" وسؤال السلطة: من الاختزال إلى التشطّي، نحو فينومينولوجيا تأويلية للسلطة وإضافة المفكر به في السياسة، مجلة مؤمنون بلا حدود، مؤسسة دراسات وأبحاث، الرباط، ص15.

"ومردّ هذا إلى أن خطاب "فوكو" يخلو من المركز، كلّ سطح، وهو كذلك بشكل متعمد، وهذا ينسجم مع الهدف الأكبر لمفكر يرغب بإذابة الحد الفاصل بين السطوح والأعماق، وأن يظهر أن أي تمييز يظهر بينها هو دليل لعب السلطة المنظمة، وأن هذا التمييز ذاته يشكل أكثر الأسلحة التي تمتلكها السلطة لإخفاء عملياتها"¹.

بين ممّا سبق الاتفاق بين "فوكو" ونيتشه في نظرتهم إلى العلاقة التي تجمع بين السلطة والخطاب حيث هي علاقة حتمية، فكل خطاب إلا وهو خطاب سلطوي يفضي إلى إرساء سلطة معينة بغض النظر عن الآليات أو الأساليب اللغوية المجسّدة له، والتي تسعى السلطة من خلالها إلى تقنيع عملياتها وعلاقاتها داخل الخطاب، وهذا الذي يمثل هاجس السطح والعمق الذي عمل فوكو جاهدا على إزائته.

إلا أنّه بالرغم من هذا التعدّد والاختلاف، بالنسبة للعلاقة التي تجمع السلطة بالخطاب فإننا نجد المنظرين الذي درسوا هذه العلاقة يجمعون على ارتباط السلطة بالسيطرة والهيمنة، كما هي عند غرامشي* حيث شغلّ هذا المفهوم اهتمامه وشكّل مرتكزا في بناء نظريته.

¹ - هايدن وايت، شكل المحتوى، الخطاب السردى والتمثيل التاريخي، ص 243.

*أنطونيو غرامشي مفكر ومنظر مرحلة الانتقال الثوري من الرأسمالية إلى الاشتراكية... لعب لابرولا (المنظر الماركسي) دورا هاما في تكوينه الفكري، وكان أول من استخدم تعبير " فلسفة الممارسة" Philosophy of praxis الذي استخدمه غرامشي في "كراساته" وقد أفرد غرامشي جانبا هاما من " كراسات السجن" لنقد فلسفة كروتشيه، ونقد موقفه من الماركسية نقدا صارما، ودعا إلى ضرورة محاربة الكروتشوية ، سواء باعتبارها ايدولوجية شائعة أو كنسق فلسفي، وتقويضها بالسجال، وكان هدفه الرئيسي القضاء على سيطرة كروتشيه على الحياة الثقافية والسياسة. شنّ النظام الفاشي حملة اعتقالات واسعة، وشكّلت "محكمة خاصة" من أجل "الدفاع عن الدولة"، وكان غرامشي أول من قدم إليها بالرغم من كونه عضوا في البرلمان وبناء على طلب المدعي العام الذي قال في مرافعته: "علينا أن نوقف هذا الدماغ عن العمل عشرين عاما"، حكمت المحكمة عليه... بالسجن لم يحطم السجن والمرض إرادته، بل فجر التحدي طاقاته الإبداعية، فيقول: "لقد كانت هذه الكراسات بؤرة حياتي الداخلية" هكذا وصفها غرامشي والواقع أنّها كانت استمرارا لنضاله الثوري... ويتمثل الإسهام النظري الأساسي لغرامشي في إعادة صياغة الماركسية في شكل موحد ومتميز. انظر، أنطونيو غرامشي، كراسات السجن، ترجمة: عادل غنيم، دار المستقبل العربي، القاهرة، دط، 1994، ص من 09 إلى 11، كذلك أنظر، تقديم عادل غنيم من نفس الكتاب.

ويمثل بالنسبة له المجتمع المدني كونه جزء لا يتجزأ من الدولة، ويشكل حصنها المنيع حيث يقول: "لا يمكن اختزال الدولة إلى جهاز للقمع، فهي أشبه بقلعة محاطة بنظام دفاعي من الحصون والخنادق، التي تتمثل في مؤسسات "المجتمع المدني" (الأحزاب السياسية والنقابات والجمعيات والكنيسة والمدارس والصحافة... الخ)، التي تمارس الطبقة الحاكمة من خلالها هيمنتها على الطبقات المحكومة، وعلى الحياة الوطنية الاجتماعية والثقافية"¹. يوحى هذا القول بوجود جهازين قمعيين للدولة يرتبط الأول بالقوة المادية كالجيش والشرطة... وغيرها، ويتعلق الثاني بالقوة الخطابية والذي تجسده مؤسسات المجتمع المدني السابقة الذكر، والتي تمرر عبرها الطبقة الحاكمة لخطاباتها بغية الهيمنة على الطبقة المحكومة على جميع الأصعدة.

تشكل الهيمنة* وفقا لما سبق "منهج عمل وقدرة على بسط نموذج وبرنامج من قبل حزب معين، تتقبله طبقات المجتمع بأسلوب الإقناع عبر الحوار وليس الإكراه"². فالهيمنة تكتسي مفهوم السيطرة والإقناع الذي تمارسه الطبقة الحاكمة للمحافظة على نظمها وأطرها عبر قوة الحوار لا القمع، وهو ما يرتبط عند غرامشي بين القبول الذاتي

¹ - أنطونيو غرامشي، كراسات السجن، ص 13.

* لقد استطاع غرامشي أن يطرح مفهوم الهيمنة بطريقة عملية لا تمت بصلة لأي استخدام سابق له، "إن مصطلح الهيمنة قد خرج على يد غرامشي من ذلك المعنى التقليدي الذي يستخدمه المحافظون والثوريون على حد سواء، ويعنون به سطوة البرجوازية وتسلطها واستغلالها. بل خرج أيضا عن ذلك المعنى المنشق من ذلك المعنى القديم... والذي يعني سطوة بلد على بلد آخر بمعنى الاستقلال القائم على أساليب الابتزاز الاستهلاكي، ولكي نفهم الهيمنة بالمعنى الغرامشي لابد أن نفهم سلفا أن غرامشي لم يكن يعتقد كما اعتقد ماركس وإنجلز بأن الدولة هي أداة من أدوات الطبقة الحاكمة تستخدمها لتحقيق مصالحها، بل أن الدولة نسيج عضوي شديد التركيب والتعقيد لها أكبر دور في التأثير في القيم السائدة. أنظر، مجموعة مؤلفين، الماركسية الغربية وما بعدها التأسيس والانعطاف والاستعادة، تحرير: علي عبود المحمداوي، تقديم: الزين بن شيخة المسكيني، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط 1، 2011، ص 274.

² - مجموعة مؤلفين، الماركسية الغربية وما بعدها التأسيس والانعطاف والاستعادة، ص 274.

لدى الجماهير، وبين العمل على تكريس السلطة من جانب طبقة صغيرة، عبر عمليتي الإقناع والتعاون مع مؤسسة¹.

وهذا القبول بنوعيه سواء كان قبولاً تلقائياً أو سلبياً، يرسّخ عبر مجموعة من الاستراتيجيات من قبل جهاز الدولة القسري الذي يفرض "قانوناً الانضباط على تلك الجماعات التي تقف موقف عدم "القبول" الايجابي أو السلبي، وإن كان هذا الجهاز قد أنشأ لمواجهة المجتمع كلّ، تحسباً للحظات الأزمة التي تتعرض لها السيطرة Command والقيادة، إذا ما تعذّر القبول التلقائي². تجتمع مختلف هذه القوانين والاستراتيجيات، وتتحدّد لتجعل الطبقة المحكومة خاضعة وخانعة للطبقة الحاكمة.

تتضمن السلطة بالنسبة لـ "غرامشي" مفهوم السيطرة، وهو مفهوم يتمتع فيه طرف بالقوة والهيمنة على حساب طرف آخر، حيث تعمل السلطة عبر هذه القوى على تكريس مقولاتها والمحافظة عليها، عبر التشكيل اللغوي الذي يحفظ كيانه، حيث تتمتع اللغة بالدور الأبرز في الحفاظ على السلطة وعلى حضورها" وتمارس الهيمنة تبعاً للاستعمال الغرامشي، تأثيرها على الجماهير عبر الاستعمال الرهيف واللاوعي أيضاً لعملية الإقناع، ويلعب فرض نمط من اللغة، وإنجاز الكتابة الأدبية والتاريخية عبرها، دوراً هاماً في إنشاء أنظمة ومؤسسات تتركس إيديولوجيا الطبقة المسيطرة وترسّخها³.

فالسلطة عند غرامشي نفسها عند "فان ديك" وهذا ما نلمحه عنده في كتابه "الخطاب والسلطة" الذي تضمن "دراسة إعادة الإنتاج الخطابي لسلطة النخبة بشيء من التفصيل، لكنّه لا يركز على السلطة في المجتمع فحسب، وبوجه أعمّ على سوء

¹ - شيلي واليا، ادوارد سعيد وكتابة التاريخ، ص 36.

² - أنطونيو غرامشي، كراسات السجن، ص 28.

³ - شيلي واليا، ادوارد سعيد وكتابة التاريخ، ص 36.

توظيفها، وهذه هي الهيمنة وبتعبير أدق، يركّز على الاستخدامات غير المشروعة لسلطة الجماعة أو سلطة النخبة، التي تؤدي إلى الظلم، وعدم المساواة الاجتماعية¹. فالسلطة عند "فان ديك" مرتبطة بالأساس بسوء توظيفها في الخطاب، ومرتبطة أيضا بمفهوم السيطرة أي السيطرة على خطابات الآخرين ف "إذا كانت هذه الأفعال أفعالا تواصلية -أي خطابا- فإننا نتعامل مع السيطرة على خطاب الآخرين، وهي إحدى الوسائل الموضحة لعلاقة السلطة-بالخطاب: فالنّاس يفتقدون حرية التعبير وحرية الكلام أو الكتابة، ليس للمرء حرية اختيار الوقت والمكان والموضوع والجمهور... فهم مسلوبو الحرية جزئيا أو كليا بسبب سلطة الآخرين وسطوتهم كالدولة، والشرطة، ووسائل الإعلام، والشركات التجارية التي ترغب في قمع حرية الكاتب... كما يلزم المرء أن يقول أو يكتب ما يؤمر به فقط"².

أمّا "حنا آرنت" **Hannah Arendt*** فتري أنّه إذا كان من الضروري تعريف السلطة فلا بدّ أن يتمّ ذلك "بمعارضتها في الوقت نفسه مع الإكراه بالقوة ومع الإقناع بالحجج، فالعلاقة السلطوية بين من يأمر ومن يطيع علاقة لا تقوم على فكر مشترك،

¹-توين فان ديك، الخطاب والسلطة، المقدمة، ص20.

²-توين فان ديك، الخطاب والسلطة، ص44.

*تختلف التسمية باختلاف الترجمة فنجد حنة أرندت وفي مواضع أخرى حنا أرنت ففضلنا هذا الأخير كونه الأقرب إلى الترجمة بالنسبة لنا، ولدت قبل 100 عام في أكتوبر/تشرين الأول 1906 في مدينة هانوفر في محيط يهودي محب للأدب والفلسفة، أكملت دراستها عند الفيلسوف كارل ياسبرز في جامعة هايدلبرغ، التي قدمت فيها أطروحة الدكتوراه عام 1928...جاءت صدمة وصول النازيين وايدولوجيتهم الشمولية إلى الحكم في ألمانيا عام 1933 لتشكل نقطة تحول مركزية في حياة أرنت دفعتها إلى الابتعاد عن الفلسفة بمفهومها النظري البحث، والتوجه إلى العمل السياسي بشكل عملي. أنظر نور الدين علوش، الفلسفة الألمانية المعاصرة-مقالات وحوارات مختارة-، دار اليازوري للنشر والتوزيع، دط، 2016، ص35و36.

ولا على سلطان من يأمر، فالعلاقة المشتركة بينهما تقوم على التراتبية بحدّ ذاتها، حيث يعترف كل منهما بصحتها ومشروعيتها، وحيث لكلّ منهما مكانه الثابت فيها"¹. تختلف آرنت في نظرتها للسلطة مع ما ذهب إليه غرامشي في مفهومه للهيمنة، وترى أنّه يجب معارضتها مع الإكراه بالقوة والمنع بالحجج، وتركز "آرنت" في تعريفها للسلطة على أنها علاقة تراتبية قائمة بين طرفين يحتلّ فيها كلّ طرف مكانه الخاص بها، مبنية على القبول بين الطرفين، فهذه السلطة تنقد حقول ممارساتها حيث "تشدد" آرنت في محاولاتها لتقديم تعريف السلطة على تنوع حقول ممارسة السلطة (السياسية، التربوية، العائلية) وعلى بعد الاعتراف الكامن في العلاقة"².

إلا أن معنى التراتبية بالنسبة لـ"آرنت" ليست تراتبية بالمعنى الحرفي للكلمة إنّما "تتطوي" علاقة السلطة على تفاوت ممّيز، إذ أنّها لا تقوم على المساواة ولا على التراتبية بالمعنى الدقيق للعلاقة أمر/طاعة، فهو تفاوت تراتبي، إذا صحّ القول في علاقة السلطة تتطوي المساواة والتراتبية على أمر مشترك: فهما يعترفان على نحو متبادل بصحة التفاوت وشرعيته، وحيث لكلّ منهما "مكانه" المحدد سلفاً"³. فالتراتبية وفقا لهذا تقتضي اعترافا بين الطرفين بالتفاوت القائم في من يملك السلطة من عدمها وشرعية المتسلط وأحقّيته في تطبيقها لإخضاع المتسلط عليه.

تتشرب السلطة دلالاتها من السياقات المختلفة التي أنشأتها، وهي في ذاتها مرتبطة بالقوة، هذه الأخيرة تحكمت في المجتمعات وسيرورتها وفقا لما ترتضيه، فالسلطة مما سبق تظهر متعلقة بمفهوم السيطرة ومتعلقة أيضا بسوء توظيفها في الخطاب عبر التحكم في خطابات الآخرين وقمع الحريات عبر المؤسسات السلطوية،

¹ - ميريام ريفولت دالون، سلطان البدايات، بحث في السلطة، ترجمة: سايد مطر، مراجعة: موريس أبو ناصر، المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، ط1، 2012، ص48.

² - ميريام ريفولت دالون، سلطان البدايات، ص51.

³ - المرجع نفسه، ص 51 و 52.

التي تفرض على الإنسان باختلاف أطيافه أن يقول ويكتب ما تريده هذه السلطة وفقط، وهذا خدمة لمصالحها وحفاظا عليها كسلطة وعلى أجهزتها فهي سيطرة خطابية تتعدى الممارسة الاجتماعية لتصل إلى عقول المتلقين، عبر التحكم في آرائهم وأفكارهم وإيديولوجياتهم .

2.2/ حضور السلطة في الخطاب:

إن فاقد الشيء لا يعطيه حيث أنه من الضروري امتلاك المرسل للسلطة حتى يتمكن من تجسيدها في خطابه، وحتى لا يتسنى للمرسل إليه التشكيك في مدى سعة السلطة لدى المرسل، فالسلطة بهذا تكتسي أهمية بالغة كونها ممارسة خطابية تعتمد على اللغة ومكوناتها، إلا أن هذا المرسل قد يخفق في إنجاز فعله اللغوي إن لم يمتلك سلطة تقف وراء خطابه، وتمنع عنه الاستهزاء والتهمك فالسلطة بالنسبة للخطاب تزوج بين قوة اللغة والقوة المادية، لكننا قبل الحديث عن الاستراتيجيات التي يتبناها الخطاب لتنفيذ سلطته، لابد من الحديث عن العلاقة الوطيدة التي تجمع كلا من الخطاب والسلطة والايديولوجيا.

2. 3/ علاقة الخطاب بالايديولوجيا:

تظهر الايديولوجيا في الخطابات السلطوية على اختلافاتها (المقصود باختلافاتها سواء سلطة الحاكم، أو سلطة العائلة، أو سلطة التقاليد أو سلطة السلم التراتبي أو التصاعدي)، لصيقة بها ولا تتفك عنها، لأن أي خطاب مهما اختلف مرسله ومتلقيه، هو خطاب يحمل سلطة ما ترمي إلى بثّ إيديولوجيات معينة عبر الممارسة الخطابية التواصلية واللغوية إلى درجة أننا "لا نعي تماما كيف يؤدي مثل هذا الفهم إلى أنماط من "التغييرات العقلية" تشتمل على ما هو أبعد من مجرد فهم النص،... وهنا لابد من الإشارة إلى العوامل الأخرى التي تؤدي دورا في تغيير فكر الإنسان وعقله، ومنها

المعرفة الشخصية والاجتماعية، والخبرات السابقة، والمواقف الاجتماعية، والإيديولوجيات والأعراف القيم¹.

فهذه العناصر المجتمعة من معارف سابقة وخبرات قبلية وإيديولوجيا نتلقاها عبر خطاباتنا اليومية وأنوّه دائماً بالقول على اختلافاتها، وتعمل جاهدة في تشكيلنا وتشكيل وعينا بالأشياء وفكرنا كذلك بها، فالسلطة تستند إلى هذه العناصر للمحافظة على كيانه ووجودها، وكأنّها تستمد شرعيتها من هذه العناصر ولذلك نجد " فان ديك " في الفصل الثاني من كتابه، وفي خضم حديثه عن العلاقة التي تجمع بنى الخطاب ببنى السلطة الاجتماعية، يشيد بالدور المهم الذي تضطلع به الايديولوجيا للمحافظة على النظم الاجتماعية فيركز " على دور النص والحديث في تمثيل أساليب السلطة والتعبير عنها ووصفها وإخفائها وإضفاء الشرعية عليها في النظام الاجتماعي، وهنا علينا أن نولي اهتماما خاصاً بدور الايديولوجيا"².

ويرى أن الايديولوجيا السائدة في عصر من العصور ترتبط بالقوى المادية، فالفكر المهيمن هو فكر أصحاب النفوذ أو الطبقة الحاكمة كما يصطلح عليه "فان ديك".

أما بالنسبة لـ"ماركس" فتظهر جهوده الحثيثة في كتابه "الايديولوجية الألمانية" محاولاً بلورة مفهوم عام للايديولوجية* في علاقتها بأجهزة الدولة الايديولوجية،

¹ - توين فان ديك، الخطاب والسلطة، ص48.

² - توين فان ديك، الخطاب والسلطة، ص77.

* مع ذلك كله يشهد المفهوم نقصاً تأطيرياً حيث: " لم تكن هناك نظرية مفسرة للظاهرة، حتّى جاء "غرامشي"، الفيلسوف الماركسي الايطالي، بملاحظاته حول المجتمع المدني والمجتمع السياسي ضمن جهده لدراسة وضع المثقفين في الدولة: تعريفاً، وصفاً، تأملاً، من أجل فهم دورهم ووظيفتهم في المجتمع المرتبطين بإعادة إنتاج علاقات الإنتاج التابعة لمصالح الطبقات السائدة، ثم اعتمد "التوسير" الفيلسوف الماركسي الفرنسي على هذه البدايات ليضيف فكره ومساهمته في إثراء النظرية الماركسية للدولة" أنظر، لويس التوسير، الايديولوجية والاجهزة الايديولوجية للدولة، ترجمة: عائدة لطفي، مراجعة وتقديم: أمينة رشيد، دت، ص67.

ومساهمتها في إنتاج الفكر وإنتاج المجتمع... حيث تبين التحليلات الماركسية الكلاسيكية أن الايديولوجيا السائدة في حقبة معينة، عادة ما تكون إيديولوجيا أولئك الذين يسيطرون على وسائل الإنتاج فيها، وتحديدًا الطبقة الحاكمة¹.

فالإيديولوجيا وفقا للنظرة الماركسية مرتبطة بالطبقة المسيطرة في المجتمع، التي تحيل ضمنا الى مفهوم الدولة في الفكر الماركسي " بصفتها جهاز قمعي قائم على تشريع، جيش، بوليس، محاكم وتكون وظيفته الحفاظ على مصالح وكيان الطبقات السائدة"².

يزيد "لويس ألتوسير"* إلى هذا التعريف " مفهومًا مكملًا له، أي مفهوم جهاز الدولة الإيديولوجي، الذي يساهم مع جهاز الدولة السياسي في ضمان شروط إعادة إنتاج* العلاقات السائدة للإنتاج، وهي عملية لا تتم فقط في الإنتاج المادي نفسه بل

¹ - توين فان ديك، الخطاب والسلطة، ص 90.

² - لويس ألتوسير، الإيديولوجية والأجهزة الإيديولوجية للدولة، ص 67.

*لويس ألتوسير الفيلسوف الفرنسي الذي حظي نصه "الأيديولوجية والأجهزة الإيديولوجية للدولة"، الصادر في الستينات، بمكانة جعلته من أهم كتابات القرن العشرين في قضايا الفكر والأيديولوجية، وعلاقتها بجهاز الدولة السياسي، وإذا كانت قد اتضحت، منذ كتاب ماركس الضخم "الأيديولوجية الألمانية"، علاقة التأثير بين البنية التحتية والبنية الفوقية، من فلسفة وتشريع وأدب وفن... الخ، فإن الفضل يرجع إلى الفكر الماركسي الحديث (في إطار مجهوده لدراسة وبلورة مفهوم الإيديولوجية) في إضاءة وإثراء ما لم يكن قد تعمق بعد في الصلة بين إنتاج الفكر وعملية الإنتاج بشكل عام، في المجتمع وخاصة في المجتمع الأوروبي الرأسمالي. أنظر، لويس ألتوسير، الإيديولوجية والأجهزة الإيديولوجية للدولة، ص 66.

*"ما هي إذن إعادة إنتاج شروط الإنتاج؟ إن المسلمات المتسلطة على الأذهان (أي المسلمات الإيديولوجية التجريبية أو الامبريقية أو من وجهة نظر الممارسة الإنتاجية البسيطة) وهي نفسها مجردة بالنسبة لعملية الإنتاج)، تتحد مع "وعينا" اليومي إلى درجة يصعب معها إن لم يكن مستحيلًا الارتفاع إلى فكرة إعادة الإنتاج. ورغم ذلك، يبقى كل شيء بدون هذه الأخيرة-مجردًا (أكثر من جزئي: مشوها)، حتى على مستوى الإنتاج نفسه، وبالأحرى على مستوى الممارسة البسيطة" ص 69 لكي نبسط عرضنا نقول أننا إذا وضعنا في الاعتبار أن كل تشكيلة اجتماعية تعود إلى نمط إنتاج سائد، فإننا نستطيع أن نقول أن عملية الإنتاج توظف قوى الإنتاج المتوفرة في وتحت ظل علاقات إنتاج محددة. يترتب على ذلك أن أي تشكيلة اجتماعية عليها في نفس الوقت الذي تنتج فيه، ولكي تتمكن من الإنتاج أن تعيد إنتاج الشروط اللازمة لإنتاجها إنها أن تعيد إنتاج: 1/ قوى الإنتاج. 2/ علاقات

من خلال القيم، الأفكار، المعارف التي تضاف إلى المهارات العملية من أجل سلامة وحسن تأدية الوظيفة¹.

يعكس لنا هذا القول أن كل فرد في المجتمع منوط بتأدية وظيفة معينة، وفق الايديولوجية التي تفرضها الوظيفة نفسها، ويمثل التوسير لذلك بالمدير حين إتقانه أسلوب الأمر، والعامل في خضوعه وطاعته المطلقة، كذلك وبلاغة الأسلوب بالنسبة لمن يلقي خطابات حيث يغلفها بالحديث عن الأخلاق وحب الوطن ليمرر رسائل تخدم وظيفته الايديولوجية الحاملة لمضامين سلطوية بالضرورة.

فالايديولوجيا عند "ألتوسير" **Althusser** ما هي إلا ممارسة قهرية للسلطة في رؤيته عن الوصاية الإجبارية للفرد حيث "يمكن للايديولوجيا أن تمارس سلطتها القهرية، إنها تمارس وجودها الإخضاعى عبر أجهزتها أو ممارساتها التي تحدّد لنا التفكير فحسب في المعتقدات الجاهزة، والتي قدمتها لنا، وهي تلك الصيغة التي عبر عنها "ألتوسير" بهذا المعنى "اركع، وحرّك شفتيك بالصلاة وعند ذلك ستؤمن"².

تتبنى هذه الرؤية الجانب القمعي للسلطة والايديولوجيا من خلال أجهزة الدولة، أو الممارسة الخطابية ذات اللهجة المسيطرة التي تفعل إيديولوجيا ترمي إلى الإخضاع والهيمنة والسيطرة ف "إشكاليات السلطة تضعنا في مواجهة إيديولوجيا الخطاب المسيطر، وإلا ما معنى خضوع الناس لتلك التصورات الأخلاقية والميتافيزيقية والدينية وجميعها مواضيع غير طبيعية ومتعالية"³.

الإنتاج القائمة. أنظر، لويس ألتوسير، الايديولوجية والأجهزة الايديولوجية للدولة، ترجمة: عايدة لطفي، ص69 و70.

¹ -لويس ألتوسير، الايديولوجية والأجهزة الايديولوجية للدولة، ص67.

² -باري هندس، خطابات السلطة (من هوبز إلى فوكو)، ترجمة: ميرفت ياقوت، مراجعة و تقديم: ياسر قنصوة، المشروع القومي للترجمة، ط1، 2005، المقدمة، ص24.

³ -باري هندس، خطابات السلطة (من هوبز إلى فوكو)، ص25.

يعضد هذا الطرح فكرتنا القائلة بالعلاقة الوطيدة التي تجمع السلطة بالايديولوجيا عبر الخطاب "لأنّ طبيعة الافتراضات الإيديولوجية الكامنة في أعراف محددة، ومن ثمّ طبيعة هذه الأعراف نفسها، تعتمد على العلاقات الاجتماعية القائمة ومظاهر التفاوت في السلطة"¹.

أما "نورمان فيركلف" في كتابه "اللغة والسلطة" وفي حديثه عن النظرية الاجتماعية الحديثة، والدور الذي اضطلعت به اللغة في ممارسة السلطة والحفاظ عليها وتغييرها عبر الخطابات فهو يشير "إلى زيادة الأهمية بالنسبة للايديولوجيا باعتبارها آلية من آليات السلطة في المجتمع الحديث، وذلك في مقابل ممارسة السلطة بالأساليب القسرية"².

يتوضح لنا من خلال هذا القول أنّ "فيركلف" و"التوسير" يلتقيان في اعتبار الايديولوجيا ممارسة للسلطة عبر أساليب قسرية قمعية أو حتى قهرية، لكن "فيركلف" يرى بأن السلطة ليست قمعية فقط، وإنما يضيف جانباً آخر ويرى بأنّه الأكثر شيوعاً واستخداماً في العصر الحديث، وهو الذي أورده عند حديثه عن تحليل للمجتمع وتحليل الخطاب فأشار إلى "العلاقة الخاصة بين الايديولوجيا وممارسة السلطة من خلال الرضى لا من خلال القسر، واعتقد أنّ المجتمع الحديث يشهد ازدياد ممارسة السيطرة الاجتماعية من خلال الرضى"³، فبالنسبة له إذا كان الخطاب هو الوعاء الأنسب للايديولوجيا فهو كذلك بالنسبة للسيطرة والهيمنة عبر التراضي .

¹ -نورمان فيركلف، اللغة والسلطة، ص16.

*أستاذ جامعي بريطاني، متخصص في اللسانيات في قسم اللغويات واللغة الانجليزية بجامعة لانكستر، وهو أحد مؤسسي تحليل الخطاب النقدي من كتبه: اللغة والسلطة، الخطاب والتغير الاجتماعي.

² - نورمان فيركلف، اللغة والسلطة، ص28.

³ - المرجع نفسه، ص59.

يتحدث في هذا الاتجاه "فان ديك" عن شيء آخر وهو ما يسميه "السيطرة السياقية" فالخطوة الأولى "للتحكم بالخطاب تكمن في السيطرة على سياقاته، فعلى سبيل المثال، قد تُقرّر النُخب المتنفذة أو المنظمات القوية من الذي يمكن أن يشارك في بعض الأحداث التواصلية، ومتى، وأين، وبأية أهداف"¹.

تتعدّى السلطة بهذا المفهوم الخطاب وتصل إلى السياق الذي تتحكم فيه، وفقا لما يخدم هيئاتها "ففي حين كانّ التعريف التقليدي للسلطة يقوم على مفهوم الطبقة الاجتماعية والسيطرة على وسائل الإنتاج المادية، فإنّ مثل هذه السلطة التقليدية قد استبدلت -اليوم- بسلطة السيطرة على الخطاب العام في جميع أبعاده العلاميّة"².

كانت السلطة قديما متجلية في وسائل الإنتاج المادية أما في عصرنا فأصبحت لصيقة بالخطابات على اختلافاتها، وباتت تستعملها للحفاظ على كينونتها المادية والمعنوية، وهناك من يربط السلطة بالايديولوجيا كما هو عند "باري هندس" Barry Hindess حيث يرى أنّ "أي خطاب للسلطة لا يمثّل نظاما منطقيا من الأفكار يمكن تحليلها في إطار نسقي محكم ومغلق، دون النظر إلى علاقات الخارج التي تجعل من الخطاب إيديولوجية، وثمّ سلطة"³.

يتجلى هذا في رؤية " ألتوسير" حيث يمكننا أن نقول أن إعادة إنتاج* قوة العمل تتطلب ليس فقط إعادة إنتاج كفاءتها، ولكن في نفس الوقت إعادة إنتاج خضوعها

¹ -توين فان ديك، الخطاب والسلطة، ص46.

² -المرجع نفسه، ص53 و54.

³ -باري هندس، خطابات السلطة (من هوبز إلى فوكو)، المقدمة، ص08.

*يشرح هذه الرؤية وفق هذا التساؤل: ماذا يتعلمون في المدرسة؟ "يتعلمون في كلّ الأحوال، القراءة والكتابة والحساب، إن بعض التقنيات إلى جانب أشياء أخرى من ضمنها عناصر-يمكن أن تكون أولية على العكس متعمقة- من "الثقافة العلمية" أو الأدبية" المستخدمة بشكل مباشر في الوظائف المختلفة للإنتاج (تنقيف للعمال وآخر للتقنيين وثالث للمهندسين ورابع للكوادر العليا...الخ)، نتعلم إذن مهارات "ص72. "ولكن إلى جانب وبمناسبة هذه التقنيات والمعارف يتم أيضا في المدرسة تعليم "قواعد" السلوك المناسب، أي القواعد التي يجب أن يحترمها كل عامل في تقسيم العمل حسب الوظيفة التي "يتحكم" عليه أن يشغلها: وهي القواعد الأخلاقية للعوي المدني والمهني

لقواعد النظام القائم، بمعنى تحديد إنتاج خضوعها لقواعد النظام القائم، بمعنى تجديد إنتاج خضوعها للايديولوجية المسيطرة بالنسبة للعمال، وإعادة إنتاج لمقدرة استعمال الايديولوجية السائدة بالنسبة لممثلي الاستغلال والقهر حتى يضمنوا عن طريق الكلمة أيضا سيطرة الطبقة السائدة¹، التي توحى بأن الخطابات التي نتداولها ونتلقاها هي خطابات غير بريئة على الإطلاق حيث "أن الخطابات ليست مسالمة على الإطلاق، إنها كالسلطة قادرة على التأثير والإخضاع"².

يضع " ألتوسير " كلاً من السلطة والخطاب في الخانة نفسه، فيصبحان كالوجهين للعملة الواحدة. أمّا "فوكو" فنجدّه متمسكاً بفكرة أن " ممارسة السلطة تتطلب درجة من الحرية لدى رعاياها يعني ... أن الممارسة الفعّالة للسلطة لا تحتاج للإشارة إلى نزع الحرية، بل على العكس من ذلك، يرى فوكو أنّه في حالة غياب إمكانية المقاومة، لا يمكن وجود علاقات للسلطة، فمن الطبيعي أن تتعرض ممارسة السلطة إلى التمرد من قبل رعاياها³، فالسلطة كممارسة تحتاج إلى نوع من الحرية لتكتسب مصداقيتها ومشروعيتها... لذلك نجد مناقشات "فوكو" للسلطة كما هي بالنسبة لفان ديك متضمنةً لمعنى السّيطرة والهيمنة فهي "لا تفرق كثيراً بين علاقات السلطة بشكل عام والسيطرة بوصفها نوع خاص من علاقة السلطة التي تتميز بثباتها وتدرجها"⁴.

وهذا معناه بوضوح قواعد احترام التقسيم الاجتماعي-التقني للعمل، في النهاية قواعد النظام القائم للسيطرة الطبقيّة، كما سيتمّ أيضاً تعليم "اللغة الفرنسية الجيدة" و"الكتابة الجيدة أي(بالنسبة لرأسمالي المستقبل وخدامهم) "إعطاء الأوامر الجيدة، أي (بالنسبة لرأسمالي المستقبل وخدامهم) "إعطاء الأوامر الجيدة، أي(وهذا حل مثالي) " أن يجيدوا التوجه إلى العمال، الخ بشكل علمي.

¹ - لويس ألتوسير، الايديولوجية والأجهزة الايديولوجية للدولة، ص 73.

² - باري هندس، خطابات السلطة (من هوبز إلى فوكو)، ص 25.

³ - المرجع نفسه، ص 127.

⁴ - نفسه، 129.

أما بالنسبة "لفيركلّف" في كتابه "اللغة والسلطة" فهو لا يختلف عن سابقه من "فان ديك" أو "باري هندس" أو "فوكو" فهو يرى أن ممارسة السلطة هي ممارسة تقتزن باللغة والايديولوجيا للسيطرة حيث يقول: "أن ممارسة السلطة في المجتمع الحديث يزداد اعتماد تحقيقها على الايديولوجيا، وبصفة أخص على الجوانب الإيديولوجية الفعالة للغة فنحن نعيش في حقبة لغوية، وهو ما يشهد عليه كبار المنظرين بين الاجتماعيين المعاصرين من أمثال بيير بورديو، وميشيل فوكو ويورجن هابرماس"¹.

تقتضي السلطة في مفهومها العام أمرا ومأمورا، أمرا يتمتع بالسلطة ومأمورا خاضعا ومطبقا، وبهذا يتوضح لنا طرفي الخطاب وهما المرسل والمرسل إليه، وهذا المفهوم بالنسبة للأطر الاجتماعية التي تحكمه أما بالنسبة لـ"فوكو" فتعريف السلطة بسيط جدًا حيث يرى أن "كل علاقة قوى هي على الأصح علاقة سلطة، ويبين هذا التعريف أن السلطة عبارة عن علاقات تحدث في المجتمع، ولأن العلاقات قد تكون علاقات غير متكافئة، فإن المرسل يأخذها بعين الاعتبار في الربط بينها وجودا أو عدما، وبين استعمال اللغة في الخطاب عند إنتاجه، مما يجعل الخطاب هو الإطار الذي تتجسد فيه"².

فمفهوم المرسل بالنسبة للسلطة لا يقتصر على الأفراد فقط، وإنما قد يتمثل في مؤسسات وهيئات حكومية تسخر أفرادا لإنتاج خطاب سلطوي يخدمها، وبهذا يصبح المعلم ذا سلطة في مدرسته والقاضي له سلطة في محكمته وقس على ذلك.

يفضي الحديث عن السلطة بالنسبة إلى الخطاب دائما إلى وجود شخص يمتلك سلطة ويسعى للمحافظة عليها في خطابه، وفي مقابله شخص آخر لا يمتلك هذه السلطة ويحاول جاهدا امتلاكها عن طريق خطابه، إلا أننا هنا نولي أهمية قصوى

¹ - نورمان فيركلف، اللغة والسلطة، ص 17.

² - عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب - مقارنة لغوية تداولية-، ص 221 و 222.

للمرسل في إنتاج الخطاب، وأغفلنا جوانب مهمة تتحكم في إنتاج الخطاب وتأويله، وتعتبر في حد ذاتها سلطة، كاللغة والسياق... فسيطرة الخطابات هي سيطرة تتجلى في التحكم في مجموعة من الأمور والمواضيع المطروحة بأية كلمات "حالما تترسخ السيطرة على مؤشرات السياق وإنتاج الخطاب، يمكننا أن نستقصي كيف يتم التحكم ببنى الخطاب نفسه... وأي الأفعال الكلامية أو غيرها من الأفعال التواصلية يجب أو يحتمل إنجازها بواسطة تلك المعاني والأشكال للخطاب، وكيف تنظم مثل هذه الأفعال في التفاعل الاجتماعي"¹.

تتضح بهذا مجموعة من العناصر التي ينتج المرسل خطابه وفقا لها... وهذا ما نلمحه عند "فان ديك"، لذلك فالسلطة مستمدة من مجموعة من العناصر، ولعل أبرزها السياق واللغة اللذان يرتبطان بجملة من العناصر. كيف ذلك؟ هو ما سنقف عليه فيما يلي.

1/سلطة اللغة:

تتمتع اللغة بمجموعة من الأنظمة والآليات التي يجب على المرسل احترامها والسير وفقا لها في إنتاج خطابه، كونها تفرض عليه قيودا يجب مراعاتها وفق مجموعة من المستويات: النحوية، والدلالية، والصرفية، صوتية ومعجمية وتركيبية فاللغة تضطلع بدور رئيس "في إنشاء علاقات السلطة الاجتماعية والحفاظ عليها وتغييرها...زيادة الوعي بالأسلوب الذي تسهم به اللغة في تمكين بعض الناس من السيطرة على البعض الآخر، لأنّ الوعي يمثل الخطوة الأولى على طريق التحرر"².

¹ - توين فان ديك، الخطاب والسلطة، ص 47.

² - نورمان فيركلف، اللغة والسلطة، ص 15.

ينبغي على الإنسان الذي يريد الحفاظ على السلطة أو تغييرها عبر اللغة أن يكون على دراية كافية بالأساليب والطرائق اللغوية التي تمكنه من الوصول إلى مبتغاه... لأنّ اللغة " ترتبط ارتباطاً أساسياً بالسلطة وضروب الصراع على السلطة، وإن ارتباطها هذا يرجع إلى خصائصها الإيديولوجية"¹.

انطلاقاً من هذا الارتباط الوثيق بينهما وبين ضروب الصراع على السلطة، تمثل اللغة "موقعا للصراع الطبقي وعاملاً يسهم فيه، ولابدّ للذين يمارسون السلطة من خلال اللغة أن يشتبكوا في صراع دائم مع غيرهم للدفاع عن موقعهم (أو فقدانه)"². فسلطة اللغة كونها سلطة أولى تستدعي الإحاطة بمجموعة من الأمور اللغوية للمحافظة على السلطة عبر الخطابات، إلّا أنّه يشترط في هذه الحالة أن يكون الخطاب مفهوماً بالنسبة للمرسل إليه، وليس غامضاً كي لا يخرج عن الأطر المتفق عليها في اللغة، وإلا فإنّه يصبح خطاباً مشفراً لا تفهمه إلا الأطراف المتواضعة عليه.

2/ سلطة المرسل:

ننتقل إلى السلطة الثانية وهي سلطة المرسل (المتكلم أو المؤسسة) كونه الفاعل الرئيس الذي يتحكم باللغة، وفقاً لـرغباته ومتطلباته "فالقدرة على الإذعان لقواعد اللغة وقيودها أو خرقها أو التلاعب بها هي كفاءة تواصلية، وعندما يستعمل المرسل الكفاءة التواصلية ليؤثر في سلوك الآخرين، أو لينصب من نفسه الإنسان المرجع في مجتمعه، أو ليعلي من قدره ومرتبته، فإنّنا نتحدث عن تأثيرات تتمّ عن دهاء، ويحقق

¹ - المرجع نفسه، ص 35.

² - نفسه، ص 57.

المرسل هذه التأثيرات، عبر التلاعب واستغلال القواعد والاستثناءات، والاختيار من المواد المخزونة، وبذلك فإنه يشير في خطابه إلى معنى اجتماعي¹.

يؤدي استعمال المرسل لهذه الكفاءة التواصلية باستغلاله للتغيرات، التي يمكن أن تتم في أي مستوى من المستويات السابقة الذكر، إلا أن هذه التغيرات تنتظم وفق خطاطة تراعى فيها الإمكانيات اللغوية للمرسل إليه، وبهذا لا يستطيع المرسل إلا أن ينتج خطابا مفهوما... ويتضح هاهنا سوء توظيف اللغة في الخطاب "عند وجود عنصر الاختيار لدى صانع الخطاب، فمثلا: للمتحدث الخيار بتسمية شخص ما بأنه إرهابي أم مناضل من أجل الحرية، وهذا يعتمد على موقف المتحدث وعقيدته وإيديولوجيته"².

يتبين لنا مما تقدم أن سلطة المرسل هي سلطة متعلقة أساسا بإيديولوجيته وعقيدته ونمط تفكيره، الذي يريد أن يبيته في الخطاب، لكن ذلك لا يتم عبر اللغة فقط، وإنما عبر مجموعة من الأساليب والمستويات اللغوية التي يستعملها المرسل مثلا "عن طريق دراسة منظمة (تميز بين) التلاعب في الخطاب، والتضليل، والأكاذيب، والاختراعات والدعاية..."³.

وغيرها من الأنواع الخطابية التي يستعملها الباحث من أجل إنتاج سلطته، وتحقيق السيطرة المباشرة "للفعل عن طريق الخطابات ذات الوظيفة التداولية المباشرة) القوة الإنجازية)، مثل الأوامر والتهديدات والقوانين والأنظمة والتعليمات، أو غير المباشرة، مثل التوصيات والنصائح، ويمتلك المتكلمون في كثير من الأحيان-دورا مؤسساتيا- وغالبا ما تدعم السلطة المؤسساتية خطاباتهم، وغالبا ما يمثل للأوامر عن

¹ - عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب - مقارنة لغوية تداولية-، ص 225 و 226.

² - توين فان ديك، الخطاب والسلطة، ص 35.

³ - توين فان ديك، الخطاب والسلطة، ص 43.

طريق العقوبات والجزاءات القانونية والمؤسسات وغيرها¹. بعد هذا ننتقل إلى الطرف الثاني من العملية التواصلية وهو المرسل إليه.

3/ سلطة المرسل إليه:

تتضح سلطة المرسل إليه إذا كان يشغل منصبا أعلى من المرسل، أو حتى إذا لم تكن هناك علاقة تراتبية بين الطرفين إلا أن هذه السلطة تتجسد في استعمال الألقاب للوصول إلى القصد والهدف المنشود مثل صاحب السمو وصاحب المعالي "ويدل استعمال كل لقب من هذه الألقاب على الاحترام والتبجيل، بالرغم من أنها حق مكتسب للمرسل إليه، فهي مفروضة على المرسل، مما يجسد مظهرا من مظاهر سلطة المرسل إليه"².

وتتجسد سلطة المرسل إليه فيما يعرف بالجمال الاعتراضية حيث أن تضمين الخطاب لهذه الجمال الاعتراضية بغض النظر عن دلالتها النحوية، دليل على وجود المرسل إليه دائما في مخيلة المرسل أثناء وبعد كتابة الخطاب، "وبهذا نعتبر أن عدم مفارقتها له سمة من سمات السلطة، وهذا مطلب تداولي قبل إنتاج الخطاب وفي أثناءه، ليحافظ المرسل عما تستحقه عناصر السياق من خطاب بالموازاة مع تحقيق الهدف والتعبير عن القصد"³.

وقد تتخذ سلطة المرسل إليه مجموعة من الأدوار، كمقاطعة المرسل عند التلطف بخطابه أو طلب الرأي أو المشورة من المرسل أو بإعطائه حرية التصرف.

4/ سلطة المجتمع:

وهي ما تقتضيه اللغة من تحويلات وتعديلات، عند الحديث عن الطابوهات تماشيا مع سلطة المجتمع... وتمتد سلطة المجتمع إلى أبعد من هذا حيث يفرض على

¹ - المرجع نفسه، ص 90.

² - عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب - مقارنة لغوية تداولية-، ص 228.

³ - عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب - مقارنة لغوية تداولية-، ص 229.

المرسل قيوداً تمنعه من قول كل شيء أو طرح أي موضوع، لا بل الأمر حتى لوسائل الإعلام الجماهيرية، والتي تراعي في نقلها للأخبار باعتبارها سلطة رابعة سلطة المجتمع " ولذلك تلجأ وسائل الإعلام إلى افتراض مرسل إليه مثالي أو معتدل، مع أخذ كل الاحتياطات في الاعتبار، بالابتعاد عن كل ما يشكّل أو يساء فهمه ... وهذا الصنف من السلطة هو ما يسمّيه "فيركلاف" بـ **السلطة المقنّعة** أو **السلطة الخفية**، ممّا يبرر استعمال الإستراتيجية التلميحية، عند تناول بعض الموضوعات، أو مناقشة بعض الأمور"¹.

وبالرغم من وجهة النظر هذه التي ترى بمراعاة سلطة المجتمع بالمعنى الايجابي، إلا أنّه يرى أن هذه السلطة كثيراً ما تستعمل بجانبها السلبي المتعلق بسوء توظيفها ... وبذلك "نستطيع أن نستقصي سوء توظيف السلطة، وكيف يمكن لهذه الإساءة أن تؤذي الناس؟ وكيف ينتج الظلم الاجتماعي ويعاد إنتاجه في الحياة اليومية، وحينها فقط نستطيع فهم كيف يتم التوزيع غير المتكافئ للسلطة في المجتمع"².

يتضح من خلال سوء استعمال السلطة أنّها تعيد إنتاج الظلم في المجتمع، ممّا يفسّر التوزيع غير العادل للسلطة في المجتمع، ممّا يدفع إلى مضاعفة التفكير غير العقلاني الناجم عن السلطة المفروضة على المجتمع، والتي تقضي بالتوافق ولو كان توافقاً يلفه الخوف والذعر حيث "يصبح تأثير السلطة أن تضعف التفكير غير العقلاني حتّى لو كان ذلك في مجتمع عقلاني"³.

إلى جانب السلطة الموجودة في المجتمع، يكتسي المكان أهمية بالغة بالنظر إلى السلطة، حيث يعتبر من المكونات السياقية التي تقيد حرية المرسل أثناء إنتاج خطابه.

¹ - المرجع نفسه، ص 232.

² - توين فان ديك، الخطاب والسلطة، ص 60.

³ - باري هندس، خطابات السلطة (من هوبز إلى فوكو)، ص 117.

إنّ الربط بين السلطة من حيث أثر وجودها وعدمها، وبين اختيار إستراتيجية الخطاب، يعدّ مسألة ذات أهمية في إنتاج الخطاب إلّا أن (هابرماس) يرى أن الاستراتيجيات اللغوية تجسّد تباين درجات السلطة التي تسم بكثرة التفاعلات السياقية المعاصرة مما يشوّه التواصل، لأنّها تحلّ محلّ العقلانية التي يفترض أنّها بؤرتها، وسوف نتطرق إلى أثر السلطة في اختيار إستراتيجية الخطاب حسب كل معيار من المعايير الثلاثة:

معيار العلاقة بين طرفي الخطاب

معيار شكل الخطاب اللغوي في الدلالة على قصد المرسل

معيار هدف الخطاب.¹

4.2/ دور السلطة في العلاقة بين طرفي الخطاب:

تضطلع السلطة بأهمية قصوى كونها العامل الرئيس في تحديد العلاقة بين المرسل والمرسل إليه، وهذه الأهمية تتجلى في اختيار الإستراتيجية التي تمثّل تلك العلاقة حيث: "يتمّ تركيز الانتباه في التداولية على نوع العلاقات بين طرفي الخطاب ونظامها، وبالتالي فإنّ هناك بعدين يتمّ الإحالة عليهما بصفة مستمرة وهما: علاقات السلطة والبعد الاجتماعي بين المرسل والمرسل إليه".²

تحتكم العلاقة التي تربط بين المرسل والمرسل إليه بالنسبة للتحليل التداولي، إلى بعدين اثنين يكتسيان أهمية كبيرة في توجيه المرسل إلى اختيار الإستراتيجية، التي تتناسب وهذين البعدين ألا وهما علاقات السلطة والبعد الاجتماعي.

يتفرع من الناحية الاجتماعية إستراتيجيتان: هما الإستراتيجية التضامنية والإستراتيجية التوجيهية، فإنّه يربط كثير من الباحثين بين استعمال إحداها من جهة،

¹ - أنظر، عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب - مقارنة لغوية تداولية-، ص 235.

² - عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب - مقارنة لغوية تداولية-، ص 235 و 236.

وبين توفر السلطة عند المرسل من جهة أخرى. إذ تقع الإستراتيجية التضامنية مع السلطة على طرفي نقيض، لأن التضامنية تجسّد الرغبة في تقريب المرسل إليه، والتقرب منه ومنحها الأولوية في الخطاب، في حين تجسّد التوجيهية الرغبة في إغفال ذلك¹.

يلجأ المرسل إلى استعمال الإستراتيجية التضامنية للاستحواذ على المرسل إليه، مما يكسبه سلطة يقرب منه بها، وبعدها يلجأ إلى الإستراتيجية التوجيهية لكي يسترجع مكانته وهيبته، وهذا ما نجده بكثرة في الحملات الانتخابية، كذلك نجد الإستراتيجية التضامنية تتجلى في الإعلانات التجارية.

إن استعمال المرسل للإستراتيجية التوجيهية يوحي ضمناً بسلطة يحاول من خلالها المرسل فرضها على المرسل إليه، حتّى وإن لم يتوقع هذا الأخير ذلك: "فإلى جانب تسلط حدث القصد على المواضعة، أي على الطرف الثاني الضروري في كل تحاور لسانی، وهو العنصر المنقلب للرسالة المبلّغة، وبذلك يكتسب قانون القصد بعده التواصل الأوفى، بما أنّه يصبح معياراً أولياً في استقامة جهاز التخاطب بمختلف أركانه"².

وهذه السلطة تتيح للمرسل فرض تأويلات معينة على خطاب المرسل إليه، وقد يذهب إلى أبعد من ذلك حيث يرى أن تأويلاته هي المفهوم الوحيد من الخطاب، ويمضي قدماً في ذلك ويبني خطابه على هذا الأساس.

1/ دور السلطة في شكل الخطاب للدلالة على القصد:

تلعب السلطة دوراً مهماً في تحديد الإستراتيجية التي تتحكم في مقصدية الخطاب، الشيء الذي يدفع المرسل إلى استعمال الإستراتيجية المباشرة أو التصريحية

¹ - أنظر، المرجع نفسه، ص 236.

² - عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب - مقارنة لغوية تداولية -، ص 238.

بخطاب لغوي مباشر وواضح، وهذا إذا كان المرسل مالكا للسلطة، أمّا إذا كان فاقدا لها فإنّه يلجأ إلى استعمال الإستراتيجية التلميحية من خلال خطاب فيه مجموعة من الإيحاءات والانزياحات هذا من ناحية، ومراعاة لدرجة السلطة من ناحية أخرى.

إلا أنّه "تؤثر سلطة المرسل في استعمال الإستراتيجية التلميحية، ويكون أثرها إما أثر وجود أو أثر عدم وذلك لواحد من سببين هما:

1/أنّه يمتلك السلطة، ولكنّه يتنازل عن ممارستها في الخطاب، حيث يرى أنّه ليس بحاجة إلى إبرازها فهذا هو أثر الوجود.

2/أو أنّه لا يمتلك السلطة الكفيلة التي تخوله إبراز قصده مباشرة، وهذا هو أثر العدم.¹

نستنتج إذن أن المرسل هنا يكتفي بالإستراتيجية التلميحية لوصول مقصده من خطاباته، معرفة منه بأن المرسل إليه عالم بسلطته، حيث أنّ هذا الأخير يعتبر مجرد التلميحات بمثابة أوامر لابد أن تنفذ وكأنها صريحة من قبل المرسل.

2/دور السلطة في معيار هدف الخطاب:

إن الإقناع من أهم الأهداف التي يسعى المرسل لتحقيقها في خطابه، حيث نجد الإقناع في صميم السلطة، فالمرسل يقنع بخطابه ليمارس سلطة على المرسل إليه، فالإقناع يخدم السلطة ويجسدها ومن بين الآليات اللغوية التي يعتمد عليها الإقناع نجد الحجاج الذي هو: "عمل عقلي في ممارسته، لكنّه يعتمد على اللغة في تمثيله مما يسهم في استثمار قالب المنطق واللغة بالدرجة الأولى، وهما القالبان الأساسيان في كل عملية لغوية ... وهنا يتجلى تركيز (هابرماس) **Habermas** على العقلانية بوصفها

¹ - المرجع نفسه، ص 240.

أساساً في الخطاب، وذلك باعتبار السلطة في الخطاب الحجاجي، ويعتبر اللغة هي أداة السلطة وعدم التساوي أكثر منها مجرد وسائل للفهم وترتيب الخطاب¹.

فالمرسل إذا كان مالكا للسلطة فالإقناع لا يكون الإستراتيجية الوحيدة التي يستعملها، فقد يلجأ إلى استعمال استراتيجيات أخرى كالإستراتيجية التوجيهية وغيرها من الاستراتيجيات وفق مقتضيات يفرضها السياق...تعتمد السلطة بناء على ما سبق على مجموعة من الآليات والميكانزمات لإرساء دعائمها، والمحافظة على كيانها عبر القوة والسيطرة، فنجد هذه التقنيات تتعدّد وتتوحد كسلطة قمعية وأخرى إقصائية وسلطة الهيمنة، إلا أنّ هناك نقطة التقاء تجمعها، وهي أنّها حاملة جميعها لمعاني القمع والهيمنة...الخ، ما يدعونا إلى الوقوف على تجليات معاني القمع في الرواية العربية المعاصرة.

3/ حضور القمع في الرواية العربية المعاصرة:

يعرّف "فوكو" السلطة من خلال القمع بالقول: "عندما نعرف تأثيرات السلطة من خلال مصطلح القمع، فإننا نقدم لأنفسنا تصورا قانونيا محضا لهذه السلطة نفسها، إنّنا بذلك نجعل السلطة مطابقة لقانون يقول لا، كان من اللازم على الأخص الإشارة إلى القدرة على المنع"².

إلا أنّ هذا التصور السلبي لقمع السلطة، يجعلها تفقد حضورها وكيانها في المجتمع، حيث لا يمكن الحديث عن السلطة ما لم تكن سلطة قمعية، لأنّها عبارة عن هيئة منتجة تخترق المجتمع أكثر ممّا هي هيئة سلمية تضطلع بوظيفة قمعية، فالسلطة تحيل إلى النظام وإلى خلق وحدة في المجتمع حيث هي "تجسيد لشمولية فوق كل المصالح الخاصة أنّها أمر منظم شمولي ومنسجم. إنّ السلطة تعمل في الحقيقة

¹ - عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب - مقارنة لغوية تداولية-، ص 243.

² - ميشيل فوكو، نظام الخطاب، ص 63.

بواسطة ثلاثة رموز أو عناصر: القانون: العنف والشمولية، إنّ السلطة هي الوجه الآخر المجتمع، إنّها القوة ضد الذين لا سلاح لهم، ومعرفة الجماعة ضد المعرفة الخاصة، والمشروعية ضد الرغبات الفردية ... ووظيفتها هي خلق وحدة في المجال الاجتماعي¹.

فالوظيفة الرئيسة التي تضطلع بها السلطة من خلال هذا هي الحفاظ على النظام في المجتمع عبر شرعيتها المكتسبة من كونها سلطة قمعية لا محالة متجذرة في حواراتنا وحياتنا وهيئتنا الاجتماعية والمؤسسات العمومية وغيرها.

نقدم في العنصر الموالي وكخطوة أولية في التطبيق، واستناد إلى ما تمّ إيرادها في الفصل الأول من هذا البحث، أين يتوجب علينا التعريف بالقمع والحديث عن الدراسات السابقة التي تناولته بالدراسة والدوافع المؤدية لحدوثه، والأسباب التي دفعتنا إلى اختيار هذا الموضوع دون غيره.

3. 1/ القمع التعريف والمفهوم:

برزت ظاهرة القمع في عصرنا الحالي، وفي مجتمعاتنا العربية كنتيجة للسلطة السياسية التي ينتهجها الحكام مع المجتمعات كونها في مجملها أنظمة قمعية سواء مادية أو معنوية، يتعرض فيها الإنسان لشتى أنواع التعنيف والاضطهاد الفكري والجسدي، ومن أبرز مظاهر القمع حضورا في الرواية العربية المعاصرة نجد السجن... وغيرها من أنواع القمع كالإرهاب، الاعتقال، الاغتيال، الخطف، أزمة الحرية... وغيرها من أقسام القمع المختلفة كالاقتصادي.. الأسري.. المؤسساتي.. القمع عبر أجهزة الدولة... الخ، ولقد أفاضت الرواية العربية قاطبة الحديث عن هذه التيمة، وسنقدّم في هذا الجزء تعريفا للقمع لغة واصطلاحا.

¹ -محمد الشيخ، المثقف والسلطة، دراسة في الفكر الفلسفي الفرنسي المعاصر، دار الطليعة، بيروت، ط1، 1991، ص121 و122.

3. 1.1/القمع في اللغة:

ورد في قاموس المنجد في اللغة والأعلام أن "قمع: 1- قمع-قمعاه: صرفه عما يريد // قهره وذّله // ضربه بالمقمعة // ضرب أعلى رأسه // أقمع ه: قهره وذّله وردّه، تقول " أقمعته" أي طلع عليّ فرددته عنيّ قمّع: ذلّ / المقمعة: ج مقامع: خشبة أو حديدة يضرب بها الإنسان ليزل المقموع(مفع): المقهور"¹.

يحمل القمع لغة في طياته معنى القهر والذل والضرب، وقمعه قمعا بمعنى صرفه عن فعل ما يريد بالقوة والقسوة... تربط كلمة القمع علاقة وثيقة أو بالأحرى تكاملية مع كلمة العنف* والعنف متضمن لمعنى الشدة والقسوة، وعدم الرفق والتعامل بشدّة، والعنف ضد الرفق والعنيف خلاف الرفيق. في حين أن القمع أشدّ وأقسى، أو إن صح القول أعنف من العنف في حدّ ذاته، فالقمع يمثل العنف في أعلى مستوياته.

3. 1. 2/القمع اصطلاحا:

يمثّل القمع باعتباره شكلا من أشكال العملية السياسية "أداة من أدوات القوة السياسية التي تعرف أنّها القدرة على التأثير في سلوك الآخرين، وبذلك فإنّ حديثنا عن القمع، يعني نظرنا إلى أدوات العقاب والإجبار، ودوافع استخدامها، ودورها في العملية السياسية وديناميكية عملها وكيفية التحكم بها"². فالقمع بهذا يكون في حدّ ذاته سياسة منتهجة تفعلها أطر مختلفة لتحقيق مساعي سلطوية معينة.

¹ -المنجد في اللغة والأعلام، دار المشرق، بيروت، ط43، ج2، ص654.

* أمّا عنف - عنف - عفا وعنافة بالرجل وعليه: لم يرفق به وعامله بشدّة، فهو عنيف ج عنف. عَنَف ه: عامله بشدّة // لاهه بشدّة // عتب عليه. أعنف الأمر: أخذه بشدّة // و- ه: عامله بشدّة. العنف والعنف والعنف: ضد الرفق // الشدّة والقساوة . الأعنف: العنيف // خلاف الرفيق. أنظر، المنجد في اللغة والأعلام، ج2، ص533. ارتأينا أن نوضح في الهامش معنى العنف نظرا للنقاط الحاصل بين الكلمتين ليتضح لنا أن القمع صورة بدائية للعنف وهو شكل مقتنع له.

² -أحمد عادل عبد الحكيم وآخرون، سلسلة حرب اللاعنف، -حرب الصدور العارية استراتيجيات وتكتيكات التعامل مع القمع والعنف، أكاديمية التغيير، دت، دط، ص21.

أما عند "عبد الرحمن منيف" فالقمع "حالة مركبة، وهذه الحالة، وإن بدت صغيرة، وتحمل معنى الدفاع عما هو قائم...إلا أن استمرارها، والتراكم الذي يحصل لها، إضافة إلى التناقضات في المصالح والأفكار، يجعلها تكبر وتزداد اتساعا وعنفا ولاشك أن من أسباب استفحالها الخوف من التغيير، من الآخر، وأيضا الخوف من المستقبل المجهول"¹.

يتحقق القمع وفق ما سبق ويتضاعف ليصل إلى أعلى درجاته، ويتحقق له ذلك عبر بناء النظام الطبقي الذي يجعل الطبقة الحاكمة، تتمتع بالسلطة وبالقوة، في مقابل الطبقة المحكومة والمستضعفة، مما يجعل الطبقة الأولى تعيش حالة ذعر، وتأهب دائم للطبقة المحكومة حيث تسعى جاهدة إلى إبعادها عن السياسة وإشغالها بالأمور الدنيوية، وذلك من أجل صرف نظرها عن الحكم وعن المطالبة بالتغيير.

تجتمع مجموعة من العوامل والمؤثرات الاجتماعية والثقافية والسياسية، التي تفعل القمع وتدعمه وذلك قصد التأثير في الآخرين، والتحكم بهم وبتصرفاتهم إن استدعى الأمر... بعد الحديث عن دلالة القمع لغة واصطلاحا، يتضح لنا أن المقصود من القمع هو إلحاق الأذى بالآخرين من أجل المحافظة على السلطة وكيانها.

3. 2/دوافع نشأة القمع في المجتمعات العربية:

اتسعت دائرة القمع ، واستفحلت بشتى أنواعها في المجتمعات العربية، وتعددت أساليبه وتطورت وامتدت " إلى جميع مناحي الحياة، بحيث أصبحت المنطقة العربية في

¹ - عبد الرحمن منيف، بين الثقافة والسياسة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، المركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع، ط4، 2007، ص166.

المرحلة الراهنة أكثر المناطق في العالم خرقا لحقوق الإنسان، وأكثرها استبدادا وأشدّها تعسفا¹.

أدى ذلك إلى التخلي والتراجع عن مجموعة من المبادئ والقوانين، التي تتادي بالحريات والديموقراطيات في وقت سابق، وذلك جراء الخوف من الآخر، ومن أي تفكير مختلف يؤدي إلى انتفاضة أو ثورة تهدد السلطة القائمة، ممّا يدفع إلى محاصرة هذا الآخر والسيطرة عليه فكريا وماديا ومعنويا، عبر قمعه ليصبح أسيرا لهذه السلطة يشتغل آليا لخدمتها، ولا يجرؤ كيف ما كان الحال على عصيانها أو الخروج عنها وهذا هو الحال في المجتمعات العربية حيث " القمع هو الأساس، إذ يشمل المنطقة بأسرها، وتتبدى مظاهره في جميع مناحي الحياة، كمّا أن أساليبه تتطور يوما بعد آخر، خاصّة وأنّ الحكام الأقوياء غير مقتنعين بضرورة إسهام الجماهير في تحمل المسؤولية، ولذلك لا مشاركة، ولا تسامح مع الرأي الآخر، ورفض للتعددية، وعدم التساهل مع أي مختلف أو منافس، ولا قدرة على تصور إمكانية أن يحلّ الآخر في السلطة أو الاحتكام لرأي الأغلبية"².

هذا التوجه في التفكير ضد الآخر جعل أساليب القمع على اختلافاتها، من سجن وقهر للآخر والقتل بأبشع الصور والإنقاص من إمكانيات الآخر ماديا ومعنويا وغيرها من أشكال القمع، التي يمثل السجن أحد رموزه فهو " أوسع من الجدران الأربعة وبتعدّاه في حالات كثيرة، لأنّه بمقدار ما هو في الخارج فإنّه في الداخل، وبمقدار ما يبدو ظاهرا وواضحا فإنّه قابل للتمويه، نتيجة الخوف المستمر والمسيطر، ونتيجة العلاقات المختلفة التي هي امتداد للعلاقات والمؤسسات الفكرية والسلطوية القائمة"³.

¹ - عبد الرحمن منيف، بين الثقافة والسياسة، ص 162.

² - المرجع نفسه، ص 163.

³ - عبد الرحمن منيف، بين الثقافة والسياسة، ص 166.

أما العنف باعتباره صورة بدائية للقمع ومولدا له... ومن بين أهم الأسباب التي تؤدي إلى حدوث العنف نجد: "أن العنف ظاهرة مركبة متعددة التغيرات، ولا يمكن تغييرها بمتغير أو عامل واحد فقط فالمؤكد أن هناك مجموعة من العوامل تتفاعل بل تتداخل وتتربط، وتؤثر بعضها على بعض سلبا وإيجابا فيما بينها لتفجر أعمال العنف"¹.

ومن بين الأمور الفاعلة في المجتمع، والتي تفجر أعمالا للعنف هو شعور المواطنين بعدم الرضى اتجاه الجهات المسؤولة، حيث يراها لا تخدم مصالحه فيحتج ضد هذه الهيئات وينتفض و الذي "لا شك فيه أن إخفاق النظام في تأسيس ما يسمى "شرعية الإنجاز"^{*}، غالبا ما يؤدي إلى خلق ردود أفعال من قبل المواطنين، أو على الأقل من قبل القوى الفاعلة داخل المجتمع... كما أنه من خلال مفهوم العنف السياسي يمكن طرح قضية طبيعة الدولة في الوطن العربي، وخصوصياتها التاريخية وطبيعة القوى المسيطرة على جهاز الدولة وأنماط علاقتها بالمجتمع"².

يتعلق مفهوم العنف السياسي بصفة خاصة، بمفهوم الايديولوجيا المتحكمة في النظم السياسية على اختلافاتها، وفي التصورات المنبثقة عنها والمفعلة لها في آن واحد، حيث "غالبا ما يحكم هذه التصورات مواقف ايديولوجية وقيمية مسبقة (ماركسية، إسلامية، قومية) يدعي كل منها امتلاك الكلمة الأخيرة حول الموضوع، وهي ثانيا نظم

¹ -محمد نبيل الشيمي، العنف السياسي في العالم العربي...دواعيه وتداعياته، الحوار المتمدن، العدد3009، 2010/05/19، مقال الكتروني، الموقع: www.m.ahewar.org > s.asp.

^{*} شرعية الانجاز: وهي حيابة السلطة الشرعية بإنجازاتها الاقتصادية والاجتماعية والأمنية مما يحقق رفعة الوطن ورفاهية الشعب.

² - إبراهيم حسنين توفيق، ظاهرة العنف السياسي في النظم العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، ط1، 1992، ص06.

تابعة، أي تتحرك في إطار التبعية لقوى خارجية، وتتعدد صور التبعية الاقتصادية والغذائية والمالية والتقنية والعسكرية¹.

تجعل التبعية السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وبالأخص العسكرية والمالية أصحاب السلطة أو بالأحرى السياسيين يبدون بالنسبة للمواطنين مستبدين بالضرورة، "فهم يسترهبون الناس بالتعالي الشخصي والتسامح الحسي، ويذللونهم بالقهر والقوة وسلب الأموال، حتى يجعلوهم خاضعين لهما عاملين لأجلهم يتمتعون بهم كأنهم نوع من الأنعام، التي يشربون ألبانها ويأكلون لحومها ويركبون ظهورها وبها يتفاخرون"².

يلجأ هؤلاء السياسيين في الكثير من الأحيان إلى تلوين تصرفاتهم بصبغة دينية، تخول لهم أو بالأحرى تبرر لهم ما يقومون به من أفعال قهر واضطهاد وذل في حق المحكومين، وذلك عبر جعل الناس يطبقون أوامرهم وأحكامهم بإذعان منقطع النظر "بدون بحث أو جدال فيودون تأليف الأمة على تلقي أوامرهم بمثل ذلك، ولهذا القصد عينه كثيرا ما يحاولون بناء أوامرهم أو تفرعها على شيء من قواعد الدين"³.

بين لنا مما سبق أن الأسباب المؤدية إلى العنف كثيرة ومتنوعة، وهي مختلفة باختلاف الايديولوجيات المدعمة لها وكذلك باختلاف الدول وسياساتها المنتهجة (اقتصاديا، عسكريا، ثقافيا، دينيا... الخ)، ولا يخفى علينا أن العنف أنواع فهو ليس المطبق من قبل السياسيين ضد المواطنين، وإنما قد يكون هناك عنف أسري، عنف مدرسي، عنف مؤسساتي، عنف ديني، عنف ضد المرأة، عنف ضد الرجل، عنف ضد الأطفال، عنف واعي وممنهج، وعنف غير واعي وغير مبرر وغيرها من صور العنف

¹ - إبراهيم حسنين توفيق، ظاهرة العنف السياسي في النظم العربية، ص 10.

² - عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، كلمات عربية للنشر والترجمة، مصر، دط، دت، ص 22.

³ - المرجع نفسه، ص 23.

المختلفة، التي تهدد حياتنا ومجتمعاتنا في مجملها لأنها تقود إلى الحروب وغيرها من صور التشنّت والضياع.

تختلف وتتعدد الأسباب القائمة باختلاف صورها، ومضامينها باختلاف ممارسيها إلا أنه مما لا شك فيه أنها مولدة للعنف المنتج للقمع، أو هو صورة بدائية للقمع كما رأينا سابقاً، وأبرز الأسباب التي تشعل هذه الظاهرة هو القهر الاجتماعي الناجم عن التوزيع غير العادل للثروات، مما يدفع بممارسي السلطة ومن أجل الحفاظ على مصالحهم اللجوء إلى القمع السلطوي¹ والأخطر من ذلك أن المصالح الاقتصادية والاجتماعية لبعض القوى والشرائح الاجتماعية، التي تعبّر عنها بعض هذه النظم، ترتبط باستمرار علاقاته التبعية، وهي ثالثاً نظم تسلطية تقوم على أساس احتكار السلطة، فلا تسمح بتعددية سياسية حقيقية، ولا تقبل بوجود مؤسسات سياسية فعالة، أو بمعارضة سياسية نشطة، وتتفنن في أساليب ضرب قوى المعارضة وتجميدها¹.

تسهم هذه التصرفات المحتكرة للسلطة إلى نشوء ديكتاتوريات عتيقة سلطوية وقمعية تتصف بالشراسة، وقمع الحريات السياسية والفكرية المخالفة لها " فإن سقوطها عادة ما يتبعه ظهور الكثير من الفصائل والتيارات والمجموعات، التي تختلف أوزانها السياسية ما بين الضعف والقوة، وكلما طال عمر الديكتاتورية وضربت بجذورها في تاريخ الدولة، كثرت هذه المجموعات وزادت حدتها، وكان ظهورها ونشأتها أقرب بانفجار مجتمعي نتيجة تكس المطالب والمظالم والأحلام التي كانت تخنقها الديكتاتورية².

تجعل هذه الديكتاتوريات المستبدّة المجتمعات في حالة غليان، تسودها مظاهرات وانتفاضات تحلم بالتغيير وتطالب به، لكنها غالباً ما تواجه هذه الثورات حتى

¹ - إبراهيم حسنين توفيق، ظاهرة العنف السياسي في النظم العربية، ص 10.

² - أحمد عادل عبد الحكيم آخرون، سلسلة حرب اللاعنف، حرب الصدور العارية، ص 25.

في الدول المتطورة بممارسات قمعية مختلفة أبرزها الاعتقال والترهيب والسجن، وغير ذلك من صور القمع المختلفة حيث أنه "عندما تتسلم القيادة الجديدة السلطة عقب حرب أهلية، في هذه الحالة تدفع القيادة نحو مركزية الدولة ومؤسساتها، بل وشخصنة هذه المؤسسات في شخصية زعامية قوية لتضمن عدم اشتعال الحرب، أو عدم تجددتها مرة ثانية، وفرض هذه المركزية الشديدة عادة ما يكون بالإجراءات الاستثنائية أو التعسفية والقمعية، ومصادرة جانب كبير من الحريات، هذا إذا لم يتجاوز به إلى القتل والاختطاف والاعتقالات، بل وربما تصفيات مجموعات سياسية بأكملها"¹.

تدفعنا هذه الأساليب القمعية إلى القول بأن منشأ القمع الرئيس هو "الضغط الهائلة على السلطة الحاكمة، سواء كانت المطالبات منطلقاتها حقيقية وعقلانية أو مبالغاً فيها أو مصنوعة....عندما تزداد حدة وعمق المطالب، وتتضاعف قوة ضغطها بما لا تحتمله الطاولة السياسية والقيادة الحاكمة، تلجأ السلطة للقمع كسبيل وحيد لتخفيف الضغط"².

تتضح لنا مجموعة الأسباب المؤدية للعنف المؤلّد للقمع، على اختلاف صوره في المجتمعات العربية قاطبة، هي أسباب تتعدد وتتلاحم لبرمجة المجتمعات العربية أو بالأحرى الإنسان العربي على فعل العنف أو القمع بغير وعي منه، ذلك عبر النظم السياسية الفاعلة أو السلطات الحاكمة التي تسعى جاهدة للمحافظة على كيانه، بتمسكها الرهيب بكرسي السلطة، والتبعية للخارج وغيرها من الأمور التي تجعل الفرد العربي يتخبط في مأساة حقيقية، ويتجرع القهر والاضطهاد طمعا في التغيير، وفي مستقبل أفضل.

¹ - المرجع نفسه، ص 28.

² - نفسه، ص 28.

3.3/ الرواية العربية والقمع السلطوي:

أضحى فعل القمع السلطوي بشئى أشكاله فعلا بارزا في الرواية العربية المعاصرة، لكون الرواية النوع الأدبي الأجدر للتعامل مع المتغيرات التي تواجه الشعوب العربية، وهي في الوقت نفسه تعتبر مساحة فنية واسعة للحديث عن حثيثات الأمور والتفاصيل الدقيقة من وصف للزمان والمكان، ومختلف الوقائع، مما يجعل الرواية أي الأدب يرتبط ارتباطا وثيقا بالمجتمع، فتصبح الرواية بذلك لسان حال المجتمع المعاصر تعبر عن آلامه وظروفه وطموحه وآفاق تطلعاته، فهي المتنفس في الوقت الراهن حيث وأنه " بالرغم من المتغيرات التي شهدتها الخارطة العربية منذ ذلك الحين، حتى توشك أن تعطي الشخوص الروائية بعض الحق في مهزلة السياسة الدولية... فنلمح جزءا من فضاء الوجود العربي قد تم تثبيته على لوحة هذا الخطاب الروائي، حيث يصل الإيقاع الداخلي للسرد إلى أقصى احتدامه، بغض النظر عن حركة الزمن واحتكاكاتها وصرير تقلباتها، لا يملك المتلقي إزاء هذا الوهج اللافت المنصب عليه من النص سوى أن يتشرب قوة الصدق المنبثقة منه، ويدرك تجانس هذه الرسالة القومية مع جملة المؤشرات الفنية الكامنة خلف المستويات الأخرى للنص، مما يحقق لديه استجابة جمالية للوعي السياسي"¹.

هذه الاستجابة للوعي السياسي وللقضية السلطوية التي تخلفها شخوص الرواية وأحداثها المختلفة، جعلت الرواية تحمل في طياتها على مدى أزمنة طويلة نصوصا " تتناول إشكاليات القمع والحرية في صور روافد كثيرة أقربها إلى التصور، هو أدب السجون بتجليات قضاياها المختلفة، وأدب العلاقة بين السلطة ومعارضها بكافة

¹ -صلاح فضل، أساليب السرد في الرواية العربية، دار المدى للثقافة والنشر، ط1، 2003، ص31 و32.

جوانبه، وأدب المقاومة بشتى صوره، وأدب القمع والعنف في بنيته الأساسية المعروفة في تاريخ البشرية¹.

أصبح التطرق الشديد للقمع ومضامينه على اختلافها، الموضوع الرئيس لكتاب الرواية العربية، حيث أخذ هذا الموضوع حصة الأسد للروائيين العرب، وهما لازم هؤلاء الكتاب وشغل حيّزا مهما في الرواية العربية " لأي كاتب عربي من تلك التي تناولت مشكلة الحرية عبر تجليات القمع والقهر والاعتقال: في السجون، والمطاردة البوليسية، في الحصار الخانق والمنافي، في الأقبية المجهولة والصحاري البعيدة المنسية، في التشويه الجسدي والموت استشهادا، وفي الهجرة داخل الذات وخارج الوطن، في آلاف الأقنعة من الأسماء المستعارة، وفي العزلة الإجبارية عن الحرية وممارسة الحياة في حدودها الدنيا"².

تجسّد هذه الصور التعذيبية السلطة القمعية المؤسفة، لمن يبحث عن الحرية وهي الأبرز حضورا في الرواية العربية المعاصرة، نظرا لما عانته مختلف الدول العربية من ويلات الاستعمار والحروب والإرهاب و غيرها، من الظروف التي جعلت من تيمة القمع السلطوي ركيزة في الرواية تجعل منها قوة سياسية فاعلة للتعبير عن قضايا المجتمع، وقد صدرت العديد من الروايات العربية المعبرة عن الأزمة عبر تسخير شخوصها الواقعة تحت الأسر، أورهن الاعتقال أو التعذيب ووقائعها الأليمة للتعبير عنها تجسّيدا للواقع المتردي والمزري الذي تعيشه المجتمعات العربية، وطمعا في بثّ الوعي بالتضييق السياسي الذي يعيشه الفرد العربي، والطموح في التغيير وجعل الفرد العربي فردا مستقلا فكريا وماديا وحتّى جسديا، ينعم بحياة سياسية بعيدة كل البعد عن الاستبداد والقهر والقمع و الطغيان، وهذا ما نجده في الرواية العربية التي

¹ - شوقي بدر يوسف، مقال القمع والحرية في الرواية العربية إشكالية مذابح الأرمن نموذجا، دت، ص179.

² - محمد رضوان، "محنة الذات بين السلطة والقبلية"-دراسة لأشكال القمع وتجلياته في الرواية العربية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، دط، 2002، ص14.

" أدانت أساليب القهر السياسي من خلال تصويرها وإبرازها، لواقع القمع والاضطهاد والتعذيب السياسي الذي يسيطر على الحياة السياسية العربية، ويحدّ من حرية الإنسان العربي ويعتدي على حقوقه الإنسانية العامة والخاصة، ويمنعه عن تناول أمور مجتمعه ووطنه بحرية وديموقراطية..."¹.

ترفض الرواية السياسية أو بالأحرى كونها متضمنة لأمر سياسية، جلّ صور القهر السياسي والإرهاب المادي والمعنوي الذي يتعرض له كل مناهض للسلطة، عبر مساعيها الحثيثة لتحقيق مستقبل مشرق أساسه الحرية و"هذه التقنية الخاصة بتقديم العنصر السياسي في صيغته الأدبية، التي تضمن له البقاء والفعالية الجمالية، أما مضمونه المباشر فهو غير فنيّ بطبيعة الأمر"².

والرواية كما رأينا سابقا قوة تعبيرية سياسية فاعلة للتعبير عن روح المجتمع وأزماته، وقد احتلت الصدارة مقارنة بالأشكال الأدبية الأخرى سواء على المستوى العالمي أو العربي، وهي بعد ذلك أداة فنية لتمثّل الوعي، يمكن بواسطتها تصوير وضع المجتمع وتقديم الممكنات في قراءته من خلال أحداث لا تحاكي الواقع بقدر ما ترسم صورا عنه، تمثل بوعي أو من غير وعي وجهة نظر صاحب النص وآفاق تطلعاته، ممّا يجعلها "الوعاء الأنسب للمرحلة التاريخية، التي يمرّ بها العالم لذلك أصبحت" الشكل العالمي المعمّم للثقافة"³. فالرواية بخلاف الشعر من حيث البناء والتشكيل واللغة، فهي أوسع وأعمق لامتيازها باللغة المكرّسة للواقعية المصورة للأحداث بلغة عادية تتزاح عن التأنق اللفظي" الذي يفقدها موثوقيتها، وهي بهذه الطريقة - أي

¹ - أحمد محمّد عطية، الرواية السياسية، دراسة نقدية في الرواية السياسية العربية، مكتبة مدبولي، القاهرة، دط، دت، ص18.

² - صلاح فضل، أساليب السرد في الرواية العربية، ص36.

³ - علي منصوري، البطل السجين السياسي في الرواية العربية المعاصرة، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه دولة، إشراف: محمد العيد تاورته، جامعة الحاج لخضر باتنة، 2007-2008، ص03.

الرواية- إنّما تنتج ما يوهّم بأن هذه الحكاية -الرواية- موثقة عن تجارب الأفراد الفعلية، وخاصّة إذا تعلق الأمر بالقمع المسلّط على الإنسان، والذي يتجلّى في أبشع صوره ألا وهو السجن"¹.

ولقد تطورت عبر الزمن وتحولت (الرواية كملحمة برجوازية) لتصبح أداة تعبر عن المجتمع، ولسان حاله وهذا الانتقال الذي شهدته الرواية وكتّاب الرواية، مسّه انتقال حتى في المواضيع المطروقة بالموازاة مع التغييرات المجتمعية الحاصلة " التي طرأت على المجتمعات العربية خلال النصف الأخير من القرن العشرين، وما كان لها من ظلال ومعان في مضامين الرواية وأشكالها بل وفي جميع الأجناس الأدبية"².

وهكذا نجد أن الرواية العربية عايشَت تطورات وعصورا عديدة اختلفت حولها الرؤى والتأويلات...، فالرواية المعاصرة أهمّ وسائل العصر التي "تشير إلى مواضع الألم والخلل، ولا تخاف القضايا الساخنة أو الحرجة، وإنّما تلج أعماقها وإن يكن أغلب الأحيان بطريقة غير مباشرة"³.

فالرواية هي الجنس الأدبي الملائم أكثر من غيره ملامسة للمواضيع الراهنة، وتصويرا لها فتصبح " كالمرآة التي يرى فيها الشعب نفسه بوضوح وتتبدى له همومه عارية صارخة... وحين يكتشف كم أن حكامه فاسدون، وكم هم خائرون وأنانيون وكم هم قساة أيضا، لابدّ أن تتحرك إنسانيته ومشاعره ويصبح في النتيجة أكثر وعيا فأكثر إحساسا"⁴.

¹ - علي منصور، البطل السجين السياسي في الرواية العربية المعاصرة، ص 05.

² - محمد رضوان، "محنة الذات بين السلطة والقبلية"، ص 9.

³ - عبد الرحمن أبو عوف، القمع في الخطاب الروائي العربي، مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان، القاهرة، دط، 1999، ص ب- من المقدمة.

⁴ - المرجع نفسه، ص ب- من المقدمة.

تشكّل إذن الملجأ الوحيد للتعبير عن الأمور السياسية والسلطوية القائمة، التي لا يستطيع المثقفون والنقاد والمبدعون التعبير عنها مباشرة في كتابات سياسية صريحة، وذلك جراء القمع السلطوي القائم في الوضع الراهن حيث ينعدم ذلك إن لم نقل يستحيل.

ومن بين الهموم التي شغلت الأمة العربية هي أزمة الحرية ومحاربة الاستعمار بنوعيه التقليدي والفكري، إلى جانب القضية الفلسطينية، حيث رسّخت النماذج الروائية الجديدة الواقعية بحذافيرها عن طريق فضح براثن القمع والظلم " ثمّ لتتحول الرواية بعد حزيران /68/ إلى مرايا مخيفة وحافزة في الآن نفسه، مخيفة لمن يتوهمون أن الواقع ثابت أو خاضع لحركة دائرية، وحافزة لمن يؤمنون بالتحول بالفعل المبدع، الخلاق، في عملية التغيير وبهذا المعنى تظل الرواية العربية والفنون الأخرى بشكل عام، مجال تحرّر للمخيّلة الفردية والجماعية رغم الحصار النسبي عليها - ترصد التاريخ الماضي والراهن، وترسم من الداخل التاريخ الفردي والجماعي لقوى العربية الرافضة للاحباطات والهزائم، رغم صنوف القمع والاضطهاد والتغيب تلك القوى الخفية الكامنة في رحم التربة الوطنية والقومية"¹.

وهو ما استقرّ في أذهاننا من ملاحظاتنا حول مجموع الروايات العربية التي تناولت هذه التيمة، وفي الدراسات التي أقيمت حول هذه الروايات* حيث يقول "عبد الرحمن أبو عوف" أن من يقرأ على سبيل المثال لا الحصر " يجد مشاهد سوداء مرعبة وقائمة من القمع والقهر، تتجلى في الطاردة والاعتقال والتعذيب الجسدي والنفسي، في عتامة أقبية السجون والمعتقلات، أنّها روايات تتعرض لظاهرة القمع وتقوم بكشفها وتعرية جذورها الدفينة، وتعقد تركيبها من عوامل داخلية في تنمية المجتمع العربي

¹ - محمد رضوان، "محنة الذات بين السلطة والقبلية"، ص12.

* روايات عبد الرحمن منيف وحيدر حيدر وغالب هلسا وغسان كنفاني وصنع الله إبراهيم وجمل الغيطاني وفوزية رشيد وسلوى بكر وسحر خليفة وحنّا مينة والطاهر وطار ومحمد زقزاق... وغيرهم كثر.

وعوامل خارجية يوجهها، ويحكمها الاستعمال العالمي بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية، كما أنها تحدد مضاعفاتها على كينونة المجتمع العربي واقتصاده وسياساته وثقافته وشخصيته الحضارية¹.

لمسنا في هذه الومضة مجموع الأسباب التي جعلت الروائيين على اختلاف انتماءاتهم، يبدعون في تصوير القمع السلطوي، الذي يتجسد وبصورة جلية وواضحة في الرواية السياسية كما سنوضح الآن.

4/ في علاقة الرواية بالسياسة.

1/ في نشأة الرواية:

تناول الكثير من النقاد الانتقال الأجناسي من الملحمة إلى الرواية بالدراسة والتمحيص، وهو انتقال فرضته البنى الفوقية للمجتمع الذي تمتعت فيه الملحمة كونها فن من فنون الأدب الراقية، في مرحلة من المراحل (على الأغلب الإقطاعية) أهمية قصوى كونها متنفس المجتمع آنذاك، والمساهم الأول في تكريس القيم و تقديسها، إلا أنه ومع حدوث انقلاب في النظام والتحول من (الإقطاعية إلى البرجوازية الرأسمالية) اندثرت معالم هذا الفن (الملحمة) لاندثار النظام الداعم له، ليظهر فن جديد يواكب التطور الحاصل في النظام، وليساهم بدوره في المحافظة على الاستقرار، والخضوع بالنسبة للبنى التحتية وتصبح فيما بعد "الرواية كملحمة برجوازية".

وحول علاقة الرواية بالشكل التاريخي يقول "لوكاتش" Lukács "أن الرواية هي الجنس النمطي للمجتمع البرجوازي بامتياز، وأقام علاقة لا يعوزها القسر بين ظاهرة أدبية ووظيفة اجتماعية"².

¹ - عبد الرحمن أبو عوف، القمع في الخطاب الروائي العربي، ص-ب- المقدمة.

² - فيصل دراج، دلالات العلاقة الروائية، دار كنعان، دمشق، ط1، 1992، ص05.

فالرواية فن نشأ في أوروبا ظهرت ملامحه بداية القرن الثاني عشر، واكتملت في القرن الثامن عشر، حتى بلغت الرواية أوج ازدهارها في القرن التاسع عشر، الذي قدّم أعظم الأعمال الروائية العالمية، وجاء القرن العشرين ليثري المعمار الروائي بأشكال وأساليب جديدة، زادت من تعمقها في الضمير الإنساني وتوثيقها للمجتمع وتبشيرها المؤثر في المستقبل الإنساني¹.

فأصبحت الرواية النوع الأدبي الأبرز والأمثل دلالة في المجتمع البرجوازي ففيها "نرى أن التناقضات* التي يتميز بها المجتمع البرجوازي توجد بصورة بطريقة أكثر ملاءمة وإفصاحاً"².

تصبح بهذا الرواية ملحمة بورجوازية تسير التطور المتناقض الحاصل في المجتمع الرأسمالي (مجتمع الطبقات) كونها تتيح مساحة بوح كافية للتعبير عن المجتمع هذا بالنسبة للغرب أو بالأحرى المجتمع البرجوازي.

إذن "تعكس الملحمة الاتساق والتناغم وتعكس الرواية القلق والتوتر واللا استقرار، فمسار الرواية بهذا المعنى يظل محددًا بوضع الإنسان وعلاقته مع عالمه، عالم يستظهر مستقيماً في زمن الملحمة ثم ينكسر ويغيب ليصحو من جديد في شكل

¹ - أحمد محمد عطية، الرواية السياسية، دراسة نقدية في الرواية السياسية العربية، المقدمة، ص 8.

* إن اتخاذ موقف نظري مضبوط اتجاه شكل الرواية يفترض اتخاذ موقف نظري صحيح تجاه التطور المتناقض في المجتمع الرأسمالي، لقد كانت الفلسفة الكلاسيكية الألمانية عاجزة عن تأهيل نفسها لاتخاذ مثل هذا الموقف، ذلك لأن آفاقها لم تكن تتطوي على الكشف عن التناقض الرئيسي في المجتمع الرأسمالي، والتناقض بين الإنتاج الاجتماعي وعملية الامتلاك الخاص بل إن فلسفة هيغل Hegel نفسها لم تستطع - في أحسن الأحوال - سوى الاكتفاء بصياغة بعض النتائج الهامة لهذا التناقض الرئيسي... ولم يتوصل هيغل، حتى داخل هذه الحدود نفسها إلى نوع من الحدس بالتناقض المتأصل في تطور التنمية الرأسمالية، أي الحدس بأن هذا الطابع المتطور الذي يثور الإنتاج والمجتمع، ولا ينفصل أبداً عن الوضعية المسفة التي يتسبب فيها، والتي يؤول إليها الإنسان بالضرورة.

² - جورج لوكاتش، نظرية الرواية وتطورها، ترجمة: نزيه الشوفي، دط، 1978، ص 15.

ملحني جديد، يؤسس له العالم الاشتراكي وبهذا تكون الرواية حديثة النشأة وتتهض على الفردية¹.

أما الرواية بالنسبة لـ "باختين" فـ "ليست سلبية الملحمة بل على العكس هي سلبية الجنس الأدبي الذي لم تكن الطبقة الحاكمة تهتم به، والذي أخرجه أرسطو من فنّ الشعر، وهو الأدب المضحك والساخر"².

يخالف "باختين" بهذا المنظرين الذين سبقوه (هيجل Hegel، لوكاتش Lukács) ولا يربط وجود الرواية بوجود الطبقة البرجوازية المعتمدة على إبراز الفردية، وقيمها فالرواية عنده هي الجنس الوحيد الذي هو في تطوّر مستمر ولا يزال غير مكتمل حيث يعكس "بعمق وجوهريّة وحسّاسية أكثر وبسرعة أكبر، تطور الواقع نفسه. فوحده الذي يتطور يستطيع أن يفهم تطورا ما"³.

¹ -سامية داودي، مقال ميخائيل باختين: الرواية مشروع غير منجز، مجلة الخطاب، جامعة تيزي وزو، العدد 13، ص 77 و 78.

* يعكس الصنف الأدبي، بحكم طبيعته نفسها، الميل الأكثر رسوخا وخلودا في تطور الأدب، ففي الصنف الأدبي تجري دائما المحافظة على العناصر غير القابلة للقاء في الكلمات والمصطلحات القديمة الحقيقية، إن هذه الكلمات والمصطلحات العتيقة تمّ المحافظة عليها في هذا الصنف وذلك فقط بفضل تجدها، المستمر، ومجاراتها لروح العصر، إذا جاز التعبير، الصنف الأدبي يبدو دائما متشابها ومختلفا، يبدو دائما قديما وجديدا في الوقت نفسه، إن الصنف الأدبي يولد من جديد ويتجدد في كل مرحلة من مراحل تطور الأدب وفي كل عمل أدبي فردي من هذا الصنف. هنا بالذات تكمن حياة الصنف الأدبي. ولهذا السبب فحتى المصطلحات القديمة والكلمات العتيقة التي تجري المحافظة عليها في الصنف الأدبي، ليست ميتة، بل حية أبدا، بمعنى أنّها عناصر عتيقة قابلة للتجدد. الصنف يحيا بالحاضر، إلا أنّه يتذكر دائما ماضيه، يتذكر بدايته. الصنف هو ممثل الذاكرة الإبداعية في عملية التطور الأدبي، وهذا السبب بالذات فإن الصنف الأدبي قادر على تأمين وحدة واستمرارية هذا التطور.

وهذه الأصناف استطاعت أن تكون فيما بينها قطاعا خاصا أطلق عليه القدماء أنفسهم اسم قطاع "ما هو مضحك بجد" وينضوي تحت لوائه، المشاهد الساخرة، حوارات سقراط، أدب المآذب، وأدب المذكرات البكر... وغيرها ونظرا لدقة خصوصيته المبدئية وضعه القدماء في الطرف المقابل للأصناف الجادة، مثل: الملحمة، والمأساة، والتاريخ والبيان الكلاسيكي... وغيرها. أنظر، ميخائيل باختين، شعرية دوستوفسكي، ص 154 و 155.

² -حياة مختار أم السعد، تداولية الخطاب الروائي، ص 135 و 136.

³ -ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، ص 15 و 16.

أما بالنسبة للعرب فهي غير مرتبطة بمرحلة انتقالية مسّت النظام، بمعنى أن ظروف نشأتها مختلفة عن تلك التي شهدناها بالنسبة للرواية في الغرب... ظهرت الرواية العربية في بدايتها مقلّدة أو نسجت على منوال الرواية الغربية حيث أن كتابها "عندما شرعوا في كتابة رواية عربية حديثة، واتّجهوا صوب الغرب لينقلوا عنه رواياته ويقلّدوها ويبدعوا على منوالها... غير أن الرواية لم تلبث أن تقدمت على أيدي الأجيال التالية من الروائيين العرب، صوت تعريب موضوعها، فتخلصت من تأثير المضامين الغربية والقيم الغربية، مع ظهور تحديات المقاومة الوطنية وحركات الاستقلال في مواجهة الغزو الاستعماري لبلادنا"¹.

فنشأة الرواية العربية حتّى وإن كانت في بدايتها محاكية للرواية الغربية، إلّا أنّ كتابها سرعان ما تخلصوا من هذه القيود الغربية عبر تعريب موضوعها، ولارتباطها بالأخص عندنا بفترات الاستعمار التي شهدتها البلاد العربية على اختلاف أقطارها، فحاولت الرواية العربية مواكبة تلك المرحلة والمقاومة بسلاح القلم طمعا في تغيير الواقع وإصلاحه حيث "استطاعت (الرواية) العربية في أقل من قرن أن تحدث صدى واسعا في المنظومة المعاصرة. ورغم حداثة النشأة وصعوبة المراحل الأولى، وعدم انتظام المسيرة. فإنّها استطاعت -في النهاية- أن تثبت وجودها الأدبي، حتّى في أشدّ المجتمعات العربية المحافظة"².

بالرغم من اختلاف المراحل الأولى لنشأة الرواية العربية (بالنسبة للرواية الغربية) وصعوبتها، إلّا أنّها تمكنت من تحقيق وجودها الأدبي حيث أن الرواية العربية "لم تلبث أن تقدمت على أيدي الأجيال التالية من الروائيين العرب، فتخلصت من

¹ - أحمد محمد عطية، الرواية السياسية، المقدمة ص8.

² - طه وادي، أدبيات الرواية السياسية، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، دط، دت، المقدمة ص01.

تأثير المضامين الغربية والقيم الغربية مع ظهور تحديات المقاومة الوطنية، وحركات الاستقلال في مواجهة الغزو الاستعماري لبلادنا¹.

أضحت الرواية العربية المعاصرة بهذا وثيقة تاريخية للأجيال القادمة، تساهم في تصوير الأحداث والقضايا التي تمس المجتمع على اختلافاتها، مما أدى إلى حدوث انتقال جذري بالنسبة للموضوعات المطروقة في الرواية، فبعد أن كانت الرواية تعنى بمواضيع الإنسان البرجوازي المرفه سابقا، أصبحت في مراحل لاحقة تصوّر مختلف مظاهر الاضطهاد والأزمات ومن أبرزها " الأزمة السياسية والتي هي مسؤولة عن كل ما عداها من الأزمات الأخرى، وكانت جلّ الأزمات السياسية- إن لم تكن كلّها في مرحلة بداية الواقعية معقّدة في عنق الاستعمار الأجنبي، الذي كان يحتل معظم أقطار الوطن العربي"².

تصبح الرواية بهذا على ارتباط وثيق مع السياسة، ولتعبيرها عن الأفكار والقضايا السياسية المتعلقة بالاستعمار سابقا وبالثورات العارمة وطغيان الحكام في وقتنا الراهن، لذلك وقبل الحديث عن العلاقة التي تجمع الرواية العربية المعاصرة بالسياسة باعتبارها من " أكثر الأنواع (التزاما) بعكس مشكلات الواقع العربي وتصوير أزماته، خاصة القضايا السياسية، بيد أننا ينبغي أن نشير إلى أن ثمة (تغيّرا جوهريا) في مفهوم السياسة، وبالتالي في طريقة تناولها إبداعيا في الرواية وغيرها"³.

لذلك نظرنا أنه لا بدّ من تقديم مفهوم للسياسة حيث تعدّ الرواية العربية المعاصرة فناً يتماشى ومعطيات عصرنا، لأنّه إن مسّ مفهوم الرواية تغيّرا عبر العصور، فإنّ للسياسة أيضا مفهوم يختلف من مرحلة سابقة إلى أخرى لاحقة.

¹ - أحمد محمّد عطية، الرواية السياسية، المقدمة ص 08.

² - طه وادي، الرواية السياسية، أدبيات الرواية السياسية، ص 47.

³ - المرجع نفسه، ص 109.

2/ في مفهوم السياسة: تعددت مفاهيم السياسة لاعتبارات مختلفة فهي " تكوين حيز من خبرة خاصة يتمّ فيها تعيين بعض الأهداف المشتركة وينظر فيه إلى بعض الأشخاص على أنهم قادرون على تحديد هذه الأهداف وسوق إنتاجها"¹.

أما مفهوم السياسة باعتبار مفهوم العلاقات الاجتماعية فهو "يقرأ، ويكتب في حقله الموضوعي، حقل الصراع الاجتماعي، في هذا التحديد يصبح مفهوم السلطة، هو المفهوم الذي يشير إلى "قوة اجتماعية" تسعى إلى تحقيق مصالحها، تتلازم القوة والمصلحة وفي هذا التلازم تعمل القوة الاجتماعية على فرض مصلحتها الاقتصادية، أو السياسية، أو الإيديولوجية، وفرض المصلحة يتضمن دائما نفي مصلحة أخرى، لقوة اجتماعية نقيضة، وفي هذا التحديد يصبح المستوى السياسي هو الدولة"².

فالسياسة بالنسبة لهذين المفهومين، تظهر في الأول متعلقة بهيئات تتمكن من تحديد مجموعة الأهداف، هذه الأخيرة تظهر في المفهوم الثاني مفضية إلى مفهوم السلطة والقوة الاجتماعية التي تسعى إلى تحقيقها (تحقيق هذه الأهداف)، ممّا يجعل هذا المفهوم السياسة مفضيا إلى مفهوم أعمّ وأشمل هو الدولة، كونها الجهاز الذي يمكن فيه ممارسة الاثنين السلطة والسياسة في آن واحد... فإذا كان مفهوم السياسة يفضي إلى مفهوم السلطة، فهذا يفضي إلى الحديث أيضا "عن سلطة الكتابة وهكذا تستغل الكتابة في مراجعتها الداخلية حتّى تصبح فضاء مغلقا له نظريته ومعاييره، وله سياسته وسلطته أيضا"³.

¹-جاك رانسبير، سياسة الأدب، ترجمة : سهيل أبو فخر، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، ط1، 2011، ص8.

²-فيصل دراج، الواقع والمثال-مساهمة في علاقات الأدب والسياسة، -دار الفكر الجديد، لبنان، ط1، 1989، ص302.

³- المرجع نفسه، ص294.

تصبح للكتابة وفق هذه الرؤية سلطة وسياسة توجهها وتعمل على تطويعها، وفقا لما يخدم مصالح الاثنين عبر القوة في الأولى (السلطة)، وعبر الشخصيات التي تحقق الأهداف والمسطرة من قبل الدولة في الثانية (السياسة)، وبهذا تتّصل الكتابة من مستواها الاجتماعي لتضطلع بمستوى وحيد كما ذكرنا سابقا هو المستوى السلطوي والسياسي الذي يوجهها، ف"لا سلطة كتابية بدون سلطة سياسية تمنحها الجذور"¹.

إلا أنّ هذه الكتابة السلطوية توهمنا أحيانا أن سلطتها مستمدة من لغتها أو كيائها المكتوب، إلا أنّها حقيقة مستمدة من مفهوم السلطة الذي يحيل لا محالة على القوة والسيطرة كما سبق وأشرنا، فمفهوم السلطة "من المفاهيم التي يصعب تحديدها في الخطاب على وجه الدقة، لأن مفهوم السلطة أو السيطرة مفهوم مجازي عندما يستعمل في التفاعل والخطاب"².

فالسلطة السياسية تسعى عبر السلطة الكتابية إلى المحافظة على مجموعة من علاقات الهيمنة في المجتمع، التي تحقق بالنسبة لها السيطرة والخضوع من أجل تحقيق الاستقرار والأمن المزعومين، وعبر ترسيخ وتكريس مجموعة من القيم والمبادئ التي أضحت تحكم جميع المجتمعات على اختلافاتها أبرزها: تقديس الحكام سياسيا، والمحافظة على الفروقات الاجتماعية المختلفة (الفقر والغنى... وغيرها ماديًا والجهل والامية معنويًا)، ولهذا ترسم كل سلطة صاحبة سياستها الثقافية الموائمة، ومناهج التعليم وتخوم حرية التعبير، وحدود المؤسسات الثقافية، كما تقوم السلطة... بإصلاح اللغة أو إجهاض كلماتها أو قسر معانيها، أو تزييف دلالة الكلمات، ثم تكمل تزوير اللغة بفرض أشكال معينة من الكتابة والبحث والنقد"³.

¹ - فيصل دراج، الواقع والمثال - مساهمة في علاقات الأدب والسياسة، ص 296.

² - عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب - مقارنة لغوية تداولية -، ص 221.

³ - فيصل دراج، الواقع والمثال - مساهمة في علاقات الأدب والسياسة، ص 305 و 306.

تؤكد هذه القيود والحدود أن السلطة السياسية لا تتحقق إلا بوجود سلطة ثقافية تدعمها، والحديث عن الثقافة هنا يفضي إلى الحديث عن مجموعة من الأمور أبرزها الأدب حيث أن " الأدب لا يخلق سياسة لكن السياسة قادرة على خلق الأدب والأديب وسوق القراءة"¹.

فالسياسة بهذا تظهر مسيطرة على حياة البشر، وموجهة لمختلف قضاياهم المصيرية وحتى الثقافية منه، فهي "تتحكم في كل شيء في حياة الإنسان المعاصر، وقد ترتب على هذا أن معظم الروايات أصبحت تحمل دلالات سياسية، حتى لو لم تشر إلى السياسة من قريب أو من بعيد"²، فالرواية بهذا تصبح " طاقة سياسة واجتماعية هامة تعبر عن روح الأمة ومشكلاتها وطموحاتها"³.

هذه العلاقة الوثيقة التي تجمع بين الرواية والسياسة تجعلها طاقة هامة للتعبير عن الأزمات الراهنة، التي تعاني منها مختلف الشعوب العربية، وفيما يلي حديث عن هذه العلاقة.

4. 1/ أهمّ قضايا الرواية السياسية:

تكتسب الرواية أهمية قصوى كونها الوسيلة الأنفع والأجدر للتعبير عن الهموم التي تثقل كاهل المجتمع وتؤرقه، ما يجعل القلم وسيلة تسهم في تغيير حال المجتمعات إن أمكن، وهذا الذي أكسبها "دورا هاما في التغيير الاجتماعي من خلال نقدها لهذا الواقع، وكشفها لبذور التحول السياسي والاجتماعي، وبالتالي يشكل مفهوم العلاقة بين الرواية والسياسة مدخلا منطقيا لقراءة السياسة في الرواية، والرواية في السياسة"⁴.

¹ - جورج لوكاتش، نظرية الرواية وتطورها، ص16.

² - طه وادي، أدبيات الرواية السياسية، ص110.

³ - أحمد محمد عطية، الرواية السياسية، ص8.

⁴ - علي منصور، البطل السجين السياسي في الرواية العربية المعاصرة، ص54.

وهذا النوع من أنواع الرواية هو النوع الأبرز في وقتنا الراهن لكشفه عن حقائق سياسية ومعطيات اجتماعية وغيرها من الطابوهات التي حرم الحديث فيها، فهي عند الغرب كما يلي:

4. 1. 1/الرواية السياسية في الغرب: تعلقت بواذر ظهور الرواية السياسية عند الغرب بالايديولوجيا، وبالصراع الحاد بين النظامين الرأسمالي والواقعي الاشتراكي، ويعرفها السوسيولوجي لوسيان غولدمان Lucien Goldman * على أنها "تاريخ بحث منحط عن قيم أصيلة من قبل بطل إشكالي في عالم منحط"¹.

فنحن هنا إزاء بنية معقدة على رأي " لوسيان غولدمان"، متعلقة بانحطاط العالم الذي يحتوي شخصية البطل بالأساس، وعبر مجموعة من الأمور أبرزها: التخلص من القيم الأصلية وإخفائها بوصفها واقعا جليًا، بمعنى أن البحث عن القيم والمبادئ الأصلية في مجتمع يشهد انحطاطا متجذرا في مختلف الصراعات التي تشهدها الأنظمة الحاكمة، يودي بالشخصية البطلة إلى مصير يبدو مجهول المعالم.

فالروائيون الأوروبيون على دراية واسعة بالعلاقة التي تجمع بين الرواية والسياسة حيث أن " كلّ فعل وكل فكر، وكلّ عاطفة من عواطف الإنسان، ترتبط ارتباطا لا ينفصم بالحياة وبصراعات المجتمع، أي ترتبط بالسياسة، وسواء أكان البشر واعين بذلك، أم غير واعين به، أم يحاولون الهرب منه، فإن أفعالهم وأفكارهم وعواطفهم تتبع على الرغم من ذلك موضوعيا من السياسة وتصب فيها"².

تظهر الرواية الأوروبية بهذا متعلقة بالسياسة ولصيقة بها، حيث أن كل ما يختلج الإنسان الأوروبي من أفكار وعواطف، ليس بمعزل عن الصراعات الإيديولوجية التي

* لوسيان قولدمان Lucien Goldman فيلسوف فرنسي وعالم اجتماعي من مؤلفاته: الإله الخفي.

¹ -لوسيان قولدمان، مقدمات في سوسيولوجيا الرواية، ترجمة: بدر الدين عرودي، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط1، 1993، ص16.

² - أحمد محمد عطية، الرواية السياسية، ص11.

يشهدها المجتمع، وهو بهذا على ارتباط وثيق بالسياسة، أما بالنسبة للعرب فنجدها كالآتي:

4. 1. 2/ الرواية السياسية عند العرب:

1/ النشأة والتطور:

اضطلعت الرواية السياسية* عند العرب بالدور نفسه الذي لعبته الرواية السياسية عند الغرب "بتعبيرها وتأثيرها في حياتنا الفكرية والسياسية والاجتماعية، وليس ببعيد ما هو عن تأثير رواية توفيق الحكيم الشهيرة "عودة الروح" في ثورة 23 يوليو 1952 وما أسهمت به في تكوين فكر ووجدان قائدها جمال عبد الناصر لما عاناه وطننا العربي في مجمله من افتقار الحريات السياسية والعلمية والشخصية على درجات متفاوتة"¹. فالرواية السياسية أو باللغة الانجليزية "Political novel" وهي الرواية التي تلعب القضايا والموضوعات السياسية فيها الدور الغالب بشكل صريح أو رمزي.

* نحيل القارئ الى أطروحة دكتوراه موسومة بـ" الخطاب السياسي في رواية المحنة العربية المعاصرة" من إنجاز الطالبة: أسماء العايب التي عنيت بإزالة اللبس عن العلاقة التي تجمع بين عوالم الرواية العربية المعاصرة في علاقتها بالخطاب السياسي المعاصر وما يعترضها من غموض وتعقيد، ولم تتقيد بتوجه واحد في التحليل واستعانت بمقولات تحليل الخطاب (البنوية، السيميائية... الخ) والمنهج التاريخي لرصد تطورات الخطاب السياسي في الرواية العربية، كما استعانت بمقولات الحوارية في الفصلين التطبيقيين من أجل رصد الأصوات الايديولوجية أنظر: أسماء العايب، الخطاب السياسي في رواية المحنة العربية المعاصرة -دراسة في نماذج مختارة-، اشراف حياة أم السعد، أطروحة دكتوراه، تخصص: قضايا الأدب، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر 2، أبو القاسم سعد الله، السنة: 2020-2019.

ساهمت هذه الأطروحة في إضاءة جوانب كثيرة من بحثنا عبر النقاطات والتداخلات بين الدراستين خاصة في تتبع ورصد تطورات الرواية السياسية العربية المعاصرة وبعض مقولات باختين في التحليل الروائي، إلا أنها تختلف معها في تقصينا لتيمة القمع السلطوي عبر الدمج بين معطيات التحليل التداولي وآليات التحليل النقدي للخطاب التي تلج الى ضرورة تتبع استعمال السلطة داخل الخطاب عبر قوة اللغة وطاقاتها الكامنة المفضية الى السيطرة أو الهيمنة.

¹ - أحمد محمد عطية، الرواية السياسية ، ص11 و12.

وكاتب الرواية السياسية ليس منتما -بالضرورة- إلى حزب من الأحزاب السياسية. لكنّه (صاحب الايدولوجيا)، يريد أن يقنع بها قارئه بشكل صريح أو ضمّني¹. أضحت الرواية إذن لصيقة بالسياسة من خلال أطروحات وأفكار سياسية مبنوثة في الرواية العربية المعاصرة على اختلاف كتابها، وذلك محاولة من كتاب هذا الجنس تقديم الممكنات في قراءة المجتمع، عبر مجموع الأحداث المستمدة من الواقع، والتي تسعى الرواية عبرها إلى البحث عن قيم بديلة عبر مساءلتها والغوص في أعماقها.

لذلك أصبحت الرواية "تجعل من الموقف السياسي أو من الأفكار السياسية المطروقة إحدى اهتماماتها الأصلية أو البارزة، بل إن الأمر كذلك بالنسبة للقارئ المعاصر الذي أصبحت الرواية -تستجيب له، أو تناقش معه قضية سياسية أو حدثا سياسيا، لذا فقد أصبحت "الرواية السياسية" إحدى سمات الفن والإنسان المعاصرين، وعلى هذا فإنّ الرؤية السياسية تبدت بشكل مباشر أو رمزي أو ضمّني أم من قريب أو بعيد- قد أصبحت أمرا لا محيص منه اليوم"².

تعدّ السياسة بهذا محورا هاما من محاور الفنون الأدبية العربية بصفة عامة، والفن الروائي بصفة خاصة، حيث أن معظم الروائيين العرب قد عاشوا الكثير من الأحداث السياسية على اختلاف مستوياتها العالمية والوطنية والقومية (الحروب، الاستعمار، الأزمات، الثورات العارمة أو ما يعرف بالربيع العربي... وغيرها، من القضايا التي استقوا منها رواياتهم، وسخروا أقلامهم لتشخيصها ومحاكاتها عبر التجارب التي عايشوها، ومثّلوا أصواتا فاعلة فيها.

¹ - طه وادي، أدبيات الرواية السياسية، ص06.

² - علي منصور، البطل السجين السياسي في الرواية العربية المعاصرة، ص54.

وجب على الرواية السياسية بهذا "أن تشتمل على رؤية سياسية واعية، تفتح البصر والبصيرة من أجل نفي الظلم والاستبداد، وهنا تصبح الرواية شاهداً على العصر، ومعبرة عن رأي كاتبها المتقدم إزاء ما يحدث في واقعه من مساوئ أو مظالم"¹.

يحيلنا هذا القول على عبارة "الإنسان ابن بيئته" أو بالأحرى الشاعر ابن بيئته، فالكاتب أو الشاعر أو الروائي أو القاص ليس ببعيد عن البيئة التي يكتب عنها، فهو ينتمي إليها لا محالة، وهي تعبّر عن رؤية سياسية ترمي إلى الكشف عن آرائه المبنوثة في كتاباته حول مختلف القضايا، التي تشغله وتشغل مجتمعه في آن واحد، سواء صرح بذلك علناً أو عبر الترميز واستخدام الرموز والإشارات والتضمينات، وبهذا تصبح السياسة العنصر الفعّال، أو بالأحرى المتحكم في زمام الرواية العربية المعاصرة ومواضيعها المطروقة، لذلك نجدها تتكلم في كثير من المواضع " - وبجراحة - عن الطغاة الذين باعوا أوطانهم، وشعوبهم، وتفضح الجلادين والقتلة والسامسة...ولابد أن نقرأ الأجيال القادمة التاريخ الذي نعيشه اليوم وغدا، ليس من كتب التاريخ المصقولة وإنما من روايات هذا الجيل والأجيال القادمة"².

تعري الرواية المعاصرة على اختلاف كتابها الحقائق المغلوطة، وتكشف وقائع الاستبداد الذي تعيشه معظم الشعوب في العالم خاصة العربية منها، تحت وطأة مجموعة من الحكام أو الطغاة الذين تبوؤوا مناصب وتقلدوا أوسمة سلطوية وقمعية، استغلوها لخدمة مصالحهم الشخصية وذويهم، وغيرها من صور الاضطهاد والظلم. فارتباط الرواية بالسياسة "أعطاه دوراً هاماً في التغيير الاجتماعي من خلال نقدها للواقع، وكشفها لبذور التحول السياسي والاجتماعي"³.

¹ - طه وادي، أدبيات الرواية السياسية، ص 60 و 61.

² - المرجع نفسه، ص 114.

³ - علي منصور، البطل السجين السياسي في الرواية العربية المعاصرة، ص 54.

فالرؤية السياسية التي يطرحها الروائي، تساهم في اطلاع القارئ على ما يجول من موضوعات وتشنجات سياسية في الواقع، في محاولة لإيجاد حلول وبدائل عن مختلف القضايا، التي تشغل المجتمع بنقدها للواقع الاجتماعي والسياسي على حد سواء، وبتصويرها لمختلف القضايا والأزمات التي تشغل الإنسان العربي عند معالجتها لعدد من "القضايا السياسية مثل العدالة الاجتماعية وحرب أكتوبر والحرب اللبنانية، غير أن أهم القضايا التي شغلت أمتنا العربية ولم تزل تشغلها هي أزمة الحرية في وطننا العربي"¹. إلى جانب أزمة تحقيق التغيير المنشود الذي بات عصياً على التحقيق في العالمين الواقعي والروائي.

4. 2/ الرواية العربية وأزمة الحرية:

إن بعض الروايات العربية المعاصرة على اختلاف أقطارها، أدانت وبلغت شديدة اللهجة مختلف أساليب القهر السياسي وصور القمع والاضطهاد، الذي بات في عصرنا أمراً لا مفر منه، حيث أصبحت هذه السيطرة والتعدي على حقوق الإنسان العربي العامة والخاصة منبعاً استقى منه الروائيون على اختلاف مشاربهم أطروحاتهم المضمّنة في كتاباتهم، حيث ندّدوا بهذه التصرفات عبر شعارات مختلفة نادت أغلبها بضرورة تحقيق الحرية والعدل و المساواة، لذلك نجد الرواية العربية السياسة والمعاصرة "ترفض القهر السياسي والإرهاب الفكري والتعذيب المادي والمعنوي، وتتطلق من هذا الرفض الفني المصوّر لأزمة الحرية، إلى المناداة بالحرية والتطلع إلى تجاوز هذا الواقع المدان إلى مستقبل أفضل"².

ويتحقق لها ذلك عبر السعي الدؤوب إلى التغيير، الذي يرتبط بجوهر الثورة على الظلم والاضطهاد، وهو ما جسّدته النماذج المدروسة في التطبيق، في بحث

¹ - أحمد محمد عطية، الرواية السياسية، ص12.

² - المرجع نفسه، ص17.

المصرية "رضوى عاشور" عن الفرج المأمول عند الشعب المصري، وفي مساءلة الجزائري "عمارة لخص" لجميع المحطات الفارقة في تاريخ المجتمع الجزائري وفشلها الذريع في تحقيق التغيير المنشود، مما يجعل الرواية مسيئة بامتياز إن صح القول، معبرة وبشكل جلي عن الواقع الذي نعيشه، تستمد روحها منه، لذا رأينا بضرورة الحديث عن الحياة التي تستوحىها الرواية العربية من الواقع.

4. 3/ الرواية السياسية والواقع:

مست المجتمعات العربية العديد من التغيرات الجذرية في البنى الفوقية والتحتية للمجتمع، دفعت إلى ظهور مذهب جديد يواكب الحركات التطورية التي شهدتها مختلف القطاعات، ويعمل جاهدا على تغيير الواقع والمضي به قدما " هذا المذهب هو (المذهب الواقعي) والواقعية تعني رؤية شاملة من الكاتب إلى جميع عناصر تجربته، حيث تكون (انعكاسا) صادقا للواقع الذي تعبر عنه"¹.

يقدم الأديب وفق هذا رؤية صادقة تعكس واقعه، والمتمخضة عن تجربته الخاصة، وهذه الرؤية بالنسبة لي قد تحمل وجهة نظر صاحب النص، وقد تكتفي بنقل وجهة نظر المجتمع، أو تجمع بين الاثنين معا، ف "دعاة المنهج الواقعي، في الأدب، وقد وضعوا خطوطا عديدة تحت كلمة السياسة وضرورة التعبير عنها"².

فرضت الواقعية في الأدب مجموعة من الظروف والتحويلات الشاملة التي مست المجتمعات العربية على اختلاف أقطارها، ومست الأدب كذلك فقد حدثت تغييرات جذرية بالنسبة للمواضيع المطروقة ولمضامين الفنون الأدبية على اختلافها سواء الشعر أو القصة أو المسرحية أو الرواية وهذه الأخيرة قد "تحولت من إطار الرومانسية إلى مجال الواقعية: ف (الشخصيات) الروائية، لم تعد تستلهم نموذج البرجوازي المرفّه

¹ - طه وادي، أدبيات الرواية السياسية، ص41.

² - فيصل دراج، الواقع والمثال-مساهمة في علاقات الأدب والسياسة، ص84.

ميسور الحال، وإنّما أصبحت تصوّر نموذج البرجوازي الصغير أو الموظف البسيط أو العامل الفقير أو الفلاح شبه الأجير¹. كما سبق وأشرنا.

فالرواية باعتبارها الصوت الأقوى للتعبير عن المجتمع وعن أحواله، قد واكبت التطور الحاصل في العصر، وانتقلت من وصف ترف الإنسان البرجوازي إلى التعبير عن مختلف شرائح المجتمع الفقير، الغني، العامل، الموظف.. وغيرها من الطبقات الاجتماعية، التي أعادت الواقعية لها كمذهب سياسي مكانتها في المجتمع، ولم يعد الروائيون يتخرجون من الحديث عنها، على العكس من ذلك أصبحت إلزاما عليهم التعبير عن هذه الفئات الهشة والمهمشة في المجتمعات العربية.

يؤكد ذلك أن "الواقعية عاشت زمانها في حقل الفكر والسياسة الداعية إلى مجتمع جديد، أو عاشت زمانها في ممارسة تخطت بين الأدب والسياسة، أو تجمعهما في مهمة أولى أساسية هي تحرير المجتمع"².

وبغیرها من القضايا التي أصبحت تشغل الإنسان العربي في وقتنا الحالي، إلا أن الروائي وهو يعبر عن هذه القضايا لا يمكنه أن ينسلخ من الايدولوجيا التي تحكمه أو تحكم أفكاره بالأصح، حيث أن الرواية السياسية كما رأينا سابقا هي تعبير عن مختلف الصراعات الايدولوجية والأفكار، وسنسعى إلى إبراز هذه النقطة في العنصر المعنون بالرواية السياسية والايديولوجيا فيما يلي:

4. 4/ الرواية السياسية والايديولوجيا:

تعرف الايديولوجيا كونها علما للأفكار، أما الايدولوجيا أو **Ideology** بالنسبة للرواية السياسية فهي تعتبر "مكونا أساسيا في أي نص أدبي (روائي)، لأنها هي التي تكون بعده المعرفي، وإلا فإنه يستحيل كلاما مغلقا، لا يحمل أية دلالة"³.

¹ - طه وادي، أدبيات الرواية السياسية، ص46.

² - فيصل دراج، الواقع والمثال-مساهمة في علاقات الأدب والسياسة-، ص59.

³ - علي منصور، البطل السجين السياسي في الرواية العربية المعاصرة، ص54.

فالإيديولوجيا أو الأفكار والمعتقدات المبنوثة في الرواية بصفة عامة وخاصة السياسية منها، تفصح عن علاقة وطيدة تجمع كلا منهما في بوتقة واحدة اصطلاح عليها الرواية السياسية، والتي ما لبثت أن أصبحت محورا هاما يطرح جنبا لجنب مختلف قضايا الفكر، ومشكلات الإيديولوجيا لدى كتاب الرواية العربية المعاصرة باختلاف جنسياتهم.

ونخص بالذكر منهم كتاب الرواية السياسية منها حيث أن "الرواية المعاصرة حين تعبر عن قضية سياسية، فإنها تضيف إلى وظائفها الفنية وظيفة أخرى جديدة-لم تكن ضمن وظائفها- وهي الإقناع الإيديولوجي- إزاء قضية سياسية حادة وساخرة، لكنّ الروائي يحاول أن يقدمها بطريقة فنية هادئة، حتى تقرأ من الخصوم والأنصار"¹، إلى جانب الوظيفة الفنية والتعبيرية للرواية، تضطلع الرواية بوظيفة لا تقل أهمية عن سابقتها وهي وظيفة الإقناع الإيديولوجي.

يسعى الروائي جاهدا من خلال كتاباته إلى إقناع المتلقين بأفكاره الإيديولوجية إزاء قضية ما، تسترعي اهتمامه ومن أبرزها نجد القضية السياسية، فكتاب الرواية السياسية يستعمل مجموعة من الأساليب والتقنيات السردية التي تتيحها له الرواية للتعبير عن أفكاره وقضاياها الإيديولوجية بطريقة مباشرة عبر التصريح أو بطريقة غير مباشرة عبر التلميح وغيرها من الأمور، سعيا لإقناع متلقيه سواء المؤيد أو المعارض، وهنا يبرز الدور الذي يلعبه المتلقي النوعي في الكشف عن كنه الخطاب وإيديولوجياته المبنوثة فيه عبر استراتيجيات التأويل المعتمدة حيث " أن الكاتب السياسي لا يدخل في مغامرة فنية صعبة مع قارئ، قد يختلف معه-إيديولوجيا فحسب، وإنما قد يدخل

¹ - طه وادي، أدبيات الرواية السياسية، ص 07.

أيضا في مغامرة -غير مأمونة العواقب- مع السلطة السياسية الحاكمة التي قد يعارضها في الرأي أو يختلف عنها في المعتقد الحديث في السياسة"¹.

يوضح هذا القول مجموعة من الاعتبارات التي لا بدّ من مراعاتها عند الحديث عن العلاقة التي تجمع بين الأدب والسياسية حيث " لا يمثل ارتباط الكتابة بالسياسة انحلال الكتابة في السياسة، بل يتمثل في قدرة السياسة على معرفة خصوصية الكتابة في حقل السياسة، يتميّز هذا التمثّل بقدرة السياسة على تمييز المستويات الاجتماعية: الاقتصادي، السياسي، الايديولوجي"².

يضيف بول ريكور Pual Ricoeur إلى هذه المستويات مستوى الأخلاق، الذي يقترحه للحديث عن العلاقة التي تجمع بين الأخلاق والسياسة، حيث لا بدّ من الإشارة إلى الجانب الاقتصادي لتفسير التقاطع الحاصل بين المجالات الثلاثة بالقول: "إنّما أريد مناقشة التقاطع بين ثلاث دوائر: الاقتصادية، والسياسية والأخلاقية، وإذا كنت أتصرف على هذا النحو، فلأنني أنتظر من المقارنة بين الاقتصادي والأخلاقي وسيلة لتخصيص السياسي حتى أتمكن من أن أضعه في مواجهة أفضل مع الأخلاقي، ذلك أنّه بقدر ما يثير السياسي معضلات وصعوبات خاصة، غير قابلة لأن تختزل إلى ظاهرات اقتصادية بقدر ما تكون علائقه مع الأخلاقي هي نفسها أصيلة وأكثر حدّة"³.

يتضح لنا مما سبق التكامل الموجود بين الجانبين الاقتصادي والسياسي حيث نجد الأول خاضع لأوامر الثاني، أو بعبارة أخرى أن الاقتصاد في أي دولة من الدول خاضع لسلطة الدولة أو الهيئة المعينة التي تحكمه. أمّا عن تعريف الدولة فإنّه: "لم

¹ - المرجع نفسه، ص11.

² - فيصل دراج، الواقع والمثال-مساهمة في علاقات الأدب والسياسة-، ص311.

³ -بول ريكور، من النص إلى الفعل - أبحاث في التأويل-، ترجمة: محمد برادة وحسان بورقية، المشرف العام: قاسم عبده قاسم، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الإسكندرية، ط1، 2001، ص310.

يفت السوسيولوجي الألماني الكبير، ماكس فيبر Maximilian weber*، أن يدمج مكون القوة هذا في تعريفه للدولة رغم أنه تعريف يرتكز على موضوعة دولة الحق، في نظره، لا يمكن تعريف الدولة إذا لم ندمج في وظيفتها احتكار العنف المشروع، وأنا لا أتردد في القول بأن المفارقة السياسية تكمن تحديدا في هذه المواجهة بين الشكل والقوة داخل تعريف الدولة¹.

يتضح لنا من خلال هذا المفهوم هو أن أطر السياسة، أو التقاليد العامة التي تحكمها توجي بضرورة استعمال العنف المشروع من قبل الدولة للحفاظ على السلطة وفي هذا الصدد يضيف " ماكس فيبر " قائلا: " أوافق عن طوعية أن موضوعة السلطة لا تختزل في العنف، ومنح الدولة امتياز العنف المشروع، لا يعني تعريفها بالعنف، وإنما بالسلطة كيفما كان الانتساب التاريخي للعنف إلى السلطة².

إذن فان امتياز العنف متجذر في تعريف الدولة منذ القدم باختلاف التسميات للطبقة الحاكمة أو الهيئة الحاكمة وغيرها... ويظهر ذلك العنف في ما يصطلح عليه بالتمثيل اللامتكافئ للقوى الاجتماعية حيث المقصود منها هاهنا هو الطبقة البرجوازية أو بالأحرى مقولة الطبقة البرجوازية، التي تقضي إلى وجود طبقة في المجتمع، طبقة عليا تلعب دور المسيطر وتحظى بامتيازات لا تعد ولا تحصى، وطبقة دنيا تعيش تحت وطأة هذه السيطرة يمثلها المواطن الخاضع بمختلف مستوياته، ما يفضي إلى أن "عفا مستترا يستمر في إفساد علاقة الجميع بالسلطة، إن الحياة السياسية تبقى، حتما، مطبوعة بالنضال من أجل الوصول إلى الحكم، والحفاظ به، ومعاودة الاستيلاء عليه، إنه نضال من أجل السيطرة السياسية³.

* ماكس فيبر أو ماكسيميليان كارل اميل فيبر Emil Weber Maximilian carl عالم اجتماعي وفيلسوف ألماني.

¹ - بول ريكور، من النص إلى الفعل - أبحاث في التأويل -، ص 316.

² - المرجع نفسه، ص 316.

³ - المرجع نفسه، ص 317.

وهذا النضال هو الدور الرئيس الذي تضطلع به مختلف الهيئات الحاكمة، من أجل الحفاظ على كرسي السلطة من خلال تطبيق السيطرة السياسية التامة على ما سميناه بالطبقة الدنيا عبر تكريس مجموعة من الفوارق لضمان تلك السيطرة. انطلاقاً مما سبق يجب توضيح الفكرة والعلاقة التي تربط كلا من السلطة والسياسة ف "غالبا ما نخلطها بممارسة السلطة والصراع على السلطة، بيد أنه لا يكفي أن تكون هناك سلطة كي تكون هناك سياسة، بل لا يكفي أن تكون هناك قوانين تنظم الحياة الجماعية، بل يجب أن يكون هناك نمط لشكل محدد للمجتمع"¹.

ختاماً لهذا الجزء تبرز السلطة السياسية بدورها الفعّال في توجيه الرأي الذي يشغل صاحب النص، حيث أنه قد يكون معارضا أو موافقا لها، إلا أنها مغامرة غير مأمونة العواقب تقضي إلى أمور عديدة من بينها التحفظ على النص، حضره عن القارئ... اغتيال الكاتب وغيرها من العواقب الوخيمة الناجمة عن هذه السلطة السياسية، التي ترفض وبشدة من يهدّد كيانها وسلطانها.

¹ - جاك رانسبير، سياسة الأدب، ص8.

الفصل الثالث:

جدلية التمثيل السردي والإدراك

الاجتماعي للقمع السلطوي

وتشكيل الوعي.

1/المقاربة المعرفية الاجتماعية: (توين. فان ديك):

نروم خلال هذا الفصل تبني وجهة نظر "فان ديك" في التحليل، ولا يخفى علينا كباحثين أن هذا التوجه في التحليل قارب به مؤسسه خطابا سياسيا أو برلمانيا، وفي مرات لاحقة خطابا إعلاميا اقتصاديا حاملا لمضامين سلطوية مهيمنة، لكننا في الفصل الثاني من هذه الدراسة تحدثنا عن العلاقة الوثيقة بين الرواية والسلطة وبين الرواية والسياسة، الأمر الذي يسمح لنا باعتبارها خطابا سياسيا ووثيقة سلطوية سياسية حاملة لمعاني الهيمنة والتسلط، ولا يعاب علينا إذا استطرطنا في الشق النظري من هذه الدراسة، وحتى التطبيقى منه الذي أردنا أن يكون تطبيقيا بحتا، إلا أن جدّة هذا النوع من المقاربات، وعدم وجود دراسات تجمع بينها وبين النص الروائي، ما عدا دراسة حديثة وعنوانها: جدل التمثيل السردى واللّساني والممارسة الاجتماعية نحو مقارنة لسانية نقدية لسلطة الخطاب الروائي (رواية "المغاربة" لعبد الكريم جويطي أنموذجا) لمؤلفها: محمد يطاوي* التي لم نتمكن من الحصول على نسخة منها، كل هذه الأمور حاصرتنا ودفعتنا إلى البحث في جدلية النصوص الروائية الممثلة لخطابات سياسية بوصفها ممارسة اجتماعية وخطابية في الوقت نفسه، وهو اجتهاد نتمنى أن نوفق من خلاله، ولو بقسم ضئيل في الإلمام والإحاطة بعناصر هذا التوجه في التحليل.*

*أستاذ اللغة العربية وتحليل الخطاب، متخصص في التحليل النقدي للخطاب تحديدا، جامعة سلطان مولاي سليمان، كلية الآداب، بني ملال، المغرب، متخصص في التحليل النقدي للخطاب تحديدا. تواصلنا معه عبر موقع أكاديميا بغية الحصول على نسخة من الدراسة فأجابنا حرفيا بالقول: "هذا الكتاب حائز على جائزة كتارا للنشر بالدوحة، لقد الآن لم نستطع توقيعه وتوزيعه بسبب إيقاف السفر وإلغاء حفل التتويج لسنتين. أنا أيضا لم أتوصل به لقد الآن. للتواصل والاستفادة من هذا الموقع الثري بالدراسات الجادة أنظر، academia-support@academia.edu أو academia.edu

*صرحنا في الشق النظري من هذه الدراسة، أن الأخذ باتجاه واحد من اتجاهات التحليل النقدي للخطاب لا يغنينا عن الاستفادة من التوجهات الأخرى كما رمى إليه "فوكو"، و"فان ديك" حيث يقول: "إحدى نتائج هذه المناقشة للمعايير المطبقة في اختيار بنى الخطاب المدروسة في مشروعات الدراسات النقدية للخطاب، تؤكد على أن أي منهج أو مقارنة يقصر نفسه على نوع ما أو بعد من أبعاد الخطاب- يمكن أن يقدم بشكل واضح تحليلا مجتزعا للغاية. وببساطة إذا كان النحويون عادة يدرسون النحو، ومحلّو المحادثة يدرسون المحادثات، والروائيون يدرسون

2/ السياق الاتصالي لرواية "فرج":

1.2/ رضوى عاشور والرواية:

2. 2/ من هي رضوى عاشور؟

بعد العنصر الأول من التطبيق والذي اقتضى تقديم تعريف للقمع، والأسباب التي دفعتنا إلى اختيار هذا الموضوع دون غيره من المواضيع*، ننتقل إلى الخطوة الثانية من التحليل وهي الرواية قيد الدراسة، والتي تفرض علينا التعريف بصاحبة الرواية إلى جانب الحوارات، والكتابات النقدية التي حملت وجهة نظر الكاتبة حول مجموعة من القضايا الحساسة المتعلقة بالرواية بصفة عامة، وبالرواية موضع التحليل بصفة خاصة أي رواية "فرج".

يهدف الجزء الموالي من مقدمة هذا الفصل تقديم تعريف للكاتبة "رضوى عاشور"، هو تعريف أو بالأحرى تقديم تستدعيه ضرورة المنهج المتبع في التحليل فهو يعيننا أولاً عبر الإضاءة التي يمنحها لنا أثناء التحليل، ويعين المتتبع لهذه الدراسة على فهم الآليات المتبعة في هذا الجزء التطبيقي حيث أن تقديم لمحة عن الكاتبة ضرورة يستدعيها المنهج المتبع، هي من مواليد "مدينة القاهرة عام 1946، تشغل وظيفة أستاذ الأدب الانجليزي، بكلية الآداب جامعة عين شمس، تكتب الرواية، والقصة القصيرة، وتكتب الدراسة الأدبية، ولها ثلاثة كتب نقدية، والعديد من الدراسات

السرد وهياكلها، فباحثوا الدراسات النقدية للخطاب في حاجة إلى دراسة بعض من جوانب النحو والمحادثة والرواية في آن حتى يتمكنوا من تحديد البنى الكبرى ذات الصلة. وإذا كانت الأهداف "النقدية" لمشروع البحث تتطلب مقارنة في التحليل أكثر رحابة، فإن أولئك الذين يحصرون أنفسهم في دراسة نوع محدد أو صنف خاص للبنى يكونون غير قادرين في الغالب على الاستفادة من خبراتهم بشكل كامل. ومن نفس المنطلق، أنتقد التبعية لمدرسة واحدة من مدارس الدراسات النقدية للخطاب، أو التشييع لأحد توجهاتها. روث فوداك وميشيل ماير، مناهج التحليل النقدي للخطاب، ص 156 و 157.

*أنظر، الفصل الثاني من هذه الدراسة الجزء المتعلق بحضور القمع في الرواية العربية المعاصرة.

في الأدب العربي الحديث، والأدب الانجليزي، والأدب الإفريقي والأفرو-أمريكي، ومن رواياتها: "خديجة وسوسن"، و"سراج" ثلاثية غرناطة".¹

2. 3/ انعكاس وعيها في نقدها وأدبها:

2. 4/ مفهوم الرواية عندها:

تعرف "رضوى عاشور" الرواية في أحد الحوارات الصحفية قائلة: "أنت تقرر أن تكتب بحثاً أو كتاباً في موضوع ما، لكنك لا تستطيع أن تقرر أن تكتب رواية في موضوع ما في لحظة معينة، فالروايات كالعفاريات تظهر في أي وقت على توقع، أو على غير توقع...".²

يرتبط مفهوم الرواية بالنسبة لها بالإبداع لا محالة، حيث لا يستطيع للكاتب أيّا كان أن يتحكم في كتابة نصوصه الروائية على عكس النقدية منها، فهي (الروايات) كالعفاريات تظهر وتختفي فجأة تحتكم إلى وعي الروائي أو من دونه.

يتعرض الكاتب عند حديثه عن الطابوهات أو محاولته الخوض في مضامين المواضيع الحساسة، التي تمس أجهزة الدولة على اختلافها أو حتى المواضيع الحساسة أو المحظورة مجتمعياً لمجموعة من المخاطر، وهذا ما جعل "رضوى" تخاف في بداياتها فتقول "ربما هناك الآن درجة أكبر من العمق. ربما جرأة في اللعب أكثر. في البدء كنت خائفة. الآن أنا أجراً. إذا خطر علي بالي أن ألعب، فلم لا؟! لنلعب معاً. في البداية كنت "ماشية جنب الحيط"، أتوخي السلامة. وأمر آخر، لابد من الاعتراف:

¹ - رضوى عاشور، أطياف، رواية، دار الهلال، القاهرة، 2000، غلاف النهاية.

² - باسل أبو حمدة، مقال رضوى عاشور الروايات كالعفاريات تظهر في أي وقت، التاريخ: 1 يوليو، 2012، حوار أجراه "مسارات" مع رضوى عاشور، عندما قدمت إلى دبي أخيراً، لاستلام جائزة مؤسسة سلطان بن علي العويس الثقافية، حفل القصة، والرواية والمسرحية (جوائز الدورة الثانية عشرة)، دار الحديث حول الأدب والنقد الأدبي والأسرة والمرأة والربيع العربي، ومشاركتها في الثورة المصرية، وعلاقتها بالقضية الفلسطينية. تاريخ التصفح: 2019/02/10 التوقيت 10 صباحاً.

الموقع: فنون >...> <https://www.albayan.ae>

الرواية هي لغة في النهاية، معمار لغوي. أنا أحب اللغة وأحب اللعب فيها، حاولت فعل هذا ولكن مشواري لم يكن بسيطاً¹.

تصرح "رضوى" من خلال هذا القول ضمناً بخطورة ما يواجهه الأديب جراء المبتوث في نصوصه من آراء وأفكار وعقائد قد تتوافق، أو تختلف اختلافاً جذرياً مع الواقع، بحسب وجهة نظر صاحب الرواية وآفاق تطلعاته، التي تتطلب منه انتقالاً من هاجس المجتمع والدولة إلى هاجس التأريخ الذي يعاني منه كما سنرى في العنصر المقبل.

2. 5/ الرواية والتاريخ:

تقرّر "رضوى" بأنّ الرواية العربية على ارتباط وثيق بالتاريخ بقولها: "الرواية عموماً على ما اعتقد هي النوع الأدبي الأكثر اشتباكاً بالواقع التاريخي"²، وترى كذلك أنّ الروائي العربي يعاني من هاجس التأريخ حيث تقول: "أنظر إلي المويلحي وتوفيق الحكيم ونجيب محفوظ وعبد الرحمن منيف. كأنّ الروائي العربي دوماً لديه خوف من أن لا تقال الحكاية بعد ذلك أبداً، أو تقال بشكل كاذب، أو رغبة في أن يحكي حكايته هو. الرواية تقدم دوماً تأريخاً بديلاً. وهذا يشغلني بشكل أساسي"³.

يشغل هاجس التاريخ الكاتبة، حتى أنّ المتأمل والمتصفح لكتابتها الروائية والنقدية على حد سواء، يلحظ في الأولى ارتباط أحداث رواياتها بالتاريخ منها ثلاثيتها المشهورة غرناطة، وسيرتها الذاتية أطيايف، وحتى الرواية التي نروم دراستها فنجدتها ترتبط بالتاريخ ارتباطاً وثيقاً خاصة المتعلق باعتصام الطلبة وأحداث الجامعة عام 1972، وغيرها من الأحداث التاريخية التي تختلف طريقة سردها بالنسبة لها وتصويرها من طرف مؤرخ، وحتى من روائي لآخر حيث تقول "إذا كتب مؤرخ عن

¹ - باسل أبو حمدة، مقال رضوى عاشور الروايات كالعفاريت تظهر في أي وقت، التاريخ: 1 يوليو 2012.

² - رضوى عاشور، لكل المقهورين أجنحة-مقالات-، دار الشروق، مصر، ط1، 2019، ص16.

³ - باسل أبو حمدة، مقال رضوى عاشور الروايات كالعفاريت تظهر في أي وقت، التاريخ: 1 يوليو 2012.

اعتصام الطلبة عام 72، لن تلفت انتباهه تفاصيل مثل الطلبة الذين كتبوا علي ورق صغير "اصحي يا مصر"، وصاروا يقذفونه من عربات الأمن وهي تقوم بترحيلهم، أو تسجيل لحظة مرور الطلبة من حرم جامعة القاهرة عند اعتقالهم، بين مبنيين: عن يسارهم مبني كلية الآداب وعن يمينهم مبني كلية الحقوق، ولكل مبني منهما حكايته الممتدة. كل تفصيلة صغيرة لها حكاية، والروائي مهمته قصّ هذه الحكايات... ولكن الروائي عندما يتناول قصة كذلك سيتناولها في الغالب من وجهة نظر الطلبة، بعكس المؤرخ الذي قد يقدم رؤية أكثر حياداً؟ (تضحك)، وقد يكتبها الروائي من وجهة نظر الضباط. محمد البساطي كتب، برهافة وجمال، روايته الأخيرة "أسوار"، من وجهة نظر السجّان بالتحديد، وليس المساجين¹.

تشرح "رضوى" بذلك انشغال الروائي العربي بالتاريخ، حيث تعتقد أن التاريخ المكتوب من قبل الروائي العربي هو التأريخ لحكاية الجماعة، أو المتعلق بالوعي الجمعي للمجتمع، لأنّه متخبط بين مطرقة الاستعمار قديماً وسندان القمع المعاش حالياً، ما يجعل الروائي يتحدث عن تاريخه هو، وبالوقوف على حكايات وتفاصيل وتلاعبات تتجاوز وتفوق رؤية المؤرخ، أو بالأحرى لا تشغل اهتمامه أو لا تنتمي لدائرته.

تختلف بذلك وجهة النظر بالنسبة للروائي والمؤرخ، في حين أن الروائي قد ينحاز لفكرة ما، أو يغوص فيها ويتطرق إلى تفاصيلها الدقيقة وحتى المملة من زوايا مختلفة، نجد المؤرخ على العكس من ذلك يمتاز طرحه بالحيادية والموضوعية، التي لا تعكس ذاتيته أثناء وصفه للأحداث التاريخية، فهاجس التأريخ لم يشغل الروائي العربي فقط، إنّما كان هاجساً لها حيث كثيراً ما انشغلت بتسجيل الواقع التاريخي.

¹ - نائل الطوخي، حوار: رضوى عاشور أكتب كما أعرف - هكذا حاصرنا اللحظة الراهنة في بيوتنا-، مجلة الكلمة، العدد 24/ديسمبر/2008، الموقع: Read > <http://www.alkalimah.net> تاريخ التصفح: 2019/02/20، التوقيت: 10:00 صباحاً.

فالأديب الذي يريد أن يتكلم عن حقبة زمنية ما أو مكان ما، عليه بالضرورة أن يقرأ حول هذه الأمكنة والأزمنة حسب رضوى عاشور حيث أن الكتابة "عن حقبة سابقة ومكان لم يعيش الإنسان فيه يستوحي جهداً آخر، عليه أن يتعرف على المرحلة التي يكتب عنها، حدودها، مفاصلها الزمنية، تفاصيل المكان، وملامح وإيقاعات الحياة اليومية للجماعة البشرية التي تعمّر¹. فهذه المعرفة بتفاصيل الأزمنة والأمكنة لا تستدعي بالضرورة نقلاً حرفياً من قبل الأديب لها ضمن رواياته، إنّما يتصرف فيها كيفما يشاء، وذلك وفق ما يقتضيه الإبداع الأدبي.

تلمح الكاتبة فيما سبق بأهمية الواقع الاجتماعي، أو السياق أو خارج النص في تشكيل النص الروائي، والذي يميزها عن بقية النصوص بقولها: "ما يميّز الرواية هو تلك العلاقة الأخص بالواقع الاجتماعي في امتداده وصيرورته، فهي تخبر عن بشر في سياق، هو سياق، ضمناً أو صراحة، مستمد من خارج النص، يعتمد عليه بقوة وكثيراً"². يجعل هذا التصريح حضور خارج النص داخل البناء الروائي حضوراً طاغياً متغلغلاً في المبنى والمعنى على حدّ قولها.

2. 6/دوافعها للكتابة:

تتحدث عن شغفها بالكتابة مجيبة عن سؤال في حوار صحفي والكتابة/ماذا عن الكتابة "أكتب لأني أحب الكتابة، أقصد أنني أحبها بشكل يجعل السؤال "لماذا؟" يبدو غريباً وغير مفهوم. ومع ذلك فأنا أشعر بالخوف من الموت الذي يتربص، وما أعنيه هنا ليس الموت في نهاية المطاف، ولكن الموت بأقنعتة العديدة في الأركان والزوايا، في البيت والشارع والمدرسة، أعني الوأد واغتيال الإمكانية...أنا امرأة عربية ومواطن من العالم الثالث، وتراثي في الحالتين تراث الموعودة، أعني هذه الحقيقة حتى العظم

¹ - رضوى عاشور، في النقد التطبيقي - صيادو الذاكرة - مقالات نقدية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2001، ص243.

² - رضوى عاشور، لكلّ المقهورين أجنحة - مقالات -، ص 17.

منّي، وأخافها إلى حدّ الكتابة عن نفسي وعن آخرين أشعر أنّي مثلهم أو أنّهم مثلي^{1*}.

تخاف "رضوى" من القيود التي تكبلها أثناء الكتابة بالرغم من شغفها الكبير بها، إلا أنّ هذه الأغلال تحول دونما إفصاحها عما يختلجها من هموم قومية وعالمية، كونها على قدر كبير من الوعي بواقعها الذي استمدته من الهمّ الفلسطيني، الذي عايشته جراء معاناتها مع زوجها الفلسطيني مريد البرغوثي، الذي لم يسمح له بالدخول إلى مصر فكانت تلتقي به في بلدان أخرى وفي محافل علمية وثقافية كونه شاعرا، ولاحقا مع ابنها الوحيد "تميم" الذي ركب الطائرة في سنّ مبكرة جدا لرؤية والده، وغربتها أثناء إنجازها أطروحة الدكتوراه الخاصة بها، وغيرها من الوقائع التي جعلتها تتأزّع همّها شخصيا وهمّ مجتمع ترى أنّه يمثلها وهي تمثله في الوقت نفسه، مما يجعلها تتلاعب باللغة كما رأينا سابقا لتحاول تمرير رسائل والبوح بالقضايا، التي تروم الخوض فيها طمعا في إحداث التغيير وتحرير الوعي وإنارة العقول.

يتأتى النص الإبداعي حسبها كونه حالة غير اختيارية، تتحكم فيه مجموعة من العناصر قد لا يعيها الكاتب، حيث نجد في النص "علاقة الكاتب بالوجود... والمعرفة شرط من شروط الكتابة، محمل الخيارات المتراكمة، معرفة يحصلها الكاتب قصدا من أجل نص بعينه، فالكتابة في تقديري فعل معلق بين التلقائية والقصدية، غير الموعي به والموعي به تماما، اللعب والضرورة، بساطة التعبير ومشقة البناء^{2*}.

* من مقال تجربتي في الكتابة، قدمت هذه الشهادة بشكل مختصر في ندوة بكلية الآداب، جامعة القاهرة، ثمّ بشكلها الحالي في ندوة " المرأة العربية والإبداع"، بيروت، 1992.

¹ -رضوى عاشور، في النقد التطبيقي -صياغو الذاكرة- مقالات نقدية، ص213.

* لكلّ غرناطته... نص المحاضرة التي قدمتها في غرناطة ومريد في أكتوبر عام 2000 بمناسبة ظهور الترجمة الإسبانية للجزء الأول من ثلاثية غرناطة، وهذه المحاضرة نص معدّل ومطور لأصل محاضرة ألقيتها في المجلس البريطاني في القاهرة عام 1994، وفي معرض كتاب الشارقة عام 1995.

² - في النقد التطبيقي -صياغو الذاكرة- مقالات نقدية، ص240.

فالنص الإبداعى " كالحظة التاريخية التى أفرزته ساحة شباك وصراع"¹. يصبح بذلك النص الأدبى ظاهرة تاريخية، تتشابك وتتصارع فى داخله مجموعة من الآراء والأفكار والتصورات، مجسدة واقع الصراع الاجتماعى، ما يجعل الدراسة النقدية لهذه الظاهرة المركبة "تتطلب" معرفة الواقع التاريخى الذى أنتجها والقارئ الذى سيستقبلها، والناقد الذى يكتب عنها"².

تستدعى هذه المتطلبات معرفة تتشكل من فعل القراءة للناقد والقارئ، وحتى الأديب الذى يجعله يعي بخطورة الوضع الذى يعيشه، وبالقمع المسلط عليه وعلى من حوله حيث تقول " وكلما قرأت أكثر تشكلت أمام عيني ملامح تاريخ مقموع، مسقط فى الغالب الأعم من الكتابات العربية، لماذا؟ تساءلت ومازلت فى الفترة تاريخ مواز، فى عناصره من أسئلة الحاضر أكثر من سؤال: سؤال الانكسارات والنهايات وسؤال الهوية والعلاقة بالآخر، وسؤال التهميش وقمع الحريات، والحق فى الاختلاف"³.

هى مجموعة من الأسئلة والقضايا، التى شغلته على مدار سنين من التأليف النقدي والأدبى، فللكاتبة رصيد أدبى كبير تنوع بين الأدب والنقد، جعل المتتبع لها والدارس لأدبها ونقدها على حدّ سواء، يشعر " بالهمّ الوجودى الذى ينازعها كيانها، ارتبطت كتابتها بسلسلة فولاذية، الباحثة أدركت مبكرا حجم الكارثة الإنسانية، التى لحقت بشعوب العالم الثالث جراء الاستعمار، فسخرت لغتها ومشاريعها الأدبية والنقدية واليومية خدمة لفكرة نبيلة هى محاربة الزيف ومواجهة الآلة المدمرة، بقلم امرأة متقدمة حرة على نزيف الأوطان المقهورة، ربّما لأنّها كاتبة وعت سياقها، عاشت زمن الخذلان والخيبة والخديعة، زمنا مشحونا عربيا وعالميا وشخصيا"⁴.

¹ - رضوى عاشور، لكلّ المقهورين أجنحة، ص 63.

² - المرجع نفسه، ص 63.

³ - رضوى عاشور، فى النقد التطبيقى - صيادو الذاكرة - مقالات نقدية، ص 242.

⁴ - حياة أم السعد، النقد والخطاب مقاربات تداولية وميدولوجية، ص 21.

هذا الوعى بواقعها وبواقع العالم العربى يظهر فى جلّ ما كتبتّه حيث " تحكّم هذا التفاعل فى مسارها الفكرى والنقدى والأدبى، فى وحدة وعيها المنعكس فى كتاباتها، انطلاقاً من البداية من رحلتها: "أيام طالبة مصرية فى أمريكا" إلى كتابها النقدى "التابع ينهض-الرواية فى غرب إفريقيا" إلى كل نصوصها الروائية المسخرة للإجابة عمّا يطرحه الراهن العربى المعقد من أسئلة، من قضايا الشتات إلى وحشية الاستعمار إلى محاولة إثبات الذات...كانت كلّها عوامل انصهرت فى تجربتها الشخصية، فولدت كمّا من النصوص سارت على مسار واحد هو رفض الآلة الاستعمارية، وفضح آليات اشتغالها، هاجس واحد شدّ نصوصها بخيط متين هو مرارة الخذلان ووحشية الإيديولوجيات، وخساسة المؤامرات"¹.

كلّ هذه العوامل شكّلت شخصيتها ووعيها، ما جعل جميع كتاباتها تفضح الآلة الاستعمارية المدمرة، ومخططاتها الماضية عبر القمع العسكرى، وحديثاً عبر القمع الإيديولوجى وغيرها من الدوافع والآليات المنتهجة من قبل الآخر للسيطرة والقهر، التّى تحاول هذه الدراسة الكشف عنه برصد وتتبع مختلف الآليات القمعية المبنوثة فى الخطابات الروائية وتأويلها.

ويظهر وعيها النقدى جليّاً من خلال كتاباتها النقدية والأدبية على حدّ سواء، حيث رمت من خلال نصّ التابع ينهض-الرواية فى غرب إفريقيا، ورحلتها إلى أمريكا إلى الكشف عن "وعيها النقدى، ووعي الكتابة المضادة المتغلغل فى مشروعها الثقافى من البداية، نسان كلّ منهما رسم رؤية للعالم من داخل التجربة، تجربة داخلية وأخرى خارجية، تجربة تفضح المسكوت عنه فى قراءة الرواية فى غرب إفريقيا، تكتب ما

¹ - حياة أم السعد، النقد والخطاب مقاربات تداولية وميديولوجية، ص 21 و 22.

سمّته "الإرهاب الثقافي" الذي يمارسه النقد الغربي في إعلائه من شأن كاتب، والخط من قيمة كتابة أخرى انتصار لإيديولوجيات وسياسات معينة¹.

هذا الوعي الثقافي والاجتماعي بما تعيشه الشعوب، وما تتجرعه من مرارة الاستعمار بنوعيه سواء العسكري أو الإيديولوجي تؤكد هي بقولها " اعتقد أن نفس الكتابات الإبداعية والنقدية والبحثية لها خيط ناظم بدرجة، هناك رغبة حقيقية في التحرر الوطني الموجود، والتحرر الإنساني وتحرر الرجل، وتحرر المرأة، لأن الكتابة الإبداعية عموما، هي بناء على أرضية اللغة وبناء باللغة، وأنت ابن موروث أدبي عام شديد الثراء، وأنا لدي هاجس في أن أعرف هذا الموروث ويكون لي قيمة"².

يتضح من ذلك الأهمية التي تكتسيها الكتابة عند "رضوى عاشور"، فهي تولي أهمية بالغة للغة التي من خلالها يمكن الكشف عن خبايا الشعوب، والاطلاع على ثقافتهم والتعرف عليهم عبر الأدب أو النقد، الذي ترى أننا نعاني من ضعف فيما يخصه، وأنها نعلم كثيرا على النظريات الغربية حيث تقول " نحن نستفيد في الغالب الأعم من الإضافات النظرية، التي قدمها النقاد الغربيون، وتحديدًا من نتاج النقاد الأوروبيين، والنظرية النقدية أحدثت نقلات كبيرة بعد أن شاع في الغرب، لمدة أربعة عقود نقد شكلاني منشغل في العمل في ذاته، بعيدا عن سياقه الاجتماعي والنفسي"³.

ترى أن هذا النقد جاء بعد فترة من النقد الاجتماعي، وأنه على الناقد أن لا يكتفي بنقل النظريات النقدية الغربية جاهزة، إنما عليه أن يتحاور معها لتتماشى ومعطيات السياق الذي تمخضت عنه، لأننا أولا وأخيرا أمام نص روائي إبداعي، يملك فرادته وخصوصيته غير المنعزلة عن السياقات الثقافية والتاريخية والاجتماعية التي أنتجته.

2. 7/تيمة السجن في نظر "رضوى عاشور":

¹ - حياة أم السعد، النقد والخطاب مقاربات تداولية وميديولوجية، ص24.

² - باسل أبو حمدة، مقال رضوى عاشور الروايات كالعفاريت تظهر في أي وقت، التاريخ: 1 يوليو 2012.

³ - المرجع نفسه.

ترى "رضوى عاشور" أنّ كتابات السجن تشكّل بابا مهما من أبواب الأدب التي تجمع "على اختلافها بين البوح والتوثيق، التعبير عن تجربة الذات والتأسيس لذاكرة مغايرة للتاريخ الرسمي"¹.

يرسّخ هذا التأسيس لمواجهة بين كتابات السجن والذاكرة الرسمية، التي "تؤرخ للعلاقة بين السلطة ومعارضيتها، تضبط الذاكرة الجماعية، بما تتيحه من المعلومات والمعارف والتجربة المباشرة، إنّها "ذاكرة منشفة" وتشكّل هذه الأدبيات فرصة مؤجلة للدفاع عن النفس، الدفاع الذي لم يكن ممكنا لحظة الاعتقال"².

تشكّل الرواية وفق هذا التوجه صرحا قادرا على "استيعاب موضوع "السجن" لأنّها النوع الأدبي المناسب لإنطاق المسكوت عنه في الخطاب الثقافي والاجتماعي العام، والنوع الأجسر في مواجهة القمع وتعزّية مشاكل التعصب، وتقليم براثن التخلف والجهل"³.

شغلت هذه التيمة "رضوى عاشور" ولطالما اهتمت بها، وتصرح بذلك في حوار صحفي أجرته حول رواية "فرج" قائلة "هاجس الكتابة عن السجن موجود لدي منذ سنوات طويلة، وتناولته بشكل عابر في روايات سابقة. وانتبهت له عندما بدأت في كتابة الرواية. انتبهت أن التيمة التي تشغلني هي تيمة "السجن خارج السجن"، السجن خارج القضبان، سجن العمر. ربما يكون زمان معيّن هو السجن، أو مرحلة تاريخية ما... في نفس الوقت سنتعجب لو أخبرتك أن الفصل الأخير مثلا، والذي يدور كله في سجن "تازمامارت"* بالمغرب، واستوحت منه الرواية عنوانها، كتبته قبل سائر

¹ -رضوى عاشور، لكلّ المقهورين أجنحة، ص84.

² - المرجع نفسه، ص93.

³ -على منصوري، البطل السجين السياسي في الرواية العربية المعاصرة، ص106 و107.

*لأنّ الاعتقالات في المغرب من بين التجارب الأكثر ترويعا في العالم العربي، يقول محمد بودهان وهو صحفي مغربي: للتعبير عن أقصى درجات الاستنكار والاستياء، يقول المثل العامي: "يسمعها الشيطان فيغطي أذنيه" وهذا ما يصدق على فظاعات تازمامارت، أي أن الشيطان رغم أنّه الشرير الأوّل المختص في إلحاق الأذى والشرّ بالبشر،

الفصول، وعندما بدأت في كتابة الرواية فوجئت بأن هذا الفصل مكانه في النهاية. وفوجئت بأن اسم بطله، سيكون هو عنوان الرواية¹.

شكل موضوع السجن هاجسا بالنسبة لرضوى عاشور لكنه ليس السجن المتعارف عليه بالنسبة لنا، إنما هو سجن من نوع آخر تفرضه القيود والسلطات القمعية على اختلاف أجهزتها القمعية أو الأيديولوجية، التي تجعل الإنسان يعيش السجن حتى ولو كان إنسانا عاديا يمارس حياته اليومية الطبيعية (الأمر نفسه نجده عند بورديو في حديثه عن حتمية الاستيقاظ صباحا وفي موعد واحد كل يوم من أجل العمل، هذه البرمجة بالنسبة له تمثل أقصى درجات القمع التي تسلب الإنسان حريته بطريقة غير مباشرة وتمثل سجنا خارج السجن)*.

تجعل الفرد يعاني من اضطهاد وقمع سلطوي، تختلف صوره وتتنوع أثناء عمله في بيته وحتى في تعاملاته العادية منها والرسمية، هو سجن من نوع آخر يصبح فيه الزمن سجنا وتفسر ذلك بالقول: " الشخصية الرئيسية في الرواية تشعر في لحظة ما أن الواقع الذي تعيشه يفرض عليها، وعلى غيرها درجة من العجز. حتى أشكال الانضباط والمراقبة التي تحدث عنها "فوكو" بخصوص معمار السجن، تحدث بخارجه

وبالتالي فهو يتلذذ بالأخبار التي تتحدث عما يصيب الناس من شرور وآلام، وما يقعون فيه من غواية وضلال، إلا أنه في حالة تازمامارت، فإن ما حصل فيها من شر وألم وعذاب يتجاوز بكثير كل الأفعال الشيطانية الشريرة التي يكون وراءها الشيطان، إلى الدرجة التي جعلت هذا الأخير "يغطي أذنيه".

ويبقى السؤال: ما الذي سيفعله الشيطان بتلك الشهادات التي صم عنه أذنيه عنها طويلا؟ ما هي مترتبات الاستماع وجلسات المصالحة في المغرب الحالي حيث لم تقع قطيعة ولا حتى رمزية في النظام (...). لم يصرح النظام الحالي ببراءته من ارث النظام السابق، هناك استمرارية بل احتضان كامل لإرث الماضي". (محمد حاتمي)، رضوى عاشور، لكل المقهورين أجنحة، ص 90 و 91.

¹ - نائل الطوخي، حوار: رضوى عاشور أكتب كما اعرف- هكذا حاصرتنا اللحظة الراهنة في بيوتنا-، مجلة الكلمة، العدد 24/ديسمبر/2008، الموقع: <http://www.alkalimah.net> Read تاريخ التصفح: 2019/02/20. التوقيت: 10:00 صباحا.

* أنظر، الفصل الأول من هذه الدراسة، الجزء المتعلق بالتحليل النقدي للخطاب.

أيضا، عن طريق استئناس الناس أو تدميرهم، وهناك نماذج من الاثنين. السجن خارج السجن أقسى من السجن بداخله. هناك مساجين استطاعوا الاحتفاظ بإنسانيتهم، ولكن هناك آخرين لم يسجنوا ومع ذلك تمّ تدميرهم. دمّروا خارج السجن¹.

يمثّل السجن خارج السجن أقصى درجات القمع، وهذا النوع من السجون في صميم ما تروم هذه الدراسة تطبيقه، والكشف عنه عبر البحث عن الميكانيزمات والآليات، التي تجعل الإنسان خضوعا خنوعا مبرمجا على السمع والطاعة لا يعترض على أية قوانين ولا مواقف، إلاّ قلة قليلة خاصة المثقفة منها هي من يتفطن لواقع ما يدور حوله، وعندما يبدأ نضاله في سبيل أفكاره يقابل بالسجن بنوعيه المادي والمعنوي حسب مقتضيات المعارضة ودرجاتها.

تصبح الكتابة عن هذا النوع من السجون بمثابة انتصار للمعنويات "التي تصفّي آلة القمع والاستبداد بفضحها، وتقدّم دفاعا بليغا عن النفس، يصبح بدوره جزءا من آليات التأثير والتغيير باتجاه واقع تاريخي أرقى، ولما كانت الذاكرة، استرجاع الماضي وبعث تفاصيله ومراجعته، عنصرا أساسيا من عناصر تنظيم المقاومة من أجل البقاء، فإنّ هذه الكتابات تصبح برحلتها إلى الجحيم مرّة أخرى رحلة اختيارية هذه المرة، لتأمله وتفحصه وكتابته عملا تاريخيا يسترجع الماضي ليتدخل في الحاضر والمستقبل².

يعيد الكاتب إعادة استرجاع الذاكرة التاريخية سواء عايشها أو قرأ عنها، خاصة ما تعلق بها بالقمع المسلّط على الشعوب في العالم عامة والعالم العربي بصفة خاصة، محاولا فضح أساليب الهيمنة والطغيان طمعا في بثّ الوعي في المجتمع والسير به قدما نحو تحقيق التغيير إلى الأفضل.

¹ - نائل الطوخي، حوار: رضوى عاشور أكتب كما اعرف- هكذا حاصرتنا اللحظة الراهنة في بيوتنا-.

² -رضوى عاشور، لكلّ المقهورين أجنحة، ص93.

تنتج الرواية بهذا "ما يوهم بأن هذه الحكاية موثقة عن تجارب الأفراد الفعلية، وخاصة إذا تعلق الأمر بالقمع المسلط على الإنسان، والذي يتجلى في أبشع صوره وهو السجن. وإذا كان المثقفون-على مرّ التاريخ-معرضون للقمع- بسبب تبنيهم موقف طرف ما في الجدل السياسي أو معارضتهم لسياسة الحكم الاستعماري أو الوطني، لذلك هم أكثر الناس قدرة على التعبير عن هذه المعاناة "السجنية" خاصة إذا كانوا مبدعين"¹.

أما عن الدافع وراء كتابتها حول موضوع "السجن" نقول: "الكاتب لا يعرف بالضرورة كلّ ما بداخله. هو يعرف أشياء كثيرة يعي بعضها ولا يعي البعض الآخر. لماذا نكتب عن السجن؟ هل نشعر أننا كجيل تجاوز الستين. أنا تجاوزت الستين ... والبساطي* ربما يقترب من السبعين أو أتمّها، هل نشعر أن وطأة اللحظة ثقيلة وأننا مسجونون فيها. ربما. وهذه الفكرة تلح عليّ من زمن طويل"². فالسبب الرئيسي وراء كتابتها عن السجن نابع من نضالها ضد الأفكار والإيديولوجيات، والسموم التي أصبحت تسري في دماء الإنسان العربي دون وعي منه.

وعن روايتها "فرج" نقول "لا أكتب روايتي لأنّ هناك فكرة ما يتمّ طرحها، وإنّما لأنّي أريد أن أكتب، أكتب مثلاً رواية السجن التي أتمناها طوال عمري. فإذا بي أكتب فصلاً خاصاً بـ "فرج"، ويكون تلخيصاً لتجربة "أحمد المرزوقي" الذي سجن عشرين عاماً في تازمامرت بالمغرب. كتبت هذه الصفحات الأربع بدون أن أعرف السبب. المرزوقي له كتاب اسمه "الزنانة رقم عشرة"، وبين كل فصول الكتاب استوقفتني هذه الحكاية الصغيرة التي تخص "فرج" وحكايته مع السجين. لخصته،

¹- علي منصورى، البطل السجين السياسي في الرواية العربية المعاصرة، ص 107.

*محمد البساطي، مؤلف رواية-أسوار- التي تدور أيضاً داخل عالم السجن.

²- نائل الطوخي، حوار: رضوى عاشور أكتب كما أعرف- هكذا حاصرنا اللحظة الراهنة في بيوتنا-.

ووجدت نفسي بعدها أبدأ الرواية¹.

فرج رواية تحكي أزمة المثقف العربي الذي يقابل بالقمع لمحاولته الوقوف في وجه النظام، والأفكار التي يسعى لتجسيدها وترسيخها، كما سنرى في الجزء التطبيقي، أما عن الآليات المطبقة في التحليل سنتماهى تماشياً مع ما يفرضه كل نص أدبي من خصوصية.

بعد تقديم تعريف للكاتبة وإحاطة بوعيتها النقدي والأدبي وانعكاساتها على إنتاجها الروائي، بعد السياق الخارجى نسجل انتقالاً للحديث عن عنصر آخر وهو السياق الداخلى.

3/الموضوعات: البنى الدلالية الكبرى:

3. 1/السياق العام للرواية:

صدرت رواية "فرج" عن دار الشروق في طبعتها الأولى عام 2008، تعتبر رواية تاريخية قدم لها الناشر بملخص في الغلاف الخلفي بقوله: "في سرد روائي جذاب تقدم رضوى سيرة "ندى عبد القادر" التي عاشت تجربة ثلاثة أجيال من المساجين، أبيها الأستاذ الجامعي ثم هي شخصياً، ثم أخيها الذي لا يتجاوز عمر ابنها المفترض، كما تعيد قراءة الستين عاماً الأخيرة بحروبها التي لم تكن أولها في 1956 ولا آخرها في 2006، مازجة كل هذا وبعمر مع مقولات وحكايات مثقفين مصريين، وفرنسيين قاوموا هزائمهم وآخرين قتلتهم الهزائم ذاتها"².

تزوج فيها الروائية بين التاريخ والحبكة الدرامية مصورة معاناة الطبقة المثقفة عربياً وغرباً، بالتوثيق لمظاهرات الطلبة في مصر وفرنسا، وكذلك حديثها عن أقبية السجون كونها أداة للقمع السلطوي عبر المعتقلات السياسية في كل من سوريا

¹ - المرجع نفسه.

² - رضوى عاشور، فرج - رواية -، دار الشروق، القاهرة، ط1، 2008، الغلاف الخارجى.

والمغرب ولبنان وبالأخص مصر، كاشفة عن تاريخ طويل من الهزائم والخيبات، مسّت أجيال متلاحقة من فئة الشباب الحاملة لإرادة التغيير السياسي، بداية بوالد ندى ثم ندى ولاحقاً أخويها غير الشقيقين نادر ونديم... وغيرهم من طلاب الجامعة. في عملية سرد للأحداث، تمزج بين الماضي المير والحاضر المضني، والمستقبل الطامح والمريد للتغيير والباتّ للوعي، تحكي لنا الروائية أزمة المثقف العربي، في البلاد العربية قاطبة... عبر أجيال متتالية جسّدتها ندى كشخصية رئيسية أو بطلّة إن صح التعبير، إلى جانب والدها عبد القادر سليم الذي يشغل منصب أستاذ جامعي بمصر، الصعيدي الأصل والحامل لشهادة الهندسة من جامعة السوربون الفرنسية، والمتزوج بامرأة فرنسية الأصل وأخويها غير الشقيقين "نادر ونديم" من زواج أبيها الثاني من "حميدة".

تروي لنا "ندى" بطلّة هذه الرواية وساردة أحداثها، حديثاً عن علاقتها بأبها وأبيها وزوجة أبيها وأخويها التوأمين، إلى جانب أصدقاء الجامعة المشاركين في النضال ضدّ السلطة كحازم وسهام وأروى، وغيرها من المشاهد والوقائع التي لامست وصوّرت معاناة المثقف في ظل الصراعات الراهنة آنذاك، والسيطرة القمعية المطبقة، أين لخصت لنا معاناة المثقف في العالم الغربي (مظاهرات فرنسا)* عبر شخصية "جيرار" في أحداث غلق جامعة السوربون عام 1940، حيث يروي "جيرار" في يوم

* هي مظاهرات طلابية نادت بإصلاح التعليم، في الثالث من مايو فرقت الشرطة مظاهرة السوربون (أشهر جامعة في باريس)، واعتقلت مئات الطلبة وجرح العشرات منهم، وعقب الحادثة توقفت الدروس في السوربون ونزل الطلاب في شوارع-الحي اللاتيني- حي الجامعة في باريس ليواصلوا احتجاجاتهم. سقط في تشابكات في السادس من مايو في الحي اللاتيني مئات الجرحى، وفي ليلة العاشر من مايو نصب الطلاب المتاريس يقطعون بها طرق الحي اللاتيني واندلعت أعمال شغب، نجم عن ذلك دخول نحو 400 شخص المستشفى، كان أكثر من نصفهم أفراد في الشرطة. بدأ الطلاب اليساريون ينادون بتغييرات جذرية في الاقتصاد والسياسة في فرنسا. وخطط زعماء اتحاد العمال (نقابة العمال) لإضرابات عن العمل دعماً للمظاهرات الطلابية. وهي احتجاجات وهناك من يسميه ثورة لم تذهب سدى، إذ نتج عنها قيام حكومة ديغول بعدة تنازلات منها رفع أجور العمال وتحسين ظروف العمل وتمير برنامج إصلاح تعليمي هدفه تحديث التعليم الجامعي.

الجمعة الثالث من مايو، تحلّق النشطون من الطلاب حول الثمانية المقرر مثلهم أمام مجلس التأديب يوم الاثنين اللاحق. ثمّ كبر الحشد ثمّ ازداد أكثر في الرابعة بعد الظهر، حاصرت شرطة مكافحة الشغب الجامعة وبدأو في اعتقال الطلاب فانتشر الخبر، فراح مزيد من الطلاب يتوافدون على المكان، وبدأت معركة بينهم وبين الشرطة. وأعلن إغلاق الجامعة، فكانت هذه المرة الثانية طوال سبعمائة عام تغلق فيها جامعة السوربون، المرة الأولى عام 1940 حين احتل جنود النازي باريس¹.

وغيرها من المظاهرات والاعتقالات والتصعيدات، حتّى شملت إضرابات العمال فرنسا كلّها حيث تقول ندى "كيف أضرب العمال فتوقف العمل في المصانع والمنشآت، كيف تمكن عمال النقل بإضرابهم من تعطيل المواصلات في باريس ثمّ القطارات التي تربطها بغيرها من المدن. أكرر: 9 مليون، تصوّر؟"².

لينتقل هذا المدّ التظاهري عبر الصحف والمجلات إلى الضفة العربية بغية التغيير والقضاء على الفساد، بين هذا وذاك تلتقي تجربة المثقف العربي مع الغربي أحيانا وتختلف أحيائين أخرى في كيفية التصديّ لها من قبل السلطة الحاكمة والنتائج التي آلت إليها، أو نجمت عنها حيث تبرز مظاهرات الطلبة في فرنسا " والدور التحرري الذي يقوم به الطلاب، والذي يبدو أنّه لم ينته بعد"³. إلّا أن معاناتهما واحدة ونضالهما واحد في التصديّ للأنظمة القمعية بحسب أشكالها العسكرية والسياسية.

نستشف ممّا سبق " أن أيام قلق الستينيات التي اكتوت بجحيم هزيمة 67 لم تكن أيام قلق مصرية أو عربية فحسب، وإنّما كانت جزءا من كلّ يشمل الكثير من شباب العالم الذي تجاوب مع أقرانه في كل مكان للتمرد على القديم من ناحية، ودفع

¹-رضوى عاشور،-فرج-رواية، ص54

²- المصدر نفسه، ص 61.

³-جابر عصفور، بعيدا عن مصر، الدار المصرية اللبنانية، 01/ يناير/ 2019. كتاب الكتروني الموقع الإلكتروني: books.google.dz>books تاريخ التصفح: 2021/11/14. الساعة: 09:59.

الجديد الواعد من ناحية موازية.

ولذلك لم تكن من قبيل المصادفة أن تحدث ثورة الطلاب في فرنسا سنة 1968 مع صدور مجلة "جاليري 68" في القاهرة، ومظاهرات طلاب الجامعة التي دفعت عبد الناصر إلى إصدار بيان مارس 1968، امتصاصا للغضب الطلابي، الذي لم يصل إلى عنف الطلاب الباريسي الذي كان ثورة سياسية ثقافية اجتماعية جذرية، أفضت إلى استقالة ديغول وموته اللاحق¹.

تباينت أصوات القمع داخل الصرح الروائي وتعددت، كما تشابكت رؤى ووجهات نظر شخوصها إلا أنها التقت في بوتقة واحدة على اختلافها، وهي الرفض القاطع السري أو العلني لكل أشكال القمع السلطوي سواء المادي منه أو المعنوي، عبر تصوير صورة المثقف المقموع نفسيا وجسدي، الذي يعيش صراعا مريرا بين أنه الرافضة، وأنه القامع المتجبر اللذان ينتميان إلى نفس الرقعة الجغرافية.

سنتطرق في تحليلنا إلى مجموعة من الموضوعات الكبرى التي تصور لنا أساليب تمثيل السلطة القمعية في الخطاب الروائي، والتمثيل في هذا الصدد لا يعني - التناظر - إنما هو مرتبط بعقائد الايديولوجيا ومقاصد الكاتب وانتقائه، مع ما يتماشى ولحظته التاريخية ورؤيته للعالم، وهو ما نروم إبرازه لاحقا في الجزء المخصص للحديث عن أصوات القمع وتشكيل الوعي بمسائل الواقع والذاكرة، وكيفية تشكيلها وبنائها ووجهة النظر، والرؤية التي تنقلها أو توصلها ليحضر في تحليلنا كل من السرد والتداولي والتحليل النقدي للخطاب والقمع.

كلها مجموعة من العناصر المترابطة، التي شكلت ايديولوجياتها ومضامينها الخفية موضوعة القمع ورسختها وأرخت لها بإيقاظ الوعي بها بالتوثيق والتصوير، عبر

¹ - جابر عصفور، زمن القص - شعر الدنيا الحديثة -، الدار المصرية اللبنانية، 2017، الموقع: books.google.dz/books تاريخ التصفح: 2021/11/14. الساعة: 10:59.

حبكة درامية لم تكن فيها الروائية بالوصف الدقيق أو الشكلي لشخصياتها، في حين أفاضت الحديث عن الجانب النضالي والقمع المطبق على هذه الشخصيات، مع وصف مدقق ومفصّل لأقبيّة السجون والمعتقلات والمساكين، مع استحضار لشهادات وأقوال مفكرين وفق خطابات متخلّلة وأخرى منقولة.

3. 2/ السياق الداخلي /سطح النص: أي السياق المتعلق بسطح النص وبدراسة العنوان الرئيسي والنصوص الموازية.

3. 3/رمزية العنوان ومقّص الرقابة:

وردت كلمة " فرج " نكرة غير معرّفة، مشكولة مع حركة الفتح لكل من الفاء والراء وترك حرف الجيم مطلقا بدون أي حركة، وفي ذلك تضارب بين التكرير الذي يراد منه المجهول أو الأمر غير المعلوم، وبين التشكّل الذي يراد منه التخصيص والتعريف والتوكيد، أمّا وضع هذه الكلمة بين مزدوجتين وإلى جانبها شكل يمثل قضبان السجن يعني تقييداً لهذا الفرّج وحصره له.

توحي مجمل هذه الإيحاءات بدلالات تستهدف القارئ، وتدعوه إلى إمعان النظر في العنوان عبر علاقة تواصلية بين الكاتب والقارئ بغية الكشف عن مقاصد معينة. عنوان رواية " فرج " فيه نوع من المخاتلة والمغالطة، حيث لا يشير هذا العنوان إلى موضوع الرواية، ومضمونها وهو طابع الرواية السياسية، التي غالبا ما تحمل عناوين رمزية موحية بعيدة عن مضامين نصوصها بغية عدم لفت انتباه السلطة، أو مقّص الرقابة وهو ما يسمّيه فيركلف بالرقابة السلطوية.

مست هذه الرقابة السلطوية فترة الستينيات وما تلاها، ولازالت إلى يومنا هذا حيث كان "كان يخشى من الفنانين والكتاب والأدباء والشعراء والروائيين، الذين يعملون على إيقاظ العقول وتبصيرها، بثّ روح الرفض في نفوس أصحابها، ومن ثمّ فقد تمّ التضييق على حرية التعبير، فتعين على الكتاب المؤلفين أن يخفوا رسائلهم التي

يريدون توصيلها بالباسها ثوب الرمز، لإخفائها عن أعين الرقباء"¹. حيث صودرت العديد من الأعمال قبل أن ترى النور، كونها متضمنة لعناوين موحية بالمعارضة أو التوجه السياسي.

دفع ذلك بالعديد من الروائيين المصريين في كتاباتهم السياسية إلى اختيار "عناوين رمزية تفتح آفاقاً رحبة للتفسير والتأويل، ويمكن ملاحظة ذلك في عناوين كثيرة مثل "تلك الرائحة"^{*} و"اللجنة" لصنع الله إبراهيم، و"السقف" لفؤاد قنديل و"السائرون نياما" لسعد مكاي، و"البيات الشتوي" ليوسف القعيد وغيرها.

هذه العناوين الرمزية الموحية ترمي إلى البوح بدلالات تلامس حقيقة الواقع المصري والعربي، ويرى جابر عصفور "في مقال له بعنوان "الاستبداد والإبداع" أن الرواية في العصر الحديث ظلت في حال من الأمان لأنها لجأت إلى الرموز وأخفت مراميها وراء المجازات"².

¹ - محمد سيد أحمد المتولي، العنوان في الرواية العربية، الرمز والأبعاد الثقافية، مركز نماء للبحوث والدراسات، 12/ مارس/ 2017، مقال الكتروني، تاريخ الدخول: 11/12/ 2021، الساعة 23.00. الموقع: <https://nama-center.com>

^{*} جدير بالذكر أن العنوان الذي وضعه صنع الله إبراهيم، لهذه الرواية عند كتابتها كان "الرائحة النتنة في أنفي" ثم عدل عنه إلى هذا العنوان الرمزي بعد حوار تمّ بينه وبين يوسف إدريس، "تلك الرائحة" لـ"صنع الله إبراهيم" تكشف "عن أن الرائحة الواردة في الرواية وفي عنوانها هي رائحة كريهة قبيحة على الحقيقة والمجاز، إذ لو رحنا نتلمس دلالة العنوان على محتوى الرواية لوجدناها دلالة رمزية خالصة على استئراء الفساد والقمع وقهر السلطة والاستغلال... واختلال القيم في المجتمع، ولعلّ السبب في تغيير هذا العنوان هو نفسه السبب الذي اضطر نجيب محفوظ إلى تغيير عنوان روايته "القاهرة الجديدة"، فهي لم تكن تحمل هذا العنوان بداءة وإنما كان عنوانها "فضيحة في القاهرة"، وقد منعت الرواية من النشر بهذا العنوان لأسباب سياسية وأخلاقية، لأنه عنوان حافل بدلالات الفضيحة وألوان الفساد الأخلاقي والسياسي والاجتماعي، وهو ما لم تستصغه السلطة الرقابية في ذلك الوقت لأنه يصور القاهرة الجديدة، قاهرة الأفاقين والمنافقين، والوزراء المرتشين. أنظر، محمد سيد أحمد المتولي، العنوان في الرواية العربية، الرمز والأبعاد الثقافية، مركز نماء للبحوث والدراسات، 12/ مارس/ 2021.

² - جابر عصفور، الهوية الثقافية والنقد الأدبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2010، ص145. سيد أحمد المتولي، العنوان في الرواية العربية، المرجع نفسه.

أما " فرج " عنوان روايتنا فيثير العديد من التساؤلات من هو " فرج " في معناه الايجابى؟ هل هو فرج حقيقى أم هو فرج زائف؟ هل هو الفرّج المتعارف عليه، أم هو مجرد اسم لشخصية عادية داخل الرواية الغرض منها التمويه، وغيرها من الاستفهامات التي تستوقفنا.

كل هذه التساؤلات والاستفسارات لا يستطيع القارئ الإجابة عنها حتى يصل إلى الفصل الأخير من الرواية، الذي صرحت كاتبته (كما سبق وأشرنا في بداية هذا الفصل) أنه الفصل الأول الذي قامت بكتابته وأرجأته إلى الأخير ليحمل عنوان الرواية، وعنوانه بفرج وهو تلخيص لتجربة "أحمد المرزوقي" * داخل السجن كما رأينا سابقا. ومؤلف كتاب-الزنزانة رقم 10- الذي يتضمن غلاف كتابه الخارجي الخلفى قول: " مضى ما يقرب من عقدين من الزمن والسلطات المغربية تنكر وبشدة وجود معتقل للموت البطيء على أرضها في تخوم الصحراء يسمى تزمّارت، في دياجير تلك الربوع الظلامية الرهيبة، دفن أحياء ثمانية وخمسون ضابطا وضابط صف لصلوعهم عن غير قصد في محاولتين انقلابيتين فاشلتين (أحداث الصخيرات يوم 10 تموز/يوليو 1971، وأحداث طائرة البوينغ الملكية يوم 16 آب/غشت 1972).

بعد اعتقال مرير في ظروف مروعة جهنمية دامت ما يفوق عن ثمانية وعشرين سنة، ألقت تزمّارت أخيرا ما بجوفها، فقذفت بثمانية وعشرين إلى الخارج وهم نصف

*أحمد المرزوقي: هو ضابط مغربي سابق، من مواليد قرية بوعجول شمال مدينة فاس بالمغرب سنة 1947، التحق بالأكاديمية العسكرية وتخرج منها عام 1969، برتبة ملازم ثان، قضى عاما بعد تخرجه في فوج المشاة، ثم التحق كمدرس ومدرّب في مدرسة أهرمومو العسكرية التي تقع شرق مدينة فاس.

وفي العاشر من يوليو/تموز 1971، وجد نفسه مع كافة منتسبي مدرسة أهرمومو متورطا في محاولة انقلابية كان يقودها قائد المدرسة آنذاك، الكولونيا أحمد أعابو ضد ملك المغرب حسن الثاني، وقد عرفت هذه المحاولة تاريخيا باسم محاولة انقلاب الصخيرات، وبعد فشل كثير من زملائه من السجن العسكري إلى معتقل تزمّارت في 15 أكتوبر 1991. أنظر، مكتبة نور، التقديم لكتاب "الزنزانة رقم 10 لأحمد المرزوقي" الموقع الإلكتروني: <https://www.noor.book-com>

أحياء، واحتفظت في أحشاء رمالها بإثنين وثلاثين ضحية. الملازم أحمد المرزوقي ساكن الزنزانة رقم 10 يشهد باسم أصدقائه الناجين والراجلين¹.

هذه الشهادة الفاضحة للسياسات القمعية المنتهجة ضد ضباط ينتمون إلى سلك أمن الدولة، هو تصوير صارخ لما عاناه هؤلاء المساجين لمدة ثمانية وعشرين سنة، في ظل ظروف جهنمية مروعة... وغيرها من الشهادات، التي تقشع لها الأبدان وتذهل منها العقول لقسوة المشاهد التعذيبية النفسية والجسدية التي تفوق الوصف والخيال في معتقل أنشأ خصيصا من أجل هؤلاء الضباط حيث يصرح "المرزوقي" بقوله:

"منذ اللحظات الأولى علمنا بواسطة بعض الحراس باسم هذا المعتقل... ترممّارت... اسم لم تكن رنته غريبة على مسامعنا فقد أخبرنا ونحن في سجن القنيطرة بأن معتقلا عسكريا يحمل هذا الاسم كان قيد البناء في تخوم الصحراء، غير أننا لم نشك لحظة واحدة أنه كان يبنى من أجلنا وأننا سنكون أول من نتشرف بتدشينه"².

و "فرج" هو شهادة من شهادات المعتقل السياسي "أحمد المرزوقي" التي ترونها "رضوى" في آخر فصل لها تقول:

"فصل الختام

فرج

يحدثنا نزيل الزنزانة رقم 10 في سجن ترممّارت عن يوم مشهود عاشه سجناء المبنى رقم 2 بالسجن، وقلب حياتهم رأسا على عقب.

¹ - أحمد المرزوقي، ترممّارت، الزنزانة رقم 10-سيرة ذاتية-، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 2012،

أنظر، الغلاف الخلفي للرواية.

² - المصدر نفسه، ص89.

قبل ذلك اليوم ببضعة شهور، نزل السجن سرب من الحمام البري بني له أعشاشا في السقف. استقبل السجناء الحدث بمشاعر متضاربة. تشاءم البعض وأكد أن الحمام البري لا يسكن سوى المقابر والأطلال والأماكن المهجورة، وأشار إلى معتقد شعبي مفاده أن الحمام يحمل الموت في أذياله. وتوجّس البعض الآخر من أن تجذب أفراخ الحمام الثعابين. وتفاعل آخرون وذكّروا زملاءهم بحمامة نوح وغصن الزيتون والبشارة¹.

فرج هو "فرخ الحمام" الذي سقط من أعلى السقف حيث "سمع السجناء صوت شيء يسقط من السقف...وعندما فتح الحارس أبواب الزنازين لتوزيع كمية الماء المقررة كل يوم، مدّ مرزوقي يده بسرعة والتقط الشيء الأبيض، قبل أن يراه الحارس. أغلق الحارس الزنازين وذهب.

هتف مرزوقي: فرخ حمام!...

صاح المرزوقي: سميته فرج².

كان "فرج" شبه عار، إلا من زغب، ريشه جديد وقليل، جنبه متورم إثر السقوط من أعلى السقف الذي يعلو الأرض بحوالي أربعة أمتار، اعتنى به المرزوقي حتى اشتدّ عوده، ليصبح فيما بعد مؤنس المساجين ومصدر فرح بالنسبة عامة والمرزوقي بصفة خاصة. ليحاولوا فيما بعد إخراجه من الزنزانة وبعد محاولات عديدة طار فرج، يقول أحد المساجين:

"تشجع يا فرج، أدخل راسك أولا بين القضبان، ثم جسدك وينتهي الأمر". والمرة الأخيرة وبواسطة يد المكنسة توصل سجين من اخراجه عبر القضبان. عاد فرج مرة أخرى. لم يكن وحيدا، بل في رفقة إلف، حمامة بديعة الهيئة، هكذا رآها مرزوقي، وسجل في كتابه (نحيلة الجسم، رأسها صغير وريشها لامع، أنثى جميلة). هذه المرة لم

¹-رضوى عاشور، فرج -رواية-، ص215.

²-المصدر نفسه، ص216.

يحاول فرج الدخول، كان منتفخ الأوداج، واثقا من نفسه.خاف إلف من صيحاتنا.طارت بقي فرج قليلا ثم لحق بها"¹. ليستقر بعدها تحت السقف في مقابل الزنزانة رقم 10. بين من الدلالات المعجمية* لكلمة " فرج" أنها حاملة لمعنى التخلص من الشدة والهم، أما في روايتنا فهو فرج مأمول عبّر عنه بطائر حمام يستطيع أن يحلق فوق جدران الزنزانة، وهو كذلك تعبير عن الحرية المنشودة من قبل الروائية الطامحة للتغيير وكأنه المتنفّس من المعاناة التي لاقاها المعذبون في غياهب السجون والأقبية، وهنا يبرز القمع في أعلى مستوياته فالفرج هو خطاب غير مباشر يتضمن في مقصدياته الخفية الحلم والأمل في التخلص من السيطرة، والسلطة بنوعيتها المباشرة وغير مباشرة المطبقة على الذات العربية، ففرج في الحقيقة هو بصيص الأمل الذي شغل المساجين ونفس عنهم، ولكنّه سرعان ما أسسّ لنفسه حياة أخرى خارج الزنزانة، ليعبّر عن حرية مستحيلة الوقوع في ظلّ راهن متشبع بالهيمنة والقسر وغيرها من الأساليب السلطوية القائمة.

رأينا أن نختم هذا العنصر برؤية "جابر عصفور" التي ترى "أن الإبداع الأدبي بعامة، والروائي بخاصة، قد تمتع بنوع من الحرية بعد العام السابع والستين، وكان تسامح النظام الناصري مع جيل الستينات بوجه خاص نوعا من إتاحة بعض المسارب، التي يندفع بها الغضب المكتوم في صدور الأجيال الشابة بما لا يؤدي إلى

¹ - رضوى عاشور، فرج -رواية-، ص219.

*1/فرج-فرجا وفرج الشيء: فتحه //وسّعه.انفرج:انفتح// وما بين الشينين اتّسع.الفرجة:ج فرج: كلّ منفرج بين شينين.2/فرج-فرجا الله الغمّ عنه: كشفه وأذهبه فرج الله الغمّ عنه: فرجه//و-ه على شيء غريب لم يره من قبل: أراه إياه.تفرّج: الغمّ: تكشف و-الرجل من ضيقة: تخلص منها،الفرج: الانفراج، الفرجة: الخلوّص من الشدة والهمّ.أنظر، مجموعة من المؤلفين، المنجد في اللغة والأعلام، دار الشروق، بيروت، ط43، ص574.

انفجارات خطرة، صار النظام المهزوم يحسب حسابها، ويؤجلها بالسماح للصدور المبدعة، بالتفويض عما فيها من إحباط عظيم، وغضب لا حدود له¹.

لكننا نرى أنها حرية مقنعة، وتسامح مصطنع أو ما يصطلح عليه بذر الرماد على العيون، هذه الحرية المزعومة هي مجرد أغلال تتحكم في المبدع وتوجهه وتجعله يتفنن في رسم معاناة وآلام الشعوب، لتوجيه الرأي العام، ولتشكيل وعي جمعي ينشغل في حقيقة الأمر عن آماله وطموحاته أمام أمور برمج لا إراديا للخوض فيها. وهو ما يسمى عند "فان ديك" بالمرجعية الايديولوجية التي تجعل الإنسان يتظاهر لإسقاط النظام بدلا من طلب تحسين مستوى المعيشة أو ترقية التعليم... وغيرها.

حتى أن التسليم بواقع العناوين الرمزية من قبلنا ومن قبل النقاد والروائيين على حد سواء هو في حد ذاته، أقصى أساليب القمع السلطوي المطبق وهو ما يسميه "فيركلف" التطبيع أو المنطق السليم الذي شكل وعينا وذواتنا لتتعامل مع هذه الرقابة على أنها أمر عادي، يجب علينا إيجاد الحلول للانفلات منها عبر المجاز والمغالطة. تضمنت الرواية ستة وعشرين فصلا اختص كل فصل من الفصول بعنوان معين رتبت كالآتي:

الصغيرة تصاب بالحمى، أي الرجلين أفضل، المحاريق، مشاكل ترجمة، باريس، العودة إلى القاهرة، تذكرة إلى فرنسا، البانوبيكون، مفارقات السيدة فرتوننا تدخل المشهد، مقال في أهمية الزراعة، عمّي، تأملات في زمن موت والدتها، الرسالة الناقصة، التوأم، واقعة، العيد الكبير، مستجدات، السيارات الزرقاء، سهام، سجن العمر، زهرة العمر، فرج.

¹ - جابر عصفور، الهوية الثقافية والنقد الأدبي، ص 146. نقلا سيد أحمد المتولي، مقال العنوان في الرواية العربية.

تحمل هذه النصوص الموازية في طياتها مضامين ودلالات متبدية وخفية في الوقت نفسه، تحكي ممارسات قمعية ظاهرة وإيديولوجية، مست عائلة ندى عبد القادر بطة هذه الرواية عبر أجيال مختلفة الأب الابنة والأولاد أو الأحفاد وهذه الأجيال المتلاحقة من نفس العائلة كرسّت معاناة المثقف العربي جراء القمع المسلط على مرّ الأزمنة.

فالعناوين السابقة الذكر ليست في صميمها، إلاّ تعبيرا عن خيبات متوالية عاشتها هذه العائلة في ظلّ سيطرة الحكومات على الخيرات والأفراد، في مجموعة من الأحداث والصور والوقائع، رسمتها الروائية لتعبّر عن عمق القمع المطبق، والمفرع الذي لحق شخوص الرواية المثقفة بالأخصّ أو على قدر كاف من الوعي بالأحداث السياسية القائمة لتجسّد أزمة المثقف العربي في ظلّ الصراعات السلطوية الراهنة، وفق ما يعيشه ووفق ما تقتضيه التحوّلات التاريخية، والسلطات القائمة الممارسة التي تفرض عليه شكل من أشكال القيود، تكبله وتقيده رغم محاولاته العديدة و جهوده الحثيثة للتخلص منها عبر نضاله، إلاّ أن القمع السلطوي المطبق أقوى وأعتى جعل كلّ تلك المحاولات في سبيل التحرر، التي عاشتها ومارستها الأجيال المختلفة لهذه العائلة تبوء بالفشل في مجملها فشل بلون السجن، فشل بلون الانتحار، فشل لرؤى وأحلام وغيرها من الخيبات والإخفاقات.

بعد دراسة العنوان، والوقوف فحوى النصوص الموازية، حريّ بنا تلخيص النص الروائي إلى قضايا كبرى هي تعبير مباشر عن بعض عقائد الايديولوجيا.

3. 4/تمثيل القمع السلطوي على مستوى التيمات الكبرى للرواية:

بعد دراسة العنوان بشقيه الرئيسي والموازي، رأينا بضرورة تلخيص الرواية في عدّة قضايا كبرى، أو تيمات كبرى، معبرّين على تجسيدها للقمع السلطوي عبر بثّها

لعقائد إيديولوجية ظاهرة، وأخرى خفية في النص الروائي كما ستبرزه التيمات المستخرجة.

بين هذا وذاك تتضح لنا مجموعة من التيمات مرتبطة ببعضها البعض، مرسّخة لشتى صور السجن* بنوعيه كما رأينا سابقا عبر سلسلة من الأحداث تعكس رهن ما تعيشه المجتمعات العربية والغربية من قمع مادي ومعنوي يمّس الطبقة المثقفة، التي تناضل بالقلم محاولة إيصال صوتها والتحرر من القيود المفروضة بين العالمين، وهي تيمات تظهر في شخوص عائلة ندى عبد القادر وأصدقائها في الجامعة ونلخصها فيمايلي:

أولا: "صراع الأنا المثقف المهزوم الفاقد للأمل العازف عن النضال مع غيره المثقف" وتجلى ذلك في شخصية عبد القادر والد ندى، الذي سرعان ما تراجع عن نضاله بعد ما عاناه في أقبية السجون في أثناء حكم الرئيس جمال عبد الناصر.

* كتابات السجون أو ما يصطلح عليه بأدب السجون، رافد مهم من روافد الأدب العربي قديما وحديثا أسهم فيه بدرجات متفاوتة رجال ونساء ليبراليون وشيوعيون وإسلاميون، وأفراد لم ينتموا لأي من هذه الاتجاهات السياسية، وكتاب مهمتهم الكتابة، وكتاب كان نص السجن هو نصهم الوحيد، سجلوا فيه تجربتهم ثم مضوا، إلى أشغالهم وتخصصاتهم الأخرى، وتشمل هذه الكتابات فضلا عن اليوميات والسير الذاتية الروايات والقصائد والمسرحيات، شهادات لا حصر لها ومقابلات وشذرات، باختصار لدينا مادة هائلة تطالب الباحثين بفحصها وتحلي خطابها وتتبع سماتها وأشكال حوارها مع واقعها التاريخي من منظور الدراسات التاريخية والسياسية الاجتماعية والنقدية، أو بدراسات بينية تجمع في مقارنتها بين أكثر من مجال بحثي.

وكانت بداية الإشارة إلى عبد الرحمن منيف إذ تميّز عن باقي من تناولوا هذه التجربة بكتابتها بوصفها حالة عربية مشتركة، في روايته الأولى: الأشجار واغتيال مرزوق 1973، يحكي منيف عن رجل يفر من بلده جراء ما يتعرض له من اعتقال وتعذيب، أما روايته الثانية شرق المتوسط (1975) وهي الرواية الأشهر عربيا في هذا الموضوع والأكثر شيوعا بين القراء، فيتناول فيها الكاتب تجربة الاعتقال السياسي التعذيب في شرق المتوسط، دون تعيين بلد بعينه من بلدانه، وهو ما يفسره تجربة منيف الخاصة.

ومن المؤلفات الأخرى: كتاب تلك الرائحة لصنع الله إبراهيم، معتقل كلّ العصور لفوزي حبشي، أحمد مرزوقي الزنزانة رقم 10، الطاهر بن جلون هذه العتمة المبهرة، رؤوف أوفقي: الضيوف: عشرون سنة في سجون الملك (2003)، و مؤخرا تبعته أخته سكينه بإصدار كتابها: الحياة بين يدي: طفولة في سجون الحسن الثاني، 2008 .. أنظر، شعبان يوسف، أدب السجون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، دط، 2014، ص 21/22 /16 /23/ 12 /13

ثانيا: " تيمة الأنا المثقف المتمسك بمبادئه والمصرّ على نضاله رغم القمع، الطامح للتغيير"، وهو يتجلى في الشخصية البطلة، وهي شخصية ندى عبد القادر التي ظلّت متمسكة بآرائها ضد السلطات الحاكمة على مرّ السنين مناضلة في سبيل التحرر من القمع.

ثالثا: إخفاق الأنا المثقف في مواجهة الأنا الحاكم المتسلط: ومثله كلّ من شخصية سهام التي انتحرت وأروى صالح، كذلك في شخصية ندى التي عزفت عن ممارسة السياسة بعد اعتقالها مؤقتا... لتعود لممارستها بعد أن يكبر أخوها. في شخصية عبد القادر الأستاذ الجامعي الذي سرعان ما انسحب من الساحة السياسية بعد القمع الذي تعرض له في غياهب السجون.

رابعا: " الآخر المثقف المقموع المضطهد الواعي بما يحاك ضده." وجسّدت هذا الآخر والدتها الفرنسية، وشخصية جيران... وذلك عبر رفضهم للسياسات الغربية المنتهجة، ومناداتهم بالتحرر في العديد من المواضع.

خامسا: "تيمة الأنا المثقف المقهور الواعي بالقمع، المناضل المتمرد الرافض لسياسة الحكم"، وهي التيمة الكبرى التي نرصدها في هذه الرواية، وهو أنا متجسد في شخصيات الرواية الراضة للسياسة الحاكمة ومن بينها نجد: ندى ووالدها عبد القادر، أخوها نديم ونادر، الطالبة سهام، أروى صالح، حازم وغيرها من الشخصيات الراضة للسياسات* المنتهجة من قبل الحكام والقرارات الناجمة عنهم.

* الحكم الدكتاتوري للرئيس "جمال عبد الناصر"، والتحكم المطلق في مقاليد السلطة واتخاذ القرارات المهمة ومن بين أهم الوقائع المبرهنة على تاريخه الأسود:

حادثة المنشية: في 26 أكتوبر 1954 افتعل جمال عبد الناصر تمثيلية محاولة اغتياله، وهو يقي خطابا في ميدان المنشية بالإسكندرية، واتهم الإخوان المسلمين وقتها بارتكاب هذه الحادثة... أعدم بسبب تلك الحادثة ستة من قادة الإخوان المسلمين. ساهم الإعلام في تضليل الرأي العام، وسوق للحادثة على أنها جريمة العصر والتفت كلّ الأصوات التي كانت تقول أنّها من فعل الإخوان المسلمين وتجاهل المنادين بأنها مخطط من عبد الناصر بالرغم من امتلاكهم الأدلة الدامغة التي تثبت ذلك وتؤيده.

هي خمس تيمات نسجت خيوط الرواية، جسدت صراعا محتتما عبر أجيال متتالية بين المثقف العادي والمثقف المالك للسلطة، صراع جسده جملة من الأحداث والوقائع من مظاهرات واعتقالات ومداهمات وتعذيب وترويع، وغيرها من الطرق المنتهجة في سبيل إخضاع المثقف العربي، والسيطرة عليه معنويا وماديا، وهذا الذي توضحه لنا الآن المثقفة في الرواية التي أخفقت في إيجاد الحلول من أجل التحرر وبث الوعي، حتى وإن تعددت المحاولات والسبل من أجل التغيير إلا أنها كلها محاولات تبوء بالفشل مقابل سلطة قمعية قاهرة عسكرية وسياسية، وحتى أيديولوجية تحول دون ذلك.

بعد رصد تيمات هذه الرواية ننتقل إلى الحديث عن أصوات القمع داخل الرواية، والعلاقات التي تجمعهم والإيديولوجيات التي يحتكمون إليها، والتي سنبرزها عبر الحديث عن صراع هذه الأصوات المقموعة المساهمة في تشكيل الوعي إلى جانب الأصوات الصامتة وصفاتهم والعلاقات القائمة بينهم، وكذلك إيديولوجياتهم ووجهة النظر التي يعملون على تحقيقها.

اضطلع السارد العليم لأحداث الرواية، والمتحكم في تركيبها وفي حركة شخوصها بمجموعة من الأدوار، اشتركت فيه جميع شخصيات الرواية مع الشخصية

مذبحة ليمان طرة: في أول يونيو 1957 بلغ الطاغية جمال عبد الناصر ونظامه من الخسة بأن أطلقوا الرصاص الحي على أكثر من 180 سجيناً داخل الزنازين وهم عزل لا يملكون ما يدافعون به عن أنفسهم، فاستشهد أكثر من 20 وفقد عقله أكثر من هذا العدد واستطاع الطاغية عبد الناصر أن يحيط هذه المذبحة بجدار من الصمت والتعتيم حتى لا يعرف الشعب المصري عنها شيئاً.

مذبحة كرداسة في 21 سبتمبر 1965 تعرضت قرية كرداسة بمحافظة الجيزة لحرب إبادة جماعية قام بها نظام جمال عبد الناصر الدموي. أنظر، مذابح عسكر مصر بالشعب خير شاهد على تاريخه الأسود. 16/ديسمبر/2018. الموقع الإلكتروني: <https://albosla.net> تاريخ التصفح: 2021/11/17. الساعة: 20:00.

أما سياسته داخل المتن الروائي فتمثلت في قهره وقمعه للنخبة المثقفة التي تخالفه الرأي، والزج بها في أقبية السجون مع التفنن في تعذيبها، إلى جانب اعتقالات الطلبة عند قيامهم بمظاهرات مساندة لقضايا دولية كغزو العراق والحرب على لبنان والقضية الفلسطينية...الخ.

البطلة الناقلة لأحداثها في الرفض القاطع للسياسة الحاكمة في البلاد، عبر توجيه خطابات علنية وخفية ناقدة جملة وتفصيلا لحكم العهد الناصري بالخصوص، والأنظمة السياسية العربية عامة، وذلك عبر النضال الدائم لأجيال متتابعة في سبيل التحرر وتحقيق الديمقراطية المنشودة.

عبر سرد ذاتي استعملت فيه الساردة ضمائر المتكلم الظاهرة في قولها: "أوسّع الخطو أكاد أهول، ألاحق أمي، أخشى أن تسبقني..."¹، وغيرها من الكلمات الدالة على تحكمها في سرد الرواية، إلا أنها سارد مشارك حاضر في أحداث الرواية ومتفاعل مع شخصياتها، تسمح بين الحين والآخر لشخصيات أخرى بتداول السرد نيابة عنها، وهو ما يصطلح عليه برواية وجهات النظر، غير أنها وجهات نظر وإن تبدت مختلفة في بعض تفاصيلها، إلا أنها تتفق وشخص الرواية في ترسيخها لأزمة مثقف عربي يوجه رفضا قاطعا للسياسات المنتهجة من قبل الرؤساء العرب، عبر بث الوعي في المجتمع بفعل القمع السلطوي الذي أرّقه حيث أن "مفهوم الفعل -بحد ذاته- ينطوي على المفهوم (الإدراكي) لسيطرة الفاعل، لذلك تفرض السيطرة الاجتماعية على المجموعة ب- بأفعال المجموعة (أ) قيودا بضبط النفس للمجموعة (ب)، وبعبارة أخرى، تحدد ممارسة المجموعة (أ) للسلطة الحرية الاجتماعية لأفعال المجموعة (ب)"². وهو الحاصل داخل البناء الروائي المجسد لمعاناة المجتمع جراء فعل القمع والهيمنة عبر السلطة.

إنّ الدور الذي اضطلعت به الساردة في هذا الشأن ليس مجرد سرد الأحداث، والكشف عن حكاياتها وحبكتها وتفاصيل شخصها فقط، إنّما عنيت بدور مهم جسدت فيه شخصية المثقف العربي الذي يعيش أزمة وطن، وأزمة سياسية خانقة تفرض عليه من القيود ما يكبله ويمنعه من إبداء رأيه وإيصال أفكاره، فالدور الذي

¹ -رضوى عاشور، فرج -رواية-، ص 05.

² -فان ديك، الخطاب والسلطة، ص 81.

نجحت الساردة في تحقيقه هو جعل المثقفي يعيشه ويتضامن معه ويدركه، عبر تفاعله مع شخصية المثقف الطامح للتغيير، والباث لوعي تحرري باحث عن ديموقراطية حقيقية غير مصنعة، من خلال الخطاب الساخط والناقد لأننا العربية المتحكمة بالسلطة، ساعدها في ذلك استعمالها لضمائر المتكلم التي جعلتها قريبة من الأحداث وأوصافها، لترسخ عبر سردها معاناة مثقف عربي عانى ويلات القمع السياسي عبر شخصيات مختلفة.

4/ صراع أصوات: القمع وأنماط التفاعل الاجتماعي لتشكيل الوعي بمسائل الواقع والذاكرة:

4. 1/ التفاعل الاجتماعي لشخصيات "فرج" والوعي بفعل القمع السلطوي:

لم تسترسل "رضوى عاشور" في روايتها "فرج" كثيرا في وصف شخصياتها والحديثيات المتعلقة بحياتها بما تحب وما تكره، أو الوصف الشكلي الخارجي، إنما عنيت بالبوح والتوثيق للنضال الذي شغل هذه الشخصيات، وذلك بسردها لتفاصيل الجانب المعارض لشخصياتها المثقفة، على اختلاف توجهاتهم الاجتماعية التي تلثي أحيانا وتتصارع أحيانا أخرى، في حبكة درامية نسجت خيوط التاريخ والذاكرة الاجتماعية لمرحلة حكم جمال عبد الناصر، عبر استمالة القارئ ودفعه للتعاطف وفحوى القضية المطروحة.

الدور الذي لعبته الشخصيات في هذه الرواية، تجلى في ترسيخها كلها إلا قليلا منها أزمة المثقف العربي ومعاناته مع قمع سلطوي معنوي، تحكم فيه وفي وعيه من غير شعور منه، وقمع مادي رسمت الروائية من خلاله ما عانه داخل أقبية السجون والمعتقلات، حيث انتهى بها الأمر كشخصيات محطمة فاقدة للأمل، تعاني الشتات والضياع والاكتئاب، تحاول لكنها تفشل جراء ما تتعرض له من ضغوطات وتضييقات وممارسات قمعية من قبل السلطات الحاكمة، فهي ليست أزمة يعيشها المثقف المصري

وفقط، إنّما أزمة ترهق المثقف في الوطن العربي بأسره من بلدان عربية مختلفة ك: لبنان وسوريا والعراق وغيرها، كما تجلت داخل نص الرواية.

فالمثقف العربي أراد من خلال شخصيات ندى، وعبد القادر وسهام وغيرهما المضي بالمجتمع قدما لتحقيق نهضة فكرية وعلمية، لكنّه سرعان ما يصطدم بالواقع السياسي القمعي الذي يفرض عليها إجراءات صارمة تحول دون ذلك... فشخصية المثقف هاهنا تعمل توجيهها للوعي العربي، وطريقة تعامله مع مختلف القضايا الوطنية المصيرية والعالمية، ونلاحظ دائما من خلال الرواية أنّ شخصية المثقف المصرية هي شخصية طامحة للتغيير عبر مخالفتها الشديدة، والعدائية للسلطات الحاكمة.

جسدت "ندى" كونها بطلّة هذه الرواية شخصية مثقفة، قلقة بالوضع المتأزم الذي تعيشه مصر ومختلف أقطار الوطن العربي، ويظهر ذلك جليّا عبر مزجها بين السرد والمونولوج الداخلي* فراوحت بين الماضي، ومعاناة والدها في السجن وما انجر عنه من مخلفات، وبين حاضرها وما تعانيه هي في ظلّ القمع المسلّط، وبين مستقبل أخواها اللذان يحدّق بهما القمع نفسه، فشخصية المثقف في رواية فرج هي شخصية رسمتها ثلاثة أجيال متتالية عبر حقبة زمنية مختلفة، إلا أنّها تلاقي نفس المصير من اعتقال وتعذيب وترويع في غياهب السجون. (الحديث عن السجن دائما نقصد به النوعين السابق ذكرهما المادي والمعنوي).

رأينا في شخصيات رواية "فرج" أصواتا سياسية تتصارع، لتنتقل لنا وجهات نظر متعلقة بالمرجعية الايديولوجية لهذه الأصوات على اختلافها، تكفلت فيها الشخصية الرئيسية أو البطلّة "ندى عبد القادر" بنقلها، عبر سرد أحداث الرواية، حيث تسمح

* خطاب غير مباشر حر Discourse indirect libre، ويعرّف كذلك بأسلوب المونولوج الداخلي وهو الخطاب "غير المسموع وغير المنطوق الذي تعبّر به شخصية ما عن أفكارها الحميمة القريبة من اللاوعي، إنّّه خطاب لم يخضع لعمل المنطق، فهو في حالة بدائية، وجمله مباشرة، قليلة التقيد بقواعد النحو، كأنّها أفكار لم تتم صياغتها بعد. أنظر، لطيف زيتوني، معجم مصطلحات نقد الرواية، مكتبة لبنان ناشرون، لبنان، ط1، 2002، ص119.

أحيانا لبعض الأصوات أن تنقل لنا ما يعتريها من رؤى وتوجهات، وأحيانا أخرى يتدخل أحد أصدقاء الكاتبة أو أقاربها ليشاركها السرد، وهي رسالة الرواية ذات الأصوات المتعددة التي "ترتكز على صراع الأفكار ورؤى العالم"¹.
فالساردة لم تتناول وصفا عميقا لأشكال شخصياتها، كما سبق وأشرنا، إنما اكتفت بنقل أصواتها السياسية الراضية للقمع، المشبعة بطرق تشكل الوعي به، والأيديولوجيا المرسّخة له، جميع هذه الأمور تكشف عن التوجه السياسي لرواية فرج، وهاجس التأريخ لمرحلة حكم عبد الناصر، التي عاشتها الروائية، وما اعتراها من وقائع بينت لنا الهم القومي الذي يشغلها، وتوجهها السياسي المناهض للواعي بما يحاك ضده.

رأينا أن نقسم هذه الأصوات إلى قسمين:

الصوت اليساري المعارض والإيهام بالحرية.

الصوت المحايد الصامت.

3. 1.1 / الصوت اليساري * المعارض والإيهام بالحرية:

تجسد الصوت اليساري المعارض في أغلب شخوص الرواية، وعبر عنه كل من أم ندى وأبيها وأخوها غير الشقيقين بالإضافة إلى أصدقاء الجامعة، وكذلك صوت

¹ - ألبيريس، تاريخ الرواية الحديثة، ترجمة: جورج سالم، منشورات عويدات، باريس/بيروت، ط2، 1982، ص119.

* الفكرة اليسارية، ارتبطت نظريا بالنضال من أجل الخلاص من الظلم الاقتصادي والاستبداد السياسي، مصطلح اليسار يعود تاريخيا إلى الغرب وتحديدا إلى الثورة الفرنسية، عندما أيد عموم من كان يجلس على اليسار من النواب التغيير الذي تحقق عن طريق الثورة الفرنسية.

عربيا نشأ التيار اليساري (القومي والاشتراكي والماركسي) أواسط القرن الماضي مقترنا مع نشأة الحركات الوطنية المناهضة للاستعمار والرأسمالية الصاعدة يومها. شعاراتهم الحرية والمساواة العدالة الاجتماعية، واستطاع اليساريون العرب الإسهام بفاعلية في تشكيل الوعي الفكري والسياسي العربي والحديث والمعاصر. أنظر، توفيق شومان، اليسار العربي - ماذا تبقى من أيديولوجيته بعد تحولاته الراضخة للواقع - اليساريون استهدفوا المساواة الاجتماعية والديموقراطية السياسية، الخميس 10 سبتمبر 2020. الموقع: <https://alarabi21.com>story تاريخ التصفح: 2021/11/13. الساعة: 23:58.

"ندى" الشابة الطموح المريدة للتغيير، الذي رسم لنا صورة نمطية عن هذه الطبقة الشابة الواعية بتوجهاتها السياسية، التي شكلها تاريخ والدها المقموع وحاضره الضائع. هذا الصوت تجسّد بتقلات ندى وتحركاتها داخل المتن الروائي، مهدّت له الساردة بالفصل الأول "الصغيرة تصاب بالحمى" ندى الطفلة الصغيرة ابنة عبد القادر الأستاذ الجامعي والأم الفرنسية الأصل "تصاب بالحمى" في أول مشهد من الرواية، وذلك جراء الرحلة الطويلة لزيارة والدها الدكتور عبد القادر في السجن، لتتفاجأ في الأخير بأنّه لم يتعرف عليها، كلّ هذه القصة تروي لنا معاناة تفضي إلى قمع مطبق لا يعيشه المسجون فقط بل يطال كل عائلته حتّى وإن كانوا في سنّ صغيرة، هذا ما دفع بالفتاة إلى القول أثناء رحلتها بالقطار في محطة مصر "لم يكن الزحام وحده، ولا الضجيج بل بداية تدمير شرس ومتلاحق لكلّ ما بناه خيالي في الأيام السابقة"¹.

هذا التدمير هو أعلى مستويات القمع السلطوى الذي يطبق على الأفراد فهو تدمير يطال الرؤى والأحلام لكي لا تصبح حقيقة، يجعل النظرة إلى الواقع المحيط بنا نظرة مقيّنة يلفها الغموض تجسّد خيبة من نوع خاص، ممّا جعل هذا الحديث الداخلي والنفسي يعبر عن الأذى الذي ألحقته السلطة ليس بوالدها فقط، بل حتّى بها في سنّ صغيرة، ممّا يبرر تمرداها في الكبر ومحاولاتها الكثيرة لتحقيق التغيير، وما حدث لها في صميم القمع حيث "عادة ما تكون السلطة الاجتماعية غير مباشرة، وتعمل بواسطة "عقول الناس"، عن طريق، على سبيل المثال، تنظيم المعلومات الضرورية أو الآراء التي يحتاج إليها الناس لتخطيط أعمالهم وتنفيذها"². وهذا التنظيم من السيطرة الاجتماعية هو الذي شكل صوت ندى اليساري وتوجهها نحو قراءة كلّ ما يتعلق بالسجون كما سنرى.

¹ -رضوى عاشور، فرج-رواية-، ص50.

² - فان ديك، الخطاب والسلطة، ص81.

حيث تقول في زيارتها لأبيها الأولى في السجن: "توقفت بنا السيارة أمام مبنى كبير ممتد من طابق واحد نوافذه صغيرة لها قضبان، وفي أعلى المنبر رجال في أيديهم بنادق، من البوابة خرج ثلاثة حراس، سأل أحدهم:

زيارة؟

زيارة!...

نقطة الوصول لم أتعرف على أبي!.

لم أعد أذكر من طريق العودة شيئاً، سوى أنني محمومة، وأن أمي في السيارة، ثم في القطار كانت تبلل خرقة صغيرة بالماء، وتضعها على جبيني...¹. لتفيض بعدها في الحديث قائلة "طوال الشهور اللاحقة اعتقدت أن أبي هو الذي لم يتعرف علي... يحيل البكاء تلقائياً إلى أن أبي لم يعرف أنني ندى، وأنه نسيني وأنه لا يريدني"².

إن الصدمة النفسية التي تعرضت لها الطفلة الصغيرة عندما لم يتعرف عليها والدها، هي صدمة العمر بالنسبة لها، فربما كانت الفيصل الذي غير مسار حياتها، وجعلتها تهتم بأدب السجون وتتهم قراءة كل كتابات السجن لتغذي ذاكرتها حيث تقول: "كان اهتمامي بكتابات السجن الذي بدأ بجمع المتاح حول معتقل الواحات، مصدره رغبتى في معرفة تفاصيل حياة أبي في السنوات الخمس، التي عشت فيها مغترية عنه، الزنزانة التي يقيم فيها، الفراش الذي ينام عليه الأكل الذي يتناوله"³.

شغلته إذن مجموعة من الأمور طوال السنوات الخمس، حيث كان خيالها مشرداً يبحث لنفسه عن مكان يحط فيه، فراحت تملأ فراغات خيال علاقتها بأبيها بما تقرأه من كتابات السجون فتقول: "عندما بدأت كتابات السجن في الظهور رحت أقرأها

¹ - رضوى عاشور، فرج-رواية-، ص14.

² - المصدر نفسه، ص15.

³ - نفسه، ص29.

بنهم، أملاً فراغات الخيال، أعمرها باللموس المعين وإن كان جارحاً كأسلاك شائكة. كانت المعرفة على قسوتها تمنحني أماناً يستعصي في وجوده هذه الهوة في الخيال، تقيم للذاكرة جسراً تعبر عليه من مرحلة إلى مرحلة، وتصل ما انقطع من حكاية ندى وتاريخها الشخصي، وتعيد لها أباهاً كاملاً رغم كل شيء¹.

إنّ التكوين النفسى لـ"ندى" المتأثر بطفولتها التي عاشتها في كنف أب معتقل، وما خلفته هذه الصورة في ذاكرتها مستقبلاً، ساهمت هذه العناصر جميعها في توجيهها اليسارى، وشكّلت وعيها بالقمع الذي طبق عليها معنوياً وعلى والدها جسدياً، لذلك نجد قارئ روايات السجن مشدوداً إليها، بحكم "حب الاطلاع" والتشوق، إلى معرفة ما يحدث "لآخر" للإنسان في محنته والخوف من أن يصيبه ما أصاب البطل الروائى أو أحد الشخص².

ترسم لنا الروائية مما سبق صراع الصوت اليسارى* صاحب الفكر المعارض، المخالف لفكر النظام الحاكم في مصر، عبر رسم صورة نمطية "جسّدتها" بطلة الرواية ندى ناقلة بذلك هذا الصوت المصرى، العربى، ملخصّة مأساة أمة.

مثّلت الروائية كذلك لصراع الصوت اليسارى المعارض بما عايشته الطبقة المثقفة ضد السلطة، عبر سلسلة المظاهرات التي مسّت مصر خلال الستين سنة الماضية، في عائلة البطلة "ندى" عبد القادر التي أخذت توجيهها اليسارى السياسى من

¹ - رضوى عاشور، فرج-رواية-، ص 29 و 30.

² - على منصورى، البطل السجين السياسى، ص 108.

* يتنادى اليساريون في مصر، وتتجاوب مقالاتهم وتتعالى صرخاتهم إذا مسّ أحد هذا الثلاث المقدس... مجانية التعليم، والخمسين في المائة عمال وفلاحين، والوظيفة المقدسة لكلّ خريج من خريجي الجامعة، لأنهم يعلمون أنّها القنابل الموقوتة التي تركها عبد الناصر بعد موته، لنفخ التناقضات والأزمات والمشاكل حتّى تأتي على البنّان المتهالك من قواعده. ولقد كان عبد الناصر يعلم حينما زرع هذه الوعود في التربة المصرية، أن الوفاء بها سيكون مستحيلاً... وأنها ستظل الشرخ القاتل الذي يقصم ظهر كلّ من يأتي بعده. أنظر: مصطفى محمود، سقوط اليسار، دار المعارف، ط2، دت، ص 65.

والدها المعارض، وتبينته في طفولتها قبل شبابها، عبّر عنه ذلك رغبتها الشديدة في قراءة كتب السجون. وهو ما أعلنه صوتها على طول خط الرواية.

تعتقل ندى على إثر مشاركتها في مظاهرات 1972 مع أصدقائها الشاذلي، وسهام سعد الدين صبري وأروى صالح حيث تقول: "فتح الباب. دخل رجلان في اللباس المدني (اتضح فيما بعد أنّهما ضابطان) يتبعهم ثلاثة من العساكر أو المخبّرين. وبقي عند الباب ثلاثة رجال بزيّ الشرطة يشرعون في أيديهم البنادق. فتشّوا البيت. لم يجدوا شيئاً. قال أحد الضابطيين:

-سأخذها ساعة أو ساعتين، فقط.¹

ساهمت "ندى" الشابة المصرية الصعيدية الأصل في نشر الوعي التحرري، عبر مشاركتها في المظاهرات الطلابية عام 1972، مؤكدة توجهها السياسي اليساري المعارض الناجم عن طفولتها في كنف أب معتقل، وهذا التوجه يلزم صوتها من بداية الرواية إلى نهايتها، بالرغم من بعض مراحل الفراغ التي مرت بها جراء التفكك الأسري بعد طلاق أمّها، إلا أنّها تعاود التظاهر مع أخويها التوأمين نادر ونديم اللذين يعتبران في عمر ابنها المفترض، وهي على أبواب الخمسين من العمر.

تتوالى وقائع تشكّل وعيها بالقمع، مع توجهها اليساري عند حديثها عن والدها، الذي انضوى تحت هذا التوجه قبلها، إلا أن صوته كان حاضراً غائباً داخل الرواية، تقول "ندى" "يمكن لخيالي أن يتتبع أبي في سجن العزب في الفيوم، ثم في أوردي ليमान طرة، ثم لأربع سنوات بعدها في سجن المحاريق بالواحات...وجبة الضرب في الصباح، بعدها يخرج بقدميين حافيتين إلى وادي العقارب"².

إلى جانب رفقاء والدها داخل السجن الذي جمع ثلّة من المثقفين "أقلّب صفحات التعذيب بسرعة...أتأمل عبد العظيم أنيس، وهو يسترجع ما درّسه لطلاب جامعة لندن.

¹ - رضوى عاشور، فرج رواية-، ص78.

² - المصدر نفسه، ص30.

يكتب على أرضية الزنزانة معادلاته الرياضية المعقدة نزولا على رغبة محمد سيد أحمد، الذي أراد أن يتعلم، أحرق في أطباء معتقلين ينقذون ابن مأمور المعتقل من الموت¹.

بعدها يعلو صوت اليسار المعارض بعد اعتقال "نديم" أخوها غير الشقيق، نديم الذي كان في عمر ابنها المفترض بعد اشتراكه في التدخل الأمريكى في الخليج واحتلاله العراق، وفي مظاهرة ضد مذبحه الخليل حيث اعتقل عقب مشاركته مع أخيه، كانت أول مظاهرات في فترة دراستهما الجامعية حيث يقول نادر: "عرفنا بخبر المظاهرة فبدأ الطلاب يتسربون من كلية الهندسة فرادى ومجموعات قاصدين الحرم، نديم قال سأشارك... أنا دخلت محاضرتي... فاعتذرت للأستاذ وخرجت لألحق بنديم"².

ليتم اعتقال أخيه نديم... فتصور لنا الروائية صراع هذا الصوت اليساري المعارض عبر الحديث عن حملات المعتقلات، عن المظاهرات، الزنازين، أرقام الزنازين وشتى طرق التعذيب، هذا الاتجاه الذي أصبح في عين الدولة رمز للذين تحركهم مصالح أجنبية، وتدفع لهم أموال طائلة من أجل المسّ باستقرار وأمن الوطن وأمانه.

أما عن صوت اليسار الغربي* المعارض فمثّل له بشخصية "جيرار"، جار والدة "ندى" هذا الفرنسي الذي تعرفت عليه عن طريق أمها عند سفرها إلى فرنسا بحكم أنهم

¹ - رضوى عاشور، فرج رواية-، ص30.

² - المصدر نفسه، ص160.

* إذا ما أردنا المقارنة بين اليسار في مصر واليسار الغربي، نجد أن "مسز تاتشر وقفت أمام إضراب عمال الفحم ولم تهانن ولم تلن، وطرحت القطاع العام للبيع برغم الاحتجاج، والهتاف وأصوات الاستكار، وأنقذت اقتصاد بلادها، وعالجت التضخم وأعلنت أنها عائدة لتستأصل الاشتراكية من إنجلترا... وحملت أصوات الأغلبية إلى الكرسي من جديد، تقديرا لشجاعتها. وما ظن اليسار أنه مستحيل لم يعد مستحيلا، ولم يعد اليسار بالقوة التي كان عليها في الخمسينيات والستينيات.

يسكنون البناية نفسها، والذي يمرّ بها صباحا للتعرف على كنيسة نوتردام، فتسمح له ندى بالحديث في مكانها فتقول "حكى جيرار:

في يوم الجمعة الثالث من مايو، في الساحة الأمامية للجامعة تحلّق النشطون من الطلاب حول الثمانية المقرر مثلهم أمام مجلس التأديب يوم الاثنين اللاحق. ثمّ كبر الحشد ثم ازداد أكثر في الرابعة بعد الظهر حاصرت شرطة مكافحة الشغب الجامعة، وبدأو في اعتقال الطلاب فانتشر الخبر فراح مزيد من الطلاب يتوافدون على المكان وبدأت معركة بينهم وبين الشرطة. وأعلن إغلاق الجامعة. فكانت هذه هي المرة الثانية طوال سبعمائة عام تغلق فيها جامعة السوربون، المرة الأولى عام 1940 حين احتل جنود النازي باريس.

بعد أقلّ من عشرة أيام من قرار الإغلاق، يضطر رئيس الجمهورية إلى اتخاذ قرار بسحب قوات الشرطة، وإعادة فتح الجامعة. ولكن الأوضاع لم تعد لما كانت عليه. استولى الطلاب على الجامعة. فتحوا أبوابها ليشارك كل من يرغب في التفكير والكلام وطرح الأسئلة والنقاش. وبين إغلاق الجامعة وإعادة فتحها، دارت معارك كثيرة، وتصاعدت إضرابات العمال حتى شملت فرنسا كلها".¹

لقد تحول التيار السياسي في العالم كلّه وسقط الفكر الماركسي حتّى في بلاده، وتراجع اليسار في إنجلترا وفرنسا وإيطاليا وإسبانيا، وفقد أكثر مقاعده في هذه الدول. وفقد سمعته وفقد شرفه، وفي مصر سقط رئيس حزب التجمع في دائرته الانتخابية، ولم ينجح أحد من الحزب الناصري ولا من حزب التجمع، فاليسار المصري مجرد أعمدة في الصحف وشعارات ولافتات وصيحات في لحظة الامتحان لا يجد له رصيда شعبيّا ولا سندا جماهيريّا. هو مجرد بقية مما ترك عبد الناصر وهو أيضا تركّة من الأخطاء القاتلة لا بد من مواجهتها في جراحة.

سقط اليسار في العالم كلّه، وتراجع جورباتشوف عن أفكار لينين وستالين وبرجينييف وضرب بها عرض الحائط... كما تراجعت الصين، وانتكست الأحزاب الشيوعية الأوروبية على رؤوسها... ولم يبق من دراويش الماركسية الا اليسار المصري يرفع رايات عتيقة بالية انتهت موضتها... ويحلم بأمجاد ولت. أنظر: مصطفى محمود، سقوط اليسار، ص من 62 الى 70.

¹ -رضوى عاشور، فرج -رواية-، ص54.

ليستطرد جيرار في حكيه قائلاً: "سيحكي جيرار مطولا ونحن نمشي في الشارع وفي الأيام التالية عن المعارك التي دارت في هذا الشارع يوم (الاثنين الدامي). سيتحدث عن عنف الشرطة، ومقاومة الطلاب، وعدد الجرحى من الطرفين، وعدد المعتقلين، وسأرى بعيني بعض الشعارات المكتوبة على الجدران (أفروا عن زملائنا)، (تسقط الدولة البوليسية)، (يسقط المجتمع الاستهلاكي) (تعيش مجالس العمال)، ومن عشرات الشعارات تستوقني ثلاثة شعارات مكتوبة بقلم أسود ثقيل على جدران مبنى من المباني. يقول أولها، (كونوا واقعيين، اطلبوا المستحيل!)، ويقول الثاني (نشكّل لجانا لأحلام) والثالث (عندما يمتحنونكم، أجبوا بأسئلة)¹.

يظهر عبر صوت "جيرار" الفرنسي الذي فسحت له "ندى" مجال الحديث "عبر صوتها"، أنّها تقيم مقارنة بين اليساريين المعارضين العربي والغربي، عبر مجموعة من الأسئلة التي تراودها ضمناً؟ كيف نجح اليسار الغربي؟ حتّى ولو كان نجاحاً نسبياً؟ ما الذي دفع رئيس فرنسا إلى سحب قوات الأمن من الجامعة، ومع ذلك لم تنتهي موجة الإضرابات؟ كيف تصاعدت هذه المظاهرات ليضرب 9 مليون عامل؟ في حين أن مظاهرات مصر بقيت حبيسة أسوار الجامعة وبعض الساحات العامة؟ لماذا فشل اليسار العربي؟... وغيرها من المقاصد التي نستشفها من صوتها عبر جيرار، والتي تلخصها الشعارات الحائطية التي استوقفتها في رحلتها مع جيرار أولها "كونوا واقعيين، اطلبوا المستحيل"... "نشكّل لجانا للحلم"... "عندما يمتحنونكم، أجبوا بأسئلة".

ومرد هذا الفشل بالنسبة لي هو استئراء الفساد على جميع الأصعدة، إلى جانب "السرقه، والغش، وخراب الذمم، والكسل، والسلبية، والأيدي الممدودة التي تريد أن تأخذ

¹ - رضوى عاشور، فرج - رواية -، ص 55 و 56.

ولا تعطي، والأصوات التي تطالب بالحق دون أن تؤدي الواجب، والنهم والجشع، وتعجل الريح، وضياح القيم، وعدم الانتماء¹.

بين مما سبق ومن عينة الشخصيات السابقة الذكر، أنها كلها شخصيات مثقفة وعلى قدر جيد من الوعي، تعكس شخصية "رضوى عاشور" المثقفة الواعية التي نقلت بدورها، هموم طبقتها أو ما يطلق عليه رؤية العالم، حيث أن جميع هذه الأصوات اليسارية المعارضة اتفقت على الرفض للواقع السياسى والسلطوى المتأزم فى مصر والبلاد العربية والغربية، ويلاقىها نفس المصير إما الموت أو الانتحار أو السجن، مما يرمز للسلطة القمعية التي عانت منها ثلاثة أجيال متلاحقة من طرف الحكومات القاهرة على مرّ العصور ولو اختلفت وسائل القمع وتعددت، مما يجعل المثقف العربى يعيش أزمة خانقة تحول دون تنفيذه لآماله وأحلامه الطامحة للتغيير وللديموقراطية.

من خلال جملة هذه المظاهرات والاعتقالات نلاحظ أن هذه -الوساطة العقلية للسلطة- تترك-أيضا- مجالا متباينا من الحرية والمقاومة لأولئك الذين يرضخون للسلطة².

نستشف مما سبق أنها حرية مقيدة، ومقاومة غالبا ما تبوء بالفشل، وهذا ما عبرت عنه الروائية بالصراع الداخلى للأصوات السياسية اليسارية المعارضة، وهو ما جسده صوت حازم الذي يقول عن أروى بالرغم من انتمائه لحركتها، عندما وجه لها نقدا فى ما قالته عن كتابها عن الواقع حيث هو أكثر قسوة وتعقيدا... كان مفسودا بألف شيء: من الدكاكين الصغيرة التي تصورت الشارع مسرح عرائس يمكن تحريكه بالخيوط، إلى الجهل والغباء المستحكم وفساد القراءة، واستبداد الجنرالات الصغار، هو واقع يرى حازم أنه يمثل "الانشطار الذي تشير إليه بين المثال فى خاطرها والواقع

¹-مصطفى محمود، سقوط اليسار، ص61.

²-فان ديك، الخطاب والسلطة، ص81.

الذي عاشته ليس إلا انشطارا داخليا بين ما تتوهمه عن نفسها، الواقع الذي تنكره رغم أنها هي نفسها جزء من هذا الواقع. ألم تكن أروى من قادة الحركة؟ ألم تكن على رأس دكان من تلك الدكاكين؟ ألم تقولي لي أنهم في السجن أرادوا كسر سهام لأنها لم تكن ضمن مجموعتهم؟ ألم تكن الغيرة منها ومن شعبيتها المدهشة جزءا من دوافعهم¹.

ومن أصوات الصراع الداخلي نجد صراع الاسلام* والشيوعية* وهو ما نقله لنا صوت "ندى" على لسان "سهام" حيث تقول: "في يوم 1972/12/26 أثناء وجودي في كلية الهندسة، جاء بعض الطلاب من كلية الحقوق وأخبروني أن اتحاد الطلاب عقد

¹ -رضوى عاشور، فرج- رواية، ص 93 و 94.

* على عكس أحداث وتجربة "يناير 1972" والتي كان زمام المبادرة فيها بيد الطلاب، وكان محرّكها موضوع تحرير سيناء وكافة الأراضي العربية المحتلة، والذي أَمّن التفاف معظم الطلاب حول الحركة الطلابية ومطالبها العادلة، هيمن جوّ من الارتباك والحيرة وانقسام في الآراء في أوساط الطلبة. هذه المرة، ابتدأت المواجهة والسلطة تمسك بزمام المبادرة من خلال ضربة الاعتقالات المؤلمة التي حرمت الحركة الطلابية من أفضل عقولها ونشطاءها. وهي (أي السلطة) استخلصت دروس تجربة 1972 بإتباعها فوراً سلسلة من الإجراءات التي بدأت باستنزاف الحركة الطلابية وقياداتها، بدءاً من تحجيم ظاهرة مجلات الحائط، وتقديم بعض الطلبة لمجالس النظام بحجة انتهاك اللوائح والقواعد المنظمة لأنشطة الطلاب السياسية. لكن الأخطر، تمثل في سماح السادات بفتح الباب لصعود التيارات الدينية الإسلامية بما في ذلك تيار الإسلام السياسي بعد عقدين من قمع سلفه عبد الناصر. أما على صعيد الجامعات حصراً، فكان إعطاء السادات الضوء الأخضر لتشكيل وتنظيم ما سمّي حينها بالجماعات الإسلامية، تحت إمرة محمد عثمان إسماعيل. قامت بعض الأجهزة داخل النظام بتأسيس هذه الجماعات، والتي يجب التمييز بينها وبين التنظيم الطلابي للإخوان المسلمين - رغم بعض التداخل - من طلبة روعي فيهم أن يكونوا محافظي الميول فكرياً وبلطجية في الممارسة والأخلاق. أنظر: صلاح عبد الجواد من دفاتر الحركة الطلابية: سهام صبري وذاكرة لحظة الاعتقال، مقال إلكتروني، العربي الجديد، 19 أبريل 2019، الموقع الإلكتروني: <https://www.alaraby.co.uk> تاريخ التصفح: 2021/11/22، الساعة: 20:00.

*تتفق الآراء على اعتبار الإسلام كبش الفداء، الذي ننسب إليه كل ما يتصادف أن نكرهه في الأنساق السياسية والاجتماعية والاقتصادية الجديدة في عالم اليوم، فاليمين يرى أن الاسلام يمثل الهمجية، واليسار يرى أنه يمثل حكم الدين في القرون الوسطى، والوسط يرى أنه يمثل الغربة المموجة، وأما ما تتفق عليه هذه الدوائر جميعاً (وعلى الرغم من ضآلة ما تعرفه عن العالم الاسلامي)، فهو استحالة قبول جوانب كثيرة من جوانبه، وينحصر ما تعتبره هذه الدوائر ذا قيمة في الاسلام، وبصفة رئيسية، في عدائه للشيوعية، إلى جانب المفارقة الظاهرة في أن العداء للشيوعية في العالم الاسلامي، يعتبر في جميع الأحوال تقريباً مرادفاً لنظم الحكم القمعية الموالية لأمريكا، والرئيس الباكستاني ضياء الحق خير مثال لذلك. أنظر: ادوارد سعيد، تغطية الإسلام، ترجمة: محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط2، 2005، ص 37 و 38.

مؤتمرا في كلية الحقوق، وأن أي طالب يعبر عن رأي مختلف يتهم بالشيوعية، و يتعرض للضرب بالمدى، وبالفعل أصيب أربعة طلاب ونقلوا إلى المستشفى. ولم يحقق أحد في ذلك¹.

ومن الوقائع التي تصرح بهذا الصراع ما حدث بتاريخ 1972/12/27، وما قام به مجموعة من الطلاب الإسلاميين الذين هددوا الطلبة، ومزقوا مجلات الحائط مما، أثار حفيظة الطلبة فتجمعوا للتظاهر فتروي لنا ندى على لسان سهام " وكان علي أن أخرج هذه المظاهرة من كلية الهندسة بسرعة، حتى لا يحدث اشتباك عنيف. وقفت أمام حشود الطلاب وصرت أصيح: إلى حرم الجامعة إلى قاعة جمال عبد الناصر. أثناء خروج المظاهرة من كلية الهندسة كان التجمع المعادي يطلق هتافات ضدنا ويكسر الحوامل الخشبية للمجلات لاستخدامها في ضربنا. قررت أن أبقى في كليتي لأواجههم. أحاطوا بي وقالوا: اطلعي بره، أنت شيوعية. لو ما طلعتيش حانشيلك ونطلعك بره وحانضريك. ومش عايزينك تتكلمي في الكلية خالص. فقعدت على الأرض... وكان الطلبة بدأوا ينزلون من المدرجات فوجدوا بنتا بمفردها تجلس على الأرض يحاصرها شباب يرفعون عليها الشوم. فانفضح موقفهم وبدأوا ينسحبون. ولم يحقق أحد في ذلك².

تبرز هذه الأحداث تدخل السياسة الحاكمة في إخماد هذه المظاهرات ليس عبر القمع فقط، وإنما بإنشاء حركات إسلاموية (تدعي الإسلام)، لتقتل فتيل التظاهر عند كل من تسول له نفسه معارضة آراءها، وفي هذا الصدد يقول "ادوارد سعيد" "إننا نجد في الكثير، بل في عدد أكبر مما ينبغي من المجتمعات الإسلامية، أن النظام الحاكم يلجأ إلى القمع، أو إلى سلب الحريات الشخصية، أو الاستناد في الحكم إلى أقلية لا تمثل الشعب، وأنه قد يزعم زورا وبهتانا أن ذلك مشروع باسم الإسلام، أو يلجأ إلى

¹ -رضوى عاشور، فرج-رواية-، ص85.

² - المصدر نفسه، ص86.

السفسةة فى إقامة مبرراته على أسس اسلامية، والعقيدة الاسلامية بريئة من ذلك كله، شأنها فى ذلك شأن الأديان العالمية العظمى، والواقع أن اساءة استعمال مصطلح الاسلام تتزامن فى كثير من الحالات مع الزيادة الفاحشة فى القوة والسلطة التى تكتسبها الحكومة المركزية"¹.

هذه الحركة أو التيار وغيرها من الصراعات المفتعلة عملت على فشل اليسار، عبر زرع سموم فكرية وتطرفية تعلى من شأن مجموعة على حساب مجموعة أخرى، ومن فكر على فكر، وغيرها من الأساليب القمعية القسرية التى تتبعها السياسات لتحافظ على صوتها السلطوى فى سبيل القضاء على شتى سبل المقاومة، وهو الثورة التى شكلها اليسار التى توضح لنا بعدا آخر للمقاومة حيث "أن المجموعات المهيمن عليها، وأعضائها نادرا ما يكونون عاجزين كلياً، فقد تشارك مثل هذه المجموعات فى أنماط من المقاومة تحت ظروف اقتصادية واجتماعية وتاريخية، أو حالات ثقافية معينة قد تجعل السلطة القوية أقل قوة، أو حتى ضعيفة، وتعدّ الثورات مثالا واضحا على ذلك لذلك لم يكن تنفيذ السلطة مجرد فعل، بل هو نمط من أنماط التفاعل الاجتماعى"².

بدأ صوت هذا التفاعل الاجتماعى ينخفض تدريجيا حتى اختفى تماما، عندما عزفت ندى فى فترة ما عن التنظيم الطلابى وعند سفر زملائها، وبعض أعضاء الحركة ليكملوا دراستهم فى الخارج، فتقول "بدأت الحركة أقلّ زخما مما كانت فى العامين السابقين. كذلك تخرج عدد من القيادات الأبرز فيها وبدأوا يسافرون إلى الخارج للدراسة، رحلوا إلى لندن أو باريس أو موسكو(أحيانا يبدو الأمر معكوسا: لم تخب الحركة لأنهم سافروا بل سافروا لأن الحركة كانت تتطفئ، فلم يعد أمامهم سوى

¹ - ادوارد سعيد، تغطية الإسلام، ص38.

² - فان ديك، الخطاب والسلطة، ص83.

مواصلة مشاريعهم الفردية"¹. وهو ما سعت إليه السلطة الحاكمة عبر آلية التشتت والتفريق، والإعلاء من شأن رؤساء الحركات وزرع الفتن، وهو ما اصطاح عليه داخل الرواية بالجنرالات الصغار.

3. 1. 2 الصوت المحايد الصامت:

في مقابل الأصوات اليسارية السياسية المعارضة الساعية للتغيير نحو الأفضل، نجد الأصوات المحايدة غير المؤيدة لفكرة التغيير السياسى، وكأنّها لا تعيش داخل البناء الروائى، بالرغم من كونها على صلة قرابة دموية من الشخصية البطلة، إلّا أنّ صمتها لا يعنى أنّها من أصوات الموالاة، وإنّما معارضة في صمت جراء الخوف مما سيحدث لها إثر المعارضة، أو ما برمجت عليه من أساليب للقمع والتعمية عبر وسائل الإعلام أو الجهل أو الأمية، كذلك نجد الصوت الذى تحول من اليسار إلى الحياد بعد القمع الذى تعرض له في أقبية السجون جراء المعارضة.

من الأصوات المحايدة نجد حمدية زوجة والد ندى، التي غضبت منها ورأت بأنّها تفتح عيونهما على السياسة فتقول: "قضيت الليلة أحكى للولدين عن أبيهما وتجربته في السجن، حدثهم مطوّلاً عن ذلك ثمّ تفرع الكلام عن القهر في بلادنا... أنت تفتحين عيونهما على السياسة، والسياسة سكة ندامة لا أريد لهما أن يسجنا مثل أبيهما...".

ابتسمت، قلت:

اختلف الزمان، نحن في التسعينات، لا تخافي من يعتقل الآن الإسلاميون، والولدان بلا ميول إسلامية!"².

يفصح هذا القول عن حجم الخوف والرعب، الذى اعترى حمدية لمجرد حديث ندى مع أخويها عن السياسة، التي هي سكة ندامة لا محالة بالنسبة لها، ليتطور هذا

¹ - رضوى عاشور، فرج-رواية-، ص 98 و 99.

² - المصدر نفسه، ص 158.

الخوف فيما بعد وتقرر الرحيل عنها، وأخذ الولدين لتعيش وتستقر عند أختها، كل ذلك مخافة من الأنظمة السياسية التي تقمع ويبد من حديد كل من تسول له نفسه الحديث عن السياسة أو حتى ممارستها. حيث تقول: "حين أفرج عن نديم وزملائه كانت بغداد سقطت واحتل الأمريكيون والانجليز العراق. بعدها بأسبوعين سافر نديم إلى الإمارات للعمل في دبي والحق بأخيه، سافر ظهر الثلاثاء. ونفذت حمدي ما كانت أعلنت عنه، وهي تصيح وتبكي كالمجانين، يوم عيد الأم الحزين. لمت أغراضها، وانتقلت للإقامة عند أختها مساء الخميس"¹.

كانت حمدي ترى في "ندى" وصوتها تهديدا لها ولعائلتها، فنذت تهديدها واستقرت عند أختها، لتهرب من صوت ندى، التي تعلم في أعماقها أنه صوتها أيضا، إلا أنها لا تملك من الجرأة والشجاعة للمواجهة، أو بالأحرى طبعت على التسليم بالأمر الواقع والتعامل مع الواقع المأساوي على أنه الطبيعي وهو ما يصطلح عليه "بورديو" القسر عبر الرضى، وهو نفسه الذي سمّاه "فيركلف" بالتطبيع والمنطق السليم.* ومن الأصوات المحايدة نجد صوت العمّة، التي لم يشغل بالها إلا عادات وتقاليد العزاء الصعيدية، إلى جانب البحث عن زوج لندى لتلد وتؤسس عائلة مثلها، وعتابها لندى عندما لم تأت لمراسيم جنازة جدتها فنقول: "رحلت جدتي بعد موت والدي بشهور، اتصلت بعمتي تلفونيا وأفهمتها أنني لن أتمكن من السفر إليها للمشاركة في طقوس العزاء، لأن الولدين مصابان بالحمى، ولأنني سأقدم امتحانات نهاية العام بعد أيام. سمعتني ولم تعقب. ولكنها بعد سنوات عاتبتني عتابا شديدا على سلوكي"².

يتضح أنّ عتاب العمّة لندى لأنها لم تحضر مراسيم عزاء جدتها، يفوق بكثير عتابها للرئيس "جمال عبد الناصر" عندما أرسلت له رسالة تطلب فيها منه أن ينظر

¹ - رضوى عاشور، فرج-رواية-، ص 200 و 201.

* أنظر، الفصل الأول من هذه الدراسة.

² - المصدر نفسه، ص 117.

في حالة أخيها المعتقل. فتقول: "وأنا يا أبو خالد أقبل بك حكما لأنني أقبل بك رئيسا للبلد، فكيف لا أقبل حكمك في موضوع أخي؟"¹. تظهر هذه الكلمات درجة الخضوع والخنوع، التي تستولي على وعي العمة، التي تسلم بحقيقة الأمر وترى في جلد أخيها رئيسا للبلاد وتقبل حكمه عليه، وتفصح الألفاظ المستعملة عن تراتبية سلطوية مقبلة، تفصح النوايا والمرامي السلطوية غير الصريحة، التي تضمهرها الاختيارات اللسانية في الخطاب الأدبي، وهذا في صميم ما يصبوا التحليل النقدي للخطاب إلى بث الوعي*.

ومن الأصوات المحايدة، التي تحولت من اليسار إلى الحياء نجد "والد ندى" أين تصدح ندى بصوتها قائلة "لم يكتب أبي سنوات اعتقاله، ولا كان يحكي عنها"². وهذا الصمت عن توجهه السياسي كان ديدنه بعد خروجه من السجن، وهو ما يظهر في إرسال "ندى" إلى فرنسا لكي لا تعتقل بعد مشاركتها في المظاهرات الأولى عام 1972، حيث تقول "هكذا طول أسبوع يتكرر المشهد والحوار حتى ألقى القبض على كل المعتصمين فجرا، وسفرتني أبي إلى أمي خشية أن يتم القبض علي"³.

ويظهر صوته الحيادي أيضا في مكالماته الهاتفية مع ابنته، حيث كان يتحاشى الحديث عن أمور سياسية حيث تقول "لم تتوفر راحة البال، رغم حنان أمي ورغبتها في أن تخفف عني انقطاع تام عن أخبار زملائي، لم يكن ذلك زمان الفضائيات والشبكة الالكترونية. لا شيء تقريبا عن الطلاب المعتقلين. لا خبر. وحين أتصل بأبي تليفونيا يتحاشى أي كلام في الموضوع لدواع أمنية، على الأرجح"⁴.

فالأصوات المحايدة لم تقل شيئا في الخطاب، لذا سميناها الأصوات المحايدة الصامتة، حيث يقول "فان ديك": "كلما ضعفت سلطة البشر، ضعفت قدرتهم على

¹ - رضوى عاشور، فرج-رواية-، ص121.

* أنظر، الفصل الأول من هذه الدراسة الجزء المتعلق بالتحليل النقدي للخطاب الإطار النظري.

² - رضوى عاشور، فرج-رواية-، ص29.

³ - المصدر نفسه، ص72.

⁴ - نفسه، ص74.

النفاز إلى الأشكال المتنوعة من النص أو الحديث وباختصار ليس لدى الضعفاء، ومن ليس له سلطة "شيء يقولونه"، ولا أحد يتحدثون معه، ويجب عليهم الصمت عندما يتحدث أصحاب النفوذ والسلطة، كما هو الحال بالنسبة إلى الأطفال والسجناء والمتهمين، وحتى النساء في بعض الثقافات¹. فالصمت رمز حليف الضعفاء الذين لا يقولون شيئاً داخل الخطابات.

4. 2/ مسائل التعدد اللساني والإدراك الاجتماعي لفعل القمع السلطوي:

يبحث هذا العنصر في تعدد الحوارات كونها التقنية الأبرز داخل الرواية، إضافة إلى ما جاء به "فان ديك" في مقارنته عن مداخل السلطة داخل الخطاب أو لخلق الوعي بها // بالرغم من وجودها الحتمي لا محالة، وهو ما يسميه بالدعامات أو البنى، التي تقوم عليها دائرة السلطة داخل دائرة الخطاب.

لجأت الكاتبة "رضوى عاشور" في روايتها "فرج" إلى تقنية "الحوار" إلى جانب تقنيات أخرى كثيرة ومتنوعة، حيث تعتبر رواية بوليفونية تتعدد داخلها الأصوات، في حوار داخلي للسارد العليم مع الأصوات الأخرى تتخلله حوارات أخرى داخلية وخارجية، حيث يرى "باختين" أن الروائي بصفة عامة يسلك طرقاً مختلفة تماماً، إنه يستقبل داخل عمله الأدبي التعددية اللسانية والصوتية للغة الأدبية وغير الأدبية، بدون أن يضعف عمله من جراء ذلك، بل إنه يصير أكثر عمقا². فالحوارات بنوعها الداخلية والخارجية كانت التقنية الأبرز داخل "فرج" لقوتها في الكشف والإفصاح عن واقع الرواية السياسية والتاريخية، وبنائها الأيديولوجية التي تنبوح بها.

لعبت "ندى" الشخصية البطلة في رواية "فرج" الدور الكبير في سرد الأحداث، عبر الإفاضة في وصف المظاهرات وآراء معتقلي الرأي في البلاد الغربية والعربية على حدّ سواء، وصفاً دقيقاً مفصلاً دون تغيير ولو بقسم ضئيل، حيث اكتفت بنقله كما

¹- فان ديك، الخطاب والسلطة، ص 84.

²- ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، ص 67.

هو (المقصود الأحداث التاريخية المتعلقة بالمظاهرات والشهادات الحيّة) في حين لم تحط شخصياتها بهذا التفصيل إلا في بعض المواقف، التي جاءت تقنية الحوار لتكسر رتابة السرد، ولتفصح عن الاختلاف في الآراء وفي وجهات نظر المتحاورين، أو لتبني وجهات نظر أخرى وفق الحوار الداخلي لأن هذا الأخير "يمفهم موضوعه بفضل الحوار".*

وما يهمنا في هذا الصدد هو الطابع الاجتماعي للحوار*، الذي خدم الطابع التاريخي السياسي للرواية، وصدحت عبره أصوات متعدّدة حملت في طياتها خطابات أيديولوجية خفية، وكلّها تعبير رمزي عن وجهات نظر الشعب المصري في الستينيات والسبعينيات.

فالحوار الخالص داخل الرواية " لا يكون قاصرا على الأغراض الذاتية النفعية للشخص...إنّه تعبير عن تصارع أنماط الوعي والرؤى للعالم"¹، هو ديدنه داخل الرواية السياسية التاريخية، حيث يرسّخ ويخلق وعيا اجتماعيا وسياسيا تمثله نخب رمزية أو دعامات رمزية حسب "فان ديك"، وذلك عبر تبنيهم رؤى أيديولوجية مختلفة تتعلق بالواقع المتأزم، وعلاقته بالقمع السلطوي المشكّل للذوات والأفراد، حيث أن الروائي " لا ينقيّ خطابه من نواياها ومن نبرات الآخرين، لا يقتل فيها أجنّة التعدّد اللساني الاجتماعي، ولا يستبعد تلك الوجوه اللسانية وطرائق الكلام،و تلك الشخصيات الحاكية المضمرة، التي تتراءى في شفافية خلف كلمات لغته وأشكالها، وإنما يرتّب جميع تلك الخطابات والأشكال على مسافات مختلفة من النواة الدلالية، النهائية لعمله

*أنظر، الفصل الأول من هذه الدراسة.

* أنظر الفصل الأول من هذه الدراسة.

¹ - أنظر، حميد لحداني، أسلوبية الرواية مدخل نظري، منشورات داراسات سيميائية أدبية لسانية، الدار البيضاء، ط1، 1989، ص 90 و 91.

الأدبي، ولمركز نواياه الشخصية¹، فتعدد الأصوات واختلافها حسب "باختين"، يخدم مقاصد الكاتب أو الروائي لا محالة، وهو ما سنوضحه عبر حديثنا عن النخب الرمزية.

3. 2. 1/ النخب الرمزية وخلق الوعي:

إنّ النخب الرمزية المبنوثة داخل الرواية، لم تكن اعتباطاً، إنّما هو اختيار ينمّ عن وعي الكاتبة بالوعي الذي يخلق عند استحضار هذه النخب، وكدعوة للقارئ النوعي للبحث وراء هذه الأسماء، ولكي ينظر في طريقة تشكّل الفرد والمجتمع في المجتمعات العربية والغربية، أين أضحت السلطة قرينة للقمع إمّا العسكري أي المادي، أو المعنوي أي عن طريق الرضى أي القسر عبر الرضى، أو شرعنة العنف حسب "بورديو".

سجّلت النخب الرمزية في "رواية فرج" على اختلافاتها وقعا كبيرا على البناء الروائي، وحتّى على المضامين السياسية، كان الجامع بينها هو نفس السجن سواء المادي أو المعنوي أو الفكري جراء التوجه المعارض للسلطة عربيا أو حتى غربيا. في تعبيرهما عن أساليب القسر، التي تتجلى في السجن بنوعيه الداخلي والخارجي.

ما يقصده "فان ديك" في مقارنته بالنخب الرمزية* هي الصيغ التعبيرية للسلطة التي يمثلها "الصحفيون والكتّاب، والفنانون والأكاديميون... وتتمتع هذه النخب بحريّة نسبيّة... ولا تقتصر على صيغ التعبير وإنتاجه بل تمتد -أيضا- إلى السيطرة على الخطاب العام... ومع ذلك فإن الشركات الخاصة أو التابعة للدولة تنظم معظم هذه النخب، فهي مقيدة ولا تمتلك حرية التعبير التي تظهر في خواص خطابهم المتنوعة،

¹ -مخائيل باختين، الخطاب الروائي، ص 67.

*خالف فان ديك في اقتصاره -عند حديثه عن النخب الرمزية- على النخب المثقفة فنذهب إلى أن الرمز المنتخب قد يكون مكانا أو ملحمة تاريخية، أو طقسا محليا، أو عرفا، أو خرافة شائعة، وعموما فإن أي ما تتخلق حوله النماذج الإدراكية المكونة للجمهور يستحق أن يسمى رمزا منتخبا، وواحدا من عناصر بنية الدعامة الرمزية، أنظر، محمد يطاوي، دائرة الخطاب ودائرة السلطة.

إذ أن صوت النخبة غالبا ما يمثّل صوت السادة ملاك الشركات أو المؤسسات...، وهناك عدد قليل من الجماعات "كالروائيين وبعض الأكاديميين"، يمكنها أن تمارس دور السلطة المعارضة وتواجه السلطة، إلا أنّها -أيضا- مازالت تخضع لقيود النشر، إن تبعية النخبة وعدم استقلالها يتمّ إخفاؤها إيديولوجيا وراء المعايير، والقيم والرموز المهنية المختلفة، ويتمّ ذلك على سبيل المثال بواسطة الاعتقاد الشائع عن حرية التعبير في وسائل الإعلام¹.

تعمل النخب الرمزية على تسيير توجهات المجتمع باعتبارها أيقونة في الوعي الجمعي الإدراكي للمجتمع، عبر خطاب الذوات الاجتماعية للأفراد (فيركلف)*، وإقناع المتلقين بوجهات نظرها وما تؤمن به، من اعتقادات ومسلمات، والذي يدعمها في ذلك هو المكانة أو الصورة التي تصدرها في إدراك المجتمعات، التي تنتمي إلى رقعة جغرافية واحدة، أو تربط بينها روابط ثقافية أو مكانية وغيرها.

يهيمن في هذا التعريف النخب الرمزية، التي تملك سلطة المعارضة، ونحاول تتبع تحركاتها وأصواتها داخل المتن الروائي، والكشف عن وعيها بالقمع السلطوى إلى جانب ما تعرضت له من مضايقات وأساليب قامعة تحول بينها وبين التغيير. حيث أن الروائي "لا يستأصل نوايا الآخرين من لغة أعماله المتعددة الأصوات، ولا يحطّم المنظورات والعوالم، والعوالم الصغيرة الاجتماعية والايديولوجية، التي تكشف عن نفسها فيما وراء هذا التعدد الصوتي: إنه يدخلها إلى عمله-إنه يستخدم خطابات مأهولة مسبقا بنوايا الآخرين الاجتماعية، ويرغمها على خدمة نواياه الجديدة، على خدمة سيّد ثان أيضا، فإن نوايا الناثر تتكسر وتحت زوايا متنوعة، حسب الطابع الاجتماعي-الايديولوجي، وحسب تعزيز وتوضيح اللغات المكسرة في التعدّد اللّساني"².

¹ -فان ديك، الخطاب والسلطة، ص 87 و 88.

* أنظر، الفصل الأول من هذه الدراسة الجزء المتعلق بالتحليل النقدي للخطاب والاستراتيجيات.

² - ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، ص 69.

هذه النخب الرمزية تباينت انتماءاتها الاجتماعية، وحتّى الايديولوجية الدينية والسياسية لكنّها جميعاً تكشف عن تمثيل الوعي بالقمع، أو تريد خلق الوعي به، عبر فترة زمنية امتدت من حكم جمال عبد الناصر لجيل والد ندى إلى غاية عهد السادات* جيل ندى، وذلك الانتقال الذي لم يزد الطين إلا بلة، فهو انتقال للأسماء لا غير، في حين أن السياسات الحاكمة يستحيل أن تتغير.

3. 2. 2/ النخب الرمزية العربية والإيهام بالحرية:

شكّلت هذه النخب الرمزية على اختلافها واقعا موازيا للواقع الحقيقي، عبر مساهمتها في إقناع القارئ بتوجهاتها المعارضة للنظام وبما طالها من عذاب، من بينها الصحفية "سهام سعد الدين".

1/ سهام سعد الدين (زهرة الحركة الطلابية):*

*لم تورد الروائية داخل المتن الروائي، حديثاً قط عن " الرئيس السادات"، إلا أنّنا نلمسنا ذلك عبر تتبع المسار التاريخي لهذه النخب وحياتها.

*كانت سهام التي ولدت في 11 حزيران/ يونيو 1951 فتاة رائعة بكل المقاييس، وكطالبة في كلية الهندسة/ جامعة القاهرة (قسم ميكانيك) كانت من أهم نشطاء "جماعة أنصار الثورة الفلسطينية" في هذه الكلية، وهي جماعة عابرة للأيديولوجيات والانتماءات السياسية، تضمّ خليطاً من الطلبة الوطنيين والتقدميين في آن (شيوعيين وناصريين وديمقراطيين ملتزمين). كان تأثير الجماعة ونفوذها يتجاوز أسوار كلية الهندسة وساحاتها ومدرجاتها ليعمّ جامعة القاهرة بأسرها، بل إن نفوذ الجماعة امتدّ خارج أسوار الجامعة ليطاول جامعات أخرى وخصوصاً جامعة عين شمس.

وسهام صبري فتاة من أسرة مصرية، وكان والدها سعد الدين صبري لواء في الجيش المصري، عُرف بالنزاهة وحظي باحترام معارفه وزملائه. وربما بسبب وضع سهام الطبقي، فإنّ نسيجها الأخلاقي المميّز جعلها تتحاز بلا مواربة أو تحفظ إلى المظلومين والغلبة، ومنهم فقراء مصر ومشردو فلسطين، وهذا ما أمدها بقوة أخلاقية استثنائية.

تحوّلت سهام التي رحلت عن عالمنا الظالم في ظروف مأساوية إلى أسطورة من أساطير جيلنا. ونالت عن جدارة واقتدار وصف "زهرة الحركة الطلابية"، كان واحداً من الأوصاف التي أطلقت على سهام صبري، ولا أعرف أول من أطلقه عليها. لكن طالما كانت سهام تستدعي للذهن القائدة اليسارية الفدّة خلال الحرب الأهلية الإسبانية في الثلاثينيات Isidora Dolores Ibárruri Gómez صاحبة الشعار الشهير "لن يمروا" (أي لن يعبر الفاشيون الإسبان بقيادة الجنرال فرانكو مدينة مدريد)، والتي لقبت بالباسيوناريا Pasionaria ، وهو اسم زهرة جميلة تنمو في حوض

ارتبط اسم "سهم سعد الدين" بالحوارات الداخلية للبطل "ندى"، التي تنتمي إلى نفس مجموعتها، وتبنيان المنظور الأيديولوجي نفسه، هو حوار تخللته العديد من المشاهد الواقعية حيث تصف لنا "ندى" طريقة اعتقالها، وكيف استجوبت لثلاثة أيام على التوالي أين تم القبض عليها يوم 1973/01/03 عقب خروجها من المدينة الجامعية لجامعة القاهرة، ليتم التحقيق معها لمدة ثلاثة أيام على التوالي وتناوبت أسماء مختلفة على استجوابها فنقول: "وحققت معها نيابة أمن الدولة، بمعرفة وكيل النيابة الأستاذ صهيب حافظ، يوم الخميس الساعة الواحدة والنصف بمبنى مباحث أمن الدولة، واستمر التحقيق حتى الثامنة مساءً. سألها المحقق...

ثم (في صباح يوم السبت الموافق 1973/1/6 عاد وكيل النيابة المحقق إلى مبنى إدارة مباحث أمن الدولة لاستكمال استجواب طالبة سهم سعد الدين...)".
ومرة ثالثة، (في صباح الاثنين الموافق 1973/01/8 بمبنى إدارة مباحث أمن الدولة استكمل الأستاذ صهيب حافظ استجواب طالبة...)".¹

تحاول الكاتبة تمرير رسالة عبر كيفية اعتقال سهم، والطريقة التي استجوبت بها، كون أسئلة الاستجواب قمع لا مثيل له، تتبأ عن الأسلوب القمعي للدولة في من يعارض قراراتها أو فكرها، فسهم لم تقتل ولم تنهب هي رهينة الرأي أو الاعتقال الفكري السياسي المطالب بالتغيير، يظهر ذلك في عشرات الأوراق، التي رصدت اعترافاتها* التي ترتبط بالتحقيق الذي تجريه النيابة مع المتهمين، وفي "الاستجواب

المتوسط. passion flower. هل لهذا علاقة بتسمية سهم بالزهرة؟. أنظر، صلاح عبد الجواد، مقال من دفاتر الحركة الطلابية.

للتوسع في هذا الموضوع: أنظر أيضا: فتحي إمامي، سهم صبري -زهرة الحركة الطلابية جيل السبعينيات-، ميريت للنشر والمعلومات، القاهرة، ط1، 2004. من ص11 إلى 53.

¹ -رضوى عاشور، فرج-رواية-، ص84.

*الاعتراف بالنسبة لـ "فوكوه" هو تقنية للاخضاع، ويعرفه بالقول "إن موضوع الكلام هو الذات التي تتكلم"، ثم من زاوية علاقة السلطة بين المشاركين، فالمرء لا يقدم اعترافا، إلا في حضور أو افتراض حضور شريك، والشريك

الدقيق"، حيث يبدو في ظاهره في صورة مقاومة، تحرّره من السلطة الحيوية التي تشيئه، ولكن هذا وهم في رأي فوكوه، إذ يعتقد أن الاعتراف يدفع بالمزيد من جوانب الشخص إلى مجال السلطة¹. وهو ما حصل مع "سهام" التي شكّلت اعترافاتها أسبابا لاعتقالها، على مدى عشرين ساعة موزّعة على ثلاثة أيام تنتقل فيها سهام من سجن إلى سجن آخر، مكبّلة الرسغين فتقول مصرحة أثناء التحقيق: "نعم شاركت في المسيرة. شاركت في المؤتمر. شاركت في جامعة أنصار الثورة الفلسطينية، شاركت في الدعوة لإنشاء لجان للدفاع عن الديمقراطية.

نعم. انتقدت في مقالاتي السلطة لممارساتها القمعية، وسياساتها الخاطئة في تناول القضايا الوطنية"

" لم تحقق النيابة، في قيام سيد فهمي مدير المباحث العامة يوم اعتقالى بإهانتي، وسبّي، واتّهامي بأنني أقبض أموالا من جهة أجنبية لأقوم بما أقوم به. لم تحقق النيابة في قيام عناصر من البلطجية بضرب الطلاب بالعصي والسلاسل يوم مظاهرة 1/3.

لم تحقق في أمر السكين الذي كان يحمله أحدهم ويهدّد به الطلاب. لم تحقق في إصابة عشرات الطلاب، الذين حملهم زملاؤهم إلى الحرم الجامعي، وكان بعضهم مصابا في رأسه بعضهم ينزف، ومنهم من كان مصابا بالاختناق من القنابل المسيلة للدموع، أو فاقدًا للوعي.

لم تحقق النيابة فيما قام به جنود الأمن من تحطيم السيارات، وكسر زجاجها بهراوات ضخمة لاتّهام الطلبة بعد ذلك بأنهم يثيرون الشغب.²

ليس مجرد شريك في التخاطب بل السلطة التي تطلب الاعتراف و تأمر به."نورمان فيركلف، الخطاب والتغيّر الاجتماعي، ص 75.

¹ - أنظر، نورمان فيركلف، الخطاب والتغيّر الاجتماعي، ص 75 و 76.

² -رضوى عاشور، فرج-رواية-، ص 85 و 86 و 87.

إنّ الطريقة التي أجابت بها سهام عن أسئلة المحققين، بأسئلة أخرى تستحضر في ذهني الشعار الحائطي الذي لفت انتباه "ندى"، أثناء رحلتها مع جيران في فرنسا لاستكشاف أماكن مظاهرات الطلبة، والذي يقول "عندما يمتحنونكم أجيبوا بأسئلة"، هي نفسها الأسئلة التي تخلّت حوار سهام مع المحقق، حيث كيف لأمن الدولة أن يحقق معها لرأيها المعارض في حين أنّ النيابة نفسها، لم تحقّق في ما قام به أفراد الشرطة من عمليات للتخريب، ليتهموا بعدها الطلبة بأعمال الشغب، لم تحقّق في العنف الجسدي الذي مورس على الطلبة، وغيرها من التساؤلات التي أرقّتتها بالرغم من إدراكها الجيد لفحوى الإجابة، إلا أنّها تصرّ على إيصال فكرتها وإبداء ميولاتها السياسية، ورفضها للأساليب السلطوية القمعية علانية، غير عابئة بما سيطالها من تعذيب. مقدّمة بذلك نموذجاً للمرأة المصرية المناضلة، التي تتحمل كل شيء في سبيل إعلاء كلمة الحق والوطن.

إلا أنّها في نهاية المطاف، وبعد فشل اليسار الطامح إلى التغيير، ومباشرة بعد تحرير احتلال العراق تقوم بالانتحار، وهو الأمر نفسه الذي قامت به الصحفية أروى صالح من نفس جيلها.

2/أروى صالح(الحلم المجهض):* يبرز حضور هذه الصحفية داخل المتن الروائي، كونها من نفس جيل سهام صبري إلى جانب نشاطها النضالي، وصوتها اليساري

*أروى صالح(توفيت في 07 يونيو 1997) كاتبة وروائية مصرية، كانت من إعلام الحركة الطلابية في أوائل السبعينات في جامعة مصر، تخرجت في كلية آداب جامعة القاهرة، وقدمت كتابات في عدد من الصحف والمجلات الشهيرة، ضاقت بالحياة فانتحرت بإلقاء نفسها من الطابق العاشر في صيف 1997، انتمت لجيل السبعينات أو ما عرف بجيل الحركة الطلابية، ذلك الجيل الذي أشعل المظاهرات في جامعة مصر تأثراً بحركة الطلاب الفرنسية في 1968.

من مؤلفاتها: المبسترون: فجر ضجة كبيرة حيث نقلت فيه تحليل لحركة جيل السبعينات ووجهت فيه انتقاداً لاذعاً لنفسها، امتلاك الكتاب جرأة وقدرة على التحليل لحركة جيل السبعينات، والذي كان في أوج صعوده في مختلف المجالات).

المعارض للتغيير، تستحضر "ندى" هذه الشخصية من خلال كتابها "المبسترون"، وهو كتاب تحاول "أروى صالح" أن تشرح من خلاله الأسباب التي أدت إلى فشل اليسار، ووجهت فيه نقدا لاذعا لنفسها حيث تقول "ندى" على لسانها:

"يشغلها سؤال مشابه تتناوله في سياق ما تسميه محاولة البحث عن (صورتنا الحقيقية)، وعن أسباب (الحلم المجهض). تحكي عن تمرد ذلك المجموع من الأولاد والبنات، الذين خرجوا في مهمتهم النبيلة ذات صباح مستجيبين (لنداء التاريخ)، راغبين في (عدل ميزانه)، رافعين لواء (حلم الخلاص الجماعي)، موقنين أنهم جماعة تشارك في المسيرة الكبرى التي (تمشي قدما عبر العصور) (باتجاه الأخوة والمساواة والعدالة والسعادة). فما الذي حدث لينتهي بهم الأمر إلى مجرد جيل من (المبسترين)، (وهذا عنوان كتابها)، يعيشون العزلة واليأس والعجز والترهل أو العدمية والتحرر من كل أخلاق؟ ما الذي حدث بين لحظة الخروج العفوي لتحقيق حلم نبيل، ولحظة الخروج أخيرا من الحلم إلى الحياة حيث (كان الحطام بالجملة)، فأصبحوا (مثل موميאות أخرجت للشمس فجأة، فتهاوت ترابا)؟¹.

ترى "أروى" أن لحظة إعلان الطلبة للتمرد هي لحظة مأساوية، ومرد ذلك لتجذر السلطة على العقل والتفكير عبر الزمان وإحكام القبض عليها من قبل الحكام، "لأن النظام المتسلح بـ (تاريخ طويل من الانفراد بالسلطة وحق الكلام والفعل والتفكير)، كان يوشك أن يأخذ المجتمع بأسره إلى مسار مغاير، ويهوي به إلى درك قاتل ومقتول، والمجتمع يتبع صاغرا بلا حول ولا قوة إذ (لم تكن له أقدام مستقلة تحمي توازنه). أثناء السقوط. تغير الواقع وقوانينه و(دخل الصراع مرحلة جديدة أكثر ضراوة من أن يتصورها طلاب.

سرطان الروح صدر عن دار النهر في 1998، وبضم خلاصة وافية عن أعمالها الغير منشورة حول الانعزالية، الشرود في أحلام اليقظة.

¹-رضوى عاشور، فرج-رواية-، ص91.

لا أدري مدى إحاطة هذه الإجابة فأنا في الغالب أخشى التعميم الكبير، أعني إطلاق أحكام وإجابات قاطعة حين يتعلق الأمر بتاريخ مرحلة أو مسعى جيل. لا أملك سوى ما رأيته بأمّ عيني: موجة تعلو ثم تتحسر. ولأننا كنّا صغاراً لم نر في الموجة سوى ما يرى الصغار¹.

يظهر لنا هذا الحوار الداخلي لـ "ندى" تعاطفاً مع شهادة "أروى" حول ما آل إليه هذا الجيل، بسبب قوة النظام الذي يمارس أعتى أساليبه القمعية في سبيل إبقاء حكمه، والحفاظ على عرشه، وأن حركة الطلاب لم تبلغ من النضج عتياً، يسمح لها بإسقاط رموز الدولة أو تغيير آرائها، وهذا ما أدى إلى انطفاء مساعي هذا الجيل في النهاية، وتفكك مختلف حركات هذا الجيل اليساري المعارض، حتى وإن تعددت الأسباب وتوعدت، هذا هو الظاهر إلا أننا نرى أن "ندى" باستحضارها لهذه الشهادة توجه "نقداً" خفياً لهذا الجيل، وهو ما صدح به صوت حازم في الحوار الذي دار بينه وبين "ندى" حيث يقول:

"الواقع أكثر تعقيداً وقسوة، ثمّ إنّنا لم نكن هكذا أبرياء. كان الظرف خارجنا أقوى منّا وأكثر دهاء، صحيح، ولكن الظرف داخلنا، ورغم حسن النوايا وبهاء المجموع، كان مفسوداً بألف شيء: من الدكاكين الصغيرة التي تصورت الشارع مسرح عرائس يمكن تحريكه بالخيوط، إلى الجهل والغباء المستحكم وفساد القراءة، واستبداد الجنرالات الصغار²."

يرى حازم أنّ التنظير الذي تدعيه "أروى" داخل الكتاب فيه ما يثير القلق، حيث ترى أروى أن البرجوازية هي السبب في فشل حركة الطلاب وفي الأخطاء التي ارتكبت، لترد عليه "ندى" بأنّه عليه أن يقرأ كتابها بموضوعية إلا أنّه يستطرد، ويؤكد في أن على أروى تفادي إطلاق الأحكام المعممة، إن لم تكن على قدر المواجهة

¹ - رضوى عاشور، فرج-رواية-، ص 92.

² - المصدر نفسه، ص 93.

فلنتحمل المسؤولية ولنصرح بذلك، لأنّه لا أسهل من مشجب نعلق عليه أخطاءنا ونحمله أوزارنا حيث يقول:

"-ليس حراما، لأن قراءة هذا الواقع المركّب المحمل بتاريخ ممتد، وتناقضات بلا حصر يحتاج منا جهدا أكبر. إنّها مسؤولية يا ستّ ندى، وإن لم نكن بحجمها فالأفضل الإقرار بذلك!

كتابها أقرب لتأملات عابرة، أوراق شخصية.

-وأحكام، أحكام كثيرة وتعميمات خاطئة واختزال مستفز. وأظن أن الانشطار الذي تشير إليه بين المثال في خاطرها، والواقع الذي عاشته ليس إلا انشطارا داخليا بين ما تتوهمه عن نفسها والواقع الذي تنكره، رغم أنّها هي نفسها جزء من هذا الواقع. ألم تكن أروى من قادة الحركة؟ ألم تكن على رأس دكان من تلك الدكاكين؟ ألم تقولي لي أنهم في السجن أرادوا كسر سهام لأنها لم تكن ضمن مجموعتهم؟ ألم تكن الغيرة منها ومن شعبيتها المدهشة جزءا من دوافعهم؟

-قلبك أسود يا حازم، لا تنسى الإساءة أبدا.

-ربما! ولكنني أكره العدمية، وأكره تيّس الناس عندما يسقط الإنسان هو شخصا في اليأس فيعلن هكذا بخفة وبساطة، أنّ كل مسعى يلجأ إليه الناس لخلق معنى لحياتهم ليس سوى أوراق توت. تقرّر أروى في كتابها أن الأسرة الأطفال والنضال حلول وهمية. بأي حق...¹.

يتضح من خلال الحوار الذي دار بين "ندى" و"حازم" أن الأسباب المؤدية إلى فشل يسار السبعينيات، وتفكك الحركات الطلابية المريدة للتغيير، يفوق السلطة القمعية للنظام إنّما هي سلطة جبل عليها الإنسان بطبعه وفعله، ما إن يعتري منصبا ولو صغيرا إلّا ويريد أن يفرض هيمنته على البقية وهو ما أشار إليه "حازم" بقوله

¹-رضوى عاشور، فرج-رواية-، ص94.

"الجزرالات الصغار"، فمساعي هذه الحركات على اختلافها حتى وإن أرادت التغيير في البداية، لكنّها بعد ذلك تهاوت في شراك السلطة القمعية فرأى كل من ترأس حركة طلابية أنّه الأحق والأجدر، إلى جانب المشاحنات التي لم تخدم هذه المظاهرات بل أضعفتها.

وهذا الإخماد لأصوات المعارضة عبر بثّ الفرقة والانحياز لرأي على الآخر، وظهور حركات أخرى تنقص من قيمة الحركات السابقة لها وإهانتها وقمعها، هي مجموعة من الصور والتدابير التي تتخذها السلطة للسيطرة "على صوت المعارضة والمقاومة، عن طرق -على سبيل المثال- التمويل والتوظيف الانتقائي، والرقابة الخفية أو العلنية، حملات التشهير، والوسائل الأخرى لإخماد "المتطرفين" ووسائل إعلامهم"¹. إنّ جميع هذه الأمور دفعت بـ"أروى" وقبلها "سهام" إلى الانتحار، حيث تقول "ندى" "يشغل أروى (بين محاولتين للانتحار، محاولة أولى فاشلة حين ألقت بنفسها في النيل وتمّ إنقاذها، والمحاولة الثانية عندما ألقت بنفسها من الطابق الثاني عشر)"².

تتضح هذه الصور في ما فعله "حازم" في نقده لأروى، بالرغم من أنّه ينتمي إلى نفس جماعتها، وكذلك في ما فعلته الحركات الطلابية المسلمة (التي أنشأها نظام السادات) في نعتهم لـ"سهام" زهرة الحركة الطلابية، ولكلّ من يحذو حذوها بالشيوعي وفي هذا يقول **فان ديك**: "في كثير من البلدان الغربية يمكن أن تنعت بـ"الشيوعي"، أو تصنّف كمعارض لـ"حريتنا"، أو لقيم مشابهة وسائدة أخرى، وهذا كاف لتطرد وتعدّ غير مؤهل كمصلح للايديولوجيا المعارضة للايديولوجيا المهيمنة، وتعدّ هذه استراتيجية فعّالة لإبقاء النخبة الرمزية تحت السيطرة داخليا وخارجيا، وبعبارة أخرى: تمتلك جماعات السلطة المختلفة مجموعة واسعة من الاستراتيجيات الاقتصادية والثقافية والرمزية، تنقل أو نروج لأهدافها، وبعبارة أخرى: تمتلك جماعات السلطة المختلفة

¹- فان ديك، الخطاب والسلطة، ص96.

²-رضوى عاشور، فرج-رواية-، ص91.

مجموعة واسعة من الاستراتيجيات الاقتصادية والثقافية والرمزية، لتتقل أو تروج لأهدافها وقيمها في المجتمع، إذ أن هذه المجموعات تعمل وتتعاون في الآن نفسه، وأحيانا تختلف وتتناقض بعضها مع بعض، ولكن كما هو الحال دائما، تعزز السلطة القوية السيطرة¹.

حملت سهام لقب "زهرة الحركة الطلابية"، و"أروى" صاحبة كتاب المّبسترين شخصيات حقيقية، إلى جانب "ندى" الشخصية المتخيلة، شخصيات جسدت الدور الريادي للمرأة في النضال السياسي الطلابي المقاوم، إلا أنه يفشل في نهاية المطاف وهو مصير جميع من شارك في تلك المظاهرات، وما أصاب طلاب هذا الجيل من اكتئاب وأمراض نفسية وحتى الانتحار (أروى، سهام)، أو التوجه إلى الحياة اليومية والعزوف عن النشاط السياسي، كما فعلت ندى ووالدها الأستاذ الجامعي "عبد القادر"، أو الموت الفجأة مثل ما حدث لـ"حازم"، أو الهجرة من أجل كسب القوت، مثل ما حصل لـ"نديم ونادر"، جميعها تنبئ عن الوضع المتأزم الذي يعيشه المثقف في الوطن العربي، حتى وإن اعتلى أرقى المناصب إلا أنه يظل رهينة لسلطة قمعية قاهرة، تكيل بمكيالين لكل من يعارض أحكامها، ويهدّد كيائها عبر سياساتها المتبعة خفاء وعلانية.

من بين الأصوات التي استحضرتها "رضوى عاشور" داخل روايتها هو صوت "أحمد المرزوقي" المغربي الأصل صاحب كتاب تزمّمارت الزنزانة رقم 10، الضابط الذي عانى في أقبية السجون لمدة ثمانية عشر عاما، لن نفصل في شهادته، لأننا تحدثنا عنه في القسم المعنون "رمزية الغنونة ومقّص الرقابة"، ما يعيننا هنا هو القصد من وراء حضوره داخل الرواية، الذي أريد به تعميم صورة القمع السلطوي بأشكاله المختلفة (سجن، تعذيب، تهريب، اكتئاب، انتحار، الصمت، الهروب من المواجهة

¹ -فان ديك، الخطاب والسلطة، ص 95 و 96.

...وغيرها)، التي لم يسلم منها لا مصري ولا عربي ولا سوري ولا لبناني ولا مغربي، لا مثقف ولا إنسان عادي، ولا حتى ضابط ينتمي إلى نفس الجهاز الذي قمعه، لمجرد توهمه أنه سيشترك في انقلاب ضد الحكم، ولو كان العكس، فالقمع السلطوي لا يفرق ولا يرحم إنه جهاز فوق الجميع، حتى وإن اختلفت الأجناس والرتب.

3. 2. 3/ النخب الرمزية الغربية والتحكم في الوعي الجمعي للمجتمع:

1/ بنثام*/فوكو: Benthham ;Jeremy/Foucault

تستحضر رضوى عاشور^{*} في الفصل العاشر آراء كل من "المفكرين" فوكو وبنثام ليس من أجل مناقشة فكرهما، وإنما لتقارن بين السلطة القمعية عند العرب وتطورات السلطة القمعية عند الغرب، وهو ما عبرت عليه كلمة "البانوبتيكون"^{*} التي حملت عنوان هذا الفصل حيث تقول "ندى" في مخاطبة ذاتها "السجن المقترح مبنى دائري من عدة طوابق، تتجاور في كل طابق منها الزنازين المنفصلة، وفي مركز باحته الداخلية برج حراسة يضمن مراقبة متصلة لكل السجناء، إذ تمتد كل زنزانة طولياً

^{*} بنثام جبريمي: فيلسوف وفقيه قانون انجليزي، ولد في 15 فيفري 1748، في إحدى ضواحي لندن، وتوفي في لندن في 6 جوان 1832، كان طفلاً خارق الذكاء، حتى أنه اقتدر على تعلم اليونانية واللاتينية وهو في الثالثة أو الرابعة من عمره: ولم يبلغ الخامسة من عمره حتى لقب بالفيلسوف. أعار الكيمياء أهمية فائقة، وبدأ بإرساء أسس المذهب الفلسفي الذي عرف بعد بضع سنوات بـ "النفعية"، في 1792 منحت الجمعية التشريعية الفرنسية بنثام، بناء على اقتراح تقدم به المواطن بريسو، لقب مواطن فرنسي مكافأة له على كتاباته حول الإدارة الكولونيالية والإصلاحات التي يتعين إجراؤها في إدارة السجون، وبالفعل كانت مسألة إصلاح السجون استقطبت اهتمام بنثام الذي لم يتردد لحظة في القيام برحلات إلى الخارج (ذهب حتى روسيا) للحصول على المزيد من المعلومات، وقد لخص نظرياته في هذا المضممار الخاص في كتابه: المشتمل The Pantopticon مذكرة حول مبدأ جديد لبناء المفتشيات والسجون. أنظر، جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة (الفلاسفة-المناطق-المتكلمون- المتكلمون اللاهوتيون- المتصوفون)، دار الطليعة، بيروت، ط3، 2006، ص190 و191.

^{*} بان/أوبتيكون كلمة يونانية مركبة من كلمتين: الأولى تعني الكل أو الجميع والثانية تعني الرؤية أو المراقبة، والعبارة اصطلاح استخدمه المفكر الانجليزي بنثام في تقرير له عن إصلاح السجون نشره في أواخر القرن الثامن عشر، اقترح بنثام بناء السجن بما يتيح فصل كل سجين على حدا، ومراقبة كافة السجناء من قبل حارس واحد أو حراس معدودين، اقتراح معماري بهدف اقتصادي، يضمن عبر هندسة البناء خفض تكلفة إحكام السلطة قبضتها على عدد كبير من الأفراد، يتعين عليها التعامل مع مجموعهم.

بعمق المبنى، بين الواجهة المطلّة على الباحة الداخلية حيث البرج، والواجهة الخارجية للسجن، ولكلّ زنزانة منفذان، الأول وهو من قضبان من الحديد، يطل على البرج، والثاني نافذة في الجدار المقابل، تسمح للضوء بالنفاذ إلى الزنزانة ممّا يجعل السجين مرئيًا طوال النهار من قبل الحارس المشرف في البرج. ويقترح بنّام أن تكون نوافذ البرج، بخلاف نوافذ الزنازين،/محمّوبة بسواتر خشبية تتيح للحارس أن يرى دون أن يرى (الضمة فوق الياء). كما يقترح تصميمًا يجعل من حجرات البرج أقرب إلى متاهة صغيرة، فيستحيل على السجناء أن يعرفوا بالسمع أو النظر موقع الحارس أو الاتجاه الذي ينظر إليه. هكذا يصبح وجود الحارس أو غيابه، مراقبته أو انعدامها سيّان، إذ يتحول هذا الوجود إلى حالة يستبطنها السجناء، وتتصدر في وعيهم وتتحكم في مسلكهم على مدار اليوم.¹

واضح من خلال هذا الفكر ارتقاء أساليب السلطة القمعية غربًا من القمع العسكري إلى قمع الوعي، إلى جانب الاقتصاد في المصاريف المبذولة لحراسة المساجين حيث يقترح "بنّام" طريقة بناء للسجن أقلّ تكلفة، من حيث عدد الحراس والمراقبين عبر قانون "البانتيكون، حيث ترى الكاتبة أن "بنّام" على قدر كبير من الوعي بقيمة اختراعه النفسية، والاقتصادية كأسلوب جديد من أساليب السيطرة، التي تمكن عقلا من عقل، وفكرا من فكر، ليس على المساجين فقط إنّما على عدد لم يسبق له مثيل من البشر، وتوضح بعدها، على خلفية النقائنها بهذا الفكر فنقول: "تعرفت على فكرة بنّام التي اعتبرت نقلة إصلاحية صريحة، تمّ اعتمادها في بناء السجون والمستشفيات والمدارس والمصانع، في معرض قراءتي لكتاب آخر أرسلته لي أمي، وأنا

¹ -رضوى عاشور، فرج-رواية-، ص 80 و 81.

طالبة فى الفرقة الرابعة بالكلية، كتاب ميشيل فوكو (المراقبة والمعاقبة: ولادة السجن)¹.

يفضى هذا القول إلى أن "فوكو" اتخذ من فكرة بنثام (البانوبتيكون) مجازاً دالاً، على الكيفية التى تتعامل بها السلطة مع المواطنين، متجذرةً بذلك فى ممارساتهم الواعية واللاواعية، فهى تحكمهم من الداخل كما الخارج على حد قولها، ثم تعود إلى كتاب "فوكو" الذى استهله بمختلف صور التعذيب، فيما قبل القرنين الثامن عشر والتاسع عشر (السجن، الحرق، قطع الأوصال والمثيل بالجسد قبل الإعدام وبعده)، لينتقل بعد ذلك إلى "الإصلاح المستجّد الذى مكّن السلطة من الهيمنة، دون اللجوء لمشاهد التعذيب المروّع، التى كانت تلجأ إليها فى السابق، وبالتالي دون حاجة إلى أن تكون مرئية متصدّرة. ويستفيض فوكو فى شرح تلك التكنولوجيا السياسية التى طورتها السلطة للتحكم فى أجساد البشر، وصولاً لتطويع هذه الأجساد وإخضاعها والاستفادة من طاقتها، اقتصاد سياسى موضوعه جسد المواطن، وأداته أشكال مدروسة ومحسوبة ومنظمة، قادرة دون عنف ظاهر أو إرهاب ملموس أن تتجزّز وظيفتها بدقة أكبر وتكلفة أقل. فمن مزايا هذه التكنولوجيا أنّه يصعب إرجاعها إلى عنصر واحد من عناصر السلطة، أو جهاز بعينه، أو مؤسسة محددة من أجهزتها ومؤسساتها، فهى تتخلل نسيج المجتمع، وتتوزع فيه وتغوص عميقاً فى تربته، حتّى تتحول إلى وظيفة منتظمة مستمرة من وظائفه"².

يرمى هذا التصور إلى أنّ الإنسان فى هذا العصر أصبح يعيش داخل سجن كبير، خارج السجن الحقيقى، يستحيل له أن يدركه أو أن يعي أساليبه التى تكونه بغير وعي منه، سجن خارجى لا تتحمل مسؤوليته نظام أو مؤسسة بعينها، إنّما هو متجذّر

¹ - رضوى عاشور، فرج-رواية-، ص 81 و 82.

² - المصدر نفسه، ص 81.

فى المجتمع الذى ىرى "فوكو" أنه مجتمع تقىيد وعقوبة، ىدلّ فكر "بنّام" البانبتىكون على هذا المجتمع وعلى مؤسساته التى تحكمه حىث تراه ولا ىراها. وترى "رضوى" أنه لا مجال لمناقشة هذىن الكتابىن، أو محاولة ربطهما بالواقع العربى، إنما تم استحضارهما، لتبىن تطور أسالىب السلطة القمعية الغربىة فى مقابل العربىة حىث تقول: "ما أردت الإشارة إلىه هو أنّ فكرة البانوبتىكون، فتحت لى باب التأمل المتصل أحياناً، والمنقطع أحياناً أخرى، للعلاقة بىننا وبىن السلطة ودورها فى تطوىع المختلف أو تدمیره جزئياً أو بالكامل، واحتمالات الإفلات من قبضتها بمقاومة ما"¹.

بعد هذا التأمل فى العلاقة بىن السلطة فى المجتمعات العربىة، والكىفىة التى تتبعتها لمواجهه الاختلاف فى الرأى والتوجه، تعود "ندى" إلى استحضار فكر "فوكو" و"بنّام" فى الفصل الحادى عشر المعنون بـ "مفارقات"، حىث كانت تعتقد أنّ زمان عبد اللطىف رشدى* قد ولى، وأنها لن تتعرض للضرب بعد اعتقالها، لتتفاجأ بالعكس تماماً، وأن هذا التفكير هو سذاجة من سذاجاتها الكثیرة فتقول:

"لم يعذبنا أحد فى المعتقل، (تعرضنا للضرب نحن البنات، مرّة واحدة يوم قررنا رفض العودة إلى الزنازىن بعد (التمام)، احتجاجاً على إىداع إحدى زمىلاتنا مع السجىنات الجنائىات. انهالوا علینا بالعصى، أصىب البعض منا بكدمات أو جراح

¹ - رضوى عاشور، فرج-روایة-، ص 82 و 83.

*الضابط رشدى عبد اللطىف أثناء تعذیبه لمعتقلى الرأى... ىحمل الصورة بتارىخ ووقائع وآلام: سبّ وشتم وتركىع وتجوىع وتروىع، ضرب على الرأس، وضرب على الوجه، وضرب على القفا، والظهر وضرب على الصدر، والبطن الذراعىن والرجلىن والقدمىن، ضرب بالعصى والثوم والجرید والقواىش والأحذىة، لكّم بالأیدی وركل بالأقدام وجلد بالسیاط، وسجّل و"اسمع كلام حضرة الصول یا ابن الكلب!"... و"عبد اللطىف رشدى فارس راكب حصان الحكومة" شرف على التنفىذ، وینفّذ یعذب طابوراً من رجال ىساقون إلى الأشغال الشاقة: أجسام هزىلة، وجوه شاحبة، ملابس مهلهلة، أیدی متقرحة، أقدام مشققة متورمة مجرّحة متقىّحة، تهبط إلى حفرة لتعمل فى تكسىر البازلت تحت تهديد السلاح. و"عبد اللطىف رشدى فارس راكب حصان الحكومة" یعذب شهدى عطیة حتى الموت فىموت. أنظر، المصدر نفسه، ص 33.

طفيفة). وكان زمان عبد اللطيف رشدي كان قد ولّى، هكذا بدأ لي، وكانت تلك سذاجة من سذاجاتي الكثيرة. (هنا يصبح كلام فوكو عن التغير في تأمين السلطة، من التعدي العنيف إلى السيطرة البانوبتيكية ابن واقعه الأوروبي، ولا ينطبق إلّا جزئياً على واقعنا، حيث السلطة عندنا كربة منزل كهينة ومدبرة، لا تتخلص من شيء وإن كان كتاباً بالياً، فتبقى قديمها المستهلك مع ما استجلبته من الجديد في الدرج نفسه غالباً، أو في أفضل الأحوال في درجين متلاصقين، تفتح هذا حيناً، حسب الحاجة والطلب)¹.

فالسلطة عندنا لم ترتق إلى مستوى توقعات "ندى"، التي كانت تعتقد أنّها انتقلت من التعنيف الجسدي إلى القسر عبر الرضى أو شرعنة العنف حسب "بورديو"، أو حسب منظار "بنثام" وفق ما جاء به "فوكو"، إنّما هي سلطة تحافظ على قمعها المادي، وتضيف عليه أساليب قمع معنوية وأخرى ايديولوجية "أي أنّها تلجأ إلى النظام الاقتصادي القديم القائم على التعذيب، وفي الوقت نفسه، ترسخ سلطتها وقيودها في المجتمع ككل عبر مؤسسات تضمن محاصرة المختلف، سجن السجن، وسجن خارج السجن"².

نختم هذا الجزء المتعلق بالنخب الرمزية العربية والغربية، بالقول إلى أنّ إدراك المجتمعات العربية للقمع السلطوى، لم يتجاوز استعمال القمع المادي أو التعنيف الجسدي، فالإنسان العربي رهين القمع السلطوى المطبق عليه في السجن أو خارجه سواء أدرك ذلك أم لم يدرك.

5/ النظام المؤسساتي وتراتبية السلطة:

ينظر "فان ديك" إلى أنّ كلّ نظام مؤسساتي يُنظر إليه على أنّه مؤسسة للسلطة "(من خلال الدولة على سبيل المثال)، يرتبط بنظامه الخاص أو صيغ الخطاب الخاصة به، وبما أنّ مبادئ الشرعية (معاييرها وقواعدها وقيمتها وأهدافها) تمثل جزءاً

¹-رضوى عاشور، فرج-رواية-، ص 90.

²-رضوى عاشور، لكلّ المقهورين أجنحة، ص 94.

لا يتجزأ من الايديولوجية، فإنّ عمليات إضفاء الشرعية تظهر كأنّها عمليات خطابية¹.

يوضح هذا أنّ المؤسسات على اختلافاتها تنتمي إلى سلطة الكيان الذي تنتمي إليه، وهنا هو متعلق بالدولة، "فالبنية المؤسسية، سواء تعلق الأمر بمؤسسة سياسية أو إدارية أو أخلاقية أو اجتماعية، إنّ أول شرط يفرضه النظام المؤسسي-في الشركة، أو الشبكة الإعلامية المستقلة، أو المؤسسة الدينية أو الحزب مثلاً هو الامتثال للمساطر القانونية أو الأعراف أو المنظومات الأخلاقية، أو النصوص وثاني الشروط هو احترام "التراتبية"، إذ يستحيل الحديث عن التكافؤ أو الاستقرار في المسؤولية².

يجعل هذا التوجه أبنية الحوار للفاعلين داخل هذه المؤسسات، ومناقشاتهم تتبنى أولاً على الاحترام للنظام، أو القوانين التي تحكم هذه المؤسسة، وثانياً مراعاة التراتبية السلطوية التي يحضى بها كل عنصر فاعل ينتمي إلى المؤسسة، والتي قد تكون مجتمعا أو دولة أو حزبا أو مشفى... الخ، حيث أنّ الحوار بين المدير والعامل، وبين رئيس الحزب وعضوه، وبين الأب والابن، جميعا تحتكم إلى نظام تراتبية السلطة. نحاول من خلال هذا التوجه إبراز دور المؤسسة، وتراتبية السلطة في الكشف عن فعل القمع السلطوى، الذي تنفذه وتساعد على استمراره بوعي من القائمين عليها أو بغير وعي منهم، وذلك عبر قراءة الحوارات التي وقعت بين مختلف شخوص النص الروائي، بالتركيز على السلطة القائمة المتعلقة بمؤسسات الدولة أي سنتجنب التفصيل في تراتبية السلطة المتعلقة بالأسرة.

¹-فان ديك، الخطاب والسلطة، ص102.

²-محمد يطاوي، مقال-دائرة الخطاب ودائرة السلطة-، ص16.

5. 1/الجامعة:

تعرف الجامعة كونها منبرا للعلم والعلوم، يقصدها الطلاب على اختلاف أجناسهم وتخصصاتهم طلبا للعلم وللشهادة العليا، وتعرف كونها "معارف تحرر العقل والروح وتفتح آفاق إبداع يوسع ويكبر ويحسن عملية ويجمل رقعة الحياة، وإن صغرت...إنّها ضوء كاشف يسمح بإعادة النظر في المسلّمات، بما يسمح بقلب الموازين وخلخلة المستتب من القناعات"¹.

أمّا الجامعة داخل روايتنا فهي على النقيض من ذلك تماما، حيث تحولت من الحرية الفكرية إلى ساحة للسلطة القمعية للدولة، تمارس ضغطها وقوتها على كلّ من تسوّل له نفسه معارضة آرائها وسياستها، حتّى لو كان في ذلك تشويه لصورة الجامعة وصيّتها، ويتضح ذلك جليّا في روايتنا حيث تقول "سهام" زهرة الحركة الطلابية في حوار داخلي لـ"ندى" مصورة دور الجامعة بقولها أثناء اعتقالها "نعم شاركت في الاحتجاج على القمع ودور إدارة الجامعة والاتحادات الطلابية، في إرهاب الطلبة بدلا من حمايتهم وتمثيلهم"².

فالجامعة في روايتنا كانت منبعاً لثورة أو مظاهرات 1972، حيث خرج الطلاب للتظاهر ورفع شعارات الحرية بغية التعبير، إلّا أنّهم اصطدموا بالواقع الفعلي للجامعة المحاصرة والمقيدة، "ولا يقتصر الحصار على أسوار عالية، وقوات أمن تتحكم فيها، بل يتمثل في عشرات التفاصيل التي تشمل من بين ما تشمل الاستبداد الإداري...الكتاب الجامعي بوابة مغلقة، والدرس الخصوصي، والأستاذ الذي يملئ على طلابه فكرته التي لا شريك لها، والعميد المعين، عناصر منظومة كاملة تجسدها

¹-رضوى عاشور، لكل المقهورين أجنحة، ص185.

²-رضوى عاشور، فرج-رواية-، ص85.

قضبان الحديد، والمنطق الحاكم لتلك المنظومة في تقديري هو الخوف: خوف النظام القائم¹.

إنّهُ الخوف نفسه الذي يعتري النظام، عند حصول ثورة أو مظاهرات ترهق كيانه وتقلقه، ما يدفعه إلى نهج استراتيجيات مختلفة ردعية عبر القسر أو الرضى، هذا الأخير الذي تتذكره "ندى" في حوارها الداخلي، وهي الحادثة التي وقعت حينما أرسلت الحكومة الوزير إلى الجامعة لينظر في انشغالاتهم، لتصف لنا الحوار الذي دار بين الطلبة والوزير قائلة:

"تتوالى الأسئلة والتعليقات، تضيق على الوزير الخناق. يبدو مرتبكا، لأنّ الموقف جديد عليه، أو لأنّه هو نفسه لم يكن مقتنعا تمام الاقتناع بمواقف الحكومة، التي انتدبته للدفاع عنها؟ لم أعد أذكر وجه الوزير، ولا إجاباته إلا إجابة واحدة بدت محاولة للتملص، فلم تزده إلا تورطاً. قال: (سأنقل أسئلتكم للسيد الرئيس، وسأحمل إليكم ما يتفضل به من إجابات). وإذا بصوت سهام ينطلق كالرمح، فيصيب إصابة مباشرة: (إن كنت تعترف بأنك مجرد بوسطجي تحمل الرسائل إلى رئيس الجمهورية، ثمّ تعود بما يتفضل به من رد الجواب، فنرجو أن تبلغه أن الطلبة سيبقون حيث هم، لن يغادروا الجامعة حتّى يأتي شخصيا، ويرد على أسئلتهم!)"².

يتضح من الحوار بين الطلبة والوزير، أن هذا الأخير لا يملك سلطة في الجهاز السلطوي الذي ينتمي إليه، بل هو مجرد وسيلة لنقل ما يدور في فكر الطلبة إلى الرئيس، وهي إستراتيجية لمصّ غضب الطلبة والتعمية، عبر محاولة تهدئتهم وإيهامهم بأنّ رئاسة الجمهورية تهتم لما يشغلهم ويؤرقهم، في مقابل ذلك تظهر الطالبة الواعية بأساليب السلطة القمعية، بردها المدوّي للوزير بوصفه مجرد "بوسطجي"، لإدراكها الجيد أن النظام الدكتاتوري ليس نظام جدل ومناقشة، ما يفسّره تنصل الوزير من

¹- أنظر، رضوى عاشور، لكلّ المقهورين أجنحة، ص 172 و 173 و 185.

²- رضوى عاشور، فرج-رواية-، ص 126.

الإجابة عن أسئلة الطلبة، والاكتفاء بنقل انشغالاتهم إلى سدّة الحكم لا غير، وفي هذا الصدد يقول فان ديك: "إن المناقشة، والجدل، والنقاش لا تعدّ من سمات الخطاب الدكتاتورى"¹.

تعبّر "رضوى" عمّا سبق قائلة: "لا وجود لجامعة حرة في ظلّ نظام مستبد"². يتضح من الأمثلة السابقة الذكر أن الجامعة كهيئة اجتماعية، لا تخلو من نظام يحكمها، حتّى ولو ظهرت للمجتمع غير ذلك، فهي خاضعة للمساطر القانونية، ولتراتبية سلطوية مقيّنة لا تسمح، ولا تتوانى في قمع كل من يخطر بباله التغيير، أو تحرير الجامعة من النظام الذي يسكنها.

5. 2/المستشفى وخطابات السلطة:

ما يهمنا في حديثنا عن المستشفى ليس التداوى أو التمريض، إنّما الإشارة إلى الحوارات التي حصلت داخل هذه المؤسسة، وانبثقت عنها تراتبية سلطوية لا تختلف عن سابقتها (الجامعة) في شيء.

نستحضر هنا تعریف "فوكو" للمستشفى الذي استقاه من تاريخ مجموع مؤسسات الدولة كالبرلمان والشرطة والجيش والسجون وغيرها قائلاً: "لقد كان المستشفى العام سلطة غريبة، أقامها الملك بين الشرطة والقضاء، فقد كان يتمتع بسلطة مطلقة، وأحكام بدون استئناف، وحق في تنفيذ الأحكام لا يمكن لأيّ أحد أن يشكك فيها: إنّهُ الأداة الأخرى للقمع... وهو لا يحتوي على أية فكرة طبية لا من حيث اشتغاله ولا من حيث خطابه إنّهُ محفل من محافل النظام"³.

¹ - المصدر نفسه، ص102.

² - رضوى عاشور، لكلّ المقهورين أجنحة، ص188.

³ - أنظر، ميشيل فوكو، تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي، ترجمة: سعيد بنكراد، المركز الثقافى العربى، المغرب، ط1، 2006، ص72.

بناء على هذا التاريخ المظلم للمستشفى كونها مؤسسة نظامية من جهة، وأداة للقمع من جهة أخرى، تسفر الخطابات داخلها إلى تراتبية سلطوية، وجب التقيد بها واحترامها، رأينا تتبع أثر هذه الخطابات داخل الرواية خاصة بعد "اعتقال نديم"، عقب مشاركته في مظاهرات ضدّ النظام السائد آنذاك، ونوبة البكاء والتساؤلات المربكة، التي انتابت والدته حمدية بعد سماعها بقمع المظاهرات، أين تصوّر لنا "ندى" هذه الواقعة مستحضرة صوت حمدية، التي ألحّت عليها أن يذهب إلى المستشفى للاستعلام فتقول: "لم تهدأ. قرّرت أن تذهب للبحث عنه. خرجت معها وأنا أتمم إنها امرأة لا تحتل. مررنا بالمستشفيات بدءا بمستشفى الإسعاف، وانتهاء بالقصر العيني. دخلنا أول مستشفى فسارعت حمدية بالسؤال عن الشباب الجرحى، الذين ضربهم الأمن في المظاهرات. جذبتها من ذراعها بقوة وهمست في أذنها. لن يقدموا لكي إجابة عن هذا السؤال. نسأل عن شاب جاءهم في قسم الحوادث مصابا، أو مجروحا. نقدّم الاسم والوصف"¹، فقط.

تظهر ضرورة احترام مقاليد المؤسسة، وقوانينها جليّة خلال هذا المثال، عبر صوت "ندى" التي رأت أن الطريقة التي استفسرت بها "حمدية" عن "نديم" لن تتلقى إجابة عنها، داخل المستشفى لأنّه جهاز من أجهزة الدولة، والإجابة عن سؤال كهذا فيه تصريح ضمني بقمع الأمن، وهذا لا يخدم التراتبية السلطوية والنظام القابع داخل المستشفى كمؤسسة حكومية، والذي يحول دون الإجابة، لذلك قالت ندى لزوجة أبيها، أن عليها إعادة الصياغة بطريقة أخرى، تحترم فيها قوانين المؤسسة، والتراتبية السلطوية عبر الاكتفاء بذكر الاسم واللقب، والبحث وعن إنسان جريح جاء لطلب العلاج فقط.

¹ - رضوى عاشور، فرج-رواية-، ص198.

توحي إعادة الصياغة هذه بوعي "ندى" بأساليب القمع السلطوي الذي يشكلنا ويشكل ذواتنا، والمؤسسات التي ننتمي إليها والتي تحكمنا، فهو يسري في كل حذب وصوب أينما تتجه فهو ملائقيك لا محالة." فالسلطة الطبية (كلّ السلط في واقع الأمر)، لا تستطيع فك إسارة من أحكام مسبقة، هي وجهه وحقيقته ووضعها¹.

ومن صور تراتبية السلطة ضمن مؤسسات النظام الحوار الذي دار بين "ندى" والطبيب، إثر معاناتها بين الفينة والأخرى من نوبة اكتئاب حادة حيث تقول:

"حين أشعر بنفسي ثقيلة أعرف أنني على مشارف نوبة جديدة من الاكتئاب. قلت للطبيب المعالج: لدي شعور بالذنب لا أستطيع التخلص منه. أشعر بالذنب اتجاه أبي وتجاه أمي، ذنب لا علاج له لأنهما رجلا، وأشعر بالذنب كلّما مات زميل من زملائي، كأنني تركته يتحمل عبئا لم أشاركه فيه. أعني التناقض في كلامي، لكن هذا هو ما أشعر به. أو ربما يكون كلامي وهما، أخفي به حقيقة أنني أشعر بالذنب كلما نظرت حولي، فيؤكد لي أننا نترك للصغار خرابا نطالبهم بالعيش فيه.

أقول للطبيب: أشعر بالخوف، في الصحو والمنام. ربما أظير لأنني خائفة... وحين يغلب الخوف، أجد نفسي غير قادرة على الوقوف أو المشي.

أتحاشى الخروج ما أمكن. أتحاشى الناس، وأشعر بالوحشة لأنني بعيدة عنهم في الوقت نفسه. لحظة استيقاظي من النوم هي الأصعب. يستغرقني الاستعداد للخروج إلى العمل ساعتين، لا لأنني أترين وأتجمل، بل لأنني لا أكون قادرة على النزول إلى الشارع، والذهاب إلى الوظيفة ولقاء من سألتقي بهم. وحين أذهب إلى العمل، وأنهمك فيه، يتراجع الخوف كأنه كان وهما، أو كأن حالتي في الصباح لم تكن سوى هواجس وخيالات. أسميت شعوري خوفا ولكنني لست متأكدة من دقة التوصيف، ربما هو شيء

¹ -أنظر، ميشيل فوكو، تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي، ص 13.

آخر، أعراض أو توجّس، أو شعور مختلط، لا يشكّل الخوف إلا عنصرا واحدا من عناصره لا أدري.

هو ينصت، لا يقاطع الكلام إلا بعبارات مقتضبة، وعندما أتوقف عن الكلام يسألني عن قدرتي على إنجاز عملي. أقول: أحيانا أجد صعوبة في التركيز، ولكن إجمالا لا مشكلة لدي في العمل. لا تشكّل لي الترجمة أي عبء. الترجمة البسيطة أنجزها بسرعة وبآلية، الترجمة الأعمق، الأدبية والفكرية وهي عادة ما تمتعني، وأجد فيها نوعا من التحدي أو لعبة مثيرة، لا اقترب منها. إن كنت متعبة، لا ألتزم بهذا النوع من الترجمة، وإن سبق والتزمت، أضعه جانبا ولا أقي بالتزامي.

يؤكد الطبيب أنني أقوى مما أظن، يقول إن دفاعاتي شديدة، لا أصدقه، وأتشكك في نفع الجلسات الطوية المكلفة. أغادر عيادته وأمشي في الشارع، أبكي. أجف دموعي، وأدخل صيدلية اشتري منها الدواء الذي أوصي به. أواظب عليه يومين أو ثلاثة ثم ألقى به في الزبالة. لا أحتاج دواء!¹.

عمدنا إلى إيراد الحوار كاملا مع بعض الحذف الذي لن يخل بمضمونه، لتتضح الصورة للقارئ في المعلومة المراد إيصالها، حيث ينبأ الحوار الذي دار بين "ندى" الطالبة الجامعية اليسارية المعارضة، التي تعاني من الاكتئاب، في مقابل طبيب ينتمي إلى نظام مؤسّساتي يحمل خفية تراتبية سلطوية، وهو ما أفصحت عنه "ندى" بقولها أن الطبيب لم يقاطعها واكتفى بالاستماع فقط، وحينما سألها لم يسأل عن السبب في شعورها بالاكتئاب، أو لماذا انتحر زملاؤها، أو لماذا تشعر بالذنب، إنما سأل عن عملها هل يشكّل لها ضغطا أم لا.

يدخل هذا ضمن ما يسميه "فيركاف" بالتأدب، والتأدب في اللغة هو من المباحث المهمة للتداولية الأنجلو أمريكية في السبعينات والثمانينات، وهو على نوعين

¹ - أنظر، رضوى عاشور، فرج-رواية-، ص 166 و167 و168.

السلبى والايجابى وهذا الذى يبينه "فيركلف" عبر عينة المقابلة بين الطبيب والمريضة " ففي الممارسة الطبية المعتمدة نجد مغايرة واضحة في المعرفة والسلطة بين الطبيب والمريضة، لا تعامل باعتبارها شخصا بل باعتبارها صاحبة مشكلة، وهو ما يبرر غياب التأدب السلبى* من جانب الطبيب... ويشجع التأدب الايجابى المتبادل، ومعنى معاملة المريضة باعتبارها شخصا أن التأدب السلبى سوف يخفف من وقع الأفعال، التى قد تشكل تهديدا لماء الوجه، وهى التى لا تتفصل عن معاملة الطبيب لأي مريض¹.

يظهر وفق مبدأ التأدب، أن تعامل الطبيب مع "ندى" على هذا النحو يدخل ضمن مبدأ التأدب السلبى، فهو لم يعاملها كشخص إنما كحالة، وهذا ما دفع به إلى تهميش التفاصيل التى سببت لـ"ندى" الاكتئاب، وهذا التصرف ينطوي على مقاصد يبررها انتماء الطبيب إلى نظام مؤسستى يحكمه، ويمنع عنه الخوض في مواضيع من هذا القبيل، فهو كآلة في تعامله مع "ندى"، أو أية حالة أخرى تستدعي نفس التصرف من قبله.

* يقدم "فيركلف" مثالا لذلك في طلب شخص ما من شخص آخر المساعدة، في تغيير إطار عجلة سيارة مثقوب، أما التأدب السلبى فيمكن أن يمثل الطلب إساءة إلى ماء وجه المخاطب سلبيا، بمعنى أنه يمثل ضغطا عليه للتصرف بطريقة معينة... وقد يصاغ الطلب "بتأدب" إيجابى... وهو في هذه الحالة " مخفف" و"مصحح"، وقد يكون ذلك بإبداء الود، أو التعاطف أو التضامن مع المخاطب، (هلا تساعدني في تركيب هذا الإطار يا صاحبي؟) وغيرها من الصيغ اللطيفة المستعملة، التى تجعل طريقة طلب المساعدة لبقة، إن صح التعبير بعكس ما نجده في تأدب السلبى. والهدف من البحث في استراتيجيات التأدب المستعملة هو تحديد أكثرها استعمالا في العينة المراد تحليلها، وتساعد على "التثبت من وجود اختلافات بين المشاركين في هذا الصدد، وما تعنيه هذه المعالم فيما يتعلق بالعلاقات الاجتماعية بين المشاركين.... ما استراتيجيات التأدب المستعملة (تأدب سلبى، تأدب إيجابى، إشارات هامشية) ومن الذى يستعملها ولأية أغراض. أنظر، نورمان فيركلف، اللغة والسلطة، 289.

¹ - نورمان فيركلف، اللغة والسلطة، ص 205.

5. 3/ وسائل الإعلام وأساليب التعمية:

تلعب وسائل الإعلام بالنسبة للتحليل النقدي للخطاب، دورا بارزا في التضليل والتعمية، وفي توجيه الرأي العام أو السيطرة عليه، وفقا لما يخدم مقاصد السلطة عبر استراتيجيات عديدة. مستفيدين في ذلك من جهود "ريجيس دوبريه" Régis Debray* المهتم بمجال الإعلام والوسائط، وما جاء به "بيير بورديو" في كتاب "حول التلفاز". حظيت وسائل الاعلام في عصرنا الحالي، بدور ريّادي في التأثير على العقول وتوجيهها، جراء تداعيات عصر السرعة التي "جعلت الجمهور المتلقي يميل إلى التحصل على المعلومة بأسرع الطرق، وهو ماعوده عليه نمط الحياة الجديدة في مجتمعات استهلاكية لا تستكين ولا تعرف التباطؤ، فالعمل ونظام السوق فرضا تبعية رهيبة للوسيط المادي الذي تمرر به المعلومة، والفكرة التي تؤثر، فليس بإمكان عقل أن يؤثر على عقل آخر إلا بالتجسيد في مادية حساسة معينة (كلام، كتابة، صورة) وبالترسب على ركيزة معينة...بدون هذا لا يمكن لأية فكرة أن تصبح حدثا وتؤثر...الرأي الذي لا وسائل له ليعرف ليس خطرا"¹.

شكلت هذه الوسائل باختلاف صورها أساليب سلطوية وقمعية، لتدمير الذات والتجذر في الوعي، تكمن خطورتها في التأثير على المتلقين، وحملهم على إدراك الحقيقة والتسليم بالأمر الواقع، الذي يخدم أصحاب السلطة ملاك هذه الوسائل، التي تسيطر في صمت على عقول الجماهير، وتدفعهم إلى النظر بإيجابية إلى أمور سلبية،

* يعدّ دوبريه من بين أشد المفكرين المدافعين عن قضايا الإنسانية، المتيقنين من ضرورة الكفاح من أجل تحرير المجتمعات من سطوة الليبرالية الجديدة، عرف بكفاحه مع شقيقافارا، كما استطاع أن يؤسس نسبيا لعلم أطلق عليه الميديولوجيا La médiologie، أي علم دراسة الوسائط التي تغدو الفكرة بواسطتها قوة مادية فاعلة. أنظر، حياة أم السعد، النقد والخطاب مقاربات تداولية وميديولوجية، ص205. وأنظر أيضا الفصل الثاني من هذه الدراسة الجزء المتعلق بالإعلام وسلطة التمثيل، للتوسع، أنظر أيضا: جيمس دوبريه، محاضرات في علم الاعلام العام (الميديولوجيا)، ترجمة: فؤاد شاهين وجورجيت الحداد، دار الطليعة، بيروت، ط1، 1996.

¹-حياة أم السعد، النقد والخطاب مقاربات تداولية وميديولوجية-، ص205 و206.

كما أسفرت عنه المفاضلة، التي أقامتها ندى ابنة المعتقل المثقف لأبيها عبد القادر الأستاذ الجامعي، والرئيس جمال عبد الناصر في حوار داخلي تقارن فيه بين والدها المثقف الحامل لدكتوراه من السوربون، وبين رئيس تصوّره وسائل الإعلام كأبّ روحيّ للمجتمع، ومنزّه عن الخطأ فتقول: "أبي يحمل دكتوراه من السوربون، وكان أستاذا جامعيا، مؤكد أنّه يعرف أكثر من الضباط، ويفهم أكثر منهم، وما يريده في السياسة أفضل ممّا يريدونه... ولكن أبي كان غائبا، وكان اسم عبد الناصر وصوته وصورته، تتردد على مدار الساعات كلّ يوم، تتغنى به أغنيات أحبّها يكثر الحديث عنها في البيت والشارع والمدرسة، بل كان يرى ببساطة في الحيز الذي تنمو وتتشكل فيه، كأنه ماء أو هواء أو تربة أو أشعة ضوء يتمثلها تلقائي، فنصبح ما نصبح كان عبد الناصر يربيني رغم أنّي كنت أفتخر بالانتساب لأبي"¹. فشعور ندى بأن الرئيس عبد الناصر يربّيها بالرغم من فخرها بالانتساب لأبيها، وبالرغم من كونه من أصدر أوامر بسجن بوالدها، هو شعور برمجت عليه ندى وغيرها من الناس عبر الخطابات الإعلامية عبر الأغاني وغيرها من الآليات الخطابية والوسائط، التي تحفر في وعي المجتمع آليا صورة للرئيس البريء المنزّه عن الخطأ الحامي للبلاد والعباد، ولو كان في حقيقة الأمر غير ذلك.

ومن التعمية* والتضليل عبر وسائل الإعلام، هو مشاهدة "ندى" للمؤتمر الصحفي الأول لتومي فرانكس قائد العمليات في الحرب ضد العراق، حيث يقول:

¹ - رضوى عاشور، فرج-رواية-، ص19.

* تنشأ التعمية حول حقيقة الذين تمثل الصحيفة أصواتهم ومواقعهم، فإذا حدث أن اتخذ تمثيل أصواتهم ومواقعهم، فإذا حدث أن اتخذ تمثيل أصوات أصحاب السلطة من الأفراد والجماعات في السياسة والصناعة الخ، بصورة اللّغة اليومية (ولو بلغة محاكاة وغير حقيقة في جانب منها)، فسوف تنهار الهويات والعلاقات والمسافات الاجتماعية، إذ إنّ تمثيل كلام أصحاب السلطة بلّغة من الممكن أن يستعملها القراء أنفسهم يسهل عليهم قبول معانيهم، أي إن أجهزة الإعلام تقوم بعمل أيديولوجي، وهو نقل أصوات السلطة بصورة متكررة وخفية. أنظر، نورمان فيركلف، الخطاب والتغيّر الاجتماعي، ص139.

(هذه حملة واسعة النطاق، لم يسبق لها مثيل، تتميز بالصدمة والمفاجأة والمرونة وأعمال القوة كاسحة. جنودنا يؤدون واجبهم بشكل رائع). رتل من المدرعات يقطع الصحراء، كرات هائلة من اللهب على خلفية من الدخان والنخيل. جنود أمريكيون على متن بارجة هائلة الحجم، يهللون مع إطلاق أول قذيفة من قذائف التوما هوك. توني بلير يعلن: "شعب مقموع مقهور، سنحمل له الديموقراطية والرخاء. وسنحافظ له على آبار النفط ومصافيه"¹.

يتضح من خلال هذا الخطاب السياسي، الطريقة التي تسيطر بها وسائل الإعلام على العقول، عبر أساليب الإخفاء والإضمار، فالسامع لهذا التصريح لأول مرة يستشف الايجابية منه، وذلك عند قول فرانكس: جنودنا يؤدون واجبهم بشكل رائع، هذا الوصف للجنود بدل جنود الاحتلال أو الاحتلال الغاشم يقوم باحتلال العراق وغزوها، قال يؤدون واجبهم بشكل رائع، بالإضافة إلى ما قاله توني بلير "شعب مقموع سنجلب له الديموقراطية ونحافظ على ثرواته"، إن استعمال الكلمات على هذا النحو جعلنا نرى أنها حملة عادية، ويجب القيام بالأمر على هذه الشاكلة، في حين أن "بلير" يدرك جيداً أنه يتحدث عن استعمار غاشم غاصب للحقوق، والحريات يسرق لا يجلب مستنزف غير محافظ.

تصور الأمور في الخطابات السياسية على هذا الأساس، بغية إقناع المتلقين بمضامين الخطابات الاستعمارية، والتعامل معها بالقبول التلقائي والعفوية لمعناها الايجابي، ر في حين أنه يخفي في مضامينه رتلاً من رسائل سلطوية قمعية، لا يستطيع العقل البشري وعيها أو بلوغها.

ومن التعمية في وسائل الإعلام أيضاً نجد التهريب المقصود مع سبق الإصرار، وهو الحوار الذي قالت به ندى عند مشاهدتها لحصة تلفزيونية أين يعمل التلفزيون

¹-رضوى عاشور، فرج-رواية-، ص 199 و 200.

كآلية للهيمنة على إخضاع المشاهدين، وتلقينهم ايدولوجيا مقبّنة عبر وسيط فاعل وقويّ ألا وهو الصورة، وذلك بتمرير رسائل وتخريب عقول والسيطرة ليتحول الإنسان من مركز في هذا العالم إلى مجرد هامش، تتحكم فيه وتسخره لخدمة مصالحها تارة، ولتمرير قراراتها ونواياها الخبيثة تارة أخرى*. تقول ندى واصفة هذا الحوار التلفزيوني: "ثمّ واقعة مفاجئة تخرق القاعدة.

أجلس أمام التلفزيون. برنامج حوارى مع معتقل سابق قدّرت أنّه زميلا لأبي. ناديت على حمدية والولدين ليتابعا معي الحديث. كان الرجل (على مشارف الثمانين الآن)، يسترجع سنوات سجنه الخمس عشرة، في السجن الحربى وفي القلعة وليمان طرة وسجن المحاريق، لا يطيل الحديث عن التعذيب، يفصل أكثر في الحديث عن الإنجازات في سجن المحاريق، المسرح الذي بنوه، الورش الفنية، الجريدة الناطقة، الدورات التعليمية، المدرسة التي أقاموها لتعليم الأميين من المساجين، واللوحات التي رسمها وحفرها الفنانون على جدران المعتقل وأبوابه.

سأله المحاور:

-أشرت ذات مرة إلى لحظات ينحني فيه رأس السجين فيلحق التراب، إلى هذه الدرجة يصل الإنسان داخل المعتقل؟

-طبعاً.

-هل جريت ذلك؟

-طبعاً.

في الوجه هدوء غريب لا أتمثله. هل هي الشيخوخة وبعد المسافة أم حكمة في نهاية المطاف؟

*أنظر الفصل الثانى من هذه الدراسة الجزء المخصص للإعلام وسلطة التمثيل.

يسأل المذيع: -هل بكى الوالد حين رأى يديك في الأصفاد، وكنت طبيبا متفوقا وواعدا؟

-لا لم يبك.

-ما الذي حدث؟

-لا شيء.

-لا تتذكر أي شيء من هذا اللقاء الأول بالوالد؟

-أتذكر أنني حاولت أن أخفف عنه، تخيلت صعوبة أن يراني والقيد في رجلي، كان القيد الحديدي في رجلي. لم استغرب أن يضل صامتا وأبقى صامتا، أردت قطع الصمت فرحت أحكي له عن القيد بخفة. أقول: تعودت عليه. أقول: ثم إننا توصلنا إلى حيلة تمكننا من خلعه حين نختلي بأنفسنا.

-وماذا قال الوالد؟

-لم يقل شيئا فقط لاحظت وهو يغادر...

رعشة خفيفة في الملامح.

-لاحظت...

صعب عليه الكلام فتوقف. حاول ثانية:

-لاحظت وهو يغادر... لاحظت أن كتفيه كانا منحنيين بعض الشيء¹.

يرسم لنا هذا الحوار الإعلامي في بدايته الصورة الايجابية الجميلة للسجن، وعن الدورات التعليمية داخل السجن والرسومات الفنية وغيرها من الأشياء التي تظهر لنا السجن في أبهى حلة، وتخفي عنا الجانب القمعي له، ويتجلى ذلك في قول ندى لا يطيل الحديث عن التعذيب، يطيل الحديث عن انجازات السجن.

¹ -رضوى عاشور، فرج-رواية-، ص 156 و 157.

ينتقل بعد ذلك إلى محاورة الطبيب المعتقل بطريقة تبرز تخفى القمع السلطوى الذي يريد إيصاله، وذلك عبر إذلال السجين بأسئلة حول دهشة والده عندما رآه مكبلاً بالقيود، وعن آثار الشيوخة المتبدية في وجهه، ولم يتجاوز الحوار حدود هذه التفاصيل، التي ترمي إلى نسج صورة في خيال المتلقي بأن مصير هذا الطبيب المثقف هو مصير كل معارض للرأى الحاكم أو النظام، في حين يتحاشى المذيع مجموعة من الأسئلة لا تخدم الصورة التي يود رسمها مثل: لماذا تم اعتقالك؟ من كان يتولى أمر تعذيبكم؟ ماهي تهمةك؟ هل عرضت قضيتك على محكمة، وتلقيت فيها حكماً بالسجن مع التعذيب؟... وغيرها من الأسئلة.

نستحضر هنا "بيير بورديو" كونه من الذين اهتموا بقضية تشكيل الوعى الايديولوجى عبر التلفزيون، كما سبق وأشرنا في ثنايا هذه الدراسة وبقينه أن هذا الجهاز كان وراء كل ما لحق الإنسانية من عبودية واستكانة، جراء ما يبثه من رؤية موحدة للعالم تفرضها القوى المسيطرة، فإذا كان من الممكن اعتبار أن العلم محايد، فإن استخدامات العلم وتطبيقاته أي التكنولوجيا ليست محايدة، فيما يتعلق بتكنولوجيا الاتصالات والمعلومات، فإن التوظيف والمضمون الايديولوجى لهذه التكنولوجيا يجد أوضح مثال له في الدور الذي يلعبه التلفزيون.

لا تكمن خطورة هذه الوسيلة في التأثير المباشر على المشاهدين فقط، وإنما تمتد إلى مجالات الإنتاج الثقافى الأخرى حسب "بورديو"، وذلك عبر تشكيل الوعى والتحكم في العقول، من خلال الرسائل الناعمة، التي تبثها هذه الآلة عبر قوة الصورة حيث يأمل "بورديو" أن تسهم هذه التحليلات في إعطاء أدوات وأسلحة إلى أولئك الذين

يتعاملون مع مادة الصورة، ويناضلون من أجل ألا يتحول هذا الذي يمكن أن يكون أداة رائعة للديموقراطية إلى أداة للقمع الرمزي*.

بناءً عليه تضطلع وسائل الإعلام على اختلافاتها بقدر عالٍ من الخطورة تكمن في السيطرة على عقول المتلقين، وبالتالي النفاذ إلى وعي المجتمعات، مستغلة قوة اللغة والطاقات الكامنة داخلها، بالإضافة إلى قوة الصورة، التي تسهم بدور رئيس في التلاعب واللعب بالعقول والأهواء، تقلبها كيفما تشاء كما رأينا في الجزء المخصص للتمثيل وسلطة الإعلام.

4.5/ المدرسة وتفعيل النظام المؤسساتي:

من مفعلات السلطة القمعية جعل الحاكم يتأله، ويظهر في صورة الأب الروحي والمربي (كما سبق ورأينا في مقارنة "ندى" بين والدها وجمال عبد الناصر)، وغيرها من الصور الإيجابية التي يحاكيها وتصرفاته كذلك، فيظهر للعيان منزلها عن الخطأ، وهذا في ذهن طفلة صغيرة، حيث أقامت منى أنيس مفاضلة بين والدها، وابن عبد الناصر الذي يدرس معها في نفس المدرسة، فنقلت لندى باستفاضة الحوار الذي دار بينها وبين المدرسة حول الفرق بين والدها وجمال عبد الناصر قالت منى على لسان ندى:

"(سألت المدرسة أمام الفصل كله "من الأفضل أبي أم أبوه؟"، ولما لم تجب المدرسة قالت منى: "بابا أستاذ في الجامعة وحاصل على الدكتوراه، وكان يدرس في جامعة لندن، ولما بريطانيا اعتدت على مصر، عمل مظاهرات في إنجلترا، وترك عمله هناك وقال أرجع بلدي أساعدها. وأبوه ضابط، حارب في حرب فلسطين صحيح وقام بالثورة، لكنّه لا يحمل شهادة دكتوراه، ولم يدرّس في جامعة لندن! أبي متعلم أكثر ويفهم أكثر! "وألحّت منى أن تشهد المدرسة أمام كل التلاميذ أن والدها هو الأفضل.

* أنظر الفصل الثاني من هذه الدراسة، الجزء المتعلق بالإعلام وسلطة التمثيل، وللتوسّع حول هذا العنصر أنظر أيضاً كتاب بيبور بورديو، التلفزيون وآليات التلاعب بالعقول.

ولكنّ المدرسة قالت: إن هذا لا يجوز، لأنكم كلّكم أولادى، ولا يصحّ أن أقول فلان أحسن من فلان، ولا والد فلانة أفضل من والد فلان¹.

ينبأ هذا الحوار الذى دار بين "منى" التلميذة وبين المعلمة داخل نظام مؤسّساتى له قوانينه التى تحكمه، وهيكله السلطوى القامع، أن إلحاح "منى أنيس" على المعلمة بأن تشهد لصالح والدها لن يحدث أبداً، وإجابة المعلمة الحيادية تؤكد فعل القمع السلطوى، وقولها أنهم كلهم أولادها، ولا يصح القول بأفضلية أب تلميذ على والد آخر ليس إلا جواباً حاملاً في مضامينه مقاصد، توحى بالقمع المطبق داخل هذا الجهاز الذى يقف أمام الإجابة الصحيحة على السؤال.

القمع السلطوى نفسه، أشارت له "والدة" ندى عندما أرادت أن توضح ما حدث لوالدها، وعن الأسباب وراء اعتقاله. فتقول: "كان على أمي في ذلك اليوم أن تجلس بجوارى على السرير، وتحكي كلاماً طويلاً عن رجل كبير متعلم، يفهم أشياء كثيرة، ويقول لابدّ أن تسير الأمور بهذه الطريقة لا بتلك الطريقة، وهذا صحيح وذاك خطأ، وضباط لهم رأي آخر، هم مثل مدير المدرسة، لازم النظام يمشى بطريقتهم، اختلفوا معه فوضعه في السجن"².

يتبين من خلال هذا الحديث أن ندى لم تدع الأم تتحدث، بل تحدثت في مكانها ناقلة صوتها المعبر عن الصراع بين الطبقة المثقفة، أو المثقف العربى في مقابل أناس لهم شأو في الدولة أو الأعلى سلطة، حتّى وإن كانوا دون مستوى الطبقة المثقفة إلا أن السلطة وأجهزتها المختلفة تبيح لهم فعل أي شيء، ممّا جعل ندى على لسان والدتها تشبه أزمة المثقف العربى في ظلّ الممارسات القمعية السائدة بمدير المدرسة كون المدير في المدرسة الرجل الأول على رأس تلك المؤسسة، ما يجعله يتمتع بسلطة فوقية، حتّى وإن تبدت عادية (العادية هنا المقصود بها أنّها سلطة مؤسّساتية متعارف

¹ -رضوى عاشور، فرج-رواية-، ص 17 و 18.

² -المصدر نفسه، ص 18.

عليها، لكنها إقرار بوجود نظام سلطوي ممارس داخل هذا الجهاز، في مقابل الأولى التي نقول عنها أنها سياسية أو عسكرية حيث تعمل السلطة المؤسساتية على نشر الخضوع والخنوع من قبل الشعب لأجهزة الدولة ومؤسساتها، وإن تلقت الرفض تقابله بالقمع السلطوي عبر صوره المختلفة).

يفرض هذا التوجه تراتبية سلطوية مؤسسية. وهو ما تحدث عنه "فان ديك" في دور البنّى المؤسساتية في فرض الهيمنة على اختلافاتها سواء كانت مؤسسة اجتماعية أو عسكرية أو اقتصادية أو إدارية أو حتى أخلاقية كما سبق وأشرنا*، يصبح السجن بهذا مؤسسة شأنه شأن المدرسة أو المستشفى، تفرض ما يفرضه بقية المؤسسات من تراتبية، وهو ما قال به فوكو على لسان البطلة ندى" ما الذي يدهش في أن يشبه السجن المصانع والمدارس وتكنات الجنود والمستشفيات التي تشبه كلها السجون"¹. يعيش بذلك المجتمع العربي داخل سجن كبير.

لكن السجن داخل الرواية هو سجن سياسي، أو بالأحرى "هو المكان" الذي يضم المجموعات التي رفضت الرضوخ والتسلط والاستسلام والاستكانة ولا تنتمي بالإجرام"². فالسجن التيمة الأبرز في روايتنا غير متعلق بالجرح أو جرائم القتل أو السرقة... وغيرها من الأمور، التي توارثنا أن السجون بنيت من أجلها، إنما هو سجن من نوع آخر سجن سياسي لمعتقلي الرأي والمعارضين للنظام، وقد يكون أشدّ وطأة وتعذيباً وقمعا من السجن المخصّص للجرائم.

* نشير هنا إلى رؤية "التوسير للفرق الأساسي بين جهاز الدولة القمعي وجهاز الدولة الايديولوجي، في كون الأول يعمل بالاستعانة بالعنف، بينما يعمل الثاني بالايديولوجيا، لكن علينا أن نوضح أن القمع هنا ليس مطلقاً، والأمر نفسه بالنسبة للايديولوجيا. للتوسع: أنظر: الفصل الأول من هذه الدراسة الجزء المتعلق بالتحليل النقدي للخطاب أين قدمنا شرحاً مفصلاً لهذه الرؤية.

¹ -رضوى عاشور، فرج -رواية-، ص82.

² -علي منصور، البطل السجين السياسي، ص142.

"من هنا يصير السجن فضاء قاهرا للمعتقل السياسي الذي يتبنى استراتيجية المواجهة والتحدّي، فيغدو السجن مقترنا رمزيا بجمالية الإلغاء والمحو، ويصير السجين مرتبطا رمزيا بجمالية الصمود وقوة الإدراك. لذلك يغدو السجن مؤسسة تصدر حرية كائن لم يقترب جرما، وإنما تداول في آراء وأفكار تعارض، وتنتقد سياسة الدولة التي تغلق الأفواه وتفتح أبواب السجن. وهذا ما يؤد صراعا رمزيا بين سلطة مستبدة، وفاعل سياسي مثقف تصدر أفكاره ومواقفه، الأولى (السلطة) تمارس رعبها على الثاني (المثقف السياسي) فتقبره رمزيا (السجن)، والثاني يصمد ويجابه القهر ويتعايش مع "قبره" (السجن والزنازة)."¹

نقول في نهاية هذا الجزء المخصص للحديث عن النظام المرساتي والتراتبية السلطوية الناجمة عنه أن " مجموعة كاملة من المؤسسات الاجتماعية مثل التعليم والقضاء والأديان وأجهزة الاعلام، بل والأسرة، تعمل بصورة جماعية وتراكمية على ضمان استمرار سيادة الطبقة الرأسمالية... ومع ذلك فقد أجريت تحليلات أنت بنتائج مقنعة عن الأسلوب الذي تطبقه المؤسسة التعليمية، وغيرها من المؤسسات لتدريب الأطفال على التكيف وقبول النظام القائم للعلاقات الطبقية".² إذن تنهض مختلف الممارسات المؤسسية التي يتعامل معها الناس بدون تفكير أو بطريقة طبيعية وتلقائية، بتكريس ترسانة من القيم والمبادئ عبر الشرعنة المباشرة وغير المباشرة، لمختلف علاقات السلطة بطريقة خفية، تجعل الناس يتعاملون معها بعفوية على أنها أمر عادي، ما يضيف عليها طابعا طبيعيا، وهو ما اصطلح عليه فيركلف التطبيع والمنطق السليم، أو القسر عبر الرضى.*

¹ -عبد الرحمن التمار، مرجعيات بناء النص الروائي، دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع، ط1، 2013، ص235.

² - نورمان فيركلف، اللغة والسلطة، ص55.

* تعتبر السلطة الايديولوجية، أي السلطة التي تتيح للمرء تصوير ما يفعل باعتباره ممارسة عامة يقبلها المنطق السليم، عاملا مهما يستكمل السلطة السياسية...وهي تتمتع بدلالة خاصة هنا بسبب ممارستها والحفاظ عليها، إما

نختم بالقول أنّ هذه الحوارات على اختلافاتها، تحدّد مستويات الصراع داخل المتن الروائي عبر التعدّد اللساني، لتخدم رؤية وإيديولوجيات ظاهرة ومقنعة تبرز اللغة جوانبها السياسية، وإدراكها الاجتماعي لفعل القمع السلطوي. " فبالنسبة للرواية العربية المعاصرة خاصة، تعتبر صورة اللغة المجسّدة في الحوار بين الأساليب التعبير الوحيد عن موقف المبدع، وأسلوب الروائي في هذه الحالة ليس له طبيعة لسانية مباشرة، بل صيغة مفاهيمية (نسبة إلى المفاهيم)، وينسحب الطابع الحوارى حتّى على الروايات المنولوجية التي تجعل الحوار ستارا يحجب هيمنة الصوت الواحد"¹.

هو ما نستشفه من مجمل الحوارات الواردة في الرواية، إن لم نقل كلّها حيث تكشف عن صوت الكاتبة، وعن الهمّ القومي الذي يشغلها بالإضافة إلى القمع سلطوي المتجذر في وجود الشخصيات في أقوالها وأفعالها، وحضورها وحتّى تخيلاتها، هذا القمع الذي جعل خطاباتها غير بريئة تنسج وفقا لأفكار وإيديولوجيات شكلت وعي هذه الشخصيات مسبقا الحقيقية منها والمتخيّلة (وعى الكاتب)، حيث نجد منها من هي مدركة لهذا الأمر، وعلى النقيض من ذلك نجد شخصيات غائبة تماما عن الوعي الاجتماعي بهذا القمع السلطوي الذي أسرها وحدّد رؤاها. وأبرز معاناة الإنسان العربي عامة والمتقف العربي الخاصة عبر صيغ السيطرة والهيمنة المختلفة المادية أوالمعنوية، وحتّى المؤسّساتية فكل شيء يفضي إلى القمع السلطوي منه ينطلق وإليه يعود.

إرغام الآخرين عن امتلاكهم وممارستهم للسلطة، أو على الأقل عدم اعتراضهم على ذلك، أي باختصار من خلال القسر أو الرضى. أنظر، الفصل الأول من هذه الدراسة الجزء المتعلق بالاستراتيجيات، وللتوسّع أكثر أنظر، نورمان فيركلف، اللغة والسلطة، ص 55 و56.

¹ -حميد لحداني، -أسلوبية الرواية -مدخل نظري، ص92.

2/القمع السلطوي في أدب الجريمة: بين فضح لواقع سياسي متأزم، وتصوير لفساد متجذر (رواية طير الليل لعمارة لخص)

قمنا في الشق الأول من التطبيق بالاستفادة من المقاربة المعرفية الاجتماعية لـ"فان ديك"، لكن دون الالتزام بها حرفياً، وإنما أخذنا بعض مقولات هذه المقاربة، وحاولنا تكيفها لتنمّشى ومعطيات النص السردى، وذلك عبر التنسيق بين مختلف مقاربات التحليل النقدي للخطاب عبر الأطر المشتركة بينها*، إلا أن هذا الاشتراك لا يلغى الاختلاف بين روادها في الكثير من المواطن أبرزها تعدد تعريفاتهم وتضاربها حول المفاهيم المركزية للتحليل النقدي للخطاب (السلطة، الخطاب، الأيديولوجيا)، وهذا الاختلاف ينبأ عن انفتاح رواد هذه المقاربات على توجهات، ورؤى عديدة أثرت هذه الأطر التحليلية، وفنّدت التعامل معها كمسلّمات غير قابلة للنقد، ومن بين أبرز هذه الملامح المشتركة حسب فوداك وماير (2014)، التي يلخصها "عماد عبد اللطيف"* في كتابه "تحليل الخطاب السياسي -البلاغة-السلطة- المقاومة-" نجد: "

-الاهتمام الجذري بسياق إنتاج الخطاب وتداوله.

-دراسة عمليات التفاعل بين المشاركين في إنتاج الخطاب، وتداوله وتلقيه.

-التركيز على ما تفعله اللغة أكثر من التركيز على ما تقوله.

* انظر، الفصل الأول من هذه الدراسة الجزء المخصص للآليات التطبيقية.

* أستاذ البلاغة وتحليل الخطاب بجامعة القاهرة، وجامعة قطر درس في مصر وبريطانيا، وحاضر في جامعات عربية وغربية عدّة، أسس حقلاً معرفياً هو "بلاغة الجمهور"، يدرس العلاقة بين تشكل الخطاب وتداوله، وأدائه من ناحية، واستجابات الجمهور له من ناحية أخرى، وقد سعت أعماله لتطوير البلاغة العربية، وترسيخ مقاربة علمية نقدية للخطاب السياسي العربي، نظمت مؤتمرات علمية وسجلت رسائل جامعية، ونشرت كتب متخصصة حول أعماله في المغرب، والعراق، ومصر، والسعودية. نشر خمسة وعشرين بحثاً في مجلات محكمة باللغتين العربية والانجليزية، وألف سبعة كتب منفرداً، وأربعة عشر كتاباً جماعياً، أشرف على ترجمة موسوعة البلاغة، وترجم منفرداً وبلاشتراك عدّة كتب في البلاغة وتحليل الخطاب، حصل على جوائز عربية ودولية، منها جائزة المهاجر الأسترالية في البحث العلمي، وجائزة أفضل كتاب عربي في العلوم الاجتماعية من معرض القاهرة الدولي للكتاب عام 2013، عن كتابه "بلاغة الحرية".

- التركيز على الآثار المعرفية والسلوكية للخطاب وعلاقتها بالأنشطة التفاعلية في سياق تداوله.

- الاهتمام بالعلاقات المعقدة بين النص والنصوص الأخرى التي يتفاعل معها، ويشترك بها.

-توظيف أدوات ومفاهيم من شبكة واسعة من العلوم الإنسانية في دراسة الخطاب¹.
هذه النقاط المشتركة بين مختلف هذه المقاربات لا تعني الالتزام الحرفي بها في هذا الجزء من التطبيق كما سبق وأشرنا في متون هذه الدراسة، إنما نفيد من هذه الملامح ونضيف عليها ما يتماشى وخصوصية النص الروائي، عبر دمج هذه المعطيات مع المقاربة الجدلية العلائقية لنورمان فيركلف كما ستبرز هذه الدراسة، وتتنظيرات "باختين" حول الرواية في دراستنا لرواية طير الليل لـ"عمارة لخص".

إلى جانب معطيات أخرى مستقاة من الدراسة السردية، والتحليل النقدي للخطاب والتحليل التداولي حيث "إن القول بأهمية مراعاة خصوصية الحدث الخطابي المدروس، وخصوصية اللغة والثقافة التي ينتمي إليها هذا الحدث الخطابي، لا يحول دون تقديم أطر تحليلية مكتملة، لكن يجب التأكيد دوماً أن هذه الأطر ليست نماذج كاملة مغلقة، بل هي دوماً مجرد أطر استرشادية، لا يجب الالتزام بها، والثقة التامة فيها، بل تجب في الحقيقة مساءلتها، ونقدها وتكييفها، وتطويرها"². قبل ذلك ارتأينا أن نقدّم لهذا الجزء بهذا التمهيد الذي يفسّر العلاقة بين الخطاب الروائي والتحليل النقدي للخطاب السياسي.

1/ التحليل النقدي للخطاب ودراسة السرد: تزامنت كتابة هذا الجزء من التطبيق مع محاضرة ألقاها الأستاذ "عماد عبد اللطيف" عنوانها التحليل النقدي للخطاب موضوعاً

¹- عماد عبد اللطيف، تحليل الخطاب السياسي -البلاغة، السلطة، المقاومة-، دار كنوز المعرفة، ط1، 2020، الأردن، ص152.

²- عماد عبد اللطيف، تحليل الخطاب السياسي -البلاغة، السلطة، المقاومة-، ص152.

للسرد، شرح فيه إمكانية تطبيق هذا التوجه في التحليل على النصوص الروائية، مع الأخذ بعين الاعتبار ضرورة تكييف أدوات أو آليات هذه المقاربة حول النص الروائي، وسنقدم فيما يلي قراءة لأهم ما جاءت به المحاضرة من نقاط مهمة تلمس صلب موضوعنا.

1.1/ التحليل النقدي للخطاب ودراسة السرد؟

أشار عماد عبد اللطيف في بداية محاضراته حول إمكانية دراسة السرد الأدبي بأدوات التحليل النقدي للخطاب إلى مفارقة مهمة حيث " تكاد تخلو أعمال أكثر الكتاب شهرة وأهمية في مجال التحليل النقدي للخطاب من التطبيق على مدونات الأدب، سرديا كان أم غير سرديا؟ نورمان فيركلف، توين فان ديك، بول شيلتون Paul Chilton، فان ليفن¹.

سبق وأشرنا إلى هذه الملاحظة في طيّات الفصول السابقة حيث أن أغلب رواد التحليل النقدي للخطاب، يطبقون آلياتهم التحليلية على نصوص إعلامية وإشهارية ومؤسسية وخطب سياسية، باعتبارها خطابات لأشخاص ذوو سلطة معينة، يسعون من خلال خطاباتهم إلى الحفاظ عليها أو إضفاء الشرعية على أمور تخدم مصالحهم السلطوية لا يستطيعون التعبير عنها مباشرة في خطاباتهم، مما يدفعهم إلى الاستعانة بقوة اللغة وطاقاتها في التلاعب والمغالطة والتخفي والتفنع، الذي تتيحه الموارد اللغوية بغية تحقيق مخططاتهم ومسايعهم السلطوية بالضرورة.

وهدف التحليل النقدي للخطاب هو الكشف عن إساءة استعمال اللغة داخل هذه الخطابات المنتجة من قبل سلط معينة، من لحظة إنتاجها إلى تداولها فتلقاها والسعي

¹ -عماد عبد اللطيف، التحليل النقدي للخطاب ودراسة السرد، محاضرة، تقديم: عقيل عبد الحسين خلف (أستاذ النقد الحديث في كلية الآداب/جامعة البصرة)، تنظيم: الوحدة الثقافية في كلية الآداب تحت رعاية عميد كلية الآداب: ماجد عبد الحميد الكعبي، جامعة البصرة/ كلية الآداب، على قناة زوم، التاريخ: الأربعاء 2021/12/01 الساعة التاسعة بتوقيت بغداد.

إلى مقاومتها وفضحها، "ويعلّل هذه الفكرة بتساؤلات حول نجاعة دراسة الخطابات في عوالم متخيّلة، إذا كان الهدف المرجو من التحليل النقدي للخطاب هو تعرية خطابات الواقع وإصلاحها، إلى الصلات الوطيدة بين خطابات العالمين المتخيل والواقعي، وذلك بالنظر إلى تصورين اثنين هما:

1/السرد الأدبي بوصفه خطابا سلطويا: السرديات الأدبية الداعمة لممارسات الاستبداد والقهر والتمييز والعنصرية...الخ.

2/السرد الأدبي بوصفه خطابا مناهضا لإساءة استعمال السلطة: مساءلة إساءات استعمال السلطة ومقاومتها في عوالم متخيّلة".¹

نرى أن تحليلنا لرواية "فرج" لـ"رضوى عاشور" ينضوي ضمن التصور الثاني الذي عالجت فيه الرواية مضامين مختلفة تنتقد من خلالها السياسات الحاكمة لمصر في عهد جمال عبد الناصر، وفي عهد السادات على لسان بطلتها "ندى"، وفي سلسلة المظاهرات التي اكتسحت الجامعات المصرية في السبعينيات، ومقارنة هذه الأحداث بمثيلاتها في فرنسا، إلا أن الثورة الطلابية في فرنسا حققت مساعي ومطامح عجزت الثورة المصرية عن تحقيقها نظرا للسياسات القمعية الراهنة آنذاك، وكذلك نشوء الجنرالات الصغار الذين يظهرون بعد كل ثورة ليسرقوا أحلامها ورؤاها، وغيرها من الأحداث والخطابات التي نددت بنظام الحكم الناصري وصدحت بالحلم النخبوي المزهق.

ومن النماذج الروائية التي تهدف إلى تعرية وكشف الواقع السياسي المتأزم، الذي تعيشه الشعوب في ظلّ سياسات دكتاتورية تتغنى بالديموقراطية بين الفينة والأخرى، وترصد أيضا "واقع العلاقة بين التحليل النقدي للخطاب والسرد نجد روايتي مزرعة

¹ - عماد عبد اللطيف، التحليل النقدي للخطاب ودراسة السرد، محاضرة، 2021/12/01.

الحيوان و 1984 لجورج أورويل George Orwell* مثالا باعتبارها تمثيلات كنائية للواقع في قالب نقدي، يجمع بين اللغة والثورة قدم من خلالها نموذجا لنقد الخطاب السياسي في أعمال "جورج أورويل"¹.

1. 2/عالم جورج أورويل الحيواني ونقد لغة السياسة:

حظيت أعمال "جورج أورويل" بشهرة واسعة خاصة "مزرعة الحيوانات"* بعد أن رفضت العديد من دور الطبع نشرها لتحفظات سياسية ومبررات واهية، لتتشر بعد ذلك

*جورج أورويل هو الاسم الأدبي المستعار الذي اشتهر به المؤلف، والكاتب أريك آرثر بلير Eric Arthur Blair، وقد ولد بالهند سنة 1903، وتلقى تعليمه في كلية إيتون. ابتدأ حياته العملية ضابطا في الوحدات الهندية الإمبراطورية، وعمل في بورما في الفترة ما بين سنة 1922 حتى سنة 1928، ثم أقام سنتين بعد ذلك في باريس، وعاد إلى إنجلترا، ليعمل مدرسا بها، ثم موظفا بمكتبة. وفي سنة 1937 حارب في صفوف الجمهوريين بإسبانيا وجرح بها، وفي الحرب العالمية الثانية عمل بالحرس الوطني وبالإذاعة البريطانية، وفي سنة 1943 اشترك في تحرير مجلة تريبيون، وخصّصت له صفحة كاملة، لينشر خواطره الأدبية والسياسية...توفي سنة 1950 بإنجلترا بعد أن ترك الكثير من المؤلفات. وفي سنة 1945 ذاع صيت جورج أورويل عندما نشرت له قصة "مزرعة الحيوانات" (Animal Farm)، وقد بيع منها أكثر من مليوني نسخة، وحظي مؤلفه في عام (1948)، كذلك شهرة كبيرة ونجاح مماثل. أنظر، جورج أورويل، مزرعة الحيوانات-رواية-، ترجمة:شامل أباطة، مراجعة:ثروت أباطة، دار الشروق، مصر، 2009، ص 05 و 06.

¹ - عماد عبد اللطيف، التحليل النقدي للخطاب ودراسة السرد، محاضرة، 2021/12/01.

*تدور قصة "مزرعة الحيوانات" حول مزرعة ثور فيها الحيوانات على صاحبها السّكير (السيد جونز الذي يمثل هنا القيصر المخلوع "نيكولا الثاني")، الذي كان يستغلّها لمصالحه من دون أن يقدم لها حتّى كفايتها من الطعام، هذه الثورة تأتي لتحقيق نبوءة حكيم الحيوانات وهو خنزير اسمه (ميجر)، تنبأ بالثورة ومات قبل أن يشهدها-شخصيته هي مزيج من ماركس ولينين- وهي الشخصية التي قدّمها أورويل بصورة الثوري المبدئي الذي ناضل من أجل مصلحة جميع الحيوانات، يقود الثورة بعد هذا خنزيران، أحدهما يدعى سنوبول-شخصيته مزيج من لينين وتروتسكي - والآخر نابليون ستالين-، وقد تخلص من الخنزير الأول بنفيه، وتشويه صورته عن طريق خنزير إعلامي استخدم مؤهلاته الدعائية وتمكّن من تمويه الصورة الحقيقية لميجر واتهامه بالخائن، يتمّ بعد ذلك وضع سبعة قوانين لمذهب الحيوانية الذي ستسير الحياة في (مزرعة الحيوانات) على أساسه تحت مبدأ أن كلّ الحيوانات متساوية، ثم تبدأ الحيوانات في العمل الشاق...، يسيطر الخنزير نابليون على المزرعة بالقوة محيطا نفسه بخنازير محدودة، وبكلاب شرسة لا تدين بالولاء إلا له، مع الوقت تصبح حياة الحيوانات أسوأ ممّا كانت عليه في ظلّ صاحبها الإنسان السابق، ولكن لا أحد يتذكر، والدعاية الدائمة التي يقدمها الحكام الجدد تتجدد الانجازات التي قاموا بها، وويل لمن يشكك في هذا. أنظر، مصطفى آيت خرواش، قراءة في رواية "مزرعة الحيوانات"، مؤمنون بلا حدود للدراسات

وتتحقق عددا هائلا من المبيعات، وتترجم للعديد من اللغات، لمحاكاتها أحداثا سياسية واقعية، عبر لغة مواربة متخيّلة جسّدت عالم حيواني تثور فيه الخنازير ضد الإنسان "جونز" المالك لهذه المزرعة جراء طغيانه وجبروته، لينتقل حكم المزرعة بعد سقوط حكم "جونز" إلى فئة أخرى تسرق انتصار هذه الثورة وتجهض حلم التغيير، فيعاني الحيوانات في عهدها، ويعايشون قهرا تجاوز قهر جونز بالقدر الكثير.

لم تكن مزرعة الحيوان بهذا مجرد "عمل أدبي أملتة الاهتمامات والهموم الأدبية والفنية الذاتية فحسب، بل كانت أيضا محاكاة لواقع سياسي مملوء بالتناقضات والصراعات الايديولوجية في مرحلة جدّ حساسة من تاريخ روسيا، والعالم ما بعد الحرب العالمية الثانية، فلقد قدّم جورج أورويل رؤية سياسية لما حدث إبان الثورة الروسية والألمانية في قالب فنيّ بسيط، يمتزج فيه الواقع بالخيال والرمز والتشبيه والمجاز"¹.

تجاوزت-بهذا- رواية- مزرعة الحيوانات حدود السرد لترسم لنا الواقع السياسي إبان الثورة الروسية، لعالم مليء بالتوتر السلطوي الذي عايشته الشعوب في روسيا، وغيرها من البلدان بعد الحرب العالمية الثانية، حيث قدّم "جورج أورويل" في مشروعه نقداً للغة السياسة " في أواخر النصف الأول من القرن العشرين هو الأكثر شمولاً وانتشاراً وتأثيراً، وقد تبلور هذا المشروع في أعمال أورويل الأخيرة خاصة روايته مزرعة الحيوان و1984، ومقاله "السياسة واللغة الانجليزية"، ويرجع وصف مشروع أورويل بالشمول إلى تغطيته لكثير من جوانب العلاقة بين اللغة والسلطة من ناحية،

والأبحاث، قسم الدين وقضايا المجتمع الراهنة، 23 مايو 2020، <https://www.mominoun.com>articles> تاريخ الدخول: 2021/12/25 الساعة 17:00 مساءً.

¹-مصطفى آيت خرواش، قراءة في رواية "مزرعة الحيوانات".

واللغة والفكر من ناحية أخرى. علاوة على اهتمامه بطرق إنتاج لغة السلطة، وطرق مقاومتها في الوقت ذاته¹.

شكلت أعمال "جورج أوريل" (رواية مزرعة الحيوان، رواية 1948، مقال "السياسة واللغة الانجليزية") نظرة إلى الطريقة التي تسهم بها اللغة في الحفاظ على السلطة وإنتاجها وسبل التصدي لها حسب "عماد عبد اللطيف"، ويتقاطع هذا مع عمود التحليل النقدي للخطاب والنقطة المركزية التي يبنى عليها، إضافة إلى كونه المبدأ الأساس لهذه الأعمال الثلاثة التي تختلف في بؤرة اهتمام كل منها، فروايته مزرعة الحيوان تقدم صياغة سردية أمثولاتية (خبرة التلاعب اللغوي الذي تمارسه سلطة ديكتاتورية في حال التشكل، تحاول ترسيخ وجودها وفرض سيطرتها، ومن ثم تركز الرواية على الكيفية التي تسهم بها اللغة في إنشاء هذه السلطة وحمايتها، أما رواية 1984 فتقدم معالجة شديدة التعمق لدور اللغة في استقرار سلطة ديكتاتورية شمولية، وتتضمن الرواية مناقشة نظرية مستفيضة للعلاقة بين طبيعة اللغة السياسية السائدة، وتقييد أفق التفكير لدى المواطنين وتحريره من ناحية، وتأثير اللغة السياسية في تشكيل المجتمع من ناحية أخرى، بينما يقدم مقال "السياسة واللغة الانجليزية" معالجة نظرية لبعض أوجه العلاقة بين اللغة والسلطة، مركزا على كيفية مقاومة ما يسميه "أورويل" اللغة الفاسدة.²

هذا الاهتمام الأورويلي* بنقد لغة السياسة لا يزال يحظى باهتمام الدارسين على الرغم من مرور أكثر من ستين عاما على كتابة مقال "السياسة واللغة الانجليزية" فلا

¹ - عماد عبد اللطيف، تحليل الخطاب السياسي، ص 129.

² - المرجع نفسه، ص 131.

* بلغ تأثير كتابات أورويل حول لغة السياسة حد اشتقاق مصطلح أصبح ذائع الصيت هو مصطلح "أورويلي Orwellian" الذي يمارس التلاعب والتزييف، كما يطلق على العالم الذي تسوده ديكتاتورية قهرية مضللة، علاوة على مصطلحات أخرى محورية في نقد لغة السياسة في العالم الراهن كالإدماج... وغيرها من المصطلحات

يزال يُدرّس في المدارس الثانوية الأمريكية، فبحسب جوستا فسون في كتابه الكلمات الممتلئة فإنه عادة ما يطلب من طلبة المدارس الثانوية والجامعات قراءة مقال أورويل، لكونه يعرف الطلاب بسياسات اللّغة، وينمي وعيهم بالكيفية التي يقوم بها السياسيون بتزييف الواقع، أو التحكم في إدراكنا له¹.

بيّن من هذا القول أن أعمال "أورويل" بالرغم من اختلاف اهتماماتها، التي تلقت في نقدها للغة السياسية، إلا أنها اضطلعت بدور رياديّ وهامّ في بثّ الوعي بهذه اللغة، وكيفيات اشتغالها وهيمنتها على العقول، ومن ثمّ التصرفات بوعي متلقّيها أو من دون وعيهم، باعتبارها مرجعا يلقن لطلبة الثانويات والجامعات ليحيي فيهم روح الإدراك، والكشف عن خطورة المضامين اللغوية السلطوية القائمة المنتجة من قبل السلط السياسية، التي تتحكم فينا وفي حياتنا ورؤانا الحاضرة والمستقبلية، وشكّلت الماضية منها وهذا الذي نود إرساءه في دراستنا السابقة واللاحقة للنماذج الروائية، كعينة تنوّه بمخاطر القمع السلطوي عبر قوّة اللّغة الذي يغزو ذواتنا بقيود وهمية تكبل أفعالنا وأقوالنا دون وعيٍ منّا.

1. 3/ لماذا المقاربة الجدلية العلائقية لنورمان فيركلف؟

يرى "عماد عبد اللطيف" أن دراسة السرد بأدوات التحليل النقدي في العالم العربي هو ضرورة تتبع من كون السرد الأدبي "أصدق إنباء من خطابات الحياة اليومية: سرديات الأخبار الصحفية وكتب التاريخ الرسمي في مقابل الرواية المتخيّلة، وذلك تجنباً لمخاطر نقد خطابات السلطة في أنظمة مستبدّة"².

السياسية، التي ستحاول هذه الدراسة رصدها في مقاربة "رواية طير الليل" للتوسع أكثر: أنظر، عماد عبد اللطيف، تحليل الخطاب السياسي، ص130.

¹ - المرجع نفسه، ص130.

² - عماد عبد اللطيف، التحليل النقدي للخطاب ودراسة السرد، محاضرة، 2021/12/01.

يوضح هذا التصور أن الرواية تكتسب حرية في التعبير عن مختلف التوجهات والآراء السياسية الناقدة للسلطة الحاكمة، في محاكاة توازي الواقع بقدر ما ترسم صوراً عنه كونه خطاباً غير مباشر، بعكس الخطابات الإعلامية والإخبارية المباشرة، التي تتجنب نقد خطابات السلطة في ثناياها مخافة المخاطر الناجمة عن هذا النقد، إلا أننا نرى وفق توجهنا الخاص أنّ كلا من الرواية والخطابات اليومية خاضع لقيود في التعبير والتصوير مخافة الأنظمة المستبدة، أما عن صدق الخطاب الروائي فهو نسبي نوعاً ما حيث يلجأ الروائي إلى الرمزية لتمرير رسائله، وهذه النسبية في الروايات التي صودرت قبل نشرها كما سبق ورأينا في "رواية تلك الرائحة" لصنع الله إبراهيم، أيضاً الأسباب وراء منع نشر رواية "مزرعة الحيوان" في العديد من الدول في وقتنا الحالي، وغيرها من الأمور كما سنوضح في التطبيق.

أمّا عن إطار التحليل النقدي للخطاب وتطبيقه على السرد المتخيّل فيقترح مقارنة فيركلف مثلاً مهماً، لأنّه أولاً يُعدّ من الرواد البارزين في التحليل النقدي للخطاب، وأيضاً لتبنيه رؤية مهمة للخطاب بوصفه ممارسة اجتماعية، ونستمد أفكارنا حوله من خلال كتابين مهمين له هما "الخطاب والتغير الاجتماعي" وكتاب "اللغة والسلطة" ومن خلال مقاله الموجود في كتاب مناهج التحليل النقدي للخطاب المعنون مقارنة جدلية علائقية للتحلي النقدي للخطاب في البحث الاجتماعي.

أمّا عن المنابع التي استقى منها أفكاره ومبادئه في التحليل، هي ثلاث مبادئ من الفيلسوف "فوكو"، توجه هاليداي Halliday في النحو، ومن "علم الاجتماع" حيث "تتماس المقاربة الجدلية-العلائقية مع نظرية لغوية هي اللغويات الوظيفية النظامية Systematic Functional Linguistics (هاليداي، 1985) - التي تقوم

بتحليل اللّغة كما يتمّ تشكيلها (حتى في قواعد اللغة الخاصة بها)، عن طريق الوظائف الاجتماعية التي تقوم بها.¹

فالعناية بأشكال التعبير في استعمال اللغة، كونها من أشكال التغيير الاجتماعي والثقافي تزداد أهمية مع مرور الأيام، وهذا ما اتفق عليه مجموعة من الباحثين استقى منهم "فيركلف" مبادئه في التحليل، واستفاد منهم وفقا لما يخدم توجهه، ومن بينها الدور الذي تلعبه الايديولوجيا في إعادة الإنتاج الاجتماعي، وأهميّة التكنولوجيات في الأشكال الحديثة للسلطة حسب ما جاء به "فوكو" " واللّتان تعتمدان على اللغة ودورها الريادي في التحكم والتوجيه.

فالتحليل النقدي للخطاب تبعا لما جاء به " فيركلف" في كتابيه اللذين سبق ذكرهما، يعيب على الدراسات اللسانية تحليلاتها الداخلية للنصوص، ويرى أن الدراسة النقدية للغة ترى بمفهوم اللغة باعتبارها شكلا من أشكال الممارسة الاجتماعية حيث يقول: "أولا إنّ اللغة جزء من المجتمع، وليست خارجة عنه بصورة ما، وثانيا أن اللغة عملية اجتماعية، وثالثا أن اللّغة يتحكم فيها المجتمع، أي أنّها تخضع لتحكم جوانب أخرى (غير لغوية) في المجتمع"². والمقصود بالجوانب الأخرى غير اللّغوية هو أن الممارسة الاجتماعية للغة تتشكل بواسطة المجتمع وعلاقات السلطة التي تحكمه.

تتبنى المقاربة العلائقية "لفيركلف" إلى رؤية للخطاب كونه حدثا مرتبطا بثلاثة

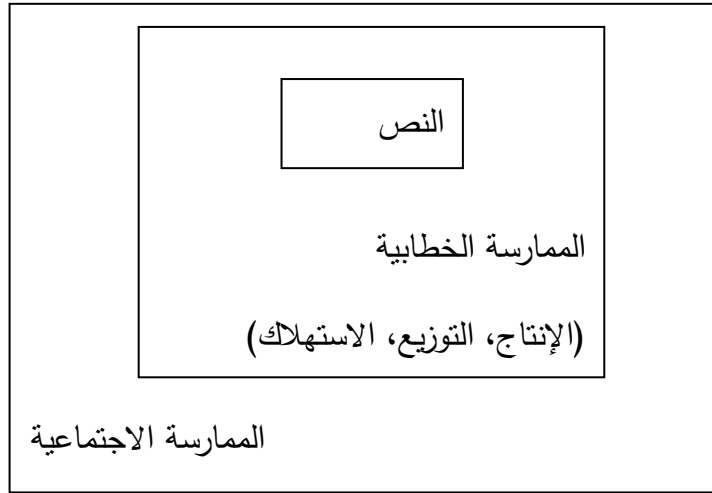
أمور البعد النصي أي كونه نصا Text وممارسة خطابية Practice discursive وممارسة اجتماعية practice social، كما يوضّح هذا الشكل المعنون: تصور الخطاب

الثلاثي الأبعاد³

¹ - روث فوداك وميشال ماير، مناهج التحليل النقدي للخطاب، ص 65.

² - نورمان فيركلف، اللغة والسلطة، ص 42.

³ - نورمان فيركلف، الخطاب والتغيير الاجتماعي، ص 97.



يتضح من خلال هذا الشكل أنّ الأبعاد الثلاثة التي رصّها "فيركلف" للحدث الخطابى فى علاقة تأثير وتأثر مع المجتمع، والسياقات المشكلة له، "فالنص يمثل جزءا من الممارسات الخطابية من ناحية، والممارسات الاجتماعية الأوسع من ناحية أخرى، كما يكشف عن أهمية الممارسات الخطابية بما فيها عمليات إنتاج الخطاب وتلقيه، فى صياغة النص، والممارسة الاجتماعية فى الوقت ذاته، ولابد أن يتجلى الوعى بالأبعاد المختلفة للحدث الخطابى أثناء عملية التحليل"¹.

تجليات الوعى بهذه الأبعاد فى تحليلنا لرواية "طير الليل" لعمارة لخص هو ما سنروم إبرازه فى قراءتنا للرواية، مع التطرق إلى مستويات التحليل التى ربطها "فيركلف" بهذه الأبعاد، قبل ذلك لأبّد أن نفسر لماذا اخترنا المقاربة الجدلية*؟ كونها

¹ - أنظر،

Blommaret, J, and C.Bulcaen.(2000). "Critical Discourse Analysis". Annual.P 449-448 Review of Anthropology 29,447-66.

نقلا عن ترجمة عماد عبد اللطيف، تحليل الخطاب السياسى، ص154.

*ينحو "محمد يطاوى" نفس منحى "عماد عبد اللطيف" حيث يرى أن المقاربة المناسبة للتحليل هى المقاربة الجدلية العلائقية لنورمان فيركلف، المقاربة التى ترى أن بين الخطاب والمجتمع علاقة تأثير وتأثر متبادلة، فبناء الخطاب متأثر بالممارسة الاجتماعية، والمجتمع يؤثر فيه الخطاب. لذلك فالنص السردى قد يبينه كاتب بحسب خصائص وسياق ومعطيات الواقع الاجتماعى التى يمثله ذلك النص السردى، والخطاب السردى يكتب حتى يؤثر فى هذا المجتمع إذن منهج "فيركلف" هو المناسب للنص السردى.

تخدم خصوصية النص الروائي الذي يتيح مساحة بوح كافية تصوّر أحداث ناتجة عن الواقع، ومتأثرة بها في عالم تخيلي.

أما عن مستويات التحليل المرتبطة بالأبعاد الثلاثة للحدث الخطابي من منظور "فيركلف"، نبدأها بالتحليل النصّي الذي ينتظم وفق أربعة أبواب رئيسية هي: "المفردات والنحو والتماسك و"بناء النص"¹. والمقصود بالتحليل النصّي هو الدراسة اللغوية للنصوص من خلال مجموعة من العناصر منها المتصل بالمفردات والنحو، علامات الترقيم (أي الوصل والفصل) وتعاقب الأدوار في الحديث... وغيرها من الأمور التي تجعل "القراء الذين لا يتمتعون بالخبرة في التحليل اللغوي قد أصبحوا يقدّرون (حينما يصلون إلى هذه المرحلة من مراحل الكتاب)، كيف يمكن للتحليل الدقيق للنصوص من زاوية أمثال هذه المعالم، أن يسهم في فهمنا لعلاقات السلطة والعمليات الأيديولوجية في الخطاب"².

أما المستوى الثاني فهو الممارسة الخطابية المتعلقة بعمليات إنتاج النص وتوزيعه واستهلاكه³. ويرى بلومارت Blommaret وبولكن Bulcaen أنّ مقارنة الخطاب بوصفه ممارسة خطابية يعني أنّه أثناء تحليل المفردات، والتراكيب، والتماسك النصّي، وبنية النص، يجب أن يتوجه الاهتمام إلى أفعال الكلام، والتماسك المعنوي، أو التناص، وهي عناصر تربط النص بسياقه⁴. وأخيرا، يقوم المستوى الثالث بتحليل

¹ -نورمان فيركلف، الخطاب والتغير الاجتماعي، ص 100.

² - نورمان فيركلف، اللغة والسلطة، ص 151.

³ -نورمان فيركلف، الخطاب والتغير الاجتماعي، ص 103

⁴ - أنظر،

Blommaret, J, and C.Bulcaen. (2000). "Critical Discourse Analysis". Annual.P 449-448 Review of Anthropology 29,447-66. .

نقلا عن ترجمة عماد عبد اللطيف، تحليل الخطاب السياسي، ص 154.

الممارسات الاجتماعية، أي المؤثرات الأيديولوجية وعمليات الهيمنة التي يعدّ الخطاب مظهرًا لها¹.

تفيد هذه الدراسة من الثلاث مستويات في التحليل لكن مع تكييفات ضرورية كما سبق وأشرنا، بالإضافة إلى تقاطعات هذه المستويات مع بعضها البعض، حيث نعتبرها أطرا تحليلية شكلية فقط لكن يستمر فيها المعنى، وينتقل من مرحلة إلى أخرى لتداخل أحداث الرواية وشخصها في البناء الروائي "فمن الطبيعي أن تتداخل مستويات التحليل، فتستمر الحركة من النص إلى الممارسات الخطابية إلى الممارسات الاجتماعية والعكس"².

2/تحليل خطاب المؤلف:

نحو في هذا الشق نفس المنحى التحليلي المتبع في رواية "فرج" لـ"رضوى عاشور" أي " التحليل النقدي لخطاب المؤلف وممارساته الخطابية والاجتماعية المتصلة بالعمل السردى"³.

2. 1/من هو عمارة لخص؟

هو روائي جزائري من مواليد 1970 بالجزائر العاصمة، يكتب بالعربية والإيطالية، أقام في إيطاليا 18 عاما، ويقيم في نيويورك منذ 2014. صدر له: "البق والقرصان" (بالعربية والإيطالية، ترجمة فرانيسكو ليّو)، روما 1999. "كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك" الجزائر 2003، أعاد المؤلف كتابتها بالإيطالية بعنوان "صدام الحضارات حول مصعد في ساحة فيتوريو"، واقتبست إلى فيلم سينمائي عام

¹ - عماد عبد اللطيف، تحليل الخطاب السياسي، ص154.

² - المرجع نفسه، ص146.

³ - عماد عبد اللطيف، التحليل النقدي للخطاب ودراسة السرد، محاضرة، 2021/12/01.

2010. "القاهرة الصغيرة" (بالعربية والاطالية)، روما 2012، "مزحة العذراء الصّغيرة في شارع أورميا" (بالاطالية)، روما 2014. ترجمت أعماله إلى ثمانى لغات¹.

2. 2/ عمارة لخصوص والرواية السوداء*:

نقدم في هذا الجزء قراءة لأهم الممارسات الخطابية التي قام بها "عمارة لخصوص" حول روايته "طير الليل"، غير أننا لم نحظى إلا بحوارين اثنين، سنحاول إجلاء أهم العناصر التي تطرق إليها.

تحدث "لخصوص" عن الوقت الذي استغرقه لكتابة روايته والذي امتد إلى سبع سنوات من 2013 لترى الضوء في 2019، عن منشورات المتوسط الايطالية بالتعاون مع مطبعة الحبر الجزائرية حيث يقول: "شرعت في كتابتها عام 2013 عندما غادرت ايطاليا بعد إقامة طويلة، حيث نهلت بشغف من ثقافتها وأبدعت في لغتها. وقد أحسست أنني جاهز للكتابة عن الجزائر باللغة العربية برؤية عميقة ونفس جديد. كما اقتنعت بعد تفكير طويل أن رواية الجريمة أو السوداء Noir أنسب أنواع السرديات لمقاربة الوضع الجزائري المعقد والتعيس، فالفساد وسوء التسيير وقفا سدا منيعا في

¹ -عمارة لخصوص، طير الليل -رواية- منشورات المتوسط، ايطاليا، 2019، ط1، غلاف البداية.

*الرواية السوداء هي نوع آخر من الأنواع المنبثقة من الرواية البوليسية، وقد ظهرت الرواية السوداء، في الولايات المتحدة الأمريكية، بعد الحرب العالمية الثانية بقليل، وعرفت انتشارا واسعا، واشتهرت بشكل كبير في فرنسا أيضا. والرواية السوداء عموما، هي رواية بوليسية، تدمج قضيتين معا داخل الكتاب الواحد.... حيث نجد أن الجريمة سابقة للحظة الرواية التي يروونها لنا، بل أكثر من ذلك نجد أن الرواية تتصادف مع الحدث، ذلك أن الرواية السوداء تقدّم على شكل ذكريات، لأنها تحتوي على قصة تهدف من ورائها الوصول إلى نقطة معينة، يمكن من خلالها بناء أحداث ماضية، لأن البحث في حدّ ذاته هنا يقوم مقام الماضي، لذلك نجد أن الرواية السوداء العصرية، لا تتمحور أبدا حول مرحلة التقدم، بقدر ما تتمحور حول الوسط الممثل، والشخصيات والعادات الخاصة، وبعبارة أدق، تتمركز حول الميزة المكوّنة، التي تكمن في المواضيع، كما وصفها Marsel Duhamel سنة 1945، حينما اكتشفها في فرنسا قائلا: "العنف بكل أشكاله، والأكثر بشاعة-الضرب والمذبحة"، إلى جانب طبعا الحب المتدفق والمتوهج، والعاطفة المشتتة والكراهة" في إشارة منه إلى أن هذا النوع، يمثل الفساد أكثر بكثير من الأحاسيس الجميلة. أنظر: فاطمة الزهراء قريش، الرواية البوليسية: الرواية السوداء والرواية اللّغز والفرق بينهما، 29 يناير 2021 الموقع <2020/10> <https://www.taima20.com> تاريخ الدخول: 2021/12/30 التوقيت: 23:04.

وجه كل محاولات التغيير والتقدم. هناك إحساس منتشر لدى الجزائري مفاده أن السلطة الحاكمة منذ عام 1962 (أي الاستقلال عن فرنسا) هي استمرار للاستعمار¹.

استعار "لخوص" أدب الجريمة أو الرواية السوداء، ليصوّر الواقع السوداوي الذي عاشته الجزائر ولا زالت تعيشه في ظلّ السياسات المتناوبة على الحكم أو ما اصطلح عليه استعمار ما بعد الاستعمار، متسائلا أيضا عن أسباب فشل كل محاولات التغيير التي قام بها الشعب الجزائري، مستثمرا ثقافته الإيطالية وروحه الجزائرية عند قوله: "عندما هاجرت إلى نيويورك تأكّد لي أنني لن أتقدّم إلى الأمام ما لم أداوي جراح الذاكرة، ما حيلتي إذا كانت ذاكرتي جزائرية بامتياز "طير الليل" هي محاولة لتعقب المحطات البارزة والفرص الضائعة في تاريخ الجزائر، على الأقلّ خلال ستين عاما الأخيرة لاشك أنّ الثورة التحريرية شكّلت علامة فارقة ليس للجزائريين فقط، وإنّما لشعوب العالم التي تطمح للحرية، ولكنّها للأسف لم تحقق المطلوب ولم تنعم بالحرية وتوالى الديكتاتوريات بأشكال مختلفة وصولا إلى حكم العصاةة إن جويلية 1962 وجوان 1965 وأكتوبر 1988 والربيع العربي كلّها فرص ضائعة"².

يرى "لخوص" أن الدلالة الرمزية للثورة التحريرية الجزائرية الوطنية والعالمية في تحقيق حلم التغيير ظاهريا، فشلت ضمّنيا في تحقيق هذا التغيير ما نتج عنه استعمار ما بعد الاستعمار، وظهرت الى الواجهة السياسية دكتاتوريات جديدة تجذّرت في الساحة السياسية الوطنية، وأرست طبائع الاستبداد وألغت هوية الشعب الجزائري عبر ممارسات سلطوية قامعة، وهذا ما سعى إلى تصويره "لخوص" في روايته مستثمرا ما استقاه من الأدبين الإيطالي والعالمي في قوله:

¹- حوار مع عمارة لخوص: المرشح في القائمة الطويلة، الجائزة العالمية للرواية العربية، 09/03/2021. الموقع:

<https://www.arabicfiction.org/node> تاريخ الدخول: 2021/12/30. الساعة: 23:04.

²- حاورته نورة لحرش، الكاتب والروائي عمارة لخوص في حديث عن روايته الجديدة، 29 تشرين 2019 الموقع: <https://www.annasronline.com/ind...> تاريخ الدخول: 2021/12/30 الساعة: 23:04.

"لقد وظفت في "طير الليل" ما تعلّمته من احتكاكي بالأدب الايطالي خصوصا، والأدب العالمي عموما، واستفدت كثيرا من تقنيات السينما كالمونتاج والحوار، أسلوبى فى الكتابة مختلف ومتميز فى العربية أو الايطالية، لقد كان حدسى فى محله حول استخدام الكوميديا لتناول الوضع الايطالي، وموضوع الهجرة وحقت نجاحا كبيرا، إذ ترجمت رواياتى من الايطالية إلى سبع لغات، أتمنى أن يكون حدسى صائبا أيضا بخصوص رواية الجريمة التي أراها الأنسب والأصلح لفهم الحالة الجزائرية"¹. وهو السؤال الذي يروم الجزء التطبيقي الإجابة عنه كما سنرى لاحقا.

2. 3/الرواية وهاجس التاريخ:

صرح "عمارة لخص" أن روايته طير اللذيل هي بداية "ثلاثية" تتعرض لتاريخ الجزائر" وعن قراءاته الكثيرة لتاريخ الجزائر المعاصر من أجل توظيفه فى ثلاثيته، وتُعدّ "طير الليل" فاتحتها، وهذا فى محاولة منه...لأن يكون شاهدا وليس قاضيا، معرّجا على بعض أحداث الرواية التي تتشابه أحداثها وشخصياتها"².

وعن دور التاريخ فى التشكيل الروائي المعاصر، وفى كشف الحقائق التي أغفلها أو أهملها التاريخ عمدا يجيب: "أنا مقتنع بفكرة أن الروائي الجزائري اليوم مدعو للعب دور المؤرخ والمحلّ النفساني، حان الوقت لتفكيك قنبلة العنف المتجذّر فى المجتمع الجزائري، لم تتوقف عجلة إرهاب الجزائري وترويعه يوما ما. فى البدء كان المستعمر أجنبيا ثم صار ابن جلدتنا، الاشتغال على التاريخ عمّل معقد لأن التحدي الأكبر هو ربط الماضي بالحاضر"³.

يشير "لخص" إلى الدور الجديد للمؤلف فى التأريخ لفترات تاريخية حاسمة عاشها الشعب الجزائري، خاصة فيما يتعلق بالثورة التحريرية وجوانبها المغمورة، محلّ

¹ - حاورته نورة لحرش، الكاتب والروائي عمارة لخص فى حديث عن روايته الجديدة، 29 تشرين 2019 .

² -المرجع نفسه.

³ - نفسه.

إغراء أجيال من الكتاب حتى بعد مضي ستين سنة بعد الاستقلال، ويعدّ عمارة لخصوص في نظر النقاد ثاني الروائيين الذين تناولوا ثورة التحرير في رواياتهم بعد رواية اللّاز للروائي "الطاهر وطار".

يمثل التاريخ بهذا ذاكرة البشرية من خلال رصد ما تعيشه الشعوب من أحداث ووقائع وغيرها، ممّا يظهر لنا أواصر الترابط بينه وبين الأدب حيث أنّ كلاهما يستمدّ قوته من التشابه مع الواقع، وليس من أي حقيقة موضوعية، وكذلك فإنّهما يُعدّان بناءين لغويين استقرّتا لهما أشكالهما السردية، ولا يمتلك أيّهما اليقين الكامل من ناحية اللغة والبناء، كما أنّهما يبدوان متساويين في مسألة التناص أي استخدام نصوص سابقة في النسيج النصي المعقد لكلّ منهما، وبناء عليه فبقدر ما يشكّل التاريخ مصدرا حيويا للأدب، ينطوي العمل الأدبي على أهمية كبيرة بالنسبة للمؤرخ¹.

هذا التواشج والتداخل الذي يجمع بين التاريخ والأدب، يظهر لنا الوظيفة أو بالأحرى مجموعة الأدوار التي يضطلع بها الأدب، والتي "لا تتعلق بإبداع الأشكال فحسب، بل ترتبط كذلك برهانات المعرفة: نقل الذاكرة الجماعية، وإظهار وحدة الثقافة، ووصف تحولات العالم، ويكفي للتعرف إلى هذه الوظائف، قراءة المحكيّات والسرود القديمة منذ الإلياذة والأوديسة لهوميروس، ومحكيّات العصر الوسيط الإسلامي، وأدب الأزمنة الحديثة، وصولا إلى الزمن الرّاهن، ففي كلّ هذه المحطّات من التاريخ البشري تميّز الأدب، قياسا على الخطابات الأخرى، بالقدرة الكبيرة على النفاذ إلى (ظلامية اللحظة المعيشة)². بناء عليه، يؤثّر الأدب في الوعي الجمعي والذاكرة الجماعية للمتلقين ما يبرزه دوره الريادي في العناية والاهتمام بالإنسان على مرّ العصور.

¹ - إدريس الخضراوي، من التاريخ إلى الرواية الذاكرة الجمعية مصدرا للسرد، مجلة تبين، العدد 9/33، صيف 2020، ص 81.

² - المرجع نفسه، ص 83.

يبرر "عمارة لخصوص" طول المدة الزمنية، التي استغرقها في كتابة هذه الرواية إلى استغراقه في قراءة التاريخ الجزائري حيث يقول: "تغطي الرواية ستين عاما من تاريخ الجزائر (1958-2018)، مما دفعني إلى قراءة العديد من المصادر التي تتناول البحث والتفكير في هذه الحقبة. ولم أتوصل إلى الشكل الذي يرضيني إلا بعد محاولات جربت خلالها أساليب سردية متنوعة... ولأنتني مقتنع أشد الاقتناع بأن المكان لا ينبغي أن يكون ديكورا فقط وإنما شخصية أساسية في الرواية، فقد عشت في وهران أكثر من سنة واقتربت من أهلها وأحيائها".¹

أما عن الدافع وراء الكتابة لديه فكان الإجابة عن تساؤلات وهواجس، أرقته في مشواره الروائي، ورواية "طير الليل" واحدة من هذه الإجابات عن سؤال مفاده: "لماذا فشل الجزائريون في بناء دولة راشدة عادلة تليق بعظمة ثورة أول نوفمبر 1954، وتتناسب مع ثروات البلد الطبيعية والبشرية؟"². ومن دوافع الكتابة لديه أيضا هو حاجتنا "اليوم إلى سرديات تغوص في الجذور، وتبحث عن الأسباب"³.

2. 4/ استجابة الجمهور* لرواية "طير الليل": التقت وتباينت ردود أفعال النقاد حول رواية "طير الليل" حسب اختلاف توجهاتهم ورؤاهم، واجتمعت في كون هذه الرواية هي

¹ - حوار مع عمارة لخصوص: المرشح في القائمة الطويلة، الجائزة العالمية للرواية العربية، 2021/03/09، المرجع نفسه.

² - المرجع نفسه.

³ - حاورته نورة لحرش، الكاتب والروائي عمارة لخصوص في حديث عن روايته الجديدة، 29 تشرين 2019. *استعنا هذا المصطلح من المشروع البلاغي للدكتور "عماد عبد الطيف" الذي يعنى بالنصوص والكلام الجماهيري المستخدم في الحياة اليومية، في محاولة لمواجهة تجاهل البلاغة العربية لنصوص الحياة اليومية، أطلق على هذا التوجه اسم "بلاغة الجمهور"، الذي يهتم بدراسة الاستجابات التي يقوم بها الجمهور أثناء تلقيهم للنصوص والكلام الجماهيري، وفي سياق هذا الاهتمام يتم دراسة موضوعات مثل: دور الجمهور في عملية الاتصال، وأثر نوع الخطاب (سياسي، دعائي،... الخ)، وطبيعة العلاقة بين المتكلم والجمهور (مثل حاكم/ محكوم، واعظ/ متدين... الخ)، والوسائط المستخدمة في نقله - كالتلفزيون والإذاعة... الخ في استجابة المخاطب (بفتح الطاء)، وأنواع المخاطب سواء أكان ذا انتماء فكري أم لا، مثقف أم محدود المعرفة، والاستجابات التي يمكن أن ينتجها كل نوع، وقدرة كل منهم على مقاومة الخطاب السلطوي، والمهارات التي يحتاجها لتحقيق ذلك. إضافة إلى دراسة طبيعة

سياسية تاريخية بامتياز ترصد واقع جزائري مظلم وتعيش في ظلّ السياسات المتعاقبة على الحكم حيث يقول "لخوص" بهذا الخصوص: "ردود فعل القراء والنقاد مشجعة جدا. وقد أسعدتني التعاليق التي أشارت إلى تأثيري بالأدب الايطالي، خصوصا الأدب الصقلي ممثلا في الكاتب الكبير ليونارد شاشة* Leonardo Sciascia (1923-1989)، فما أشبه صقلية بالعالم العربي ايجابيا وسلبيا! كان طموحي ولا يزال أن أستثمر تجربتي الإبداعية الإيطالية أحسن استثمار، وذلك بضخ دماء جديدة في الأدب العربي".¹

يطمح "عمارة لخوص" من خلال هذه الرواية إلى تصوير جوانب من التاريخ السري للثورة الجزائرية، والواقع السياسي المتأزم في الجزائر إلى غاية حراك 2018 مستثمرا تجربته الإبداعية الإيطالية، هذا ما خلصنا إليه من خلال الممارسات الخطابية للروائي (حوارات)، أما فيما يخص الممارسات الاجتماعية (قراءات أو دراسات للرواية) فرأينا إرجاء الحديث عنها، لأننا سنستشهد بها في ثانيا هذه الدراسة، إمّا لتأكيد ما سنصل إليه أو لتفنيده لا ندري.

سعيانا في هذا الجزء إلى تحليل خطاب المؤلف، باعتباره منتجا للنص الروائي عبر التطرق إلى مضامين ممارساته الخطابية وأهم ما جاء فيها، بعد ذلك سنسجل

استجابة المخاطب (فتح الطاء) سواء أكانت لفظية مثل الهتاف أم غير لفظية مثل التصفيق مباشرة أو غير مباشرة، ودراسة طرق تطويرها وخصائص الاستجابة البليغة، والعلاقة بين استجابات الجمهور والسلطة. للتوسع أكثر أنظر: عماد عبد اللطيف، استراتيجيات الإقناع والتأثير في الخطاب السياسي. خطب الرئيس السادات نموذجا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2012، ص 102 و 103.

* من أهمّ الكتاب الإيطاليين المعاصرين الذين تناولوا تاريخ صقلية، الذي يعكس بجوانبه الايجابية والسلبية تاريخ إيطاليا من وجهة النظر الاجتماعية والسياسية. ولد بجزيرة صقلية، وكان أبوه يعمل في منجم كبريت فاستوحى منه قسوة حياة الطبقة العاملة كما انعكس حبه لصقلية في كل رواياته، كتب 42 مؤلفا من روايات وكتب ونقد ومسرح وسياسة كما تمّ تحويل بعض مؤلفاته لأفلام سينمائية. -عام 1961-، صدرت روايته الأولى "يوم البومة" وكانت من المافيا، أعطت شهرة كبيرة له كما أكدت التزامه بفضح شرور الحياة الاجتماعية في صقلية. كان عضوا في الحزب الشيوعي، وانتخب في البرلمان الايطالي والأوروبي.

¹ - حاورته نورة لحرش، الكاتب والروائي عمارة لخوص في حديث عن روايته الجديدة، 29 تشرين 2019.

انتقالاً من ممارساته الخطابية على المستوى العام إلى الممارسات الخطابية على مستوى النص. وهذا ما سنحققه بدراسة مناصات "طير الليل" انطلاقاً من العنوان إلى النصوص الموازية، وصولاً إلى التيمات الكبرى التي نسجت خيوط هذه الرواية، باعتبارها مرةً تجسيدا لسلطة المؤلف (الممارسات الخطابية) على نصه، ومرةً أخرى سلطة تأثيرية على المتلقي (المجتمع-الممارسات الاجتماعية) تبغي استجابات معينة.

3/السياق العام للرواية:

تعتبر رواية "طير الليل" لعمارة لخصوص من أجراً الروايات الجزائرية، التي تطرقت إلى تصوير جوانب سرية ومغمورة من الثورة التحريرية بعد رواية اللّاز للظاهر وطار وغيرها من الروايات* الجزائرية، التي عالجت جانبا سلبيا من جوانب الثورة أين تبرز الخيانة والكذب لتحقيق مصالح شخصية خاصة جداً أحيانا، ولإغراءات سلطوية أحيانا أخرى، وهو ما لخصته رواية "طير الليل" في رسم الواقع الجزائري قبل وبعد الاستقلال، أين تحولت جزائر العزة والكرامة بلد المليون والنصف شهيد، التي أنجزت ثورة ذاع صيتها في مختلف الأقطار إلى جزائر التعاسة والشقاء، وذيوع الفساد جراء السياسات المتلاحقة على الحكم، والتلاعبات الخفية التي تتحكم في نظام لا نعرف دواليبه، ولا ولاءاته، بالإضافة إلى الأيادي الخفية التي تحرك من تشاء ومتى تشاء خدمة لمصالحها.

عانى "عمارة لخصوص" الجزائري الأصل الإيطالي الجنسية، من الارتحال القسري في فترة العشرية السوداء، استعان بأدب الجريمة في روايته (طير الليل هي مشروع لثلاثية وهي البداية) كونه في رأيه الأنسب لتمثيل الواقع الجزائري على امتداد ستين سنة بعد الاستقلال، أو ما اصطلح عليه استعمار ما بعد الاستعمار.

*من أبرز الروايات التي تناولت الثورة التحريرية وتأثيراتها فيما بعد على المجتمع الجزائري نجد: اللّاز للظاهر وطار، ريح الجنوب لعبد الحميد هدوقة، روايا رشيد ميوني على اختلافها، أنور ابن مالك ابن الشعب العتيق، مالا تذروه الرياح عرعار محمد العالي وغيرها من الروايات.

تحكي "طير الليل" عن جريمة قتل تعكس تفشي ظاهرة الخيانة والغدر إبان الثورة وبعد الاستقلال، تسرد لنا قصة الجزائري المجاهد الفذّ "ميلود صبري" الملقب بـ"طير الليل"، أحد أعضاء خلية فدائية ضمن جهاز الثورة التحريرية، المكونة من المحامي "إدريس طالبي" و"عباس بادي" و"زهرة مصباح" ضد الذين قاوموا الاستعمار في الخمسينيات، وجمعتهم أواصر ثقة عمياء عكست سعيهم الدؤوب لتحقيق الاستقلال، لكنّها سرعان ما تلاشت بعد خيانة "ميلود صبري" أثناء الثورة وتنازل خيانات أخرى بعد الاستقلال فرقت بينهم وهو ما تنسجه لنا خيوط السرد، التي تستدعي الماضي السحيق (أيام الثورة)، والحاضر المعيش (سنة 2018)، أين يعثر على المجاهد "ميلود صبري" مذبحاً منكلاً بجثته وجدع أرنبه أنفه، في يوم الاستقلال، ليقطع بعدها "العقيد سلطاني" قائد وحدة مكافحة الإرهاب عطلته للتحقيق في هذه الجريمة بأوامر من "جماعة الفوق".

تبدأ عملية التحقيق ومجموعة من الأسئلة تتازع "العقيد" من قتل "ميلود صبري"؟ ولماذا في هذا اليوم بالذات؟ وهل في ذلك دلالة على عودة الإرهاب؟ لينفتح السرد على عوالم أحياء فقيرة وأخرى راقية داخل مدينة وهران، وتتداخل الأحداث وتتوالى المعطيات التي تبرز إلى الواجهة شخصيات طاغية فضحت دواليب سرية من الثورة، مرّر عبرها الروائي القوالب السياسية الثقيلة التي عاناها الشعب الجزائري قبل الثورة وبعد الاستقلال، وما تخللها من تناسل للخيانة والجرائم ووقائع أخرى شهدت عملية التحقيق التي جرت في يوم واحد، والتي تنتهي بالكشف عن مفاهيم جديدة تتعلق بالإرهاب الحلال ودم الخونة حلال والاكتفاء بها لحلّ لغز الجريمة.

في حبكة تجمع بين الماضي والحاضر لترسم لنا صورة مقبنة عن رؤوس الفساد في الجزائر، وعن السياسات المنتهجة من قبل هذه الفئة، التي ساهمت في تردي الأوضاع المعيشية وتفشي الفساد على جميع الأصعدة. يصوّر "عمارة لخص"

فضاعة الحكم فى الجزائر الذى لا يقلّ فظاعة عن المشهد السردى الأول فى الرواية للجنّة المتخبطة فى البول والبراز، رغبة من الكاتب فى فضح وتعرية حجم الدمار الذى لحق ببلد بحجم قارة بعد الاستقلال. وبحثا عن الأسباب وراء فشل جميع مطامح التغيير، الذى يترك الجواب عليه معلقا للقارئ ليجيب عنه، أو لتجيب عنه السنوات القادمة فى الروايات المكملّة لهذه الرواية كونها بداية الثلاثية.

يستعين عمارة لخصوص فى هذه الرواية بعناصر مسرح الجريمة (المحقق، المجرم، والضحية)، وغيرها من الشخصيات التى نرى أنّها مستمدة من الواقع، فى مدينة وهران وأحيائها العتيقة والمعاصرة، ليحقق فى لحظات فارقة فى تاريخ الجزائر عكستها تناقضات على مستوى الجريمة، التى تتغير أركانها الحقيقية ليتحول الضحية إلى جلد والمجرم إلى ضحية والمحقق إلى صوت الشعب وغيرها من التناقضات والمفارقات التى تطال الزمان والمكان، عبر الانتقال بين ماضى الثورة وحاضر سنة 2018، وأيضا المكان فى تصويره لمدينة وهران وطابعها المدينى الذى تغير من بنايات متناسقة وأحياء عتيقة تعكس روح وهران وجوهرها، إلى بنايات فارهاة وفيلات فخمة تعكس واقعا اشربا فى ظلّ طغيان الفساد بشتى أنواعه.

يعلو صوت الحق داخل الرواية فى صوت المحقق "العقيد سلطاني" و"المحامى إدريس طالبي"، اللذان يمثلان الضمير الحى للناس الذين تمسّكوا بمبادئهم، ولم تغرهم المغريات فى مقابل صوت السلطة القامعة التى مات ضميرها بعد اعتلاء المناصب، والتمرّغ فى أحضان الثراء الفاحش، حيث مارست الطغيان بشتى أنواعه من الخيانة وصولا إلى القتل للمحافظة على صورة المجاهد الجزائري، بين هذا وذاك يرسم لنا "عمارة لخصوص" صورة جزائر فى استعمار ما بعد الاستعمار، فى تركيبة سردية تلتقي فيها الأصوات المعلنة والمتناقضة فى الوقت نفسه، وتفترق إثر الحكم المتجبر

والحصن المنيع، الذي يقف بالمرصاد أمام التغيير، وأصوات أخرى تمارس جبروتها في الخفاء.

4/ المناصات وتفاعلها من سلطة الإنتاج إلى سلطة التأثير: حظيت العناصر الخارج نصية المتعلقة بالعنوان الرئيسي وبالعناوين الفرعية والعناوين المصاحبة لفصول الرواية، أو ما اصطلح عليه بالنصوص الموازية باهتمام النقاد الغربيين والعربيين على حد سواء، لدورها الهام في بناء معاني النص والكشف عن البنيات الشمولية الكبرى المتعلقة بالتييمات الظاهرة والمضمرة، لذلك يلج "فيركلف" كما سبق ورأينا، على ضرورة توجيه عناية خاصة بالمفردات والعبارات والجمل والأقوال، التي يبدأ بها الكاتب نصه، للدور الذي تلعبه في رصد وكشف الافتراضات والاستراتيجيات الخفية التي يصعب التصريح بها*. فكل نص من النصوص الروائية باختلاف مرجعياته وايدولوجياته، يتعلق بمناصات ابتدائية تحيل إلى موضوعات النص بطريقة واضحة أو بطريقة موحية تُلّفه بالغموض.

4. 1/ إيحائية العنوان كتجلي لسلطة الكاتب:

العنوان بالنسبة للتحليل النقدي للخطاب هو اختيار لغوي، يسعى الكاتب من خلاله إلى بث سلطة معينة لذلك سنقرأ عنوان روايتنا للبحث في لغة العنوان، والأسباب التي أدت إلى كتابته بهذه الطريقة، وإيحائيته التي أكسبته بعدا سلطويا يستثمره الكاتب لاستدعاء القارئ لقراءة نصه، والبحث في سبل العنوان من جهة ولتوجيهه فكره أو فرض تفكير معين. حيث يعتبره اعتبر كل من "براون" و"يول" "أحد التعبيرات الممكنة عن موضوع الخطاب".¹

*أنظر: الفصل الثالث: المعنون الجزء المخصص للآليات الاجرائية للتحليل النقدي للخطاب فيه مبحث مخصص لتقديم توصيف للمدونة قيد الدراسة مع العنونة.

¹ - حياة أم السعد، تداولية الخطاب الروائي، من انسجام الملفوظ الى انسجام التلفظ، ص248.

طير الليل هو عنوان موحى مخائل وغامض لمن يقرأه للوهلة الأولى، جملة اسمية تتكون من كلمتين جاءت الكلمة الأولى من العنوان نكرة في صيغة الجمع طير بدلا من المفرد طائر، وتضاف لها كلمة أخرى متضمنة لمعنى الجمع، لتخصص مفهومها وتضيق معناها وتناقضه* من حيث الأفراد والجمع من جهة، والدلالة من جهة أخرى، وهي كلمة الليل، التي تحولت الى مسرح للخفافيش (طير الليل)، التي تعنى في الأرض فسادا وطغيانا، فهذا العنوان يوارى الكثير من المعاني في دواخله، خفية وظاهرة تلتقي وتتناقض، فعنوان طائر الظلام يوحي بالعديد من التساؤلات من هو هذا الطير؟ ولماذا وسم بأنه طير ليل؟ وما الأسباب الكامنة وراء هذه التسمية؟

كلّ هذه الاسئلة ينجلي صيتها بعد قراءة النص، إذ يتضح أن "طير الليل" هو اسم لشخصية ذات طابع مظلم انطلاقا من تصوراتها، تفكيرها، وخاصة أفعالها، وهو لقب أطلق عليها منذ الصغر في نظرة ثابتة من شيخ الكتاب، كما يوضحه قول الروائي: "بعد مغادرة المحامي، عاد عباس بالذاكرة إلى الوراء... إلى سنوات الطفولة في المدينة الجديدة، تذكر الشيخ بوزيان فرحي الذي علمهم القرآن في الكتاب، هو الأول من أطلق كنية "طير الليل" على ميلود، روى لهم مرارا قصة الخفاش الذي يلعب على الحبلين، إذ التقى بالطيور، أظهر لهم جناحيه قائلا بأنه واحد منهم، وإذا التقى بالفئران، أبرز أسنانه قائلا بأنه مثلهم"¹.

"طير الليل" هي كناية عن الخفافيش والتواءاتها، كونها "تطير بلا وجهة معلومة وبتعرجات مخيفة مشوشة وسط عتمة الأضواء، أن تطير بعتمة والتواء، يعني أنك لست

*الطائر:ج: طير وطيور وأطيوار: كلّ ذي جناح من الحيوان، يقال "هو ميمون الطائر" أي مبارك الطلعة، و"سر على الطائر الميمون"، وهو دعاء للمسافر "أي حليم هادئ وقور، أنظر، المنجد في اللغة والأعلام، ص 447. فكلمة الطير حاملة للعديد من المعاني الإيجابية المناقضة لمعنى الظلام والسواد المخيم على كلمة الليل. و"طير الليل" في اللغة العامية (الدارجة الجزائرية) يرمز به إلى كلّ ما هو مشبوه ويعيش في الظلام، كاللصوص والمخبرات... وغيرهم.

¹ -عمارة لخصوص، رواية طير الليل، ص 201.

طيرا ولا تبحث عن الحرية، خفاش ظلّ طريقه بين أسراب الطيور السابحة في السماء، لتتشكّل حياته في الظلام بعيدا عن شمس الحرية"¹. هو المناق الخائل المسعد للغير كما الحباء، في سبيل تحقيق مطامحه ومساويه السيئة قولا وفعلًا. وهذا ما يؤكده رفيقه عباس ليستطرد متذكرا شيخ الكتاب قائلا: "الله يرحمك، يا شيخنا الجليل، لم ننتبه إلى تحذيرك آه، يا طير الليل ...آه، يا ولد الحرام"².

ترمي كنية *طير الليل* إلى مجموعة من الروايات لخصّها النقيب سمير عند استعراضه للمعلومات التي جمعها في قضية اغتيال المجاهد قائلا: "أما كنيته المشهورة "طير الليل"، فلا توجد رواية واحدة، بل هناك من يقول أنّها تعود إلى الطفولة في حيّ سيدي بلال في المدينة الجديدة، وهناك من يقول أن خصومه خلال الثورة هم الذين اختلقوها للتعبير عن تدمرهم من مكروه، وقدرته على المناورة"³.

إذن هو ميلود صبري المناضل أيام الثورة، والسياسي المحنك الذي يلعب وراء الستار بعد الاستقلال، ومحيطه القابع في دهاليز السياسة المظلمة الذي استثمر فيه للمحافظة على صورته كمجاهد من جهة، ولتحقيق الثروة عبر الثورة والفساد من جهة أخرى، فهو الضحية الذي يعثر عليه مقتولا في عيد الاستقلال، والجلاد الذي يخون رفاقه ويلاده في زمن الثورة وبعدها. فعنوان "طير الليل" بالرغم من غموضه دلاليا إلا أنّه يظهر مألوفًا لشيوع استعماله في الحياة اليومية للفرد الجزائري، إلا أنّه "يكتسب طبقات من الدلالة بالتوغل في أحداثها(الرواية)، فالتعبير يتحرك شيئا فشيئا من حيز المجاز الميّت إلى حيز الاستعارة الحيّة، بفضل تراكم وطأة المأساة"⁴.

¹ -علاء الدين شهاب، رواية طير الليل، مقال، الموقع الإلكتروني: <https://www.qalamalfekr.net>...رواية... تاريخ التصفح: 2021/12/20. الساعة: 08:00.

² - عمارة لخص، رواية طير الليل، ص 201.

³ - المصدر نفسه، ص 60.

⁴ - عماد عبد اللطيف، التحليل النقدي للخطاب ودراسة السرد، محاضرة، 2021/12/01.

فعنوان "طير الليل" في دلالاته الماضية، وبالرغم من تجسيده للتناقض الحاصل في الواقع الاجتماعي الجزائري، إلا أن هذا الأخير يفوق كل تعبير لطغيان الفساد وتيمات أخرى رصدتها الرواية تجاوزت بالقدر الكبير عنوان "طير الليل"، الذي أراد به "عمارة لخصوص" وصف حقيقة الواقع المظلم للجزائر الذي خيم عليها الفساد من 1962 إلى يومنا هذا، والذي يقابله اليوم ليسائله بعد أن أجبر على تركه في وقت مضى.

4. 2/ تصدير الكاتب من الموارد اللغوية إلى شرعنة العنف: ما يعنينا في دراسة المناصات هو دراسة العنوان الخاص بالمؤلف كما سبق ورأينا، إلى جانب النصوص التي تصاحب تصدير الكاتب أو الاستهلال، وحتى النصوص الموازية التي تظهر في العديد من النصوص الروائية، ويختفي في بعضها الآخر لاعتبارات قد نجهلها، ولكنه حاضر في روايتنا حيث يرد الأول في قالب ملاحظة أو تنبيه ويرد الثاني مقولة فلسفية.

المقولة الأولى: "أي تشابه في الأسماء والشخصيات هو محض صدفة"¹. بالنسبة لنا لا نعلم من خطّ هذا التنبيه لكن أيّا كان سواء الناشر أو الكاتب، فنخلص إلى مايلي:

أولاً: نعلم جيّداً أن ما يورده الروائي داخل نصه هو إبداع، حامل لوعيه أو من غير وعيه مع عدم إلزامه بهذا الأمر، لكن هذه المقولة كانت بمثابة استدعاء للقارئ لقراءة الرواية، والبحث عن حقيقة هذه الأسماء والوقائع من عدمها من جهة.

ثانياً: ومن جهة أخرى هي بمثابة تحايل لغوي، للتصّل من الرقابة السلطوية للأبعاد السياسية التي حملتها الرواية في طياتها، باستحضار لأسماء رؤساء تداولوا الحكم على الجزائر (مثل: أحمد بن بلة، الهواري بومدين، اليمين زروال وغيرهم)، إلى جانب أحداث سياسية، وخطابات سياسة تخللت المشهد الروائي (كقضية الكوكابين

¹ -عمارة لخصوص، رواية طير الليل، ص 06.

والحراك... وغيرها)، وكأنّه يريد أن ينفلت من القيود السياسية والرقابة السلطوية من جهة، أو لتحفظات فرضتها دار النشر من جهة أخرى... كل هذا يثبت فعل القمع السلطوي المطبق ضمناً على الكتاب جراء التطرق لمضامين من هذا النوع.

ثالثاً: وهم الأهم هو النفي الذي يقابله التأكيد على الطابع السياسي والتاريخي للرواية، مع رغبة الكاتب في التركيز على هذه الأسماء والأحداث من قبل القارئ، لينتقل من تمثيل السلطة السياسية إلى بثّ سلطة الوعي بمساءلة هذه الفترات، عبر استحضارها وإعادة مراجعة المحطات الفارقة التي حصلت في تاريخ الجزائر والتي حالت دون التغيير المنشود.

يورد "عمارة لخص" بعد هذه الملاحظة وبعد الإهداء "مقولة لحنة أرندت"* مقتبسة من كتاب "في الثورة" ترجمة عطا عبد الوهاب تقول فيها: "إن صلة مشكلة البداية بظاهرة الثورة هي صلة واضحة. وكون مثل هذه البداية* لابد أن تكون متصلة اتصالاً وثيقاً بالعنف، إنّما هو أمر تتكفل به البدايات الأسطورية لتاريخنا، كما يرويه التراث الثوراتي والكلاسيكي مثل: قابيل قتل هابيل، ورومولوس ذبح ريموس. إن العنف

*أنظر الفصل الأول تعريف السلطة عند أرندت ص34.

* في معنى الثورة -حسب أرندت- منذ العصور القديمة بتحول في شكل الحكومة تارة وبدورة طبيعية في التاريخ تارة أخرى، تحكم الواقع الملموس بشريا لتغييره بالعنف (أو بدونه)، نحو شيء جديد أو حالة جديدة مخالفة للواقع الأصلي، وكأن كل ذلك، إنّما يقودنا الى طبائع الانسان المتأصلة في رغبته الجامحة في التحرر من كل القيود، التي تعترض حياته الخاصة والعامة. وما بين الطبيعة البشرية المحكومة بالغلبة عن طريق العنف في بدايات الحياة الإنسانية وبين الرغبة الجامحة في التحرر من عقاب ذلك العنف وتلك العبودية، اخترع الانسان فكرة البداية بما هي فكرة إبداع تجربة حياة جديدة، تلك التجربة هي التي يسعى من خلالها الانسان الثوري-حسب أرندت-، إلى خلق حالة من المساواة الاجتماعية، ليس لأن الناس ولدوا متساوين، بل لأنهم بالطبيعة غير متساوين؛ ولذلك وجب صياغة تجربة بداية جديدة تساعد على العيش متحررين، ومتساوين أمام الطبيعة القانونية للمدينة الدولة، فالحرية، وكذلك المساواة لم يسبق للإنسان من قبل فهمهما كصفتين كامنتين في الطبيعة البشرية، منحتهما الطبيعة فنشأتا نشوءاً ذاتياً، إن المساواة والحرية مصنوعتان، وهما من منتجات الجهد الانساني ومن صفات العالم الذي خلقه الانسان". أنظر: عبد الرحيم خالص، في البدء كانت الثورة: قراءة في كتاب حنة أرندت، قسم الدين وقضايا المجتمع الراهنة، 29 مايو 2021، مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث،

<http://www.mominoun.com/articles>

كان البداية، وعلى هذه الشاكلة، فما من بداية يمكن إحداثها من دون استخدام العنف [...]، والحكاية تحدّثت بوضوح: إن أيّ تنظيم سياسي أنجزه البشر أصله في الجريمة.¹

إن استحضار هذه المقولة من قبل الكاتب له جوانب إيحائية، وأخرى ظاهرة يحاول الكاتب من خلالها تبرير وجهة نظره عن تناول ظاهرة الثورة في قالب أسلوب الجريمة، وكون العنف بداية الثورة بحسب آرندت تشتعل شرارتها الأولى بالعنف، ولكنّه لا يكفي لوصفه ظاهرة الثورة بل يجب أن يرتبط بالتغيير فالثورة تهدف إلى بناء جديد تستوطنه الحرية.

تربط "آرندت" قضية الحصول على الحرية السياسية والمساواة بضرورة مواجهة الشعوب للعامل المشترك بين الثورة والحرب، ألا وهو العنف الذي كان البداية، لكنّه غير كاف لوصف ظاهرة الثورة، وإنّما التغيير هو الوصف الأجدر بها، ولا يمكننا الحديث عن الثورة إلّا حين يحدث التغيير ويكون بمعنى بداية جديدة، وحين يستخدم العنف لتكوين شكل مختلف للحكومة لتأليف كيان سياسي جديد، وحين يهدف التحرر من الاضطهاد إلى تكوين الحرية.²

يطرح هذا التصدير لدى القارئ مجموعة من التساؤلات والاستفسارات عن معاني الثورة والتحرر، وعن دور الكتابة في الحديث عن الأسباب التي أدّت إلى فشل جميع محاولات التغيير حيث يعبر "عمارة لخصوص" من خلاله عمّا يناهض وجدانه ككاتب جزائري، من استفهامات حول الواقع الذي آلت إليه الجزائر، والتي نجملها بالقول: لماذا تفشى الفساد في الجزائر ما بعد 1962؟، ولماذا لم تتجح جميع محاولات التغيير لمدة

¹ - عمارة لخصوص، طير الليل-رواية-، ص9. مقتبسة من: حنة آرندت، في الثورة، ترجمة: عطا عبد الوهاب، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2008، ص25.

² - عبد الرحيم خالص، في البدء كانت الثورة: قراءة في كتاب حنة آرندت، قسم الدين وقضايا المجتمع الراهنة، 29 مايو 2021، مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، <http://www.mominoun.com/articles>

ستين سنة من الاستقلال؟ هل يستطيع النص الروائي ملامسة الواقع الجزائري عند كتابته عن أمور غامضة وأخرى خفية وعن تحقيق ما لم تستطع هذه المحاولات تغييره. هل يكتب "لخصوص" عن مفهوم التغيير الذي يجب أن يطال الفرد أولاً قبل الواقع المحيط به، هل يساهم الفرد الجزائري بصورة أخرى في دعم هذه السياسات وانتشارها الرهيب؟ أم هو تتصل من مسؤولية أو رهاب سنوات الجمر الذي وقف سدًا منيعًا أمام محاولات التغيير المختلفة، وعن ترسخه في الوعي الجمعي للمجتمع الجزائري بصفة خاصة، والمجتمعات العربية بصفة عامة التي عانت ويلات الحروب واضطهاد السياسات والأنظمة، في ظل ديمقراطيات مقنعة وسياسات مستبدية في الوقت نفسه، وغيرها من الهموم الوطنية والقومية، أو مرد هذا الفشل إلى الأيدي العميلة والخائنة التي باعت الجزائر وجعلتها تتخبط في استعمار ما بعد الاستعمار، والسؤال الأبرز هو هل عدم ارتباط هذه المحاولات بالعنف والسلاح هو السبب الذريع في فشلها؟ وغيرها من التساؤلات التي تنازعه وتجبرنا كقراء على البحث في أسباب هذا الفشل.

4. 3/ النصوص الموازية من الممارسة الخطابية إلى الممارسة الاجتماعية:

من العناصر التي تدخل في حيّز المناصات في رواية "طير الليل" لعمارة لخصوص، نجد النصوص الموازية أو النصوص المصاحبة للنص الأصلي، كعنوان الفصول التي تساهم إلى جانب العنوان الرئيسي في توسيع رقعة استجابة القارئ للمضامين المبنوثة داخل الرواية وطاقات استيعابها، فتكون بمثابة عناوين فرعية للعنوان الرئيسي وتساعد هذه العناوين على اختلافاتها "وفق ما قدمه (موشلر) و(روبول)، على الوصول إلى المقصديات الاخبارية الشاملة للنص"¹.

هذه المقصديات التي دفعت بـ "عمارة لخصوص" إلى عنوانة الفصول الروائية بتواريخ تبدو على مستوى الممارسة الخطابية عادية، لكنّها على

¹ - حياة أم السعد، تداولية الخطاب الروائي، ص 248.

الفصل الثالث: جدلية التمثيل السردى والإدراك الإجتماعي للقمع السلطوي...

مستوى الممارسة الاجتماعية تمثل انتقالاً من جيل الاستقلال (2018) إلى جيل الثورة (الماضي)، وتعكس امتداداً للتناقض الحاصل على مستوى العنوان الرئيسي (طير، ليل)، حيث شكلت هذه التواريخ لحظات سياسية فارقة ومهمة في تاريخ الشعب الجزائري على مستوى الممارسة الاجتماعية، فانضوى تحت العنوان الرئيسي طير الليل إحدى وعشرون عنواناً، مجزأة الرواية إلى إحدى وعشرين فصلاً.. لخصناها في الجدول التالي:

المقطع السردى	الممارسة الخطابية	الممارسة الاجتماعية
المدخل	الخميس 05 جويلية 2018 3:35 فجراً	الذكرى 56 لاستقلال الجزائر
الفصل 01	07:10	صباح يوم 05 جويلية 2018.
الفصل 02	1958	أيام الثورة الجزائرية
الفصل 03	9:40	صباح 05 جويلية 2018
الفصل 04	صيف 1962	التاريخ الرسمي لاستقلال الجزائر
الفصل 05	11:16	صباح 05 جويلية 2018.
الفصل 06	صيف 1965	انقلاب ضد أحمد بن بلة .
الفصل 07	12:25	ظهر 05 جويلية 2018.
الفصل 08	ربيع 1976	فترة حكم الشاذلي بن جديد
الفصل 09	14:18	مساء 05 جويلية 2018.
الفصل 10	شتاء وربيع 1986	الربيع الأمازيغي في الجزائر قسنطينة.
الفصل 11	15:34	مساء 05 جويلية 2018.
الفصل 12	ربيع وصيف وخريف 1988	أحداث 05 أكتوبر 1988.
الفصل 13	17:19	مساء 05 جويلية 2018.
الفصل 14	شتاء وربيع 1992	انقلاب 12 يناير 1992.
الفصل 15	19:14	مساء 05 جويلية 2018.
الفصل 16	ربيع وصيف وخريف 1998	العشرية السوداء تنحي اليمين زروال

الفصل 17	21:05	05 جويلية 2018 ليلا.
الفصل 18	شتاء وربيع 2011	احتجاجات الشباب والمعارضة
الفصل 19	22:09	ليلة 05 جويلية 2018.
الفصل 20	صيف 2018	حراك فبراير 2018.
الخاتمة	23:25	05 جويلية 2018 قبيل منتصف الليل.

جسدت هذه العناوين الموحية لحظات تاريخية حاسمة في تاريخ الشعب الجزائري، شهدت ثورات وانقلابات وحركات من أجل التغيير توحى بالمضمون التاريخي والسياسي للرواية من جهة، ومن جهة أخرى تبعث الرواية هذه التواريخ من جديد في صيغة جريمة قتل لمساءلتها، ومساءلة سبب توالي الخيبات وعدم تحقق المأمول عبر استدعاء لتواريخ حقيقية على مستوى الممارسة الاجتماعية، وتقصي حقيقة الفشل. الذي انتقل من المجتمع إلى نص الرواية.

يمكننا القول أخيرا من خلال قراءتنا لعتبات رواية "طير الليل" أنها تحمل في طياتها مضامين سياسية وسلطوية، تعكس واقعا مضطربا غامضا ومبهما، امتد من العنوان الرئيسي وصولا إلى العناوين الفرعية المصاحبة للنصوص، لتعبر مسائلته ومستفسرة عن سبب الخيبات المتتالية في تحقيق بوادر التغيير على شعب حقق ثورة يشهد لها التاريخ، وذلك بتصوير مطامع السياسة، وإغراءات السلطة التي تستبجح كل شيء في طريقها مقابل افتكاك سلطة قمعية شرسة، فأحداث الرواية التحمت لتعكس لنا واقعا سياسيا مضنياً امتد من الاستقلال إلى غاية صيف 2018، أي تاريخ نهاية كتابة هذه الرواية، فشكلت مختلف المناصات خطابا يعكس سلطة الكاتب من جهة، إلى مقاومة الكاتب عبر الإبداع للتأثير في القارئ العربي، كونه ليس بمعزل عن هذا الواقع الفاسد، ومحاولة منه للنهوض بالوعي القومي للمجتمع الجزائري وترسيخ إدراكه

بالطريقة التي تسهم بها السلطة في القضاء على مقومات الفرد، وأحلامه في تحقيق التغيير.

5/ من التحليل النصي إلى الممارسة الخطابية للقمع السلطوى:

نبدأ التحليل النصي بالحديث عن مظاهر السلطة في الخطاب وبالتركيز على ما تتجزه اللغة أكثر مما نقوله، وذلك برصد الممارسات الخطابية الدالة على السلطة، حيث أنّ جُلّ ما نلاحظه في رواية "طير الليل" هي احتقاؤها بالألقاب العسكرية، ومختلف أنماط التحية التي تبدو عادية، لكنّها حاملة لمضامين سلطوية، وهذا دليل على المضامين السلطوية والسياسية لهذا النص، فرضت علينا هذه الرؤية إجراء إحصاء لجميع الألقاب الدالة على السلطة كما سيوضحه الجدول الآتي:

اللقب	عدد مرات وروده
العقيد	حوالي 200 مرة
حضرات	حوالي 91 مرة
النقيب	حوالي 18 مرة
الملازم الأول	حوالي 3 مرات
جماعة الفوق	حوالي 7 مرّات
العميد	حوالي 20 مرة
سّي المعلم	حوالي 15 مرة

يتضح من خلال هذه الجدول الاحتفاء الواسع بالألقاب المكرّسة للسلطة العسكرية، وألقاب أخرى تمثل سلطة لكنّها ليست سياسية، مثل لفظة "سي" التي تكررت كثيرا حوالي 48 مرة، مثلا شخصية "سي يزيد"، وشخصية "سي قادري" و"سي طالبي" و"سي شريف" وغيرهم، التي تستعملها الشخصيات داخل الحوارات لتخاطب شخصية أخرى تفوقها سلطة، كما نجد ألقابا أخرى مثل "سيدي المفتش" التي وردت حوالي

5مرات وغيرها من التسميات التي تعبّر عن سلط مختلفة، لاختلاف وضعيات التخاطب والسياقات المتحركة فيها.

على عكس "رضوى عاشور" التي لم تفصل في روايتها "فرج" في وصف شخصياتها، ولم تدقق في ملامحها المختلفة الأطوار، نجد "عمارة لخص" يدقق ويفيض في رسم شخصيات روايته، فهي تبدو واقعية حتّى النخاع، وإسقاط الرواية على الواقع التاريخي للجزائر يبدو جلياً¹. فيتابع "الروائي" تحولاتها عبر الأزمنة الماضية والحاضرة، مع التوصيف الدقيق لملامحها وأهوائها وطموحاتها، وحتّى أمورها العائلية والأحداث البسيطة منها والمعقدة، وكأنّه يعمل على تفكيك هذه الشخصيات محاولة منه لاستقصاء وضع السياسة السلطوية في الجزائر، وتقصى مقاصد الشخصيات السلطوية وآلياتها الممنهجة للحصول على السلطة أو الوصول إليها، في مقابل شخصيات أخرى تتأى عن مثل هذه التصرفات، وتحافظ على مبادئها وقيمها الشريفة على ممر الزمان أي من الثورة إلى يومنا هذا.

عكست شخصيات "رواية طير الليل" واقع الشعب الجزائري وواقع السياسة الجزائرية من خلال شخوص الجريمة، في تلميح من قبل الكاتب إلى أنّ التغيير لابدّ له من جريمة ليتحقق، وهذا ما كرّسه "صوت" زهرة دولوروس" المجاهدة المجرمة التي انتقمت لنفسها وابنتها ولصديقها عباس أيّام الثورة، بقتل زوجها المجاهد "ميلود صبري" رافعة شعار قتل الخونة حلال أو دم الخونة حلال في شرعة للعنف، ولتحقيق الاستقلال المنشود وتطهير المجتمع من آلة الخيانة، والقمع السلطوي المطبق في اليوم الوطني للاستقلال.

كما عكست هذه الشخصيات أيضاً واقعا تتناسل فيه الخيانات، وتتكاثر بصفة رهيبية مشجعة الفساد بكلّ أشكاله وأنواعه، في مقابل تصوير نموذجي للإخفاق

¹ -عماد عبد اللطيف، تحليل الخطاب السياسي، بتصرف، ص302.

السياسى الجزائرى، كونه نسخة طبق الأصل لإخفاق عربى لم ينل ولن ينال المراد، ما لم تتغير طريقة المطالبة بالحقوق والسعى نحو تحصيل الأفضل، فهى أزمة للإنسان الجزائرى خاصة والعربى بصفة عامة فى ظلّ السياسات المستبدّة والمتجبرّة.

قمنا فى رواية "رضوى عاشور" بتتبع تعدد الأصوات داخل الرواية بين يسار ومعارضة وأصوات محايدة، لكننا سنثبت تركيزنا فى تحليل هذه الرواية على دراسة للشخصية السردية فى عالم الفساد السياسى والتاريخى، وذلك بتتبع المونولوج والحوار وانقلاب القيم الذى كرسته شخصية المجاهد "ميلود صبرى"، التى جسّدت خطاب السلطة(النظام) داخل الرواية (حسب رؤية المؤلف وتوجهه السياسى)، بالإضافة إلى تعدد الأصوات التى شكّلت عالما متخيلا يستعين بالعديد من الأدوات لممارسة السلطة القمعية تارة، ومقاومتها تارة أخرى وهذا الذى نروم الكشف عنه عبر الاستعانة بجهود "باختين" فيما يتعلق بالرواية البوليفونية...، ودورها فى إبراز وجهات نظر أصوات الرواية ورؤاهم الإيدولوجية، التى ترسخها أفعال الشخصيات، وتصرفاتها فى إنقلاب صارخ للمفاهيم والقيم.

نسعى عبر هذا العنصر كذلك إلى دراسة الشخصيات، لكن هذه الدراسة لا تعنى بتصنيفات الشخصيات وأنواعها، وإنّما وفق ما تتجزه داخل النص الروائى، بالبحث فى وجهة النظر التى تبثها الشخصية وتمررها عبر صوتها، الذى سنكشف عنه بتتبع الحوارات الداخلية والخارجية وتقابلاتها، التى تتجاوز حدود الظاهرة اللسانية وهو ما يسمّيه "باختين" تقابلا حواريا، حيث "أنّ حديث الرواية أو المؤلف المفترض يبنى... على خلفية اللّغة الأدبية العادية، على خلفية الأفق اللّغوى العادى، وكلّ لحظة من هذا الحديث تتربط مع هذه اللّغة أو الأفق العادى، وتقابله.تقابله حواريا :كما تقابل وجهة نظر وجهة نظر أخرى، وتقويم تقويما ونبرة نبرة (وليس كظاهرتين ألسنيتين مجردتين)،

هذا الترابط، هذا القرن الحوارى بين لغتين وأفقيين هو الذى يمكن قصد المؤلف من تحقيق ذاته، بحيث نشعر به بوضوح فى كل لحظة من لحظات العمل الأدبى¹.

بناءً عليه تتقابل وجهات النظر داخل الخطاب الروائى، حاملة خطاباً سياسياً مدعماً لخطابات السلطة المستبدة تصدح به أصوات معينة تكشف عن وعى سياسى يصطلح عليه أصوات الموالاة، فى مقابل خطاب سياسى رافض ومعارض للخطاب الأول، وهو ما تفصح عنه "حوارات" رواية "طير الليل"، وكذلك تدخلات السارد فى هذه الأصوات التى تنبئ بالكثير من الخبايا والممارسات السلطوية.

5. 1/ الحوار وتناسل أصوات الفساد: من السلطة القمعية إلى المقاومة:

مثلت شخصية "ميلود صبرى" داخل الرواية صوت الطاغية المستبد، الذى يحقق مساعيه السياسية والسلطوية وراء الستار، ويتخفى لتحقيقها وهذا ديدنه فى مساندته للأنظمة الحاكمة والقوية منها، حتى وإن كانت إرهاباً ضارباً عرض الحائط جميع القيم والمبادئ، ومستثمراً فى الجريمة لتحقيق مساعيه الخبيثة...، فهذه الشخصية الرئيسية (البطلة) اكتسحت جانباً مهماً من أحداث الرواية على مستوى الممارسة الخطابية والاجتماعية على حدّ سواء، والتركيز عليها فى تحليلنا نابع من اعتناء الرواية البوليفونية بهذه الشخصية كما سبق وأشرنا، إلا أنه اهتمام يتجاوز الصفات الفيزيولوجية إلى الرؤى الأيديولوجية، حيث يقول "باختين": "البطل مهمّ بالنسبة إلى دوستوفسكى لا على اعتباره ظاهرة من ظواهر الواقع، تجسد سمات محددة مميزة على المستوى الإجتماعى، ولا على اعتباره هيئة محددة تتألف من ملامح أحادية الدلالة موضوعية، قادرة بمجموعها على توفير إجابة عن سؤال من يكون؟" كلا، فالبطل يهم

¹ -ميخائيل باختين، الكلمة فى الرواية، ص 83.

دوستوفسكي بوصفه موقفاً فكرياً، وتقويماً يتخذه إنسان اتجاه نفسه بالذات وتجاه الواقع الذي يحيطه¹.

يمثل البطل بالنسبة لدوستوفسكي موقفاً فكرياً يعبر عن وجهة نظر إلى العالم، وإلى نفسه بالذات تتطلب معايير خاصة للكشف عنه حيث أن ما ينبغي الاهتمام به " واستخلاصه لا الواقع الحياتي المحدد الخاص بالبطل، لا صورته القوية، بل المحصلة النهائية لوعيه بالعالم ووعيه بذاته، إنه في نهاية المطاف وعيه بالعالم ووعيه بذاته، إنه في نهاية المطاف كلمة البطل حول نفسه بالذات وحول عالمه².

يسمح الحوار بنوعيه بتعدد أساليب الإفصاح داخل الرواية، كما يبرز اختلاف وجهات النظر بين الأصوات المتعددة، سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، وهو ما جعلنا نقسم أصوات الرواية بالرغم من كثرتها واختلافاتها الفكرية والعقائدية، إلى قسمين هما صوت السلطة (النظام)، في مقابل صوت الشعب الذي يظهر تارة ويختفي تارة أخرى فاسحا المجال أمام صوت السلطة وطغيانها.

تمارس بهذا الرواية "دوراً كبيراً في صياغة إدراك البشر للسياسة، وتحديدًا في العالم العربي الذي يعرف أشكالاً متنوعة من الرقابة على الفكر، وتضييق حريات التعبير لذا يلجأ ذوو المواقف المناهضة للخطابات السلطوية السائدة إلى التفتت بالسرد في كثير من الأحيان، في محاولة منه للتعبير عن مواقفهم ورؤاهم³". وهذا ما لاحظناه من خلال الأصوات السياسية التي تتحاور داخل الرواية، لتقدم نقداً للخطاب السياسي علانية أو بطريقة مضمرة كما سنرى في دراستنا لها.

¹ -مخائيل باختين، شعرية دوستوفسكي، ص 67.

² - المرجع نفسه، ص 67.

³ - عماد عبد اللطيف، تحليل الخطاب السياسي، ص 295.

5. 1.1/ صوت السلطة القمعية وسياسة الادماج:

نقرأ هذا الصوت من خلال تتبعنا لحوارات الشخصية الأبرز المجسدة له، وهو "ميلود صبرى" داخل عالم الفساد السياسى والسلطوى على جميع الأصعدة، بالتركيز على كون الممارسات الخطابية المتعلقة بهذا الصوت تسعى جاهدة إلى تكريس خطاب الاستبداد والقمع السلطوى، وهو ما يظهر في خريف 1958 حيث "كان ميلود صبرى آخر من وصل إلى موعد الاجتماع الطارئ للخلية الفدائية* في مخزن مخبزة "إفري" في المدينة الجديدة، وجد في انتظاره عزيزة مصباح وعبّاس بادي وإدريس طالبي... إذ أخبرهم فور إغلاق الباب وراءه أن الشرطة القضائية الفرنسية ألقت القبض على مسؤولهم المباشر سي يزيد ليلة أمس.

- لا! صرخت زهرة وهي تضع يدها اليمنى على فمها.

- كيف وصلوا إليه؟ سأل عبّاس.

- الخيانة، يا خويا. ردّ ميلود.

- ومن خانته؟ استغرب إدريس.

- واحد منّا... هكذا يقولون. نبس ميلود بالكلمتين وهو ينقل بصره بينهم حتّى يرى ردود أفعالهم¹. يرسم لنا هذا الحوار صورة "ميلود صبرى" الخائن لرفاقه أيام الثورة، والحركي الذي يخبر عن مكان رئيسه "سي يزيد" للقوات الفرنسية، أين يتعرض إلى أقصى وأعتى أنواع التعذيب جراء هذه الوشاية، ليستشهد بعدها وتبدأ سلسلة جرائم القتل والخيانة، التي صدح بها صوت "ميلود صبرى" على طول خط الرواية.

*المجموعة الفدائية التي ينتمي إليها "ميلود صبرى"، وتتكون من زهرة مصباح التي صارت زوجته بعد الاستقلال، وكان اسمها الحركي دولورس، والمحامي والحقوقى المعروف طالبي وكنيته "الصقر"، أمّا الثالث، فذكرت كنيته فقط "البلاجر"، أي اللقلق، ويحيط به الغموض، قيل أنّه كان عميلاً مدسوساً، ربما فرّ مع الفرنسيين أو لقي حتفه على يد ثوار جبهة التحرير قبيل الاستقلال.

¹- عمارة لخص، رواية طير الليل، ص31.

ومن بين الحوارات التي رسخت صوت السلطة ودعمت حكم العسكر، ورأت أنه السبيل الأنجع لعلاج المرض الذي اعتري الثورة، وتناحر قادة الجهات الست لتولي رئاسة الجزائر، نجد الحوار الذي دار بين "ميلود صبري" والمحامي "إدريس طالبي" رفيقه أيام الثورة وبعدها، لكنّه مثل داخل الرواية صوت الشعب وإرادة التغيير السياسي، وهو ما يظهر في معارضته على الانقلاب ضد الرئيس المنتخب "أحمد بن بلة" جملة وتفصيلاً قائلاً: "بن بلة رغم مساوئه الكثيرة يبقى ممثلاً للشعب، فقد جاء الى الرئاسة عن طريق صناديق الاقتراع. ثمّ إن هناك برلماناً منتخباً، ما هو الدافع لحلّ البرلمان والمؤسسات الموجودة وتعليق العمل بالدستور؟ من الأجدر إصلاح ما هو قائم بدلاً من هدم كل شيء، وخلق حالة فراغ خطيرة ودفع البلاد نحو المجهول.

-التغيير لابدّ منه، ياخويا إدريس. قال ميلود متحمّساً.

-التصحيح الثوري دكتاتورية عسكرية.

-لماذا هذا التشاؤم كله، ياخويا؟

-أنا واقعي.

-الثورة مريضة تحتاج للدواء.

-لا مرض ولا هم يحزنون، الثورة والشعب بخير، يا ميلود.

-الشعب يحتاج الى قائد قوي، ياخويا.

-المشكلة ليست الشعب، وإنما الزعامة، يا ميلود.¹

يوحي هذا الحوار بالعديد من المواقف السياسية المتناقضة الكاشفة في خباياها، عن التوجه السلطوي لشخصية "ميلود صبري"، في رؤيته بأن علاج المرض الذي اعتري الثورة (أي التناحر على سدة الحكم) يكمن في زعيم قوي أو بالأحرى دكتاتور يجمع بين حكم الجيش والدولة معاً، وهذا ما كشف عنه انقلاب "هوارى بومدين" على

¹-عمارة لخصوص، طير الليل، ص 95 و 96.

الرئيس أحمد بن بلّة ومساندة "ميلود صبرى" له، وأن الوصول إلى السلطة بالدبابة هو الحل الأفضل والأمثل لما سمّاه "ميلود صبرى" بالتغيير.

ومن بين الأساليب السلطوية التي تنتهجها الحكومات والأحزاب السياسة للتحكم في وعي الشعوب، وتوجيه أفكارهم وحملهم على تبني آراء دون أخرى هو ما صدح به صوت "ميلود صبرى" أثناء متابعته لمناقشة طالبين إسلامي وشيوعي محاورا نفسه حيث: "فكر أنه من النادر أن تجد شبانا من حزب جبهة التحرير مسلّحين بقوة الحجّة والشجاعة والحماس، صاروا يتحدّثون كالشيوخ، ويعلفون كالخرفان من الشعارات الفضفاضة نفسها. اعتاد ميلود على الاستعانة باستعارات من عالم الخيول التي يعشقها، قائلا في نفسه إن الطالب الاسلامي حصان أصيل، آه، لو يستطيع أن يمتطيه. في المقابل لا خير يرجى من الطالب الشيوعي، لو كان ظهر في السّينيات والسّبعينيات في عزّ الثورة الزراعية، وخلال التأميمات الكبرى، لربّما كان سيكون له دور، أمّا الآن، فالرياح تهبّ لصالح الاسلاميين، والمستقبل لهم"¹.

يبين لنا هذا المونولوج دور الشعارات، التي يعلف منها الشعوب لتجعلهم كالخرفان على حد قول "ميلود صبرى"، لا عقل لهم ولا تفكير يتبعون القطيع دون أي ردة فعل، وهذا ما تفعله اللّغة عندما تستعمل كأداة لإدماج الشعوب تحت لواء التوجه السياسي الرائد، حيث يعتبر "الإدماج إحدى وظائف الايديولوجيا، هدفه تقديم المصالح الخاصة للمجموعات الحاكمة على أنّها المصالح العليا للمجتمع، ويتحقق الإدماج بواسطة صياغة وعي الأفراد، والجماعات، وتوجهاتها، وسلوكياتها لكي تسلك على نحو مخصوص، لا يخدم مصالحها، دون وعي بذلك، واللّغة هي الأداة الأساسية لتشكيل الايديولوجيا، وهي من ثمّ الأداة الأساسية لتحقيق الادماج"².

¹ - عمارة لخص، طير الليل، ص 143 و 144.

² - عماد عبد اللطيف، تحليل الخطاب السياسي، ص 133.

أكدت هذه الرؤية وعى السلطة السياسية التي يمثلها "ميلود صبري" بالطاقات الكامنة للغة في السيطرة على الشعوب والتحكم بها، عبر الشعارات الفضفاضة والمضامين السلطوية الخفية للخطب السياسية، في مقابل ظاهرها المقنع الذي يتغنى بالديموقراطية. وغيرها من الخطابات التي تستعمل لتحقيق الإدماج "وتكون غالبا ذات دلالات رمزية، مثل الشعارات والأناشيد، والأغاني، والخطب، هذه النصوص والخطابات تستهدف فرض ايديولوجية الطبقة الحاكمة، عن طريق تقديمها بوصفها ايديولوجية الشعب، وبوصفها نتاجا للمحكومين أنفسهم، ويؤدي هذا إلى إدراك المحكومين لها بأنها (أمر طبيعية)، أي غير مفروضة عليهم، و (حتمية)، أي لا يمكن مقاومتها، وتعمل لمصلحتهم، أي تجب مساندتها، وتصاغ هذه النصوص بلغة (ادماجية) تتحدث دائما عن الـ "نحن" دون تمييز بين الحاكم والمحكوم، وعلى الرغم من أن هذه النصوص تخدم مصالح الحكام، فإن المحكومين/الأغلبية هم عادة الأكثر إيمانا بها، وترديدا لها"¹.

إن استعمال اللغة كأداة لإدماج الشعوب وإخضاعها والهيمنة عليها من أعتى أساليب القمع السلطوى، الذي ينتهجه المتعطشون للسلطة والنفوذ لتحقيق مآربهم السلطوية، وضمان استمرارية ولاء الشعب لهم ولأفعالهم ولحكمهم. فمشكلتنا اليوم هي "مشكلة الخطابات التي تصنع الأقدار في أوطاننا، فمن واجبنا أن نحللها لنعرف ما يمكن أن تغيره في العالم"²

¹ - عماد عبد اللطيف، تحليل الخطاب السياسي، ص133.

² - حياة أم السعد، مقال تشكيلات خطاب التطرف في روايات الأزمة العربية المعاصرة. حفرريات في صناعة الكراهية.-مقال منشور ضمن أعمال المؤتمر الدولي الثاني لكلية الآداب. قسم اللغة العربية: الخطاب الأدبي المعاصر في العقود الثلاثة الأخيرة في الفترة ما بين 11 و12 مارس 2020. جامعة الزيتونة.

هذه الطريقة في إسكات الرعية هي وجهة نظر تبناها "ميلود صبري" في "حوار له مع "بدرو بوزار" *، أين رأى أن السبب الرئيسي وراء الجهاد في أفغانستان *، يتجاوز الدوافع السياسية والدينية إلى الدافع الاقتصادي، وحاجة النظام الرأسمالي الى أسواق جديدة، يحيلنا هذا إلى الأيدي الخارجية ودورها في ترسيخ العنف داخل المجتمعات العربية، نخص بالذكر منه "العنف الذي يقود إلى التطرف ويصل بالمرء إلى أن يقتل أقرب الناس إلى نفسه في زمننا العربي اليوم، هو تطرف صنعتة محفزات خارجية وجدت المناخ المناسب في أوطاننا العربية، بسبب ما يعيشه الإنسان العربي من هدر وقهر، وحولته إلى آلة مدمرة لم تستطع الآن ردعه بامتياز.¹ حيث يقول:

-العالم يتغيّر، ويجب التأقلم قبل فوات الأوان.

-الحلّ الوحيد هو الإسلام، ياعمّي ميلود.

-نعم...ولكن، الإسلام السيّاسي، يا ولدي!

-الإسلام كتلة لا تتجزأ، تشمل السياسة والثقافة والتربية والاقتصاد والعلم.

-لكن السياسة هي التي تتحكّم في كل شيء.قال ميلود ضاحكا.

اعترف ميلود أن الاشتراكية أخفقت في الجزائر من أحمد بن بلة إلى الشاذلي بن جديد، مرورا بهواري بومدين، سأله بوزار عن الإصلاحات التي نادى بها الرئيس الشاذلي، فردّ أن الإصلاح كالترميم الخارجي، المشكلة هي الأسس. فحال الجزائر

* بدر الدين بوزار، المدعو بدرو، صهر المرحوم، وهو من بُلغ عن جريمة قتل "ميلود صبري"، كان ينتمي الى سلك الاسلاميين لكنّه سرعان ما تراجع عن آرائه بعد احتكاكه بميلود صبري.عمل مخبرا منذ عام 1988، اختصاصه التجسس على الاسلاميين وصيد الارهابيين.

* تشير ها هنا إلى دعم الولايات المتحدة لحركة طلابان وتنظيم القاعدة، وحربها ضد القوات السوفييتية كانت حربا بالوكالة، فعندما خرجت القوات السوفييتية من أفغانستان سرعان ما تخلت الولايات المتحدة عن القاعدة وابن لادن.أنظر، إبراهيم الحيدري، سوسيولوجيا العنف والإرهاب، دار الساقى، لبنان، ط1، 2015، ص156.

¹ - حياة أم السعد، مقال تشكيلات خطاب التطرف في روايات الأزمة العربية المعاصرة. حريات في صناعة الكراهية.

كالبیت المتشقق والأعمدة المترنحة بفعل الزلازل، هل يجدي الترميم؟ اختتم تحليله بالقول:

-لابدّ أن تهدّم الدار، وتبنى من جديد.

-كيف ياعمّي ميلود؟

-هذا هو شغل الراعي.

-والرعية؟

-السكوت وتنفيذ الأوامر.¹ يظهر لنا هذا الحوار دور التوجه السلطوي القمعي لصوت "ميلود صبري"، الذي يصرّ في كل مرة على أن الشعب محكوم عليه بالخضوع والخنوع مع الصمت المطبق وتنفيذ الأوامر على إثر السياسة السلطوية القائمة التي تضرب بيد من حديد، كلّ من تسوّّل له نفسه معارضتها أو الوقوف في وجه آلة القمع أو محاربتها، وهو ما عبّر عنه تدخل السارد في قول "ميلود صبري" - لكن السياسة هي التي تتحكّم في كل شيء. قال ميلود ضاحكا. - أي النبذة التهكمية الساخرة ممن يظن العكس أو حتّى يفكر في أن الأمور تحاك بعيدا عن السياسة.

ينبأ هذا الحوار أيضا عن مقاصد خفية تتمّ عن وعي سياسي، يودّ "عمارة لخص" أن يبيّنه داخل هذه الرواية، ألا وهو اختياره لشخصية حركي في دواليب السلطة (ميلود صبري) لتمثيل فعل القمع السلطوي لبيّن أن الخونة (الحركي) المتحكمين في قلب الأوضاع في أوطاننا، هم يد فرنسية بشعة لا بد أن تقطع، كان بإمكانه أن يختار شخصية وطنية تدخل عالم الحكم فتتغير بسبب الجشع أو حب المال أو النفوذ، لكن "عمارة لخص" واع بأن القضية أكبر من هذا تدخل فرنسا في السياسة الجزائرية لم يعد مرغوبا فيه، فهو لا ينتقد الحكم بقدر انتقاده لضلوع فرنسا في استعمارنا واستعمارنا من جديد، فكثير من الحكام يقمعون شعوبهم بحثا عن سلطة لا

¹ - عمارة لخص، طير الليل، ص 147 و 148.

تتفد ونفوذ لا يتوقف، لكن مسألة الجزائر أمر آخر، لهذا توترت العلاقات حاليا مع فرنسا، ربما لأن اليد الفرنسية الننته أصبحت منبودة في دواليب السلطة...، والحقيقة أنه آن الأوان لتغيير يد بيد أخرى.

ومن أدوات اللّغة لتحقيق الهيمنة "نجد تسمية الأشياء أو الأشخاص أو إعادة تسميتها، بهدف حيازة السلطة أو سلبها من الآخرين"¹. وهو ما يظهره لنا الحوار الذي دار بين "ميلود صبري" وصهره "إثر تأسيس أول حزب إسلامي في البلاد، ضحك ميلود من تسمية الحزب الجديد: الجبهة الإسلامية للإنقاذ، واختصار التسمية الفرنسية هو FIS وتتطق مثل FILS أي الابن. قال لبدرو مبتسما:

-بارك الله في عائلة الجبهة.

-وحماها من الأعداء كلهم.

-جبهة الإنقاذ هي ابنة جبهة التحرير.

-خير خلف لخير سلف، ياعمي ميلود.

-أنت على حقّ، وأطلق ضحكة مدوية، وسرعان ما قلّده بدرو"². يوضّح لنا هذا الحوار أنّ الاختلاف بين حزب جبهة التحرير الوطني والجبهة الإسلامية للإنقاذ هو اختلاف لا يتجاوز حدود إعادة التسمية والمواربة اللغوية، لإضفاء الشرعية والمصادقية على هذا الحزب السياسي الجديد الذي يعدّ الابن الشرعي لجبهة التحرير الوطني شكلا ومضمونا، وهو ما ترسّخه النبذة الساخرة التي تميّز بها الحوار الذي دار بين الشخصيتين هذا من جهة، ومن جهة أخرى أراد الكاتب تمرير وجهة نظر موجودة في الخطابات السياسية، ومفادها أن اختلاق جبهة الإنقاذ هو حيلة من حيل الأيدي التي أرادت صنع ديموقراطية مموهة أو مصنّعة، هدفها فتح تعددية حزبية لإسكات الأصوات المطالبة والمناشدة للحرية والديموقراطية.

¹-عماد عبد اللطيف، تحليل الخطاب السياسي، ص135.

²-عمارة لخص، طير الليل، ص194.

ومن بين الحوارات الداخلية الحاملة لصوت السلطة القمعية المشبوهة نجد قول السارد: "تابع ميلود صبرى تتحيّ حسنى مبارك على المباشر على قناة الجزيرة، لم يكن يتوقع انهيار النظام المصري، وقبله زين العابدين بن علي في تونس بتلك السهولة. كم أضحكه ذلك الشعار: الشعب يريد إسقاط النظام! تساءل هل أصبحت السلطة في يد الشعب حقاً؟ هل يمكن للقطيع أن يقود الراعي؟ فكّر أن التجربة الجزائرية في التسعينيات، يمكن أن تعمّم في أماكن أخرى. الواجب أن يترسّخ الاعتقاد لدى الشعوب العربية أن هناك خيارين لا ثالث لهما: إمّا الاحتماء بحضن العسكر أو الوقوع في مصيدة الإسلاميين، لا يوجد خيار آخر. وضحك عندما قرأ تصريحاً لرفيقه إدريس طالبي يقول فيه إن البديل هو تكوين جبهة من الديمقراطيين لمواجهة العسكر والإسلاميين معا"¹. حمل مونولوج "ميلود صبرى" العديد من الخطابات الظاهرة أبرزها سياسة التهديد التي تفعلها السلطة للتصدي لمعارضة الشعب، ويكون ذلك إمّا كلامياً عبر اللغة أو من خلال تعميم فرضية العشرية السوداء ميدانياً، وقتل الأبرياء في بلدان أخرى لتحقيق الهيمنة، وفرض الصمت المطبق على الشعب، مستغنياً مطالب الشعب في "إسقاط النظام"، في ظلّ الحكومات الدكتاتورية التي تعتبر التتحي عن كرسي الحكم من المستحيلات السبع، وعلى الشعوب أن ترسخ في ذهنها أنّه لا وجود ولا أمل في التغيير، فإمّا الاحتماء بحكم العسكر أو السقوط في مصيدة الإسلاميين.

كما حمل هذا المونولوج العديد من الشفرات التي جعلت عالمنا العربي اليوم يتخبط في مجموعة من الصراعات والحروب، التي أسفرت عنها تداعيات الربيع العربي حيث "إنّ المتأمل اليوم في عالمنا العربي يجده يتهاوى بسبب نعرات عنيفة، وأصوليات فجرت تطرفاً مؤذياً ومخزياً قلب موازين الحقائق، كأنّ لعنة أصابته، ولم

¹ - عمارة لخص، رواية طير الليل، ص 245 و 246.

تستطع دعوات متكررة رفعها، فأصبحت قدرا محتوما، نتجرعه إلى أن يكتمل ليل لا ندري إذا كان صبحه سيشرق.

نرى اليوم الوطن العربي بعد "ثوراته" يعيش ما عاشته الجزائر في العشرية السوداء، لكن بفضاعة أكبر، نقف مندهشين يحاصرنا إحباط مرده تساؤلنا الدائم هل يمكن للأأيادي التي صنعت مأساتنا أن تنتسج على منوالها مأس أخرى في أزمنة وأمكنة وأوطان بعيدة عنا، ألم يكن الدرس قاسيا علينا لتأخذ الشعوب العربية العبرة من عُشْرِيَّتِنَا وهي تهتمّ بصنع خرابها؟¹

بناء عليه ومن خلال قراءتنا للحوار استنتجنا أنه يكون عاديا غير متحمل لسلطة عندما يكون الحديث خارجا عن السياسة، في حين أنه يصبح مضمرا إذا تعلق الأمر بالسياسة، ممارسا سلطة الإقصاء والإسكات وهو ما عبّر عنه صوت السلطة داخل هذا المتن الروائي، من خلال حوارات* "ميلود صبري" التي شكلت خطابا سياسيا صدح على طول صفحات الرواية بالأساليب والطرق التي تستعمل في سبيل تحقيق الهيمنة واعتلاء مناصب عليا في هرم السلطة ظاهريا، في حين يفصح باطن هذا الصوت باستعمار ما بعد الاستعمار الذي سقطت فيه جزائر 1962 وجزائر 2021 والآلة الجديدة للاستعمار التي تركز على مجموعة من الدعامات في فرض هيمنتها أبرزها اليد العميلة والخائنة ودورها الريادي في كسر جميع محاولات التغيير التي فشلت في تحقيق التحرر في الجزائر.

كما انفردت الحوارات التي كرست صوت السلطة داخل الخطاب الروائي، بمساحات واسعة على مستوى الممارسة الخطابية، طغت عليها نبرة الاستعلاء والقمع، والتمسك ببرائث النظام سواء القديم أو الجديد (استعمار ما بعد الاستعمار) مهما كانت

¹ - حياة أم السعد، مقال تشكيلات خطاب التظرف في روايات الأزمة العربية المعاصرة. حفرريات في صناعة الكراهية.

* أنظر الصفحات 31، 17، 34، 35، 65، 70، 93، 194، 195... إلخ.

أفعاله و سبل السيطرة التي يصبو إلى فرضها، المهم هو المحافظة على مصالحه وأملاكه وثرواته غير الشرعية (داخل المستعمرات)، كل هذه التجليات عكست واقع النظام الجزائري على مستوى الممارسة الاجتماعية الذي استمر استبداده من الاستقلال إلى يومنا هذا مستفردا بالحكم ورافضا لأي محاولة للتغيير وقمع الحراك أفضل دليل على ذلك. ومن جهة أخرى فضحت هذه الحوارات الآلة الاستعمارية المدمرة، التي تحرق بالجزائر وتبغى توسعة نفوذها داخل ترابها بشتى الطرق والوسائل.

نختم حديثنا عن تتبع صوت السلطة الذي مثله "ميلود صبري" بالقول أن السارد يتعارض مع شخصية "ميلود صبري" في الكثير من المواضع داخل هذه الحوارات، ويوجه لها نقدا واضحا، كما يحمل القارئ على نبذ هذه الشخصية وأفعالها، وهو ما وضحته لنا تدخلاته أثناء الاجتماع الذي جمع بين أعضاء الخلية الفدائية في قوله "نبس ميلود بالكلمتين، وهو ينقل بصره بينهم، حتى يرى ردود أفعالهم"، في إشارة إلى شخصية الحركي الخائن الذي غدر برفاقه أثناء الثورة، وباع بلاده بعد الاستقلال، يظهر السارد متعارضا مع هذه الشخصية أيضا في الحوار الذي دار بين "ميلود صبري" وصهره إثر تأسيس "الحزب الإسلامي في البلاد" قائلا "ضحك ميلود من تسمية الحزب الجديد"، ليبث الوعي لدى القارئ بنذالة هذه الشخصية وأمثالها ممن جعلوا الجزائر تتخبط في استعمار ما بعد الاستعمار. يحيلنا هذا إلى الإقرار بوجود حوار ضمني بين الكاتب، السارد الشخصيات والقارئ، إن كل واحد من هؤلاء يمكن أن يتماهى مع أحد هذه العناصر الباقية، أو يدخل معه في تعارض تام، بخصوص أي نوع من القيم و الأحكام: أخلاقية ثقافية جمالية¹. فإذا كان السارد متعارضا مع صوت "ميلود صبري" الذي جسّد صوت السلطة الخائنة داخل الرواية، فإننا نجده

¹ - مجموعة من المؤلفين، نظرية السرد من وجهة النظر إلى التبئير، ترجمة: ناجي مصطفى، منشورات الحوار الأكاديمي والجامعي، ط1، 1989، ص46.

متعاطفا مع صوت الشعب الذي مثله صوت العقيد "سلطاني" كما سنبرز في هذا الجزء.

5. 1. 2/ صوت الشعب الخافت ووعي الذاكرة المسائلة:

في مقابل صوت السلطة التي كرسّها شخص "ميلود صبري"، تظهر شخصية العقيد سلطاني التي تلعب دور المحقق على مستوى الجريمة، والتي تمثل الصوت الخافت للتغيير إلى جانب صوت "المحامي إدريس طالبي" و"عباس بادي" وغيرها من الشخصيات، التي يتحاور معها المحقق بغية الوصول إلى القاتل على مستوى الجريمة، والبحث عن أسباب فشل محاولات التغيير على مستوى أيام الثورة، وذلك عبر مونولوجات مضمرة تسائل جوانب سرّية من تاريخ ثورة التحرير تارة، وتبحث تارة أخرى عن سبب فشل جميع محاولات التغيير على تحقيق ما حققته الثورة الجزائرية. أو في نسب فشل ذريع للثورة الذي نتج عنها استعمار ما بعد الاستعمار، الذي جعل " حلم الاستقلال يتهاوى مع سياسة ما بعد استعمارية قادت الجزائر إلى الهاوية، مادامت خيوط المستعمر لم تُقطع أوأصرها، ظل يكيد لهذا البلد، فانتهدها ميموني وآخرون مثل "كاتب ياسين" حين قال قولا استشرّف به ما سيصيب هذا الوطن من ألم: "إذا تركنا اليوم تفشي الظلم والنفاق، فسيرث جزائريو الغد جزائر أفطع من تلك التي عرفنا في زمن الاستعمار، وهناك بالذات لن تتفع لا الحياة ولا الكتابة"، فكانت أحداث الخامس من أكتوبر 1988 مؤلّمة جدا تبتعتها أحداث 1991، ولحد الآن لاتزال الجزائر تبحث عن استقرار¹. فاستعمار اليوم هو استعمار من بني جلدتنا، كما صرّح به الروائي على لسان أحد شخصياته، وتسألاته عن سبب حدوث ذلك؟ وعن السبب وراء تكاثر الخيانات وذيوع الفساد السياسي والسلطوي بالضرورة في جزائر الثورة وصولا إلى جزائر 2018.

¹ - أنظر، حياة أم السعد، مقال تشكلات خطاب التطرف في روايات الأزمة العربية المعاصرة. حفريات في صناعة الكراهية.

نقف فى هذا الجزء على أصوات معارضة تتفاعل وتتشارك لتنتقل لنا وجهة نظرها إلى الممارسات السلطوية الحاملة فى مظانها لأبعاد إيدىولوجية وأخرى سياسية، جعلت صوت المعارضة خافتاً لا يتجاوز الحديث الداخلى لهذه الأصوات ووعىها بما يحاك ضدها، وذاكرتها الجريحة التى استنزفت فى سبيل إيجاد حلول لتحقيق حلم التغيير الذى تظهر بواذره منعمة داخل الرواية.

من بين الحوارات المسائلة للطريقة المساهمة فى انتشار الفساد فى جزائر ما بعد الاستقلال، نجد الحوار الذى دار بين العميد بلقاسمى والعقيد سلطاني أثناء معالجتهم لجريمة قتل "ميلود صبرى" حيث يقول السارد: "ألح عليه العميد بأن لا يدخر جهداً للحصول على نتائج ملموسة فى أقرب الآجال، ووعده العقيد بالقيام بالواجب وأكثر. عند انصرافه، مدّ له المعلم قصاصة قانلاً:

- هذا عنوان دار ميلود صبرى.

- وهذا المكان الرائع، ماذا يكون، يا حضرات؟

- هذه دار الخليّلات، لابدّ أن تتكلم مع زوجته زهرة مصباح.

- الله يهدي ما خلق!

تعود على الرّد بهذه الجملة كلّما تعذّر عليه إيجاد تفسير معقول لمسألة معيّنة. دسّ القصاصة فى جيبه، وراح يفكر فى أزمة السكن فى الجزائر. فى المدن الكبرى، تتكدّس أسر كثيرة العدد كالسردين فى غرفة أو غرفتين، فى المقابل هناك من يمتلك فيلاً للخليّلات وأخرى للزوجة والأولاد، وأخرى للأبناء، وأخرى للأحفاد. وزيد يا بوزيد!¹.

ينطوى هذا الحوار على العديد من التناقضات التى توضح حجم الفساد الذى طال البلاد والعباد، حيث ينقل لنا ظاهرياً صوت السلطة الذى تجسده رتبة العميد

¹ - عمارة لخصوص، رواية طير الليل، ص 27.

والعقيد، لكنّها سلطة مقيدة لا تستطيع القيام بتحقيقات على مستوى عال تكشف رؤوس الفساد، وتدين بشدة التجاوزات التي تجعل مجاهدا معروفا على الصعيدين الوطني والعربي يملك فيلا للخليلات فقط أي لممارسة نزواته الجنسية العابرة، وفيلا للزوجة وأخرى للأولاد وأموال طائلة لا تعدّ ولا تحصى، في حين يعاني الشعب الجزائري المسحوق من أزمة سكن خانقة أدت الى انتشار العديد من المشاكل والآفات الاجتماعية التي عصفت بمستقبل الشباب في الجزائر.

نشير هنا إلى نقطة هامة وهي أن السارد " قد يكون على مسافة طويلة أو قصيرة من شخصيات الحكاية التي يرويها، وقد يكون مختلفا عنهم، مثلا أخلاقيا، ثقافيا، وزمنيا"¹. "ويظهر التناغم أو قصرالمسافة الفاصلة بين الراوي والعقيد سلطاني، في غياب أسلوب السخرية (الذي بدا جليّا في تدخلات السارد في حوارات "ميلود صبري")، وفي التقويم الإيجابي لهيأة العقيد وسلوكه"². فالسارد يبدو قريباً جداً من شخصية العقيد سلطاني وعلى مسافة قصيرة منه في قوله: "تعوّد على الرّد بهذه الجملة كلّما تعذّر عليه إيجاد تفسير معقول لمسألة معيّنة"، وكأنّه شخص يعرفه حق المعرفة يشاركه تفاصيل يومه، يدرك متى يقول "الله يهدي ما خلق"، في استدعاء للقارئ للثقة بهذه الشخصية والإيمان بتوجهها الذي تبثّه داخل الرواية، ومن جهة أخرى حمّله على التعاطف معها كونها شخصية مغلوب على أمرها لا حيلة لها أمام صوت السلطة القامع.

الذي لخصه العقيد في قوله "زيد يا بوزيد" في إشارة الى الفساد المتفشى جراء السياسات السلطوية القامعة التي تناحرت على تحقيق الثورة، وتركت الشعب يتخبط في براثن الفقر والظلم وهو ما عبر عنه "العقيد" في مقارنته لحالة قطاع الصحة العمومية في الجزائر الذي لم يسلم من هذه السياسات قائلاً: "ركن العقيد سيّارته أمام

¹ -مجموعة من المؤلفين، نظرية السرد من وجهة النظر إلى التبئير، ص47.

² - أنظر، محمد نجيب العمامي، تحليل الخطاب السردى (وجهة النظر والبعد الحجاجي)، ص71.

العيادة، وبدت له حديثة البناء، في السنوات الأخيرة تكاثرت العيادات الخاصة كالأرناب، فيما توشك أغلب المستشفيات العمومية على الإنهيار، خيرة الأطباء الأخصائيين هاجروا إلى فرنسا وكندا، والبقية تنتظر الفرصة للرحيل. المعدّات عفا عليها الزمن، أحيانا لا توجد أسرة، والمرضى المساكين يفترشون الأرضية. تحسّر على أيام الطبّ المجاني، ففي السّتينيات والسبعينيات والثمانينيات كان قسطا لا بأس به من واردات البترول يصرف لتلبية حاجات الشعب، أمّا اليوم، فكل واحد يتوكّل على ذراعه فقط، وحتوت يأكل حتوت، وصغير الجهد يموت.¹

رسم لنا هذا المونولوج خطابا انهزاميا متحسّرا على الوضعية المزرية للشعب الجزائري، التي تسوء يوما بعد يوم في ظلّ السياسات السلطوية التي تفرض عليه ضرائب وإتاوات ترهقه، وترغمه على التطلع إلى العيش الرغيد خارج حدود البحر الأبيض المتوسط، وهو ما يؤكده "صوت" العقيد في مجموعة من التساؤلات عبرت عن هموم تشغله في الحوار الذي جمعه بصهر "ميلود صبري" الملقب ببذرو بوزار الذي عدد محاسن وأخلاق المجاهد المغدور قائلا:

"أكّد أنه تعرّف إليه في منتصف الثمانينيات، ولم يفترقا بعدها أبدا، إنّه في مقام والده أو أكثر. وصف الفقيد بأنه بطل من أبطال الثورة التحريرية، وأحد رموزها البارزين، أفنى شبابه من أجل أن تتمع الجزائر بالحرية والهناء، بعد الاستقلال شمّر على ساعديه من أجل بناء الجزائر.

بناء الجزائر أو هدمها؟ كان العقيد على وشك طرح هذا السؤال، ولكنّه امتنع رغم أن لديه مائة ألف من الانتقادات والتحفظات فيما قاله بوزار. كلمة "انتقادات" ليست في محلّها، ربّما الأفضل استعمال كلمة تساؤلات، نعم، مجرد تساؤلات. مثلا، هل الجزائريون كانوا أو مازالوا سعداء بالعيش في الجزائر المستقلّة؟ لماذا يحلم أغلبية

¹ - عمارة لخص، رواية طير الليل، ص82.

الشباب بالهجرة والمخاطرة بحيواتهم في قوارب الموت لبلوغ ضفة المتوسط الشمالية؟ لم يشأ الدخول في نقاش طويل، المقام لا يسمح ولديه أولويات أخرى، والوقت ضيق جداً¹.

فسرت هذه التساؤلات وجهة نظر "العقيد" العليم بخبايا السلطة، وبالقمع المطبق على الشعب بشتى أنواعه سواء كان مادياً أو معنوياً، الذي أدى إلى استفحال ظاهرة الهجرة غير الشرعية، في طرح رمزي لاستحالة تحقيق التغيير السياسي، والتحرر الذي عبّر عنه صوته الخافت داخل هذا الحوار الداخلي.

كما يفصح تدخل السارد "التفوق المعرفي للراوي وعلمه المسبق بمآل الأحداث، ومعرفته التامة بحاضرها وماضيها وتعدد مواطن تدخّله بالتعليق والتقويم تكشف مجتمعة أنّ استقلالية الشخصية نسبية، وأنها مرتبطة بالخطة العامة للقصة. وهي تبين كذلك ما بين وجهتي نظر الشخصية والراوي من اختلاف وتكامل.² هو التكامل الذي أبرزه تدخل السارد في قوله: "بناء الجزائر أو هدمها؟... لم يشأ الدخول في نقاش طويل، المقام لا يسمح ولديه أولويات أخرى، والوقت ضيق جداً"، الذي يرمز إلى تبني السارد وجهة نظر "العقيد سلطاني" في نظرتة الدونية والمقيدة لشخصية الخائن "ميلود صبري".

ومن مظاهر الفساد داخل المجتمع الجزائري هو قضية الكوكابين التي شكلت فضيحة من العيار الثقيل، أدت إلى تحية وإقالة العديد من المسؤولين، وشغلت الرأي العام الجزائري لحقبة طويلة من الزمن على مستوى الممارسة الاجتماعية، أمّا على مستوى الخطاب فعبر عنها "العقيد سلطاني" في حوار مع مساعده في قول السارد: "في تلك الأثناء، رنّ جواله، فردّ بتلقائية دون النظر إلى رقم المتصل.

¹ - عمارة لخص، رواية طير الليل، ص 85 و 86.

² - محمد نجيب العمامي، تحليل الخطاب السردى (وجهة النظر والبعد الحجاجي)، ص 75.

-عندى معلومات جديدة حول قضية الكوكابين، يا حضرات.

-زید یا بوزید!

خاض سمير في التفاصيل، إذ كشف أن طارق، أي ابن العميد بلقاسمي، عضو في عصابة متشابكة، تتألف أساساً من أبناء إطارات سامية في الجيش والدرك والأمن ومؤسسات الدولة وعالم الأعمال.

-أين يوجد طارق الآن؟

-غادر مطار وهران قبل ثلاث ساعات باتجاه برشلونة.

-وسيعود إلى الوطن عندما تهدأ العاصفة.

-هذا هو السيناريو، يا حضرات.

أنهى العقيد المكاملة بشيء من التشاؤم وهو يفكر في أمر أولاد القيادة، لابد من معجزة كي يرى هؤلاء الفاسدين وراء القضبان. رنّ جواله من جديد، فألقى نظرة سريعة على رقم المتصل، إنه العميد بلقاسمي.¹

حمل الحوار الداخلي "للعقيد سلطاني" خطاباً تشاؤمياً يعكس الواقع الذي يعيشه كونه مسؤولاً في جهاز الأمن، لكنّه لا يستطيع إلقاء القبض على ابن عميد الشرطة الذي يعمل معه في خلية "مكافحة الإرهاب، ما لم تصدر الإدانة من "جماعة الفوق"، التي تفضل سيناريو التكتّم والتستر في التعامل مع هكذا نوع من القضايا الذي يسيء لها ولمسمعتها الوطنية والدولية، بالرغم من إحداث هذه القضية لزلزال في البلد حيث أنهت رئاسة الجمهورية مهامّ العديد من الجنرالات مثل المدير العامّ للأمن الوطني، ومدير الدرك وقادة بعض النواحي العسكرية ومسؤولين كبار في وزارة الدفاع.

¹ -عمارة لخصوص، رواية طير الليل، ص 241 و 242.

* يستعمل العميد بلقاسمي مصطلح "جماعة الفوق" للإشارة إلى السلطة، فهل يقصد أركان الجيش أم وزارة الدفاع أم المخابرات أم الرئاسة؟...إنّها السلطة القمعية مهما كان شكلها.

وهو الموقف الذي يسانده السارد أثناء تدخله قائلاً "أنهى العقيد المكالمة بشيء من التشاؤم وهو يفكر في أمر أولاد القيادة، لابد من معجزة كي يرى هؤلاء الفاسدين وراء القضبان"، ما يجعل السارد متبنياً لنفس وجهة نظر العقيد حيث "أن كل وجهة نظر مساندة، ومهما كانت درجة (عمقها)، تحوّل، مؤقتاً، الشخصية التي يكشف عن وعيها إلى سارد"¹. وهو الوعي الجامع بين وجهتي نظر (العقيد والسارد) الراض لجميع أشكال استعمار ما بعد الاستعمار، والمندد بحجم الأذى الذي يلحقه الخونة الأوفياء للاستعمار وللأيادي الخفية التي تحركهم، ودورها الرئيس في نشر الفساد داخل المجتمع الجزائري.

ومن بين أصوات المعارضة نجد صوت المحامي "إدريس طالبي" الذي يعبر عن امتعاضه الشديد من الرئيس "هوارى بومدين" الذي غير اسمه ليحظى بتقديس الشعب حيث: "قال إنه غير مرتاح للعقيد لسبب آخر يتعلّق باسمه الحركي: هوارى بومدين، العيب ليس في التخلّي عن اسمه الأصلي محمّد بوخروبة، ولكن جمعه لوليين صالحين، هما سيدي الهوارى وسيدي بومدين.

هل يريد أن يقدّسه الجزائريون؟ هل يسعى أن يكون حاكماً أم ولياً من أولياء الله الصالحين؟ هل يريد أن يجعل من الجزائر دولة -لا تزول بزوال الرجال كما يقول- أم زاوية للزوّار وطلاب البركة وكرامات الصالحين؟ لماذا الخلط بين التدين والسياسة؟ قال إدريس غاضباً"².

نجد أنفسنا هنا إزاء نموذج آخر من نماذج إساءة استعمال اللغة داخل الخطاب الذي ينم عن سلطة قمعية تطال العقول، وهو الجمع بين الدين والسياسة لـ "ترسيخ اللامساواة الاجتماعية عن طريق اللغة"³، التي تجعل الحاكم يتأله ويمتلك صفة قدسية

¹ - مجموعة من المؤلفين، نظرية السرد من وجهة النظر إلى التبئير، ص52.

² - عمارة لخص، رواية طير الليل، ص96 و97.

³ - عماد عبد اللطيف، تحليل الخطاب السياسي، ص137.

تميزه عن بقية المجتمع، وترسم له صورة الأب الروحي المجسّد في اسم من أسماء الأولياء الصالحين، مستغلّاً الدين لمخاطبة وعي الشعب الجزائري الذي يعلم لا محالة أن ثقافته في تلك الفترة محدودة لم تتجاوز التعليم في المساجد والزوايا. تتفق أصوات المعارضة على عدم استقلال الجزائر، في الحوار الذي جمع بين جيلين، جيل الثورة الذي مثله صوت المحامي "إدريس طالبي"^{*}، وجيل الاستقلال الذي مثله صوت "العقيد سلطاني أثناء تحقيقه في قضية اغتيال المجاهد "ميلود صبري" قائلا:

"-أنا مثلك، يا سي طالبي، أعمل في عطلة عيد الاستقلال.

-لديّ مشكلة مع هذا اليوم.

-لماذا؟

-الجزائر لم تستقل أبداً، ما تزال لحدّ اليوم مستعمرة، رحل المستعمرون الأجانب، وحلّ محلهم أبناء جلدتنا، يا حضرات.

-ذكّرتني بوالدي، الله يرحمه، كان يقول الكلام نفسه.

-هل كان والدك مجاهداً في الثورة؟

-نعم. اغتاله الارهابيون في التسعينيات"¹.

حمل هذا الحوار في بدايته تذكراً من يوم الاستقلال المزعوم الذي تحررت فيه الجزائر من الاستعمار الفرنسي، ليحل محله استعمار من طرف أبنائها ممن يحملون في دواخلهم نزعة سلطوية متجبرة تعكس بؤس استعمار ما بعد الاستعمار ما اصطلح عليه داخل الرواية من مستعمرة كلافل إلى مستعمرة طير الليل، أي الحركي الخائن "ميلود صبري" والأأيادي الخارجية التي تدعمه، كما حمل الحوار أيضاً صوت ناقما من

^{*} من نفس جيل "ميلود صبري" ينتميان إلى نفس الخلية الفدائية أيام الثورة، وبعد الاستقلال تزوج من "فريدة" أخت زوجته "زهرة مصباح".

¹ -عمارة لخص، رواية طير الليل، ص106

النظام المؤسساتى الجزائرى الذى يجعل الانسان يعمل حتى أثناء العطل الرسمية، ولو تعددت الأسباب المؤدية لهذا، فالعقيد "سلطانى" يعمل فى يوم عطلته لإملاءات سلطوية مفروضة من "جماعة فوق"، فى حين يعمل المحامى "إدريس طالبى" فى عيد الاستقلال إرضاء لضميره المهني ولخدمة الفقراء والمساكين، الذين يرون فيه باب الحق المفتوح يلجأون إليه أملا فى تحقيق العدالة، بين هذا وذاك يرسم لنا هذا الاختلاف التوافق بين صوت الحاضر والماضى فى الرؤية المقيتة لأشكال الاستعمار، ما يرسّخه بقية الحوار حيث:

"أخرج العقيد من جيب سترته دفترا، وقرأ له بعض الفقرات المقتطعة المأخوذة من تصريحاته." ميلود صبرى وأمثاله كالتفيليات التي ستقضى على الجزائر" 5 أوت 1992، ميلود صبرى وجماعته سيقودون البلاد إلى الهاوية 4 أبريل 1995، ميلود صبرى من أكبر المخربين فى البلد 21 ديسمبر 1999، ميلود صبرى أحد المسؤولين عى الخراب، 17 ماي 2003، ميلود صبرى لم يخدم الجزائر يوما واحدا، خدم مصالحه الخاصة على الدوام 15 جويلية 2009، ميلود صبرى هو رمز الشر 6 مارس 2012، ميلود صبرى مرتزق 3 فبراير 2014، ميلود صبرى زعيم مافيا 22 نوفمبر 2017.

استمع إدريس إلى الاستشهادات مسترخيا على أريكته، ثم تنهدّ تنهيدة طويلة

قائلا:

-ما قلت إلا الحق، ورّيت شاهد.

-لماذا كنت تكرهه، يا سي طالبى؟

-هل سمعت بشخص اسمه برنارد كلافل؟

-لا . من هو؟

-كان من أكبر منتجي الخمر في الغرب الجزائري، واشتغل ميلود بستانيا عنده.
فرّ كلافل قبيل الاستقلال، واستولى ميلود على فيلته.

-ماذا تقصد، ياسي طالبي؟

-انتقلنا من مستعمرة كلافل الى مستعمرة طير الليل، يا حضرات.

وقف المحامي ليخفف على نفسه التوتر، مشى حتّى النافذة، وفتحها، كان يشعر بالاختناق، فتنفس قليلا، اقترب من العقيد، وشدد على أن الفرق بينه وبين أشخاص أمثال ميلود صبري هو كالفرق بين المجاهد والمرتق، النوع الأول حارب الاستعمار حتّى يتحرّر وطنه، ثمّ عمل ولا زال يعمل، ليبني البلد، أما النوع الثاني، فاستغلّ الثورة لتحقيق الثروة، هؤلاء لم يهتموا يوما بمصلحة الجزائر. دمر ميلود صبري وأمثاله البلد، ويريدون مواصلة التدمير، لم يخف إدريس مشاعره، وتحدّث بكل صدق، إنّ البلد سترتاح بموته، وليت الموت يكمل جميله، ويحصد أرواح شركائه الأذال. لقد بلغت السكين العظم، ولا يمكن الصمت على هؤلاء المرتزقة الذين أخذوا مكان الوطنيين الشرفاء، المرتزقة هم خلايا سرطانية انتشرت في المجتمع، العلاج الوحيد هو بتر الأعضاء الموبوءة من جذورها بلا شفقة، لإنقاذ ما يمكن إنقاذه".¹

استمرت نبرة التذمر والسخط من الواقع السياسى الجزائرى في صوت "المحامي إدريس طالبي" الذي رأى أن القيام بالثورة التحريرية استغل من بعض المرتزقة أمثال "ميلود صبري" وغيره كثيرون الذين حققوا الثروة عبر الثورة، خدمة لمصالحهم الخاصة والشخصية ورضوخا لإغراءات المال والسلطة، دون أدنى شعور بالخيانة للوطن أو للشعب أو حتّى لأرواح الشهداء الذين ضحوا بالنفس والنفيس لتحرير البلاد، لكنهم لم يحزروا العباد من أنفسهم الخبيثة الأمارة بالسوء، التي دفعتهم إلى تدمير الجزائر

¹ - عمارة لخص، رواية طير الليل، ص108.

والاستمرار في تدميرها، واستنزاف ثرواتها لتنتقل الجزائر من مستعمرة كلال إلى مستعمرة طير الليل أي ميلود صبري وأمثاله، أو بالأحرى استعمار ما بعد الاستعمار. جميع هذه الأصوات الخافتة المسائلة للوضع الذي آلت إليه الجزائر بعد 1962، لخصّها الحوار الداخلي للعقيد "سلطاني" أثناء مغادرته لمكتب "المحامي" إدريس طالبي قائلاً "وهو يفكر في الكلام الذي دار بينهما، ما أكثر وجه الشبه بين المحامي طالبي والمرحوم والده. وفي طريقه إلى المكان الذي ركن فيه سيارته، جاب بنظره على البنايات القديمة والآيلة للسقوط، وراح يقارن بين هذا الحيّ الفقير والأحياء الراقية والفيلات الفاخرة التي زارها هذا الصباح. جزائر إدريس طالبي لا علاقة لها بجزائر ميلود صبري وزهرة مصباح ويوسف مصباح وبدر بوزار، لكلّ واحد جزائره"¹.

عكست هذه المفارقة التي عادة ما تستخدم في الرواية "إيضفاء طابع تهكمي، سواء على شخوص الرواية أو أحداثها أو الواقع الاجتماعي والسياسي الذي تصوره"². واقعا اجتماعيا بانسا أبرز الهوة الشاسعة بين صوت السلطة وصوت الشعب داخل المجتمع الجزائري خاصة، والبلاد العربية قاطبة التي شكلت الأنظمة المستبدّة فيها الصوت الأبرز والأقوى على الصعيدين الاجتماعي والسياسي، وهو ما عبّر عنه الخطاب السياسي داخل الرواية في تعريته لشخصية "ميلود صبري" الملقب بطير الليل، وأفعاله الدنيئة التي استباحّت جميع المحظورات لتحقيق الثروة والسلطة، حتّى وإنّ تعلق الأمر بفلذة كبده سعاد التي قتلها دون أدنى إحساس بالرأفة أو مشاعر الأبوة، فالمهمّ عنده هو الحفاظ على مكانته السلطوية ومصالحه السياسية وصورة المجاهد البار الذي خدم الجزائر قبل وبعد الثورة، أيّا كان الثمن.

كما ساهمت تدخلات السارد "ومواقفه وآراءه من الشخصيات والأحداث بقسط كبير في تجلية ذاتيته، ورسم صورته الاجتماعية والإيديولوجية وفي تأويل النصّ

¹ - عمارة لخص، رواية طير الليل، ص 111 و 112.

² - عماد عبد اللطيف، تحليل الخطاب السياسي، ص 307.

وفهمه"¹. وهو ما لخصته قصر المسافة بين وجهة نظر السارد ووجهة نظر "العقيد سلطاني" والتي تدين بشدة الاستعمار الجديد الذي أطاح بجزائر ما بعد الثورة، وجعلها تتجرع مرارات الخيانة والخذلان، ما انعكس على الواقع السياسى الجزائرى وأدى إلى تقهقره حقبة طويلة من الزمن جراء تناسل الخيانات الغادرة والعاصفة بأمن الجزائر وأمانها، وهو ما كرسته ضروب المسافة الطويلة بين وجهة نظر السارد ووجهة نظر الحركى "ميلود صبرى" كما سبق وأبرزنا.

استنتجنا من خلال تحليلنا للأصوات السياسية المتحاوره داخل الخطاب الروائى، صوتين بارزين، هما صوت السلطة السياسية المستبدة والرافضة لكل نوع من أنواع التغيير، التي استفادت من الثورة والإرهاب واصطادت في المياه العكرة لتحقيق المال والسلطة، في مقابل صوت التعبير الخافت الخاضع لأشكال القمع السلطوى والديكتاتورى المغلوب على أمره، إلا بعض المحاولات الباهتة بالتغيير التي لم ترق إلى مستوى القمع المسلط لإنعدام الوعى بجبروت الخصم الذي تحلم بتحتيته وبطغيانه الذي يتجاوز الوصف، ما جعل جميع هذه المحاولات تبوء بالفشل في الكثير من المواضع داخل الرواية.

جاءت الحوارات على اختلافاتها مؤكدة الخطاب السياسى الايديولوجى للرواية الحاملة لوجهات نظر التي تلعب "دورا في فهم النصّ وفي تجلية أهم أفكاره الأساسية، إنها ليست مجرد تقنية سردية، وإنما هي أداة من أدوات إنتاج المعنى في هذا النصّ"²، تتفاعل وتتباين وتتناقض معبرة عن المفارقة بين الكيفية التي تسير بها السلطة السياسية في البلاد أمورها، وهو ما كرسته خطابات سياسية داعمة مثلتها شخصيات قوية انتهائية ووصولية في الدولة أمثال "ميلود صبرى" و"بدرو بوزار" التي صدح صوتها مسيطرا ومهيما على بقية أصوات الرواية، مرسخة بذلك دور فعل القمع

¹-أنظر، محمد نجيب العمامي، تحليل الخطاب السردى (وجهة النظر والبعد الحجاجي)، ص74.

²-أنظر، محمد نجيب العمامي، تحليل الخطاب السردى (وجهة النظر والبعد الحجاجي)، ص76.

السلطوي وامتداده عبر أزمنة الرواية الممزوجة بالزمنين الماضي والحاضر، وهو مزج ليس هدفه التداخل بل الحلول، حيث يحلّ الماضي السحيق والماضي البعيد والماضي القريب في لحظة حاضرة¹. بغية استحضار الماضي ومساءلته والبحث وراء أسباب الهيمنة المطلقة على الشعوب، وآليات إرساء السلطة المضمّنة في الخطاب الايديولوجي السياسي، الذي عبّرت عنه وجهة نظر الخائن "ميلود صبري" في زمن الثورة وزمن الاستقلال، وسعيها الدؤوب لبثّ وعي مفاده أن جذور النظام السلطوي القامع عسيرة على الاقتلاع ويصعب اجتثاثها من الأعماق.

نخلص في نهاية هذا الجزء وقبل الانتقال إلى دراسة تتوع الأساليب اللغوية، ودورها في نقد الواقع السلطوي إلى أن توظيف الحوار بنوعيه الداخلي والخارجي من قبل الكاتب جاء خادما لمضمون الرواية السياسي على مستوى الممارسة الخطابية، وليوضح لنا وجهة نظر الشخصيات السلطوية في مقابل الشخصيات المعارضة المقاومة، حيث لا حظنا أن صوت السلطة تدرج عبر مستويات خطابية تتوعت بين الحوار الداخلي والخارجي، وعبّرت عن قوتها وطغيانها وطريقتها السياسية في تحصيل مراميها السلطوية، في مقابل الصوت الخافت للمعارضة الذي لم يتجاوز الحوار الداخلي المونولوج للشخصيات الرافضة لتجاوزات السلطة إلّا بعض المحاولات فيما يتعلق بالمحامي "إدريس طالبي" الذي لم يكتف بالمعارضة الكلامية للنظام الجديد، وانضم إلى مجموعة سرّية نضالية، أسست لمناهضة انقلاب بومدين، لتكتشف أجهزة الأمن أمرهم ويتعرض "إدريس" إثرها إلى التعذيب والسجن، و"عبّاس بادي" الذي عانى من الارتحال القسري، وألنفي الداخلي إلى صحراء الجزائر لاتهامه بخيانة رفاق الثورة من قبل الخائن نفسه "ميلود صبري"، والذي لم يستطع مواجهته على طول أحداث الرواية، أو حتّى الانتقام منه بعد مرور 60 سنة من الاستقلال، لتأتي زوجته زهرة

¹ -عماد عبد اللطيف، تحليل الخطاب السياسي، ص309.

مصباح التى اسمها الحركى دولوروس* وتقوم بقتله والانتقام منه شرّ انتقام على فراش الخيانة فى عيد الاستقلال يوم 05 جويلية 2018، فى رمزية توحى ضمنا باستقلال جزئى قد يعمّ الجزائر بعد قتل الخائن الطاغية الذى دمه حلال على حد قولها ، ليتمّ القضاء على "طير الليل"، لكن السؤال يبقّى مطروحا هل القضاء على خفاش واحد يكفى للتغيير ونحن نعلم كثرتهم فى عالم السياسة والمال... ربما قتل الخائن هو ما يجب القيام به وتصفية العملاء كي تعود الجزائر إلى استقلالها الموعود.

هذه الطريقة فى توزيع الأصوات وفى التعبير على مستوى الممارسة الخطابية لديها ما يفسرها على مستوى الممارسة الاجتماعية، وفى الواقع الجزائرى والعربى، إذ ما نلاحظه فى الواقع العربى هو طغيان الأنظمة المستبدّة أيّا كان شكلها، على جميع المستويات وانتشار الفساد بالإضافة إلى القمع السلطوى بجميع أساليبه للحفاظ على السلطة، فى مقابل شعب محبط يتجرع توالى الخيبات فى أمل تحقيق التغيير السياسى على غرار ما حدث فى سوريا والعراق وفلسطين والجزائر... الخ، فى حين يعلو صوت السلطة، يظلّ صوت الشعب خافتا كصوت المحامى إدريس طالبي وعباس بادي، الذى ظلّ حبيسا للحوار الداخلى حينما يتعلق الأمر بالسياسة، والأمر نفسه فى صوت عقيد الشرطة "سلطاني" الذى وبالرغم من إدراكه لهذا الواقع إلا أنّ حلمه بالتغيير لم يتجاوز حدود التفكير فيه، لاعتبارات سلطوية ومؤسّساتية تحول دونما الإدلاء بهذه الأفكار صراحة، جراء انتمائيه لخلية مكافحة الإرهاب من جهة، ورهاب سنوات الجمر التى لازال وشم رصاصتها على فخذيه من جهة أخرى.

*دولوروس هو الاسم الحركى لفدائية جزائرية، اسمها زهرة مصباح، وهى طالبة فى ثانوية للبنات فى سيدي الهوارى، من براها ولا يعرفها، يعتقد أنها أوروبية فعلا: تقلّد الفتيات الأوروبيات تقليدا دقيقا فى الكلام والملبس. لم تكن بحاجة إلى إشهار أية وثيقة ثبوتية حتّى يقتنع الناس أنها أوروبية خاصة إتقانها الإسبانية، كانت حبيبة "عباس بادي" أيام الثورة لكن "ميلود صبرى" حال دون زواجهما جراء تهمة الخيانة التى ألصقتها بـ "عباس بادي"، والتى افتعلها لعشقه الشديد لزهرة والتى تتزوج به بعد الاستقلال.

5. 2/ التعدّد اللغوي* وبلاغة نقد السلطة السياسية:

ساهم تحليل العنصرين السابقين البعد النصي والممارسة الخطابية في الكشف عن كنه المضامين الخفية للرواية، والتي قدمت نقدا لاذعا للسلطة السياسية العميلة ومنابت الأنظمة الفاسدة، "عكست الطابع التحليلي للرواية الذي أضافته تبصرات المؤلف بشأن الواقع السياسي العربي، وتقديمه لنقد عميق للزعامات السياسية، التي تجر أوطانها إلى براثن الحروب الأهلية، خاصة تلك التي تتخذ من الدين مطية لتحقيق مطامحها الشخصية الخالصة"¹.

وهو ما نروم تأكيده في مواصلة تحليلنا للممارسة الخطابية عبر دراسة التتويجات اللغوية، واستحضاراتها داخل نص الرواية، وفق رؤية "باختين" Bakhtine التي ترى أن المتكلم في الرواية ليس كائنا فرديا "ولكنّه اجتماعي، فخطابه عبارة عن لغة اجتماعية بطبعها وليست لهجة فردية، فبما أنّ المتكلم ليس واحدا في الرواية فهذا ما يصنع تعدّدها اللساني، ولهذا عمل باختين على البحث لا عن صورة الإنسان الذي يتكلم بل عن صورة لغته"².

سنقوم في هذا الجزء بالبحث في صورة لغة رواية "طير الليل" كونها ممارسة اجتماعية تفضي إلى العديد من الحقائق والأدلة الدامغة، التي تدين المؤامرة السياسية وصناعة السلطة القمعية في جزائر قبل وما بعد الاستقلال، وتدعو بشدة الى الثورة والتحرر، وهو ما مثلته التضمينات المبطنة لهذه التتويجات اللغوية، التي نقرأها وفقا لما جاء به باختين في فصل "التعدد اللغوي" في الرواية، ضمن كتابه الخطاب

*للمزيد من التفصيل أنظر الفصل الأول، مبحث التعدد اللغوي في التنظير الباختياني.

¹-أنظر، عماد عبد اللطيف، تحليل الخطاب السياسي، ص302.

²-أنظر، حياة أم السعد، تداولية الخطاب الروائي، ص283.

الروائي*، والتي تفيد في تحرّي نوايا الكاتب التي عبّر عنها بطريقة بارودية أو ساخرة، أو حتى من خلال الأجناس المتخللة كما سنرى لاحقاً.

5. 2. 1/ الباروديا* الساخرة كأسلوب مقاومة:

احتقت رواية "طير الليل" بالكثير من الخطابات البارودية الساخرة التي هي: "نوع أساسي من الأسلبة يقوم على عدم توافق اللّغة المشخصة مع مقاصد اللغة المشخصة، فتقاوم اللغة الأولى الثانية وتلجأ إلى فضحها وتحطيمها، لكن يشترط في الأسلبة البارودية ألا يكون تحطيم لغة الآخرين بسيطاً وسطحياً، بل عليها (أن تعيد خلق لغة بارودية وكأنّها كلّ جوهري مالك لمنطقه الداخلي وكاشف لعالم فريد مرتبط ارتباطاً وثيقاً باللّغة التي بوشرت عليها"¹. ويرى "تزفتان تودوروف" في كتابه "ميخائيل باختين والمبدأ الحوارى" أن "في الأسلبة Stylization كما في الباروديا Parody... يستخدم المؤلف خطاب الآخر ليمنح توجيهاته الخاصة (أسلوباً) تعبيرياً"².

حرى بنا أن نشير "إلى أن ظواهر من قبيل الباروديا، الكاريكاتير، تكشيرة الوجه، التصنع، التقليد المضحك ليست سوى مشتقات من الضحك"³. الذي يعدّ من أقوى

* للمزيد حول طرائق استحضار خطاب الآخر داخل الرواية، أنظر الفصل الأول.

* إن الباروديا القروسطية الأكثر قدماً بالخصوص...تستهدف أقل من أي شخص المظاهر السلبية، بعض عيوب الشعيرة، والتنظيم الكنسي، والعلم المدرسي، التي كانت تريد الاستخفاف منها والقضاء عليها، فبالنسبة لكتاب الباروديا، يعتبر كلّ شيء هزلياً، دون استثناء، فالضحك شمولي، مثله مثل الجد، إنّهُ مسدّد نحو مجموع الكون، نحو التاريخ، المجتمع برمته، ونحو تصور العالم، إنّهُ حقيقة تقال عن العالم، حقيقة تمتد إلى كلّ شيء، ولا شيء يفلت منها، إنّهُ بنوع ما مظهر احتفال العالم بأكمله، في كلّ لحظاته، ما يشبه كشفاً ثانياً للعالم بواسطة اللّهُو والضحك".أنظر، ميخائيل باختين، أعمال فرانسوا رابليه والثقافة الشعبية في العصر الوسيط وإبان عصر النهضة، ترجمة وتقديم: شكير نصر الدين، منشورات الجمل، بيروت، ط1، 2015، ص125.

¹-ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، ص 18.

²-تزفتان تودوروف، ميخائيل باختين : المبدأ الحوارى، ترجمة:فخري صالح، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، 1996، ص139.

³-ميخائيل باختين، أعمال فرانسوا رابليه والثقافة الشعبية في العصر الوسيط وإبان عصر النهضة، ص62.

الوسائل " لمواجهة كلّ إهانات العالم والقدر، إن أقوى عدوّ يرتعب أمام هذا القناع الساخر، والشؤم بنفسه لسوف يتراجع أمامي إن تجرأت على السخرية منه!"¹ بناء عليه نرى أن الأسلبة والباروديا المشتقة من الضحك هي أساليب تعبيرية يستحضر من خلالها السارد خطابات الآخرين، بطريقة حكي ساخرة تحمل في باطنها العديد من المقاصد والدلالات، قد لا يستطيع السارد البوح بها مباشرة داخل نصه، فيلجأ إلى السخرية ليعبر عن إيديولوجية معينة أو وجهة نظره مخاطبا الوعي الجمعي للمجتمع، حيث أن خطاب الآخر "لا يتلقى أي تعزيز مادي ومع ذلك فإنه يستحضر: وذلك لأنّه موجود دائما في الذاكرة الجمعية لمجموعة اجتماعية بعينها: كما في حالة الباروديا والأسلبة"².

تنوعت أساليب السخرية داخل رواية طير الليل بداية من الغلاف الذي حفل برسومات لأقنعة ووجوه باسمه وماكرة، كما طغت في أقوال الشخصيات وتدخلات السارد في العديد من المرات، وتجلّت في الكثير من المواطن داخل الرواية، خاصة حينما يتعلق الأمر بالخطابات السياسية والطريقة التي ينتهجها الزعماء السياسيين والعملاء ورؤساء الأحزاب وأصحاب الشأن لتحقيق مآربهم السلطوية.

هذا الخطاب السياسي الذي يسخر منه "عمارة لخصوص" يمثل أسلوبا مقاوما لهذه السياسات عبر نقدها وفضحها، وبثّ الوعي بالطريقة التي تستب بها السلطة داخل المجتمع وتستقر، موجهة دعوة "إلى الثورة من غير هتافات عدائية ومن غير تنظيمات يدان أصحابها، فكأنّها تهىء النفوس للثورة على الظلم والانحراف، وتفتح العيون على النقائص التي يحاول أصحابها أن يبعدها عن مواطن الضوء"³. داعية إلى الثورة والانتفاضة لتحقيق التغير الذي يبدو مستحيلا بين دفتي الرواية.

¹ - ميخائيل باختين، أعمال فرانسوا رابليه والثقافة الشعبية في العصر الوسيط وإبان عصر النهضة، ص 60.

² - ترفيتان تودوروف، ميخائيل باختين : المبدأ الحوارى، ص 142.

³ - حامد عبده الهوّال، السخرية في أدب المازني، الهيئة المصرية العامة للكتاب مصر، دط، 1982، ص 35.

تجلت أولى صور السخرية في الحوار الذي جمع بين "العقيد سلطاني" و"العميد بلقاسمي" أو "سَي المعلم" كما يُلقب في العديد من المواضع داخل الرواية، والذي يفوق العقيد سلطة، كما أنهما يشتغلان معا في خلية مكافحة الإرهاب، حيث يستشيط "العقيد" غضبا من العميد لاتصاله به على منزل عشيقته "مريومة" ف: "كانت ملامح العقيد تغطّي بركانا عى وشك الانفجار، لجأ المعلم إلى التهذئة معترفا أنّه أخضع مريومة للمراقبة، وأجرى تحريات عنها عندما أدرك أن علاقته بها ليست عابرة، ودامت أكثر من المطلوب. أكد له أنّه لم يقصد التجسس والتدخل في حياته الشخصية، وإنّما لحمايته وتحسبا لأي طارئ. قال له بنبرة مفعمة بالنقد:

يبدو لي أنك تعيش في السويد وليس في الجزائر. لدينا تقاليد ينبغي مراعاتها يا سَي سلطاني"¹.

إن التقاليد التي تحدث عنها العميد في هذا الخطاب الساخر ليست متعلقة بالحالة الاجتماعية للعقيد الذي يمارس علاقة خارج أطر الزواج الشرعي، إنما هي تقاليد سلطوية قمعية يفرضها الجهاز الأمني (المؤسساتي) اللذان ينتميان إليه، والتي تقتضي الإحاطة بجميع التفاصيل الدقيقة للإطارات العاملة في كنفها، تحسبا لأي انقلابات أو ردود فعل تمس بهيبتها أو خيانات تشتت قوتها، وهو ما عبر عنه العميد بمقولة يبدو لي أنك تعيش في السويد وليس في الجزائر، في نبذة استهزائية تقضي إلى القول أنت لا تعيش في السويد كل شيء يسري وفق القانون الذي يحترم خصوصية الحيوان ناهيك عن الأشخاص، أنت تعيش في الجزائر لماذا تستهجن طريقتي في التجسس عليك، في الجزائر كلّ شيء مسموح المهمّ هو الحفاظ على السلطة.

لا تختلف وجهة نظر العميد "بلقاسمي" كثيرا عن رؤية المجاهد "ميلود صبري" في الأساليب السلطوية القمعية التي تنتهجها السلطة للمحافظة على كيائها، وهو ما

¹ -عمارة لخصوص، طير الليل، ص23.

رصدناه في الخطاب التهكمى الذي وجهه "ميلود صبرى" لوالده بعد استيلائه على "فيلا" المستعمر كلافل، الذي كان يشتغل عنده بستانيا بطريقة غير شرعية حيث يقول السارد "علم ميلود أن ربّ عمله السابق برنارد كلافل قد سافر إلى باريس برفقة أسرته، وسيعودون عندما تهدأ الأوضاع، ويستتبّ الأمن، فخطرت على باله فكرة الاستيلاء على الفيلاّ التي عمل فيها بستانيا، وتمّ له ذلك بسهولة. اقتحمها. ذات صباح باكر، ونام ليلته الأولى في أجمل غرفة فيها، ولم يصدّق نفسه أن الحلم قد صار حقيقة. ثمّ وظّف تجربته في الاستخبارات، إذ روج إشاعات حول تورّط كلافل في منظّمة الجيش السّرّي. كان ميلود متأكّداً أنه لن يعود إلى وهران أبداً، وبذلك صارت الفيلاّ ملكه، لا ينازعه فيها أحد، لم يكن والده راضياً، وقال له غاضباً:

-الاعتداء على أملاك الناس حرام.

-ولماذا قمنا بالثورة إذا؟ حتّى تبقى الأمور على حالها؟ ردّ ميلود بشيء من التّهمك.

-لم يصف والده كلمة واحدة¹.

حمل ردّ ميلود صبرى على والده نبرة استخفاف واستحقار من الطريقة السخيفة التي يفكر بها والده، ومن منطق الساذج في تبصّر الأمور، وكأنّ لسانه يقول هل قمنا بالثورة لكي نبقى فقراء، ولا نحقق ثروة مقابل تضحياتنا أثناء الثورة، حتّى وإن استدعى ذلك سطوا غير مشروع وبطرائق ملتوية، على الأملاك العامة للشعب والدولة، المهم عند أمثال المجاهد "ميلود صبرى" العميل والخائن هو المال والسلطة ولا يهمّ الآليات المتبعة للوصول إليهما، وهي الآليات نفسها التي جعلت الجزائر تتخبط في مستنقع الخيانات جراء الأيادي العميلة البشعة وسياساتها الخبيثة في الإطاحة بأمن الجزائر وأمانها.

¹-عمارة لخصوص، طير الليل، ص70.

ومن مواضع السخرية ما عبّر عنه صديق العقيد في تصويره للطريقة الساذجة التي يفكر بها الشعب الجزائري حيث يقول السارد "أسماء الشوارع والساحات في وهران في حالة فوضى عارمة، أحيانا تعثر على شارع يحمل اسمين أو ثلاثة. لا يزال الناس يفضلون استعمال الأسماء التي تعود إلى الحقبة الاستعمارية، علما بأن بعض هذه الأسماء القديمة المستعملة تعود إلى جنرالات، أبادوا الجزائريين مثل الجنرال فيرادو الذي لا يزال سگان حيّ غامبيطا* يفضلونه على اسم الشهيد النقيب حمري*.

شارعنا مسكين، صار نقيبا بعد أن كان جنرالا! هكذا علّق صديق له، ما يزال يسكن في هذا الشارع.¹

صوّر هذا التعليق طريقة تشكيل الوعي الجزائري الذي يبهره الآخر أيّا كانت صفته حتّى ولو كان قاتلا، في حين يعمل جاهدا على احتقار أناه حتّى ولو كان شهيدا ضحى بالنفس والنفيس لتحقيق الاستقلال، المهمّ عند الشعب أولا هو: الأعلى رتبة في معمار السلطة لا تهم الطريقة أو الصفة. وثانيا: هو معيار القوة الذي جبل عليه الشعب الجزائري في أيام الثورة من قبل الاستعمار وبعد الاستقلال من قبل استعمار أبناء الوطن العملاء أو الحركى، حيث يتمّ "استعمال اللّقب أداة لإعادة تشكيل وعي الآخرين بالتاريخ"²، وهو ما يجسّد أسلوبا قمعيا في طريقة إدراك الشعوب لحقائق الأمور وتوجيهها، وحملها على الثناء والطاعة للأعلى سلطة.

هذا الولاء والثناء للأعلى سلطة رسمه السارد في قوله أن الشعب الجزائري مع الواقف، وهو لا يمثل استثناء عن بقية الشعوب في العالم، التي تبجل المنتصرين

* Gambetta تسمية قديمة لحي من أحياء وهران الذي يلقب حاليا بحي الصديقية.

* تسمية حديثة لحي من أحياء وهران العريقة الذي كان يسمى قديما لامير Lamur، مديوني Madioni، ليوناي Lyautey، سان هوبيرت Saint-Hubert حسب تقسيم الدوائر الحضرية، حيث تقسم وهران إلى 12 دائرة تسمى أيضا "مناطق حضرية"،

¹ -عمارة لخص، رواية طير الليل، ص81.

² -عماد عبد اللطيف، تحليل الخطاب السياسي، ص135

وتحتقر المنهزمين حيث "استمع ميلود ذات يوم في أحد مقاهي الطحطاحة إلى وصف ظريف لأحد الفلاحين: إن الشعب كالمرأة التي تعرف أنها بطبيعتها ضعيفة، وتحتاج دائما إلى رجل صنيدي يحميها، يبحث الشعب بالدرجة الأولى عن قائد قوي يحتمي تحت جناحه. أعجبه هذا التشبيه كثيرا، فدفعت ثمن المشروبات لصاحبة والجالسين معه في الطاولة نفسها. وعلق ميلود بالقول إن تشبيه الشعب بالمرأة لا يختلف كثيرا عن التشبيه الذي أبدعه: الشعب كالحصان، يجب أن تروّضه أولا، ثم تركبه وتقوده إلى حيث شئت. عندئذ قال أحدهم بحماس:

شعبنا كالحمار... يمشي بالعصى. ضحكوا جميعا"¹.

مثل الضحك عبر هذا الخطاب الساخر "قيمة تصور للعالم عميقة، لأنّه أحد الأشكال الرئيسية التي من خلالها، تتجلى الحقيقة حول العالم في مجمله، حول التاريخ، حول الإنسان، إنه وجهة نظر خاصة وشمولية في العالم"²، كما ألمع هذا الخطاب الطريقة التي تدرك بها الأمور عند الشعب، والتي تستقر في الأذهان لتصبح الطبيعي والمألوف، في حين تعتمد أسلوب السخرية هاهنا كونه عاكسا للأوضاع الاجتماعية والسياسية "أن يوقع بعض الأشخاص أو الجماعات أو بعض الأنظمة السياسية والاجتماعية في حرج مقصود، ولكن ليدفع بذلك حرجا أكبر عن الجماهير ويردّ خطرا قائما على المجتمع أو متوقعا، ممّا يعتبر عملا إنسانيا شريفا وساميا، ويمثل بذلك الرأي العام للأمة في حدود ما تسمح به ظروف مرحلة من مراحل النضال الوطني"³.

وهو ما جسده المفارقة الساخرة بين نظرة الشعب إلى السلطة ونظرة السلطة إلى الشعب، التي مثلها احتقار "ميلود صبري" للمرأة والسخرية منها ومن الشعب، وتشبيههم بالحيوان المروّض الذي يقوده السائس الى أينما يشاء، وهو ما وافقه عليه أحد

¹ -عمارة لخصوص، رواية طير الليل، ص 94.

² - ميخائيل باختين، أعمال فرانسوا رابليه والثقافة الشعبية في العصر الوسيط وإبان عصر النهضة، ص 95 و 96.

³ -حامد عبده الهوّال، السخرية في أدب المازني، ص 8.

المواطنين في قوله (شعبنا كالحمار)، واستحسنه "ميلود صبري" وزاده ثقة وسلطة في احتقار الشعب وقمعه وهو الأمر نفسه، الذي حملته الخطاب الساخر الذي دار بينه وبين المحامي "إدريس طالبي" حيث يقول:

"-أنت لا تقفه في السياسة شيئاً، يا خويا إدريس.

-البركة فيك، وفي أمثالك، يا ميلود.

-ماذا يريد المعارضون البارزون، خاصة من اليسار مثل محمد بوضياف وحسين آيت أحمد؟ ألا يريدون نظاماً اشتراكياً؟ كيف يمكن لأحد أن يزايد على اشتراكية بومدين الذي أقرّ مجانية التعليم والصحة، وأمم المحروقات؟ قال ميلود مبتسماً ومتهمكاً¹.

يسخر في هذا الخطاب المعارض السياسي من المؤيد للسلطة في قوله "البركة فيك" أي أنك العليم بخبايا السياسية والتواءاتها لتحقيق مطامحها القمعية، ليسخر بعدها صاحب السلطة من اليسار الذي يستهجن سياسة "الهواري بومدين" الرشيدة في الحكم. بين المضمونين الساخرين تبرز لنا صورة مقبلة للواقع السياسي المتأزم في الجزائر في ظل من يحملون لواء الجهاد ظاهراً لكنهم في قراراتهم يرفضون أي محاولة للتغيير التي تهدد مصالحهم وكيانهم ويطعنون الجزائر في ظهرها، إلى جانب تكريس جهودهم الحثيثة لترسيخ اللامساواة الاجتماعية وفق ما يخدم مطامحهم السلطوية.

يسخر "عمارة لخص" أيضاً من الخطاب الديني، لكنّها سخريّة لا تمس بقداسة الحفظ المكنون إنما تعنى بالتهكم على الأشخاص الذين يتخذون من الدين مطية لتحقيق مآربهم السياسية والسلطوية، ويستغلون النص القرآني بطريقة شنيعة لا تمت له بأي صلة قريبة أو بعيدة، أين يقول السارد: "أكدّ النقيب سمير أن بدرو نموذج لفهم ظاهرة الإسلاميين في هذا البلد: كان متمسكاً باسمه الأصلي، أي بدر الدين، ثم بدأ يتساهل، بل يشجّع الذين ينادونه باسم الدلع، أي بدرو. كما شهدت لحيته كاسمه عدّة

¹-عمارة لخص، رواية طير الليل، ص 117 و 118.

مراحل بمرور السنين، في البداية كانت كثّة طويلة، ت غطّي ملامح وجهه، ثم أخذ يقلص مساحتها حتّى صارت صغيرة دائرية، تحيط بشفتيه فقط¹.

تقدم لنا السخرية هنا صورة نمطية عن الشخصية المتأسلمة، في نموذج "بدر الدين بوزار" الذي كان يدعي الإسلام في العديد من المواقف داخل الرواية، لكن سرعان ما تراجع عن أفكاره الدينية ومعتقداته، رضوخا لإغراءات السلطة وإملاءاتها التي أرغمته على التنازل عن اسمه أولا ليلقب "بدر" اسم الدلع، بدلا من "بدر الدين"، وثانيا عن لحيته الكثّة الكثيفة التي كانت تغطي ملامحه، ليقوم بتقصيرها تدريجيا حتّى لا تتجاوز مساحتها الدائرة المحيطة بشفتيه.

هذه المساحة التي قلّصت تقزم شخصية بدر و تجعلها محل الاستهزاء والسخرية، حيث يسخر العقيد "سلطاني" من تلقيبه بـ "الحاج" من قبل جيرانه قائلا: "بل حاول أن يأخذ منه معلومات حول جاره. قال الزميل أن الحاج بدر لا يأتي كثيرا إلى هذه الشقة، وهو نعم الجار، أغدق عليه أجمل الأوصاف حتّى ظنّ العقيد أن بدر بوزار وليّ من أولياء الله الصالحين. الحاج بدر! هل حجّ الى بيت الله حقّا؟ لا شكّ في ذلك. قال في نفسه ماذا سيكون ردّ فعل الجار لو رأى ماذا يفعل بدر في الانترنت، هل سيستمرّ بمناداته بالحاج؟"².

استهتر العقيد من الأوصاف التي أغدقها الجار حول الخصال الحميدة للحاج "بدر" حتّى فكر أنّه يصف وليا صالحا، لكن هل سيستمر في مدحه إذا علم نوع الأفلام الخليعة التي يذم "الحاج" بدر على حد قوله مشاهدتها، ناهيك عن جرائمه من قتل ورشوة وصفقات مشبوهة لتبييض الأموال، هذا الأسلوب في التعمية الذي ينتهجه ذوو السلطة مستغلين المظهر الديني لتمير سمومهم الفكرية والفعلية، وليلغوا

¹- عمارة لخصوص، رواية طير الليل، ص159.

²- المصدر نفسه، ص183.

عن أنفسهم أي شبهة قد تمسّ روحهم الطاهرة الورعة التي سخرت لخدمة البلاد والعباد حسب ما يروجون له.

يسخر العقيد مرة أخرى من الإسلاميين الرافعين لشعار "لا ميثاق لا دستور قال الله وقال الرسول" في نهاية الثمانينيات ومطلع التسعينيات، ومن ثقتهم الزائدة بأفكارهم النافهة وطرائقهم المعتوهة في التعامل مع القضايا الاقتصادية والاجتماعية، حيث "كان يجادل قائلاً إن القرآن يحتاج إلى تفاسير وشروحات، فلماذا التبسيط والسطحية في الرؤية للأمور؟ ذات مرة حاول أحدهم إقناعه أن الإسلام هو الحلّ للمشاكل جميعها، وبلا استثناء، فسأله عن الوصفة للقضاء على البطالة مثلاً، فأجابه بوثوق بأنّ الحلّ يكمن في إلزام المرأة ببيتها، وتشغيل الرجل فقط، وبذلك يمكن القضاء على مشكلتين: هما البطالة وفتنة الاختلاط بين الجنسين"¹.

يبرز لنا هذا الجدل سخرية العقيد ممن يجعلون من الدين مشجبا يعلقون عليه آمالهم جميعاً، واقتراحهم لحلول واهية لأمر اقتصادي تستدعي خبراء في المجال، وإمكانات للقضاء على مجموعة من الأزمات (البطالة... الخ وغيرها) التي تؤرق الشعب الجزائري.

يسخر العقيد أيضاً من "يوم الاستقلال في العديد من المواضيع قائلاً أثناء تواصله مع الطبيب الشرعي لاستعجال تقرير تشريح الجثة قبل العصر" هل سيفي بوعده؟ ليس سهلاً أن تطلب من شخص مضاعفة العمل في يوم عطلة، خاصّة إذا كان يتعلّق الأمر بعيد الاستقلال. وما أدراك ما عيد الاستقلال!"².

وفي موضع آخر أثناء تحاوره مع "العميد بلقاسمي" و"سي المعلم" حيث يقول السارد: "قرّر العقيد أن الوقت قد حان لوضع المعلم في الصورة، فاتّصل ليزفّ له الخبر: القتل الثاني في نفس اليوم.

¹ - عمارة لخص، رواية طير الليل، ص 137.

² - عمارة لخص، رواية طير الليل، ص 90.

-يالطيف! هذا يوم النّحس. قال العميد.

-لا تقل هذا عن يوم الاستقلال المبارك، يا حضرات.

-يا الرّب المعبود، لا تستقرّني.¹

أبرق الخطاب الساخر الذي عبّر عنه العقيد في قوله "وما أدراك ما يوم الاستقلال وفي مخاطبته للعميد" لا تقل هذا عن يوم الاستقلال المبارك"، عن حجم المصيبة التي حلت بجزائر ما بعد الاستقلال، مستفزا القارئ وحمله على الضحك كونه "لا يفرض أي منع، أي تحفظ، إن القوة والعنف والسلطة لا تستعمل أبدا لغة الضحك"²، الذي يعدّ المتنفس الوحيد أمام العقيد من جهة، ومن جهة أخرى يدفع بنا إلى التساؤل لا محالة عن حقيقة الاستقلال وجدواه إن وجد حقا، فما السبب وراء الوضعية المزرية التي تعيشها جزائر 2018، والتي تملق فيها أناس لا شرف لهم لتحقيق الثروة، واستنزاف الثروات وانتهاك الحقوق عنوة للوصول للجاه والسلطان، وهو ما حمله الخطاب الساخر الذي استغرب فيه "العقيد" من رؤيته لحَيّ النخيل، أحد أرقى أحياء وهران، أين يملك "الحاج بدرو" فيلا فخمة حيث قال في نفسه متعجبا: "سبحان الله مغير الأحوال! ابن حيّ سيدي البشير الفقير يتحوّل إلى ملياردير كبير خلال سنوات قليلة. كيف حدث هذا؟ ما هي وصفة النجاح، ياسي بدرو؟ حتّى لو كانت هناك حقّا وصفة، فلا شكّ أنها وصفة سرّية مثل وصفة كوكا كولا، ولكن، ألم يقل الشاعر مفدي زكريا: "جزائر، يا مطلع المعجزات"؟ وبدرو هو البرهان الدامغ على صحّة ذلك. من سيدي البشير إلى حيّ النخيل و... تحيا الجزائر!"³.

تعجب العقيد من الطرائق المشبوهة في تحقيق الثروة، وذيوع الفساد جعل الجزائر "مطلع المعجزات" بالمعنى السلبي أين كشفت هذه العبارة الساخرة المثيرة للضحك

¹ - عمارة لخصوص، رواية طير الليل، ص 189.

² - ميخائيل باختين، أعمال فرانسوا رابليه والثقافة الشعبية في العصر الوسيط وإبان عصر النهضة، ص 126.

³ - طير الليل، عمارة لخصوص، ص 203.

"بجراً تصلّ حد التهور حقيقة العالم والسلطة"¹ في المجتمع الجزائري، وطرقها الملتوية في دهاليز السياسة المظلمة، ما جعل جزائر مطلع المعجزات تؤول إلى وضع كارثي تستدعي حالة استنفار قصوى من انتشار للمحسوبية والرشوة، وللكتير من الصفقات المشبوهة لتبويض الأموال والتي غالباً ما تحظى بدعم الأيدي العميلة داخل الدولة، وهو ما يسخر منه السارد في قوله: "فأنشأ يوسف رفقة ميلود صبري وبدرو بوزار مقالة كبيرة، استحوذت على الكثير من المشاريع الممولة من طرف الدولة.

-قطاع البناء أفضل وسيلة لغسل الأموال. علّق العقيد.

-في بلادنا المعلومات المالية من بيع وشراء تتم بعيداً عن أعين البنوك، لا أثر للصكوك، يا حضرات.

-تحيا الشكارة!"².

ضمنت هذه الجملة الساخرة واقع الاقتصاد الجزائري الذي عمّ فيه الفساد الاقتصادي واشرباً، وخيم عليه منطق الشكارة في إشارة إلى الأموال الضخمة والمنهوبة هنا وهناك بعيداً عن أعين أجهزة الدولة القمعية والايديولوجية أحياناً، وبإيعاز من رؤساء هذه الهيئات أحياناً أخرى.

يسخر كذلك كل من "العميد" و"العقيد" في طريقة تعامل "جماعة الفوق" أعلى هرم السلطة في قضية قتل المجاهد "ميلود صبري" بمنطق التعمية، قصد إخفاء الحقائق عبر وسائل الإعلام لضمان الأمن والاستقرار على الصعيدين القومي والوطني حيث يقول: "توجه العقيد إلى مكتب العميد بلقاسمي الواقع في شارع الصومام، ووجد الباب مفتوحاً، رآه منهما في مكالمة هاتفية، فأوماً له أن يجلس، ففعل. أدرك من ملامحه ونبرة صوته وكلماته المنتقاة بعناية أنه يتحدث مع شخص من "جماعة الفوق".

¹ - ميخائيل باختين، أعمال فرانسوا رابليه والثقافة الشعبية في العصر الوسيط وإبان عصر النهضة، ص129.

² - عمارة لخص، رواية طير الليل، 211.

بعد انتهاء المكالمة، أخذ سيّ المعلم نفساً طويلاً، وراح يقرأ بصوت مرتفع من صفحة أمامه، مقلداً مذيع الأخبار في التلفزيون:

وردنا الآن خبر من وكالة الأنباء الجزائرية، هذا هو نصّه.

انتقل إلى رحمة الله مساء اليوم المجاهد الكبير ميلود صبري إثر إصابته بسكتة قلبية. ونعت وزارة المجاهدين الفقيد ببيان جاء فيه: بعيون دامعة وقلوب خاشعة، ننعي للشعب الجزائري العظيم أخانا المجاهد الفدّ ميلود صبري، الذي قدّم كل ما لديه للجزائر الحبيبة خلال الثورة المجيدة، وساهم في بناء الجزائر بعد الاستقلال. لقد توقف قلب المجاهد الكبير عن الخفقان في يوم الاستقلال. ألم يخفق قلبه طوال حيّاته إلا للجزائر؟ يقول الله تعالى: "من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم ممن قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً" صدق الله العظيم. لقد رحل الفقيد، وترك الجزائر في أياد أمينة. وسيوارى الحاج ميلود صبري الثرى غداً في مريع الشهداء والمجاهدين في مقبرة عين البيضاء. رحم الله الفقيد، وأسكنه فسيح جنانه، وألهم أهله وإخوانه المجاهدين الصبر والسلوان: "إنا لله وإنا إليه راجعون"¹.

وضح لنا هذا الخطاب أن القمع الأبرز غير مقتصر على القوة والعنف بنوعيه المادي والمعنوي، اللذين رسخ لهما الروائي عبر الخطابين السياسي والديني، بل يمتد إلى السلطة الرابعة أي الإعلام والتي تفوق جميع السلط لكونها تخاطب ذواتاً اجتماعياً بغية تشويه إدراكها وحملها على الوعي بالأمور التي تخدم السلطة، حتى لو استدعى الأمر قتل الحقيقة في المهد، وهذا ما عني العميد بتلقينه للشعب مستهزئاً بإملاءات "جماعة الفوق" في بيان النعي ليلقى "ميلود صبري" مجاهداً فدّاً أفنى عمره لخدمة الجزائر، وينعى على مسامع الجزائريين لوفاته العادية بسكتة قلبية، عوض الحديث عن حقيقة اغتياله والتكيد بجثته بطريقة فظيعة قطعت فيها أرنبة أنفه انتقاماً منه لخياناته

¹ - عمارة لخص، رواية طير الليل، ص 258.

المتناقلة، مستدعيا البيان للخطاب الديني الذي يأتي خادما للخطاب الاعلامي ومدعما له عبر الاستشهاد بالآية السابقة، بغية إضفاء مصداقية على مضمونه ونفي جميع الشبهات التي قد تعترضه، لنتساءل أين شخصية الطاغية "ميلود صبري" القاتل المرتزق الخائن لقيادات الثورة قديما وللجزائر حديثا، ونتبعه بالعديد من إشارات الاستفهام والتعجب التي تحيط بنا وبشعبنا من كل صوب وحذب.

يواصل "العميد" و"العقيد" استهزاءهما من هذا البيان كما يوضحه كلام السارد:

-نظر المعلم إلى العقيد نظرة ارتياح، وقال:

-انتهينا من مشكلة طير الليل.

-يعني القتل بلا حساب ولا عقاب.

-من قال لك ميلود صبري مات مقتولا؟ قال العقيد مبتسما.

-وبدرو بوزار ويوسف مصباح ماتا بطريقة غير إجرامية كذلك؟

-نعم.

-مثلا حادث سيارة.

-فكرة معقولة.

-ولم لا؟! اختناقا بشوكة سمكة سدّت الحلقوم في أثناء مأدبة غداء أو عشاء يا

حضرات؟

-فكرة جيّدة. المهم أن خبر موتهما سيتأجل قليلا.

-ماذا نفعل بالمحبوسين: إدريس طالبي وعبّاس بادي ونبيل طالبي ورشيد قادري

وابنته وأميرة دربال؟

-كلهم رجعوا إلى بيوتهم مسرورين.¹

¹ - عمارة لخص، رواية طير الليل، ص258 و259.

استمر التهكم الضاحك في هذا الحوار من الطريقة التي تمارسها "جماعة فوق" للتعامل مع الجرائم التي تسيء لسمعة الجزائر بمنطق المسكوت عنه متخذة من منطق الغاب قانونا لها، مستسيغة كل الوسائل والطرق لتصبح جنحة القتل جريمة عادية لا حسيب فيها ولا رقيب، ومجرد تصفية لحسابات عائلية، ما دفع بالعميد قائلا: من قال لك ميلود صبري مات مقتولا؟ قال العقيد مبتسما. حيث أن "الضحك، وحده، بالفعل، يستطيع الوصول إلى بعض مظاهر العالم المهمة للغاية"¹. وهو مارسه هذا الخطاب الساخر المتهم المثير للضحك، كذلك استهتار "العقيد" أثناء تعليقه حول تأجيل إعلان مقتل "بدرو بوزار" و "يوسف مصباح"، وعن سبب الموت الذي قد يكون حادث سيارة أو الاختناق بشوكة سمكة سدّت الحلقوم في أثناء مأدبة غداء أو عشاء، أما بالنسبة للمجرمين إدريس طالبي وعبّاس بادي ونبيل طالبي ورشيد قادري وابنته وأميرة دربال، فالكل يعود إلى منزله سعيدا مسرورا وكأن شيئا لم يكن.

نستنتج من نزعة السخرية التي شكلت استثناء على طول نسيج الرواية، أنّها غير مشبعة بجو الضحك، إلا في بعض المواطن، ومرد ذلك إلى أن الكاتب "يعاني إحساسا بالمرارة لم يتوقف به عند حافة الحزن والألم، ولكنّه ثار عليه، وتعالى على السكينة تحت ضغطه، وأخذ يصوغه في ثوب جديد، قد يكون رمزيا وقد يكون صريحا، ي حمل كل مظاهر الاستخفاف والتعالي الساخر الذي يعني الانتصار على الأحداث، أو تخطي الحواجز التي قد يعجز عن تخطيها الآخرون، والقارئ يرى نفسه مستجيبا للكاتب متوافقا معه، متعاطفا مع ما يثيره في الأفكار وبين السطور"².

هذا التوافق بين رؤية الراوي والقارئ معا، هو المأمول من هذا النوع من الخطابات الساخرة العبثية التي تدفع المتلقي إلى استكناه أغوارها المضمرة، والبحث في

¹ - ميخائيل باختين، أعمال فرانسوا رابليه والثقافة الشعبية في العصر الوسيط وإبان عصر النهضة، ص 96.

² - حامد عبده الهوّال، السخرية في أدب المازني، ص 20.

المسكوت عنه عبر سعي الكاتب الحثيث عبر هذا الأسلوب إلى "توجيه اهتمام خاص إلى عيب ما-تجسم هذا العيب، وتبالغ فيه وتسعى إلى إبرازه بوسائل عديدة"¹.

نزع أسلوب السخرية المتهكم في رواية "طير الليل" كأسلوب مقاومة إلى تقديم صورة سوداء ومقيتة، عن الواقع السياسي الجزائري، عبر نقد لاذع للسلطة السياسية في البلاد وإلى الأنظمة القمعية التي تناحرت على الحكم في الكثير من المواضيع داخل الرواية، وتصوير أفعالها الدنيئة في تسيير شؤونها وفي تكريس الخطابات الدينية والإعلامية وتطويعها لخدمة الخطاب السياسي الذي التقت عنده جميع خيوط السرد الراضية لأي تغيير، موجهها حباله لإحباط أي محاولة للإطاحة بالنظام السياسي كيفما كان شكله، لتبرز لنا السخرية حجم التناقضات والمفارقات بين صوتي الشعب والسلطة الذي يظهر الأول خافتا في حين يصدح الثاني ملء فيه، ليصل صده إلى جميع الأقطار العربية لتصبح الجزائر امتدادا وليس استثناء على حد قول السارد.

وما يعنينا هاهنا من دراسة هذا الأسلوب هو الوظيفة التي يضطلع بها داخل النص الأدبي والتي نجملها بالقول "أن الأدب يتعقب هذه الظواهر التي تعيش تحت الحماية، ويوجه إليها أسلحته التي عرف بخبرته وطول معاناته أنها أجدى وأفضل في المقاومة، وليس هناك أحيانا أحد من سلاح السخرية، إنها السلاح الرهيب الفتاك الذي يصل إلى هدفه، السلاح الذي يخاطب النفوس والعقول ويكشف الحقائق، وإن أبقاها مغلفة بغلاف جديد، شفاف، لا يخفي ما بداخله"². كما أن "السخرية تستهدف الجراد وهي بذلك تتوقع إدانة من طرف القارئ لهذه السلطة، وتستقره بهذه النهاية الرمزية

¹ - أنظر، حامد عبده الهوال، السخرية في أدب المازني، ص16.

² - حامد عبده الهوال، السخرية في أدب المازني، ص34 و35.

وتدعوه للتفكير في واقع الهيمنة والاستلاب، وتستنهضه لتبني موقف يدين هذا الواقع¹.

مثلت السخرية كأسلوب مقاومة على مستوى الممارسة الخطابية تحدياً للروائي لإيصال صوته، وصوت الشعب الذي حرّم من هذا الحق في المقاومة، وفي حرية التعبير والمعارضة السياسية على مستوى الممارسة الاجتماعية، فحققت السخرية انتصاراً جزئياً ينتشي به المجتمع الجزائري جسده سخط الروائي على السياسة في الجزائر وفضحه لألأعيبها وللأيادي العميلة التي تحركها، والتي رمت بها في دهاليز القمع المظلم، بكسر الطابوهات والخوض في جوانب سرّية من ثورة التحرير الجزائرية والتفتيش في الدفاتر القديمة للمجاهدين والمجاهدات، والبحث في المسكوت عنه داخل غياهبها، في طابع ساخر لا يثير الضحك بقدر ما يتعجب عن الأسباب وراء الخيبات المتتالية والفشل الذريع، الذي سجلته محطات فارقة كما وضحته النصوص الموازية في تاريخ الجزائر المنادية بالتغيير والعدالة والمساواة الاجتماعية والديمقراطية الحقّة.

5. 2.2/الأجناس المتخللة والذاكرة الحيّة للمأساة:

وقفنا في الفصل التنظيري على أن التعدد اللغوي في الرواية، مهما اختلفت أشكال تواجده هو خطاب الآخر في لغة الآخر*، وهو كذلك خطاب ثنائي الصوت ذو صيغة حوارية، يحمل معنيين يمكننا إدراكهما على مستويين أولاً، الظاهر وهو ما

¹ - محمد مفضل، مقال جماليات السخرية في رواية اللجنة لصنع الله ابراهيم: استطراد استكشاف واستقزاز، جامعة ابن زهر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، أكادير، ورشة الفكاهاة والسخرية، الأيام الدراسية 28-29 ماي 2010، ص05.

* شكلت هذه الفكرة "كل خطاب مهما كان هو خطاب الآخر في لغة الآخر"، القفزة النوعية في نظرية باختين، والتي مفادها أنه لا يمكن لأي إنسان أن ينتج خطاب بمعزل عن الخطابات السابقة له، بهذا يحاور أي خطاب كان نصوصاً أخرى سواء بشكل صريح أو بشكل مضمّر. أو بمعنى آخر يستحيل أن تكون خطاباتاً بكر غير متضمنة لخطابات الآخرين. هذه المقولة هي التي استثمرتها جوليا كريستيفا وتودورف، وحتى فوكو في حديثه عن التداخل الخطابى. فالتداخل الخطابى هو تداخل في وجهات النظر، لأنواع عديدة من التداخل الخطابى قد تكون خطابات مؤسسية أو هجينة أو خطابات متخللة.

نستخلصه من الخطاب المدرج بالنسبة للشخصية المتكلمة داخل الرواية، والثاني مضمّر وهو ما نروم الكشف عنه من خلال التحريّ وراء مقصدية الكاتب ونواياه المبطنّة.

نسعى في هذا الجزء إلى بالبحث في نوع آخر من أنواع التعدد اللساني الأكثر أهمية وجوهريّة بالنسبة إلى الرواية، حيث يتعلق الأمر بالأجناس المتخلّلة أين تسمح الرواية "بأن يدخل الى كيائها جميع أنواع الأجناس التعبيرية، سواء كانت أدبية (قصص، أشعار، قصائد، مقاطع كوميدية)، أو خارج أدبية (دراسات عن السلوكات، نصوص بلاغية وعلمية، ودينية، الخ".¹

إن التداخل الأجناسي داخل إطار الرواية حسب باختين هو صفة من صفات الرواية، التي تجعل هذه الأجناس بمظاهرها اللفظية والدلالية تمثّل مظاهر الواقع ومرآة عاكسة له، وما يعنينا في هذا الصدد ليس استخراج هذه الأنواع واستقرائها فقط، إنّما البحث في وظيفة إدراج هذه الأشكال داخل النص الروائي.

احتفى "عمارة لخصوص" في روايته بمجموعة من الأجناس المتخلّلة نرصد من بينها والأكثر حضورا الأمثال والحكم إلى جانب الرسائل والخطب السياسية وغيرها. أمّا عن الأمثال الشعبية التي تنتشر بسرعة بين الأجيال، وفي الأمكنة والأزمنة باعتبارها الوعاء الأنسب لمجموع التجارب الحياتية للإنسان التي يسعى المثل الشعبي إلى ترسيخها عبر معاني ودلالات تصور أعرافا أو تقاليدا أو معتقدات تجعل منها مرآة عاكسة للواقع، وذاكرة حيّة لا يخلو منها أي شعب من الشعوب في العالم. وتلخص نبيلة إبراهيم خصائص المثل في ثلاثة عناصر هي:

أولا: المثل هو خلاصة التجارب ومحصول الخبرة.

ثانيا: المثل يحتوي على معنى يصيب التجربة والفكرة في الصميم.

¹-مikhail باختين، الخطاب الروائي، ص88.

ثالثاً: المثل يتمثل فيه الإيجاز وجمال البلاغة.¹

ومن خصائص المثل أيضاً أنّه: "لا يعبر عن الواقع بشكل مباشر، وإنّما يتمثل لها تمثيلاً عبر صورة أو قصة ما، لذلك كان كل مثل في جملته إشارة تحيل إلى معنى أبعد"². يتسم المثل وفق هذا بالإيجاز وكثافة المعنى، وفي كونه تعبيراً غير مباشر للواقع تلخص تجربة شخصية أو جماعية.

ومن الأمثال الشعبية الواردة في الرواية ما حمله تدخل السارد في رؤية العقيد "سلطاني" لفرضية الاغتيال السياسى أثناء تحقيقه في مقتل "ميلود صبري"، التي تحمل مسلسلًا طويلاً من الجرائم والاعتقالات في إشارة إلى العشرية السوداء حيث يقول السارد: "العقيد مقتنع بأن جماعة الفوق لا تريد عودة الإرهاب، فالظروف الإقليمية تغيرت تماماً، ولا تبشر بخير. في التسعينيات كانت دول الجوار مستقرة، أما اليوم فالجزائر محاطة بالحرائق من ليبيا وتونس ومالي. ومن يلعب بالنار، فقد يحترق. يفترض أنّه إذا كانت هناك خلافات بين أعضاء الجماعة، فيجب حلّها بالتي هي أحسن، الخير مازال كثيراً، وكل واحد يأخذ نصيبه. لا داعي لعودة ريمة إلى عاداتها القديمة: تصفية الخصوم والبكاء عليهم وتحميل المسؤولية للإرهابيين"³.

يكسر هذا المثل في الظاهر استياء من عودة شخص ما إلى عادة سيئة كان يمارسها في الماضي، في حين يجسّد داخل الرواية استياء من الواقع السياسى الجزائري، ومن ممارسات "جماعة الفوق" التي تستعين في الاغتيال السياسى بالإرهاب أو ما يصطلح عليه العشرية السوداء لتصفية الخصوم والحسابات، ليصبح الإرهاب نقمة على الشعب عبر التهريب، ونعمة على "جماعة الفوق" التي تستفيد منه لخدمة

¹ -نبيلة ابراهيم، أشكال التعبير في الأدب الشعبى، دار نهضة مصر، القاهرة، دط، ص 139.

² -علي بن عبد العزيز عدلاوي، الأمثال الشعبية ضوابط وأصول -منطقة الجلفة نموذجاً، مراجعة: بشير هزري، دار الأوراسية، الجلفة، الجزائر، ط1، 2010، ص 45.

³ - عمارة لخص، رواية طير الليل، ص 25.

مصالحتها السلطوية والسياسية معا. فالراوي لا يريد العودة لسنوات التسعينيات وتكرار نفس السيناريو، عبر القتل والذبح وتحميل المسؤولية للإرهابيين.

رصدّ لنا هذا المثل أيضا تدخلا للسارد أثناء التحقيق في قضية "مقتل ميلود صبري"، حيث رسم صورة عن انتشار الرشوة الذي غالبا ما يكون بتواطؤ السلطة السياسية في البلاد، التي تتخذ الصمت أسلوبا للتكتم عن الصفقات المشبوهة، والأموال المنهوبة وهو ما يظهره كلام السارد: "بعد أخذ مسألة توقيت الجريمة بعين الاعتبار، مرّ إلى موضوع المكان: فيلاّ الخيليات. هل هي ملك ميلود صبري؟ لم يطرح السؤال من باب المحاسبة والعمل بمبدأ "من أين لك هذا؟"، فهو يعرف أنّه لا أحد يحاسب في هذا البلد، "وكلّ الفم تستحي العين" كما يقول أولاد الحرام"¹.

"وكلّ الفم" بمعنى أعطيك أموالا لكي تقف بجانبني وتساندني، "تستحي العين" أي تلتزم الصمت في اختلاس أو نهب مال عام وغيرها من العمليات المشبوهة التي تستبيح الرشوة أو القهوة أو الإكرامية كما يسمّيها الاسلاميون، بالرغم من تحريمها شرعا وقانونا، لكن لم تتجح لا القوانين الردعية ولا القيم الدينية في القضاء على هذه الآفة التي خيمت على عقول وشخصيات الرواية أمثال المجاهد الحركي "ميلود صبري" وصهره "بدر الدين بوزار" وأخ زوجته "يوسف مصباح"... وغيرهم من أولاد الحرام حسب قول الراوي الذين يستحوذون على أموال الشعب عنوة وبغير وجه حق، وأغرقوا الجزائر في مستنقع اجتماعي مظلم.

هذا المستنقع المظلم هو الذي عبّر عنه تدخل السارد لتصوير مشهد زيارة "العقيد سلطاني" إلى مكتب المحامي "إدريس طالبي" في قوله: "رافقته إلى قاعة الاستقبال، فوجد نفسه في غرفة صغيرة، تسع لستّة مقاعد، تحيط بطاولة دائرية، عليها مجلّات وجرائد قديمة مبعثرة... تفاجأ بان إدريس طالبي يعمل أيضا في العطل، كانت هناك

¹ - عمارة لخص، رواية طير الليل، ص50.

عجوز في الثمانين من عمرها تنتظر دورها، قالت له أن المحامي يساعد المحتاجين لوجه الله، لولا طبيته وكرمه، لعاش الكثير من الناس في ظلم وبيلاعدالة في هذا البلد.

-القانون في بلادنا فوق الفقير، وليس فوق الجميع، ياولدي¹

يسرد لنا هذا التدخل نمط المفارقة بين شخصيتي المجاهد "ميلود صبري"، والمحامي "إدريس طالبي" اللذان ينتميان إلى نفس الخلية الفدائية أيام الثورة، ليتحول المجاهد بعد الاستقلال مرتشياً عميلاً لتحقيق السلطة والمال، في حين يبقى المحامي محافظاً على مبادئه وأخلاقه لبناء الجزائر، فيساهم أمثال المجاهد في خلق طبقة فقيرة مسحوقة يسعى المحامي إلى احتوائها والدفاع عنها، فالمثل هنا هو تلميح للقوانين الزجرية التي تنتهجها الأجهزة القمعية للدولة لمعاقبة المختلسين والمجرمين لكنها تطبق على الفقراء، بينما يفلت الأغنياء أو العملاء من قبضتها بواسطة المال أو المحسوبية، أو حتى القتل إذا استدعى الأمر ذلك أو تليفيق التهم.

ومن الأمثال الشعبية التي تصور الوضعية الكارثية التي آلت إليها الجزائر أثناء العشرية السوداء ما مثله الحوار الداخلي للعقيد: "خَلِّي البئر بغطائه". ما الفائدة من كثرة الأسئلة إذا كانت الأجوبة قليلة شحيحة². في تحسّر على جراح سنوات التسعينيات المحفورة في ذاكرته التي "تأبى الاستسلام بسهولة ليد النسيان، فالأحداث التي تقع في دقائق أو ساعات أو أيام معدودة تشغل مساحة هائلة من الذاكرة، وتكتسب حيوية وآنية سرمدية تبدو هذه الذاكرة في بعض الأحيان ضرورية، كي لا ننسى، لكي يكون هناك سعي حثيث للقصاص، لكن هذه الذاكرة تصبح عبئاً على صاحبها، لأنّها تتحول إلى قيد هائل يسجن الحاضر والمستقبل في قمقم الماضي المفزع³، كلّما تذكر محاولات

¹ - عمارة لخص، رواية طير الليل، ص102.

² - المصدر نفسه، ص102.

³ - عماد عبد اللطيف، تحليل الخطاب السياسي، ص322.

الاغتيال التي تعرض لها ووشم الرصاصة في فخذ الأيمن، والطريقة الشنيعة التي ذبح بها والده الذي ليكون عبرة لمن يعارض أو الإرهاب الغاشم أو يقف في وجهه. ومن الأساليب القمعية نجد التهديد والوعيد لمن يخالف نظام الأجهزة الايديولوجية للدولة، التي تتخذ القمع سبيلا للحفاظ على نظامها "بعد انتهاء النقاش، اقترب مسؤول الأمن من بدرو غاضبا، وقال له بصوت مسموع:

-تجاوزت الحدود، والعصا لمن عصي، يا كلب.

-لا أخاف إلا الله.¹

شكل هذا المثل آلية السلطة في القضاء على كل من يعترض طريقها، أو يهدد كيانه عبر قوة العصا لمن تسول له نفسه التناول على ممثلي السلطة داخل مؤسساتها، وهذا ما لخصه الحوار الذي دار بين مسؤول الأمن في الجامعة و"بدر الدين بوزار"، الإسلامي الذي يتحول إلى جاسوس، وبعدها إلى طاغية صغير مقارنة بالطاغية الأعظم "ميلود صبري"، بفعل ما تعرض إليه من ضغوطات قمعية ومضايقات داخل الحرم الجامعي، حتمت عليه السير في الطريق المظلم لاكتساب هيبة وسلطة تساعد على فرض احترامه وتضمن له حياة الثراء والرفاهية، ليحيا في عالم الطغيان بهناء وسعادة. فالعنف الذي كرسه هذا المثل ولد عنفا مضادا لا محالة جسده شخصية "بدر".

لكن هذا الثراء الفاحش لم يحم هذه الشخصية (بدر) من أن يقتل بالسهم من قبل عشيقته انتقاما منه لأنه قتل أخوها "رضوان"، وهو ما عبّر عنه تدخل السارد أثناء تحقيق "العقيد" في فرضية انتحار "بدر"، التي رآها غير منطقية بتاتا في قوله "لا يمكن لشخص مثله أن يستسلم بهذا الشكل دون لعب أوراقه، كل مخبر يخبئ ورقة رابحة أو أكثر ليلعبها عند الضرورة القصوى. من يعمل مع الأجهزة الأمنية ليس وحيدا

¹ - عمارة لخص، رواية طير الليل، ص145.

وبيتما أو مقطوعا من شجرة، فليده شبكة من العلاقات والصدقات والمصالح المتبادلة، يحرص على نسجها وصيانتها باستمرار، بدرو خبير في عقد الصفقات. إضافة إلى ذلك له ثروة معتبرة. "الدرهم يديروا طريق في البحر" كما يقول المثل. لماذا لم يستعمل أوراقه إذن ؟ ماذا حدث له ؟¹.

فالسارد يستهزئ ممّا حققه "بدرو" باستحضاره لهذين المثلين في "أنّه ليس مقطوعا من شجرة" دلالة على يده الطولى كونه عميلا، وعلاقاته التي أنشأها أثناء عمله مخبرا، وفي "الدرهم يديروا طريق في البحر" دلالة على الثراء الفاحش، اللذان ساهما في أن يلقى حقه بدلا من إنقاذه على يد فتاة اعتقد أنّه امتلكها لقوته وثروته، التي لم تصنع له طريقا عاديا حتّى تصنع له طريقا في البحر.

هذه الطريق التي اختار "بوزار" أن يسلكها جعلته محط اهتمام عند شخصيات أخرى ترى أنّه يمثّل تهديدا وخطرا على سلطتهم أمثال "يوسف مصباح" و"نبيل طالبي" أثناء تحاورهما: "البركة فيك يا خالي يوسف.

-يعطيك الصحة على الثقة، يا نبيل.

-عندنا مشكلة واحدة.

-أعرف... الاسلامي بدروب بوزار.

-يجب أن نتغذى به قبل أن يتعشى بنا، يا خالي.

-صواب². يجب أن نتغذى به قبل أن يتعشى بنا تمثيل لتنازل الخيانات على مستوى الشخصيات السلطوية، التي جمعت بينهم صداقات أو علاقات أسرية على مستوى الرواية، لكن سلطة المال والمنصب أقوى وأعتى من جميع العلاقات الاجتماعية.

¹ - المرجع نفسه، ص185.

² - عمارة لخص، رواية طير الليل، ص249.

وفي حوار "يوسف مصباح" مع ميلود قائلاً:

"-عندنا مشكلة مع سعاد.

-ماذا عملت، يا خويا يوسف؟

-عشقت واحد من معسكر...عاش ما كسب، مات ما خلى.

-سيضحك علينا الناس، يا خويا.¹

استصغر هذا المثل الشعبي شخصية "رشيد قادري" الرسام الكاريكاتوري من معسكر الذي أصبح حبيباً لسعاد ابنة "ميلود صبري"، ولخص نظرة الأغنياء للطبقة الفقيرة التي لا يرونها تليق بنسبهم أو تشرفه، فهم على قدر من الرفاه يسمح لهم بأن يزوجوا بناتهم ممن يستوون معهم مادياً، وهذه النظرة لهذا الطاغية لم تستقر عند حدود الاستهزاء بل تجاوزته إلى حدّ قتل فلذة كبده (سعاد)، كي لا تدنس شرفه ويصبح أضحوكة مجتمعه الراقى، فجزائر المجاهد لا علاقة لها بجزائر الرسام الكاريكاتوري.

ومن الأمثال الشعبية نجد تدخل السارد للحديث عن شخصية "النقيب سمير" الذي يعمل مع "العقيد سلطاني" قائلاً "ما يتكتم عليه سمير، ويحاول إخفاءه على الجميع أنّه لديه إمكانية لاختراق أجهزة كمبيوتر وإيميلات تقريباً مديري الصحف العمومية والخاصة كلهم، عادة ما يملكون معلومات ثمينة جداً. القاعدة التي يلتزم بها الجميع: ليس كل ما يعرف ينشر "قبل ما تقطع الواد قيسو" كما يقول المثل. قبل نشر أيّ خبر، يجب الاتصال بالأصدقاء من جماعة الفوق، واستشارتهم، لا يريدون المخاطرة"².

أشار هذا المثل إلى السلطة القمعية التي تمارسها "جماعة الفوق" على وسائل الاعلام، والتي تسترعي الالتزام بنشر كل ما يخدم مصالحها وعدم المجازفة بالعكس،

¹ - عمارة لخص، رواية طير الليل، ص171.

² - المصدر نفسه، ص207.

لأن وبال ذلك عليهم سيكون وخيما سواء كان حظرا للقناة أو ردعا كلاميا أو قتلا إن استدعى الأمر ذلك.

جميع الطغاة يدينون العنف والقتل لتحقيق مخططاتهم، وهو ديدنهم الذي جبلوا عليه دون حسيب أو رقيب، وهو مفاد المثل الشعبي الذي استحضره السارد لتصوير اغتيال المجاهد "ميلود صبري" لمدير بنك عرقل حصوله على قرض مالي بقوله "بدأ ميلود في تجريب مخطط جديد، بإسناد بعض المهمات للإرهابي رضوان لتصفية بعض الخصوم الذين لا خير فيهم، ويئس منهم. كان هناك مدير بنك يعرقل قرضا احتاجه لصفقة مهمة، عثر عليه مقتولا وهو عائد إلى بيته. لا تحقيق ولا هم يحزنون"¹.

القتل دون حساب أو عقاب هو نفس المضمون الذي لخصه الحوار الذي دار بين "يوسف مصباح" و"العقيد سلطاني" حيث "استمع العقيد لمرافعة مصباح دون مقاطعة، وعندما انتهى، وجّه له سؤالا:

- ما هو المطلوب، يا سيّ مصباح؟

- قتل الفضيحة في المهد، يا حضرات.

- قتل الحقيقة في المهد؟!

- الفضيحة، لا الحقيقة.

- آه، الفضيحة، فهمت. والحقيقة، ياسي مصباح؟

- الحيّ أبقى من الميت، كما يقولون في مصر.

- والعدالة؟

- عدالة الله خير من عدالة البشر، والحمد لله على نعمة الإسلام"².

عبر المثل على أن الاهتمام بالأحياء والحرص على مظهرهم الاجتماعي مقدم على الاهتمام بالموتى، هي الآلية التي يسلكها أصحاب السلطة للتعامل مع الجرائم

¹ - عمارة لخص، رواية طير الليل، ص224.

² - المصدر نفسه، ص239.

التي تهزّ كيانه السلطوى، حتى وإن تنافى الأمر مع الدين وأنظمة الدولة، التي يمثّل كل من "العقيد سلطاني" و"يوسف مصباح" صوتها داخل الرواية لاعتلائهما مناصب ضمن هيئات أمنية.

ومن الأمثال الشعبية التي تسخر من الرئيس الشاذلي بسبب ندرة بعض المواد الغذائية "ميخصناش فلفل أكحل يخصنا راجل فحل"¹. ونجد أيضا مثلاً شعبياً تردّد في موضعين داخل الرواية حاملاً في كلّ مرة دلالة تختلف عن الأخرى، أثناء استعماله من قبل "العقيد" سلطاني في الحوار الذي جمعه مع "النقيب سمير" قائلاً: "لاحظ أن سمير لم يفرغ كل ما في جعبته، فعندما يكون مترددا ومتوتراً، ينزع خاتمه الفضّي، ويعيده إلى مكانه مرارا وتكرارا.

زيد، يا بوزيد!"²

وفي موضع آخر: "عندي معلومات جديدة حول قضية الكوكابين، يا حضرات. زيد يا بوزيد!"³.

استعمل المثل في المرة الأولى لتشجيع "النقيب" على الحديث عن معلومات اكتشفها وخجل من قولها للعقيد وهو متعلق بسكرتيرة "بدرو بوزار" التي تحصّل على صور تظهر فيها شبه عارية، وفي المرة الثانية استحضر العقيد المثل متذكراً من اليوم المشؤوم الذي بدأ باغتيال المجاهد "ميلود صبري"، وبعدها "بدرو بوزار" ثمّ مقتل "يوسف مصباح" وصولاً إلى فضيحة الكوكابين وتورط "طارق" ابن العميد بلقاسمي فيها، هي جرائم قتل وفساد عمّ جزائر 2018، وجعلها تعيش واقعا بائساً وفظيعاً يتجاوز فظاعة القتل والاغتيال.

¹ - عمارة لخص، رواية طير الليل، ص142.

² - المصدر نفسه، ص160.

³ - نفسه، ص241.

هذا التعدد اللغوى المستحضر لخطابات الآخرين، والذي قيده "الأمثال الشعبية" التي استحضرها الكاتب لتعبير عن دهاليز السياسة المظلمة، وآلياتها المقيتة في الحفاظ على السلطة، بطريقة غير مباشرة، إلا أننا نرى أن المعاني الظاهرة والمضمرة لهذه "الأمثال الشعبية" لا تتنافى والمعنى السلبي الذي يجمعهما، فإذا كان سطحها سلبيا حاملا لدلالات الاستياء والتذمر والتهكم، فإن باطنها يعري مظاهر الاستبداد وآليات السلطة القمعية الحثيثة لدفن الوعي الشعبى في براثن التعمية والسيطرة، عبر أجهزتها القمعية تارة والايديولوجية تارة أخرى. وهنا يبرز "دور الرواية في تعرية واقع التلاعب والهيمنة والتمييز، سواء أكانت تمارسه قوى خارجية بهدف السيطرة، أم تمارسه الذات على نفسها بسبب تشوه الوعي بالذات والتاريخ"¹.

وهو ما نستشفه من خلال "الخطابات الهزلية والساخرة، والبارودية...، وفي خطاب الأجناس التعبيرية المتخللة: فهي جميعا خطابات ثنائية الصوت، ذات صيغة حوارية داخلية، فيها جميعها، توجد بذرة حوار كأمن غير منتشر، مركز على نفسه، هو حوار صوتين، ومفهومين للعالم وحوار لغتين..."².

عكست الأجناس المتخللة ونخص بالذكر منها الأمثال الشعبية الموجزة والمفعمة بالبلاغة، تجربة الروائى ومحصلة خبراته، في تمرير رسائل تثبت الوعي وتساؤل الواقع السياسى، بطريقة غير مباشرة ومضمرة، مست صميم الروح الجزائرية الطامحة للتغيير على امتداد ستين سنة من الاستقلال عبر المحطات التاريخية الفارقة في تاريخ الجزائر ومحاولات التغيير الفاشلة، إلى استياء الروائى الشديد من "جماعة الفوق" التي نتجج في كل مرة في إخماد فتيلها، مستثمرة في الإرهاب ومتخذة منه غطاء لأفعالها القمعية، وهو ما عبّر عنه العقيد في قوله "خلى البئر بغطائه"، لأن كشفه سيسقط العديد

¹- عماد عبد اللطيف، تحليل الخطاب السياسى، ص 335.

²- ميخائيل باختين، الخطاب الروائى، ص 17.

من الرؤوس السياسية اللامعة في الواجهة السلطوية، التي أرعبت الشعب الجزائري، وأرغمته على أن يقبع طويلا في المستنقع المظلم للذاكرة الجريحة.

وهو ما ضمنه السارد في كلامه قائلا: "الذاكرة جرح مفتوح كلما دسست إصبعك فيه، زاد الألم، وتأخر العلاج، من الأفضل النسيان أو حتى التناهي، ليس صحيحا أن الزمن يداوي كل شيء لحدّ الآن، لم يعثر على دواء أو طريقة لعلاج الذاكرة الجريحة"¹.

اختارت الرواية من خلال الأجناس المتخللة "أن تكون ذاكرة حيّة للمأساة، لأنّها تدرك أن ذاكرة الأدب قد تكون أكثر طهارة من ذاكرة التاريخ، وأن الحكيم ربما يكون في بعض الأحيان أقوى من البندقية، إنّها تقاوم مخطط فرض النسيان"². وذلك بإبقاء فضاء السلطة حيّة في أذهان الشعوب.

إنّ الأمثال الشعبية هي مجموعة من العبارات القصيرة المحملة بالدلالات المضمرة، التي تكاد تطيش عندها جميع صفحات الرواية، لمقصدياتها الواعية الملخصة لمعاناة الشعب الجزائري، والشعوب العربية تحت وطأة الاستبداد وفي ظل الأيدي العميلة، في اختصار بلاغي عجيب تستعصي فيه الذاكرة على النسيان.

قبل أن نختم حديثنا عن السخرية كأسلوب للمقاومة والأجناس المتخللة، يجدر بنا الإشارة إلى التناص* الذي ينظر إليه "فيركلف" في كونه "الخصيصة التي يتميز بها أحد النصوص، وهي حفوله بشذرات من نصوص أخرى، وقد تكون ذات حدود صريحة أو مندمجة فيه، وقد يكون النص منسوبا لها، أو مناقضا لها، أو قد يمثل أصداً ساخرة لها وهلمّ جرا"³.

¹-عمارة لخص، رواية طير الليل، ص104 و105.

²-عماد عبد اللطيف، تحليل الخطاب السياسي، ص322.

* للمزيد من التفصيل، أنظر، الفصل الأول مبحث التعدد اللغوي في التنظير الباختياني.

³-نورمان فيركلف، الخطاب والتغير الاجتماعي، ص110.

نلمح في "طير الليل" صورا عديدة للتناص، عبر مجموعة من المستويات شكلا ومضمونا، من بينها تأثره بالأدب الايطالى كما سبق ورأينا، خصوصا الأدب الصقلي ممثلا في الكاتب الكبير ليوناردو شاشة، الذى التزم رواياته بفصح شرور الحياة الاجتماعية، كذلك توظيف "عمارة لخصوص" لتقنيات السينما كالمونتاج والحوار، إلى جانب ما تعلمه من احتكاكه بالأدب الإيطالى والأدب العالمى عموما. أيضا مثلت الأجناس المتخللة والباروديا الساخرة في فصح ألعيب السياسة وكشف دهاليزها المظلمة، إلى جانب التواريخ المستحضرة على مستوى الممارسة الخطابية والتي أسهمت في إضفاء طابع تاريخي توثيقي على روايته الخاصة للتاريخ، وهكذا لعبت التناصات المختلفة في الرواية، وإعادة بناء سياقاتها داخل متنها السردى دورا كبيرا في تشكيلات تمثيلات الماضى الوطنى في الرواية¹، وحاضرها المزهق الذى تجاوز مآسى الماضى بالقدر الكبير على وقع الاستبداد والخيانة.

تستجيب الرواية من خلال ما سبق لنصوص سابقة، وتستحضرها وتحملها مقاصد جديدة لتسهم في تحقيق التغيير، ولتشكل نصوصا أخرى لاحقة، فتنازع بذلك "الرواية (المتخيلة) التاريخ في القدرة على تمثيلات متبصرة للماضى، وفي قدرتها نقد الأساطير السياسية السائدة في مجتمعاتنا المعاصرة، وكشف التلاعب في الخطابات الواقعية"². وهو الدور الذى نروم الكشف عنه من خلال المؤثرات الايديولوجية، وخطابات الهيمنة التى يعدّ النص الروائى مظهرها لها كما توضحه الممارسة الاجتماعية فيمايلي:

6/الممارسة الاجتماعية: التأثير والتأثر لتحقيق التغيير

وقفنا في خطوات التحليل السابقة على مجموعة من المراحل التى أثبتنا من خلالها مقولة "فيركلف" المفضية إلى علاقات التأثير والتأثر المتبادلة بين الحدث

¹- عماد عبد اللطيف، تحليل الخطاب السياسى، ص317.

²- المرجع نفسه، ص335.

الخطابي والمجتمع والسياقات المشكلة له، وذلك عبر سعيها للإجابة عن سؤال مفاده كيف يتشكل العالم الاجتماعي روائياً؟ فلاحظنا أثناء انتقالنا بين هذه الخطوات (التحليل النصي، الممارسة الخطابية، الممارسة الاجتماعية)، تداخلها وتشابكها فنجد أنفسنا وصلنا إلى الممارسة الاجتماعية لنعود للتحليل النصي وغيرها من التقاطعات، التي نعتبرها كما سبق ووضحنا أطراً تحليلية شكلية فقط لكن يستمر فيها المعنى وينتقل من مرحلة إلى أخرى لتداخل أحداث الرواية وشخصها في البناء الروائي.

خطاب رواية "طير الليل" لمؤلفه "عمارة لخصوص" يأتي بعد المرحلة الفارقة في تاريخ الجزائر، والمتمثلة في حراك فيفري 2018، مايدفعنا إلى تقديم لمحة عن السياقات المنتجة التي نرى أنّها كانت سبباً في ظهور هذا النص الروائي مستثمرين في ذلك مضامين الحوارات التي قام بها المؤلف سابقاً*، وذلك بالنظر إلى الوضعية التاريخية للجزائر في تلك الفترة، والأسباب الرئيسية لظهور هذه الثورة الشعبية.

6. 1 السياقات المنتجة للحراك والحدث الخطابي:

6. 1.1/مظاهرات الجزائر 22 فيفري 2019:

احتجاجات الجزائر 2019 أو ما اصطلح عليه بالحراك الشعبي، هي إحتجاجات شعبية اندلعت في يوم الجمعة 22 فيفري 2019 بعد أداء صلاة الجمعة، في معظم المدن الجزائرية، والتي نادى في بداياتها بعدم ترشح الرئيس عبد العزيز بوتفليقة لعهد رئاسية خامسة، بعد توليه سدّة الحكم لمدة عشرين سنة أي أربع مرات على التوالي منذ قدومه بمشروع المصالحة الوطنية سنة 2000 لينتهي حكمه يوم 2019/04/02، بعد تقديمه لاستقالة إنهاء عهده رضوخاً لمطالب الحراك الشعبي، وذلك بعد أن دعاه إلى الترشح أحزاب الموالاة وحزب جبهة التحرير الوطني الذي كان يرأسه آنذاك "ولد عباس" للمشاركة في السباق الإنتخابي، لتعلن بعدها العديد من الأحزاب والنقابات

* أنظر: الجزء المخصص لدراسة الحوارات في بداية هذه المقاربة.

دعمها لإعادة انتخاب بوتفليقة رغم حالته الصحية المتدهورة منذ أن أصيب بسكتة دماغية عام 2013.

6. 1. 2/ الأسباب الاجتماعية والسياسية للحراك:

تصيح بعد ذلك أصوات مظاهرات ضخمة شملت جلّ المدن الجزائرية، ومختلف الفئات الاجتماعية لتنتقل عدوى التظاهر الى مختلف شرائح المجتمع وأطيافه، ولم يستثن منها طلاب الجامعة الذين خصصوا يوم الثلاثاء كيوم خاص بمظاهرات الطلبة على المستوى الوطني، أما على الصعيد الاجتماعي والاقتصادي فقد شهدت الجزائر مطلع العام 2019 بؤادر أزمة اقتصادية بدأت ملامحها تلوح في الأفق منذ سنة 2014 عكست جو التوتر جراء الانخفاض الرهيب لأسعار البترول، إلى جانب الانتشار الرهيب للفساد على مختلف الأصعدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وغيرها من الأسباب التي تدفع بالشعوب إلى القيام بالتظاهر "نتيجة غياب الحقوق والحريات الأساسية، والتي أدت إلى المطالبة بإسقاط النظم الحاكمة ومحاكمة رموز الفساد الذين تسببوا في إفساد الحياة السياسية والاجتماعية بشكل كبير، والمطالبة بتحقيق العدالة وسيادة القانون وترسيخ الممارسات الديمقراطية في البلاد"¹.

6. 1. 3/ الأسباب الاقتصادية: أما عن الأسباب الاقتصادية فنجد:

1/ انعدام العدالة: وانتشار الفساد وعدم توزيع الثروات بشكل صحيحة، فيجد المواطن نفسه أمام أنظمة تقوده للفقر وتحكمه بالقهر.

2/ فضلا عن ارتفاع معدلات البطالة بين الشباب وتدني مستويات المعيشة والمعاناة من المرض، انتشار الفقر والفساد الإداري والمادي، والرشوة على نطاق واسع وارتفاع الأسعار مقابل تدني الأجور ودخل الفرد، بالإضافة إلى اتساع الفجوة بين

¹ - علي سعدي عبد الزهرة جبير، الحراك الشعبي: دراسة نظرية في المفهوم والأسباب، مجلة الحقوق والعلوم الإنسانية المجلد 14 العدد : 02 (2021)، ص525.

طبقات المجتمع وسياسة فرض الضرائب¹. هي مجموعة من الأسباب السوسيو اقتصادية التي ساهمت في تأجيج الوضع الاجتماعي، والتصعيد في وتيرة الاحتجاجات الرافضة لجميع السياسات المنتهجة في البلاد والمطالبة أولاً بتتحيّة "الرئيس السابق عبد العزيز بوتفليقة" وإرساء دولة القانون والعدل والمساواة.

هذا الحراك والسياقات المختلفة التي أنتجته، بالإضافة إلى الأيدي العميلة ودورها الرئيس في ظهور هذه الهبة الشعبية أي اليد العالمية التي أرادت تخريب الجزائر، هي نفسها التي دفعت بـ "عمارة لخصوص" إلى استعارة الرواية السوداء أو رواية الجريمة التي تختلف عن الرواية البوليسية في كونها "غير معنية بالوصول إلى الجاني، لأن غايتها فضح المجتمع الذي أنتج الجريمة وجعلها متكررة، فلا معنى للوصول إلى الجناة إذا كانت الرواية تتهم المجتمع كلّ في إنتاج الجريمة أو العنف الذي ينتجها، ولعلّ في كنية البطل "طير الليل" إشارة واضحة لهذا السواد الذي يعرفه المشهد السياسي من لحظة ما قبل الاستقلال إلى اليوم، مما دفع الشعب الجزائري إلى الخروج في انتفاضة سماها حراكاً بعد أن قايسوه طويلاً بتلك المعادلة البشعة، الأمن مقابل الفساد، فمصاصو الدماء الذين يمثلهم "طير الليل" لم يتوقفوا عن مصّ دماء الجزائريين تحت كلمة حق "المحررين"².

هذه المقايضة هي التي جعلت الشعب الجزائري يستنفر في مظاهرات عارمة، والتي كانت في وقت مضى ممنوعة خاصة على مستوى العاصمة من جهة، ومن جهة أخرى الأيدي الخارجية التي سعت إلى تخريب الجزائر*، كلّها دفعت بالروائي

¹ - أنظر، علي سعدي عبد الزهرة جبير، الحراك الشعبي: دراسة نظرية في المفهوم والأسباب، ص 527.

² - كمال الرياحي، رواية "طير الليل" لعمارة لخصوص، العنف وأصله في الجزائر، ثقافة <https://www.ultrasant.com> تاريخ التصفح: 2021/12/20. التوقيت: 15:00.

* تشير في هذا السياق إلى الربيع العربي كما يصطلح عليه أو الانتفاضات العارمة التي شهدتها البلاد العربية أواخر سنة 2010 ومطلع سنة 2011، ومست مجموعة من البلدان نذكر منها: تونس، ليبيا، مصر، سوريا... الخ، والربيع العربي يجد تفسيره في فكر التحرر الوطني، الذي ساهمت النخب الفكرية والسياسية العربية في تشييده عبر

إلى استعارة رواية الجريمة أو السوداء Noir التي رآها الأنسب لتصوير الوضع الجزائري البئيس والمظلم، الذي خيم عليه الفساد والنهب والعمالة ما جعل جميع محاولات التغيير تقشل، مرسخة شعور الاستعمار الجديد أو استعمار ما بعد الاستعمار في الوعي الجمعي للمجتمع.

وهو ما عبر عنه "عباس بادي" محاورا نفسه، بعد أن اتهم بالخيانة من قبل رفقاء الثورة وبإيعاز من "ميلود صبري" الذي أراد التخلص منه قائلا: "زار عباس بادي، أي البلارج، والدته خفية في المدينة الجديدة، إذ دخل عليها عند الغروب ملفوفا بالثوب التقليدي النسائي "الحايك". في تلك الليلة، سمع منها أخبارا حزينة، زهرة تزوجت صديقه ميلود، أما صديقه الآخر، فقد اعتقل وهو يقبع في السجن...ذاته الذي وضعه فيه الاستعمار، وحكم عليه بالإعدام. هل ضاع حلم الحب...الاستقلال؟ هل تحول الحلم إلى كابوس؟ هل تحول الحكام الجدد إلى مستعمرين جدد؟ هل صاروا ينافسونهم في البطش والقهر والاضطهاد والتعذيب؟ حامت هذه الاسئلة على خاطره، ولم يرغب في التفكير فيها"¹.

شكلت جميع هذه التساؤلات روح الرواية وجوهرها، وطمحت إلى جانب سؤال آخر أعمق وأشمل هو لماذا فشل الجزائريون في بناء دولة راشدة عادلة تليق بعظمة ثورة أول نوفمبر 1954 وتتناسب مع ثروات البلد الطبيعية والبشرية كما عبر عنه "عمارة لخص" في سؤاله عن الدافع وراء الكتابة لديه.

نضالات اتخذت بعدين أساسيين هما: النضال ضد الاستعمار والإطاحة بالأنظمة البوليسية العميلة للقوى الاستعمارية، وأيضا من أجل ترسيخ قيم الديمقراطية وسلطة المؤسسات، حيث ناضلت الشعوب العربية ضد الاستعمار وليد المرحلة الاستعمارية، حيث سعى الاستعمار إلى صناعة أنظمة سياسية على المقاس ومنحها كامل الحماية ضد شعوبها، وذلك بهدف المحافظة على مصالحه في مستعمراته السابقة، كما ناضل أيضا ضد الاستبداد. أنظر، إدريس جنداري، من أجل مقارنة فكرية لإشكاليات الربيع العربي،-العروبة، الإسلام، الديمقراطية- المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 2015، ص220 و221 و238.

¹-عمارة لخص، رواية طير الليل، ص100.

فالمتمعن في رواية "طير الليل" يستنتج أن "التاريخ السري لثورة الجزائر ليس المقصود، إنما هو حاضرها الميؤوس منه، والذي استنفذ كل فرصة كما قال هو في نفسه في النهوض من بركة الدم التي سقط فيها منذ حرب التحرير، ولكن المراحل المظلمة التي عاشتها الجزائر بما فيها العشرية السوداء، كانت سلبية الظلام المنسي في التاريخ الجزائري ما قبل التحرر، وبرك الدم التي قام عليها نظام ما بعد فرنسا"¹.

أي استعمار ما بعد الاستعمار الذي رسخته الرواية في شخص "ميلود صبري" الخائن العميل، ودوره البارز في فشل جميع محاولات التغيير، وذلك لتجسيده نظام سياسي ما بعد استعماري بامتياز، وهو ما تؤكدته التواريخ التي استقاها "عمارة لخص" من الواقع الجزائري والتي يعبر كل واحد منها عن مرحلة انتقالية في تاريخ الجزائر، كما سبق ووضحنا في الجزء الأول* من هذه الدراسة، فنجد العيد الوطني للاستقلال (جويلية)، انقلاب ضد بن بلة (صيف 1965)، الربيع الأمازيغي في الجزائر - قسنطينة- (شتاء وربيع 1986)، احتجاجات الشباب (شتاء وربيع 2011)، وآخرها كان الحراك (صيف 2018)... وغيرها من المحطات التاريخية التي شكلت استثناء في مضمار المقاومة الذي اتبعه الشعب الجزائري، بغية إيصال صوته وتحقيق حلمه بالعدل والمساواة وسبل العيش الكريم بالنضال ضد الاستعمار والاستبداد، إلا أن دقات الرواية والواقع الجزائري يتفقان في كونها تجاوزت الحلم لتتحول إلى سراب لشعب أنهكه عطش الديكتاتورية والديموقراطية المقنعة التي كرسها الاستعمار الجديد، أثبتته تنقل الفشل وتوالي الخيبات من أرض الواقع إلى رواية "طير الليل"، التي بقيت أصوات المعارضة داخلها حبيسة الحوار الداخلي تخشى الجهر مخافة القهر، وهو الأمر نفسه الذي عاناه الشعب الجزائري بين مطرقة الاستعمار الجديد (اليد الفرنسية التي لا تأبى أن ترفع عن الجزائر) وسندان الاستبداد، بين هذا وذاك وجد الشعب الجزائري نفسه

¹ - كمال الرياحي، رواية "طير الليل" لعمارة لخص، العنف وأصله في الجزائر. المرجع نفسه.

*أنظر، الجزء الأول من هذه الدراسة.

يتجرع مرارة الظلم والاضطهاد لإخفاق مساعيه الحثيثة للتغيير، وظلّت أصوات المعارضة داخل الرواية تكابد الأمرين وتتخبط داخل شرنقة القمع السلطوي المعلن أو الخفي.

وهو ما خلصنا إليه في دراستنا لأصوات الرواية حيث رأينا أن هذه الطريقة في توزيع الأصوات*، أين صدح صوت السلطة وتفرد بالقوة والجبروت على مستوى الممارسة الخطابية عاكسا بهذا صورة النظام السياسي الجزائري (الذي سنته الأيدي الاستعمارية) على مستوى الممارسة الاجتماعية الذي تفرد بالحكم وتمرس الطغيان بجميع أشكاله للمحافظة على السلطة ومصالح الاستعمار، ما يجعل "الرواية تبدو أصدق أنباء من التاريخ، حين يتعلق الأمر بالصراعات الكبرى، التي تؤول إلى انتصار طرف على آخر بشكل حاسم، فالتاريخ الذي يكتبه المنتصرون عادة يتحول في هذه الحالة إلى خطاب دعائي، في حين تظلّ الرواية، غالبا محتفظة ببصيرتها وإنسانيتها"¹.

إلا أن الانتقال من الحزب الواحد إلى التعددية الحزبية في الجزائر ساهم في "اعتبار حرية التعبير في الدستور الحق من حقوق المواطنة، بمعنى أن النص الروائي الجزائري أضحى يتمتع رسميا بحرية أكبر في التعبير مقارنة بما كان عليه الأمر في عهد ما قبل التعددية، مع الإشارة إلى أن النصوص الأدبية والروائية خاصة كانت المجال الذي تبلورت فيه حرية التعبير أكثر من الفضاءات الأخرى، خاصة إذا قارنا حالة التضييق التي مورست على الإعلام وأسلوب الرقابة الذي فرض عليه، يمثلها في مجال النصوص الإبداعية لوجدنا أن الإعلام قد عانى من ظاهرة الرقابة أكثر مما حدث في مجال الأدب، لكن لا يجعلنا أبدا نغض الطرف عما تعرض له حبيب السايح من مضايقات بعد نشره: "زمن التمرد"، أو أنه كيف لم يسمح بتداول رواية

*أنظر الجزء الأول من هذه الدراسة.

¹ -عماد عبد اللطيف، تحليل الخطاب السياسي، ص335.

"التطبيق" لرشيد بوجدره فى الجزائر إلا بعد انتهاء عهد بومدين، وغير ذلك من النماذج¹.

هذه المضايقات تلاشت نسبيا بعد التحولات التى لحقت الراهن السياسى حيث أن الاقرار بكون هذا التحول "يفتح مجالا أوسع لحرية التعبير على صعيد النص السردى يتطلب مع ذلك إبداء بعض التحفظات التى تجعلنا أقل تفاؤل، إذا ما أخذنا بعين الاعتبار ظهور أشكال أخرى من الرقابة بالموازاة لرقابة السلطة المتمثلة فى: رقابة السلطة على مؤسسات الطباعة والنشر، ورفض كل ما يتنافى والتطلعات الايديولوجية القائمة"².

كل هذه التحولات التى شهدتها الراهن السياسى الجزائرى فى إبداء الرأى صراحة، ودون الخوف من السقوط فى مطبات السلطة ومتهاتها نرى أنها تحققت ولو جزئيا عبر "طير الليل"، الذى كتب بعد هذه المرحلة الفارقة فى تاريخ الجزائر، وتحقيقه لمجموعة من الإنجازات أهمها القضاء على الحكم البوتفليقي الذى عاث فى البلاد فسادا لمدة عشرين سنة.

"عمارة لخصوص" من بين الروائيين الجزائريين الذين حاكوا تلك الفترة عبر مضامين مضمرة راوغت التجلّى السياسى، وغاصت الى أعماق المجتمع الجزائرى وفضحت الأيادى العميلة داخل النظام الجزائرى الخائنة المكرسة لاستعمار جديد أفضى بدوره إلى سياسات سلطوية قامعة، وهو ما لمسناه من خلال المواضيع الحقيقة التى استقاها الكاتب من الواقع الجزائرى، واستدعاها لمساءلتها ونقدها، ومن بين هذه الأحداث نجد:

¹-شادية بن يحيى، الرواية الجزائرية ومتغيرات الواقع، السبت 04 مايو 2013، مقال الكترونى، موقع ديوان

العرب، ... <http://www.diwanalarab.com> تاريخ الدخول: 2021/12/25 التوقيت 16:00

²- المرجع نفسه.

قضية الكوكابين التي شغلت الرأي العام الجزائري لفترة زمنية طويلة وهو ما عبر عنه الحوار الذي جمع المحامي "إدريس طالبي" والمحقق "العقيد كريم سلطاني" فيقول "إدريس" متذكراً: "الجزائر بلد الشهداء صارت بلداً للكوكابين، يا حضرات! شعر العقيد بشيء من الحرج فوجّه بصره نحو النافذة حتى يتجنّب نظرة المحامي الصارمة والحزينة. فضيحة الكوكابين وبإلها من فضيحة، لا أحد يعلم كيف ستنتهي، بدأ كلّ شيء حين احتجزت القوّات البحرية 701 كيلوغراماً من الكوكابين الصافية في باخرة في ميناء وهران في 29 ماي الماضي، تصل قيمتها إلى ثلاثين مليون يورو في السوق الأوروبي، كانت المخدرات مخبأة في شحنة من اللحوم المستوردة من البرازيل، وموجّهة إلى مستورد للحوم المجمدة في الأربعين من عمره. وقد تحوّل في فترة وجيزة من جزّار إلى مقاول في العقارات وأحد أثرياء البلد. كان يهدي رحلات عمرة وشقق فاخرة لشخصيات نافذة في الدولة، لتسهيل مصالحه"¹.

قال إدريس بصوت يشوبه التشاؤم:

-هناك قرائن عديدة تلمّح إلى تورّط شخصيات نافذة في هذه الفضيحة، فهل سيتحلّى المحقّقون والقضاة بالشجاعة لمعاقبة الجناة، أم سينتهي الأمر عند التوضيحية بأكباش فداء؟ هل ستمكّن الحيتان الكبيرة من الإفلات من شبكة القضاء كالمزّات السابقة؟"².

كذلك نجد حديثه عن الإرهاب ومخلفاته، وهو ما عبّر عنه "إدريس طالبي" أثناء مشاركته في برنامج تلفزيون مصري حول الربيع العربي، محدّراً من عواقب تقليد التجربة الجزائرية في التسعينيات عن طريق إقحام الدين والعسكر في السياسة قائلاً: "إنّ استخدام الإرهاب كفضّاعة هي أفضل طريقة لتدمير مشاريع التغيير كلّها.

-اللجوء إلى الإرهاب كاللعب بالنار، الاحتراق أمر وارد، والعواقب وخيمة.

¹-عمارة لخص، رواية طير الليل، ص108.

²-المصدر نفسه، ص109.

أشار إلى تركة الإرهاب في الجزائر: الخسائر البشرية تتراوح بين 150 ألف و200 ألف قتيل. أضف إلى ذلك آلاف المفقودين، أما الخسائر المادية، فتصل إلى عشرين مليار دولار، فاتورة باهضة مرعبة، هل يمكن تنظيف الذاكرة من القتل الأعمى البشع بجرّة قلم أو مرسوم رئاسي؟ لم يقتنع المحامي أبدا بالرأي المتداول، والقائل أن قانون السلم والمصالحة الوطنية لعام 2005 هو طيّ صفحة الماضي المثقلة بالدماء. -ومتى كان طيّ الصفحة هو الحلّ المناسب؟ ألا ينبغي، على الأقلّ، قراءة الصفحة مرّة واحدة قبل طيّها نهائياً؟¹.

عكست التحولات التي مست الراهن السياسي الجزائري تغييرات على صعيد المضامين المطروقة في الرواية الجزائرية، فافتحت بذلك على الواقع الجزائري وأضحت وعاءه الجامع الراصد والكاشف عما يؤرق الشعب الجزائري، ويحول دون نجاحه في تحقيق حلم التغيير المنشود، وهو ما لخصته رواية "طير الليل" التي اتخذت من "ذات العالم المتخيل من نقد الخطاب السياسي أداة لمقاومة بؤس العالم الحقيقي"² عبر صوت مؤلفها "عمارة لخصوص" الذي يعدّ واحدا من الروائيين الذين تجرأوا على الخوض في مواضيع غيّبت عن الساحة الأدبية أو صُنفت في خانة المسكوت عنه، كالبحث وراء أسباب الحصيلة الثقيلة الملطخة بدماء الجزائريين أثناء العشرية السوداء واستشراف الفساد، وأيضا فشل الحراك الذي لاح في الأفق بعد إجراء الانتخابات الرئاسية ديسمبر 2019.

نختم هذا الجزء بالقول أنّ نص الرواية في علاقة تأثير وتأثر دائم مع الواقع، وهو ما عبّرت عنه مستويات التحليل السابقة التي تواسجت وتعالقت في أبعاده الثلاث التي حددها "فيركلف"، حيث لا يمكن للممارسة الخطابية أن تستقر إلا داخل التحليل النصي الذي مثّلته الرواية، ولا يمكن أيضا للممارسة الخطابية إلا أن تؤثر وتتأثر

¹- عمارة لخصوص، رواية طير الليل، ص 244 و 245.

²- عماد عبد اللطيف، تحليل الخطاب السياسي، ص 336.

بالممارسة الاجتماعية في علاقة تفاعلية ترمي إلى البحث عن منافذ لمواجهة صدى صوت السلطة العالي، الذي بات يؤرق الشعب عبر حثّه للخروج من بوتقة الصمت وإيصال صوته لتحقيق مساعيه بتحرر الوعي، وفرض قيم بديلة تجبر السلطة على احترام الشعب والتعامل معه بحذر شديد، عكس ما عبّرت عنه أحداث الرواية التي تلعب دورا بارزا " في استكشاف هذه الأزمات واقتراح مسارات لاجتيازها من ناحية أخرى، فالعالم العربي، حاليا يتخبط في شرانق هوياته وصراعاته الطائفية، والاحتلال العسكري، والحروب الأهلية والاستبداد ولعلّ فن الرواية، حين ينشد النبل، يقدم بصيصا من نور يلوّح بالأمل للقابعين في أعماق النفق الطويل"¹.

¹- عماد عبد اللطيف، تحليل الخطاب السياسي، ص336.

خاتمة

شرعت هذه الدراسة (تمثيل القمع السلطوي في الرواية العربية المعاصرة -دراسة تداولية سردية لنماذج مختارة) نحو المقاربة النقدية لتمثيل القمع السلطوي، وقد أفادت هذه الدراسة من آليات التحليل النقدي للخطاب حسبما ورد في الشق الأول من البحث ومن التحليل التداولي السردى، أين قمنا بإبراز الإشكالية المطروحة في المقدمة، والمتمثلة في الكيفية التي يمكن من خلالها اعتبار التحليل النقدي للخطاب ودراسة السرد، ومساهمات التحليل التداولي للرواية من منظور باختين في ذلك، بغية الكشف عن الإيديولوجيات التي تسعى خطابات السلطة ترسيخها في المجتمع عبر دراسة نماذج روائية أثرت في الواقع وتأثرت به، والتي أسفرت عن مجموعة من النتائج أبرزها.

خلصنا في الفصل الأول من هذه الدراسة إلى كون التداولية في النقد المعاصر عنيت بالخطاب الأدبي عبر ثلاثة أطر هي: أن الخطاب الأدبي هو خطاب تواصلية ذو سياق وكونه خطابا حاملا لمقاصد وأيضا كونه خطابا حواريا، ساهمت في ولوجنا باب التحليل النقدي للخطاب الذي نادى رواده بضرورة تتبع إساءة استعمال السلطة عبر الخطاب.

ترتبط هذه المداخل ارتباطا وثيقا ببعضها، وتعين الباحث أثناء دراسته لمختلف أشكال نقل خطابات الآخرين، ونخص بالذكر منها الحوارية وفق التحليل التداولي للرواية من المنظور الباختيني، وما يضم من آليات وأطر (مثل: التعدد اللغوي، الباروديا الساخرة، الأجناس المتخللة....الخ)، أفصحت عن الطاقات الهامة للتداولية لاستيعاب الخطاب الروائي والوقوف على مضامينه السلطوية الخفية عبر السياق، الحوار، والمقاصد. وبهذا تعدّ التداولية درسا جديدا يدرس الخطاب الأدبي بالنظر إلى العلاقات التواصلية المكونة له، وبالرجوع إلى السياق الثقافي والاجتماعي الذي يحكمه،

فيصبح بذلك المعنى التداولي لا يستشف انطلاقاً من اللغة فقط، وإنما هو مرتبط أساساً بانفتاحه على مجموع السياقات.

وخلصنا كذلك إلى كون هذه الأطر تتقاطع وتتضام مع آليات التحليل النقدي للخطاب لتتبع أثر سلطة اجتماعية خفية تتحكم في الكلام وفي النصوص على حد سواء، حسب "فان ديك" Van Dijk ودور المحلل النقدي للخطاب هو الكشف عن هذه السلطة ومقاومتها عبر السياقات الاجتماعية والتاريخية وحتى الثقافية المفعلة لها.

استنتجنا أيضاً أن هذا التوجه في التحليل يدين لمجموعة من المنظرين أمثال (غرامشي Gramsci، هابرماس Habermas، بورديو Bourdieu) الذي يقترن تأثيرهم في التحليل النقدي للخطاب أساساً بتأويلاتهم حول المجتمع وآليات اشتغال الايديولوجيا، ودورها في خلق الأنساق الاجتماعية. كما لاحظنا أيضاً الاختلاف بين روادها في الكيفية التي تشتغل بها اللغة لتحقيق السلطة والايديولوجيا داخل الخطاب، من خلال تتبعنا لتعريفاتهم المتباينة للخطاب والسلطة والايديولوجيا ركائز هذا التوجه، إلا أنهم يلتقون في نقطة جامعة مفادها: بثّ الوعي بالدور الذي تلعبه اللغة والطاقت الكامنة داخلها في إرساء علاقات السلطة داخل الخطاب بالكشف والتصدي، كونها تشكل الواقع وتتشكل به.

أما بالنسبة للفصل الثاني فقد خرجنا بمجموعة من النتائج أبرزها:

صعوبة الإحاطة بمفهوم التمثيل اللغوي كونه أساس العملية التواصلية بالنسبة للخطابات العادية، وحتى الإبداعية منها تداولياً، نظراً لاشتراك فروع معرفية كثيرة فيه، ونجد هذا المصطلح يظهر جلياً في الدراسات الأدبية والنقدية أين برز مفهوم التمثيل مع صعود نجم الناقد والمفكر "إدوارد سعيد" Edward Said الذي نوه بقوة التمثيل أو أنظمة التصوير وخطورتها في اختراق خطاباتها حاملة في طياتها لسلطة قمعية، قد نكتشفها أو بالأحرى نطبقها بوعي أو من غير وعي حيث أن الخطابات التي نتلقاها

هي خطابات غير بريئة البتة على اختلافاتها، وبهذا يصبح التمثيل ضرورة قصوى للتعبير عن الذات وتجاوز سلطة الخطابات التي تصنعه وتحدد كيانه، أفضت هذه الرؤية إلى ضرورة دراسة العلاقة الجامعة بين الخطاب والسلطة كون هذه الأخيرة تستمد قوتها من قوة التمثيل وخطورته.

أيضا صعوبة تحديد مفهوم واضح وجلي للعلاقة الحقيقية الجامعة بين السلطة والخطاب والايديولوجيا، أين تبنى هذا البحث رؤية المنظر الفرنسي ميشال فوكو Michel Foucault الذي ربط السلطة بالخطاب المفضية إلى كون هذا الأخير ممارسة تقتضي أوجها أخرى غير خطابية تحكمها أي سلطوية، فالخطاب هو ميدان للصراعات التي تفرض لاحقا أشكالا للمنع تفصح عن الرغبة في تملك السلطة محل التنازع.

كما كشف هذا الفصل عن بروز موضوعة القمع السلطوي بشتى أشكاله في الرواية العربية السياسية التي أضحت تعبيرا عن مختلف الصراعات الإيديولوجية والأفكار، وانعكاسا للوعي النقدي من جهة، والرغبة في التوغل في الحياة السياسية والاجتماعية لكشف زيف التناقضات. وهو ما استقرّ في أذهاننا من ملاحظاتنا حول مجموع الروايات العربية التي تناولت هذه التيمة، وفي الدراسات التي أقيمت حول هذه الروايات روايات عبد الرحمن منيف، وحيدر حيدر، وغالب هلسا، وغسان كنفاني وصنع الله إبراهيم... وغيرهم.

أما الفصل التطبيقي والأخير فقد كشف عن مجموعة من النتائج هي:

تبنى الشق الأول من التطبيق بعض مقولات "فان ديك" Van Dijk مع أطر التحليل التداولي للرواية وفقا للمنظور الباختيني في تحليلنا لرواية "فرج" لـ "رضوى عاشور"، أين توصلنا إلى كشف صورة القمع السلطوي الذي تجرّعه أجيال متلاحقة من فئة الشباب المثقف الحاملة لإرادة التغيير السياسي عبر تاريخ طويل من الهزائم

والخيّيات على جميع المستويات، بداية بالعنونة إلى التيمات الكبرى التي نسجت خيوط هذه الرواية وصولاً إلى أصوات القمع وتشكيل الوعي بمسائل الواقع والذاكرة، وكيفية تشكّلها وبنائها ووجهة النظر والرؤية التي تنقلها أو توصلها المرتبطة بعقائد الايديولوجيا ومقاصد الكاتب وانتقائه، مع ما يتماشى ولحظته التاريخية ورؤيته للعالم، التي عبرت عنها مسائل التعدد اللساني والإدراك الاجتماعي.

في حين جمع الشق الثاني وجهة نظر باختين في التحليل مع المقاربة الجدلية العلائقية لنورمان فيركلف Norman Fairclough وفق رؤية عماد عبد اللطيف الذي رأى بكونها الأنجع لمقاربة النصوص السردية، وذلك لتبنيها رؤية مهمة للخطاب بوصفه ممارسة اجتماعية، أين حاولنا الإجابة عن سؤال مفاده كيف يتشكل العالم الاجتماعي في رواية "طير الليل" لـ "عمارة لخصوص"؟ فلاحظنا أثناء انتقالنا بين هذه الخطوات (التحليل النصي، الممارسة الخطابية، الممارسة الاجتماعية) تداخلها وتشابكها وفق علاقة تأثير وتأثر دائم مع الواقع، حيث لا يمكن للممارسة الخطابية أن تستقر إلا داخل التحليل النصي الذي مثّله الرواية، ولا يمكن أيضاً للممارسة الخطابية إلا أن تؤثر وتتأثر بالممارسة الاجتماعية في علاقة تفاعلية ترمي إلى البحث عن منافذ لمواجهة صدى صوت السلطة العالي الذي بات يؤرق الشعب عبر حثّه على الخروج من بوتقة الصمت، وإيصال صوته لتحقيق مساعيه بتحرر الوعي وفرض قيم بديلة تجبر السلطة على احترام الشعب والتعامل معه بحذر شديد عكس ما عبرت عنه أحداث الرواية.

وقفنا في الجزء التطبيقي على بعدين للقمع السلطوي هما (المادي والمعنوي)، فاستنتجنا أن الثاني يفوق خطورة الأول بالقدر الكبير، وهو الذي جعل الفرد العربي خاضعاً للهيمنة، يتجرّع مجموعة من الخطابات باختلافاتها، باتت تشكّله بغير وعي منه، وهو ما اصطلح عليه "بورديو" بشرعنة العنف.

يبقى هذا البحث فاتحة لبحوث أخرى تتوسل مجالات جديدة تحرك بها النصوص الأدبية، وتفهم من خلالها مفاهيم كالسياسية، والسلطة والمجتمع، بحيث أننا بقدر استفادتنا من هذا المجال المعرفي الجديد، بقدر ما استوعبنا أن مجال تحليل الخطاب هو مجال واسع يفتح بانفتاح الموضوعات المدروسة.

وفي الأخير نؤكد نجاعة التحليل النقدي للخطاب في تلمس صور القمع السلطوي على اختلافاتها، وفق قراءتنا المتواضعة لهذا التوجه، التي نتمنى أنها ستفيد الطالب الجامعي لخوض غمار البحث الأكاديمي، على أننا نؤكد عدم خلو هذا البحث من نقائص خاصة ما يتعلق ببعض الزلات في التحليل التي نتمنى تداركها وتطعيمها في بحوث لاحقة بمناهج نقدية أكثر حداثة، كما سنستفيد من الملاحظات القيمة للجنة المناقشة التي ستعيننا على اكتشاف أخطائنا وتصويبها.

قائمة المصادر

والمراجع

1/المصادر:

1. أحمد المرزوقي، تزممارت، الزنزانة رقم 10 -سيرة ذاتية-، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 2012.
2. جورج أوروبل، مزرعة الحيوانات-رواية-، ترجمة: شامل أباطة، مراجعة: ثروت أباطة، دار الشروق، مصر، 2009.
3. رضوى عاشور، أطيف، رواية، دار الهلال، القاهرة، 2000.
4. رضوى عاشور، فرج -رواية-، دار الشروق، القاهرة ، ط1، 2008.
5. عمارة لخص، طير الليل -رواية-، منشورات المتوسط، إيطاليا، ط1، 2019.

2/المراجع:

2. 1/المراجع باللغة العربية:

1. إبراهيم الحيدري، سوسيولوجيا العنف والإرهاب، دار الساقى، لبنان، ط1، 2015.
2. إبراهيم حسنين توفيق، ظاهرة العنف السياسي في النظم العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، ط1، 1992.
3. أحمد عادل عبد الحكيم وآخرون، سلسلة حرب اللاعنف، -حرب الصدور العارية استراتيجيات وتكتيكات التعامل مع القمع والعنف، أكاديمية التغيير، دت، دط.
4. أحمد عبد الحليم عطية، "تيتشه وجذور ما بعد الحداثة"، دار الفارابي، لبنان، ط1، 2020.
5. أحمد محمد عطية، الرواية السياسية، دراسة نقدية في الرواية السياسية العربية، مكتبة مدبولي، القاهرة، دط، دت.
6. إدريس جنداري، من أجل مقارنة فكرية لإشكاليات الربيع العربي، -العروبة، الإسلام، الديمقراطية- المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 2015.
7. بسام موسى قطوس، سيمياء العنوان، وزارة الثقافة، عمان، ط1، 2001.
8. بشرى البستاني، التداولية في البحث اللغوي و النقدي، كتاب جماعي، مؤسسة السياب، لندن، ط1، 2012.

9. بهاء الدين محمد مزيد، تبسيط التداولية - من أفعال اللغة إلى بلاغة الخطاب السياسي، شمس للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2010.
10. ثروت مرسي "في التداوليات الاستدلالية-قراءة تأصيلية في المفاهيم والسيرورات التأويلية، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، ط1، 2018.
11. جابر عصفور، بعيدا عن مصر، الدار المصرية اللبنانية، 01/يناير/2019. كتاب الكتروني الموقع الالكتروني: books. google. dz>books تاريخ التصفح: 2021/11/14. الساعة: 09:59.
12. جابر عصفور، زمن القصّ - شعر الدنيا الحديثة-، الدار المصرية اللبنانية، 2017، الموقع: books. google. dz>books تاريخ التصفح: 2021/11/14. الساعة: 10:59.
13. جابر عصفور، الهوية الثقافية والنقد الأدبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2010.
14. حامد عبده الهوّال، السخرية في أدب المازني، الهيئة المصرية العامة للكتاب مصر، دط، 1982.
15. حميد لحمداني، أسلوبية الرواية -مدخل نظري، منشورات دراسات سيميائية أدبية لسانية، الدار البيضاء، ط1، 1989.
16. حياة أم السعد، النقد والخطاب مقاربات تداولية وميدولوجية، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2017.
17. حياة أم السعد، تداولية الخطاب الروائي - من انسجام الملفوظ إلى انسجام التلفظ، دار كنوز المعرفة، عمان، ط1، 2015.
18. ذهبية حمو الحاج، التداولية وإستراتيجية التواصل، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2015.
19. ذهبية حمو الحاج، في قضايا الخطاب والتداولية، كنوز المعرفة، عمان، ط1، 2016.
20. رامي أبو شهاب، الرئيس والمخاتلة خطاب ما بعد الكولونيالية في النقد العربي المعاصر، النظرية والتطبيق، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2013.
21. رضوى عاشور، في النقد التطبيقي - صيادو الذاكرة - مقالات نقدية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2001.
22. رضوى عاشور، لكل المقهورين أجنحة - مقالات -، دار الشروق، مصر، ط1، 2019.

23. زياد العوف، الأثر الايديولوجي في النص الروائي، ثلاثية نجيب محفوظ نموذجاً، مؤسسة الثوري للطباعة ، دمشق، ط1، 1993.
24. سعيد جبار، التخيل وبناء الأنساق الدلالية نحو مقارنة تداولية، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2013.
25. شعبان يوسف، أدب السجون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط1، 2014.
26. صلاح فضل، أساليب السرد في الرواية العربية، دار المدى للثقافة والنشر، ط1، 2003.
27. طه وادي، أدبيات الرواية السياسية، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، دت، ط1.
28. عبد الرحمن أبو عوف، القمع في الخطاب الروائي العربي، مركز القاهرة لدراسات حقوق الانسان، القاهرة ، ط1، 1999.
29. عبد الرحمن التمار، مرجعيات بناء النص الروائي، دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع، ط1، 2013.
30. عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، كلمات عربية للنشر والترجمة، مصر، القاهرة، دت، ط1.
31. عبد الرحمن منيف، بين الثقافة والسياسة، المؤسسة العربية لدراسات والنشر، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، ط1، 1992.
32. عبد الرزاق بلال، مدخل إلى عتبات النص، دراسة في مقدمات النقد العربي القديم، إفريقيا الشرق، المغرب، ط1، 2000.
33. عبد الله إبراهيم، السردية العربية الحديثة، - تفكيك الخطاب الاستعماري وإعادة تفسير النشأة- ، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 2003.
34. عبد الله العروي، مفهوم الايديولوجيا، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط8، 2012.
35. عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب - مقارنة لغوية تداولية-، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2004.
36. علي بن عبد العزيز عدلاوي، الأمثال الشعبية ضوابط وأصول -منطقة الجلفة نموذجاً، مراجعة: بشير هزوشي، دار الأوراسية، الجلفة، الجزائر، ط1، 2010.

37. عماد عبد اللطيف، استراتيجيات الإقناع والتأثير في الخطاب السياسي. خطب الرئيس السادات نموذجاً، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2012.
38. عماد عبد اللطيف، تحليل الخطاب السياسي -البلاغة، السلطة، المقاومة-، دار كنوز المعرفة، الأردن، ط1، 2020.
39. فتحي إمبابي، سهام صبري -زهرة الحركة الطلابية جيل السبعينيات-، ميريت للنشر والمعلومات، القاهرة، ط1، 2004.
40. فيصل دراج، الواقع والمثال-مساهمة في علاقات الأدب والسياسة-دار الفكر الجديد، لبنان، ط1، 1989.
41. فيصل دراج، دلالات العلاقة الروائية، دار كنعان، دمشق، ط1، 1992.
42. مؤلف جماعي، التحليل النقدي للخطاب، مفاهيم ومجالات وتطبيقات، إشراف وتحرير: محمد يطاوي، المركز الديمقراطي العربي، برلين، ط1، 2019.
43. محمد الشيخ، المثقف والسلطة، دراسة في الفكر الفلسفي الفرنسي المعاصر، دار الطليعة، بيروت، ط1، 1991.
44. محمد بن محمد الخبو، مداخل إلى قصصية المعنى، مكتبة علاء الدين، تونس، ط1، 2016.
45. محمد خطابي، لسانيات النص (مدخل إلى انسجام الخطاب) المركز الثقافي العربي، ط1، 1991.
46. محمد رضوان، "محنة الذات بين السلطة والقبلية"-دراسة لأشكال القمع وتجلياته في الرواية العربية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2002.
47. محمد مفتاح، في سيمياء الشعر القديم، دراسة نظرية وتطبيقية، دار الثقافة، ط1، 1989.
48. محمد نجيب العمامي، تحليل الخطاب السردى (وجهة النظر والبعد الحجاجي)، منشورات وحدة الدراسات السردية، كلية الآداب والفنون بمنوبة، دار مسكيلاني للنشر، دط، 2009.
49. محمود طلحة، تداولية الخطاب السردى، دراسة تحليلية في وحي القلم للرافعي، تقديم: مسعود صحراوي، عالم الكتب الحديث، الجزائر، ط1، 2012.

50. مجموعة مؤلفين، الماركسية الغربية وما بعدها التأسيس والانعطاف والاستعادة، تحرير: علي عبود المحمداوي، تقديم، الزين بن شيخة المسكيني، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2011.

51. مصطفى محمود، سقوط اليسار، دار المعارف، ط2، دت.

52. مفتاح بن عروس، الاتساق والانسجام في القرآن، رسالة دكتوراه دولة، جامعة الجزائر، 2007-2008.

53. منية عبيدي، التحليل النقدي للخطاب نماذج من الخطاب الاعلامي، كنوز المعرفة، عمان، ط1، 2012.

54. نبيلة ابراهيم، أشكال التعبير في الأدب الشعبي، دار نهضة مصر، القاهرة، دط، دت.

55. نور الدين علوش، الفلسفة الألمانية المعاصرة-مقالات وحوارات مختارة-، دار اليازوري، دط، 2016.

56. وحيد بن بوعزيز، جدل الثقافة، مقالات في الآخريّة والكولونيالية والديكولونيالية، دار ميم للنشر، ط1، 2018.

2. 2/المراجع المترجمة:

1. إدوارد سعيد، الاستشراق-المعرفة-السلطة-الإنشاء، ترجمة: كمال أبودييب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط8، 2005.

2. إدوارد سعيد، تغطية الإسلام، ترجمة: محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط2، 2005

3. ألبيريس، تاريخ الرواية الحديثة، ترجمة : جورج سالم، منشورات عويدات، باريس/بيروت، ط2، 1982.

4. الجيلالي دلاش، مدخل إلى اللسانيات التداولية لطلبة معاهد اللغة العربية وآدابها، ترجمة:

محمد يحياتن، جامعة تيزي وزو، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، دت، دط.

5. أنطونيو غرامشي، كراسات السجن، ترجمة: عادل غنيم، دار المستقبل العربي، القاهرة، دط، 1994.

6. آن ريول وجاك موشلار، التداولية اليوم علم جديد في التواصل، ترجمة: سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني، مراجعة: لطيف زيتوني، دار الطليعة للطباعة والنشر، لبنان، دط، 2003.

7. باري هندس، خطابات السلطة (من هوبز إلى فوكو)، ترجمة: ميرفت ياقوت، مراجعة وتقديم: ياسر قنصوة، المشروع القومي للترجمة، ط1، 2005.
8. بول ريكور، من النص إلى الفعل - أبحاث في التأويل-، ترجمة: محمد برادة وحسان بورقية، المشرف العام: قاسم عبده قاسم، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الإسكندرية، ط1، 2001.
9. بيير بورديو، التلفزيون وآليات التلاعب بالعقول، ترجمة وتقديم: درويش الحلوجي، دار كنعان للدراسات والنشر، ط1، 2004.
10. بيار بورديو، عن الدولة-دروس في الكوليج دو فرانس (1989-1992)، ترجمة: نصير مروءة، المركز الثقافي العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، ط1، 2016.
11. بيل أشكروفيت، جاريت جرفيثيز، هيلين تيفين، الامبراطورية ترد بالكتابة آداب ما بعد الاستعمار النظرية والتطبيق، ترجمة: خيري دومة، أزمنة للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2005.
12. تشيلي واليا، دراسات ادوارد سعيد وكتابة التاريخ، ترجمة: أحمد خريس وناصر أبو الهيجاء، الأردن، ط1، 2007.
13. تزفيتان تودوروف، ميخائيل باختين: المبدأ الحوار، ترجمة: فخري صالح، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، 1996.
14. توين فان ديك، الخطاب والسلطة، ترجمة: غيداء العلي، مراجعة وتقديم: عماد عبد اللطيف. المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2014.
15. جاك رانسبير، سياسة الأدب، ترجمة: سهيل أبو فخر، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، دط، 2011.
16. جنيت، عودة إلى خطاب الحكاية، تر: محمد المعتصم، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1. خطاب الحكاية، بحث في المنهج، تر: محمد معتصم، عبد الجليل الأزدي، عمر حلي، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، ط2، 1998.
17. جورج لايكوف ومارك جونسن، الاستعارات التي نحيا بها، ترجمة: عبد المجيد جحفة، دار توبقال للنشر، ط1، 1996.

18. جورج لوكانتش، نظرية الرواية وتطورها، ترجمة: نزيه الشوفي، دط، 1978.
19. جيل دولوز، المعرفة والسلطة مدخل لقراءة فوكو، ترجمة: سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، لبنان، ط1، 1987.
20. جيمس دوبريه، محاضرات في علم الاعلام العام (الميديولوجيا)، ترجمة: فؤاد شاهين وجورجيت الحداد، دار الطليعة، بيروت، ط1، 1996.
21. حنة آرندت، في الثورة، ترجمة: عطا عبد الوهاب، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2008.
22. دان سبيرير وديري ولسون، نظرية الصلة أو المناسبة في التواصل والإدراك، ترجمة، هشام إبراهيم عبد الله الخليفة، مراجعة: فراس عواد معروف، دار الكتاب الجديدة، ليبيا، ط1، 2016.
23. دومينيك مانغونو، المصطلحات المفاهيم لتحليل الخطاب، ترجمة: محمد يحياتن، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2008.
24. روث فوداك وميشيل ماير، مناهج التحليل النقدي للخطاب، ترجمة: أحمد فرح وعزة شبل محمد، مراجعة وتقديم: عماد عبد اللطيف، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2014.
25. سارة ميلز، الخطاب، ترجمة: عبد الوهاب علوب، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2016.
26. غاوري فاسواناثان، السلطة والسياسة والثقافة -حوارات مع ادوارد سعيد- ترجمة: نائلة قلقيلي حجازي، دار الآداب، بيروت، ط1، 2008.
27. فرانسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، ترجمة: سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، دت، دط.
28. فرانسوا ريكاناتي، المعنى الحرفي، ترجمة: أحمد كروم، مراجعة: عز الدين لحكيم بناني، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ط1، 2018.
29. فيليب بلانشيه، التداولية من أوستين الى غوفمان، ترجمة: صابر الحباشة، دار الحوار، ط1، 2007.

30. فيليب جونز، النظريات الاجتماعية والممارسة البحثية، ترجمة: محمد ياسر الخواجة، مصر العربية للنشر والتوزيع ط1، 2010.
31. لوسيان قولدمان، مقدمات في سوسيولوجيا الرواية، ترجمة: بدر الدين عروديكي، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط1، 1993.
32. لوي ألتوسير، الايديولوجيا وأجهزة الدولة الايديولوجية (ملاحظات نحو التحقيق)، ترجمة: عمرو خيرى، نقلا عن الترجمة الانجليزية، لبين بريوستر، المصدر "الينين والفلسفة ومقالات أخرى"، 1971، نشر هذا المقال للمرة الأولى عام 1970، (الجزء 1)، 2014/11/23،
33. لويس ألتوسير، الايديولوجية والأجهزة الايديولوجية للدولة، ترجمة: عايدة لطفي، مراجعة وتقديم: أمينة رشيد، دت، دط.
34. مجموعة من المؤلفين، نظرية السرد من وجهة النظر إلى التبئير، ترجمة: ناجي مصطفى، منشورات الحوار الأكاديمي والجامعي، ط1، 1989.
35. ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، ترجمة: محمد برادة، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1987.
36. ميخائيل باختين، أعمال فرانسوا رابليه والثقافة الشعبية في العصر الوسيط وإبان عصر النهضة، ترجمة وتقديم: شكير نصر الدين، منشورات الجمل، بيروت، ط1، 2015.
37. ميخائيل باختين، الكلمة في الرواية، ترجمة: يوسف حلاق، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ط1، 1988.
38. ميخائيل باختين، شعرية دوستوفسكي، ترجمة: جميل نصيف التكريتي، مراجعة: حياة شرارة، دار توبقال للنشر، المغرب، ط1، 1986.
39. ميريام ريفولت دالون، سلطان البدايات، بحث في السلطة، ترجمة: د. سايد مطر، مراجعة: موريس أبو ناصر، المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، ط1، 2012.
40. ميشيل فوكو، الكلمات والأشياء، ترجمة: بدر الدين عروديكي، مراجعة: جورج زيناتي، مركز الإنماء القومي، لبنان، 1989-1990.

41. ميشيل فوكو، تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي، ترجمة: سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 2006.
 42. ميشال فوكو، حفريات المعرفة، ترجمة: سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، ط2، 1987
 43. ميشيل فوكو، نظام الخطاب، ترجمة: محمد سبيلا ، دط، دت.
 44. نورمان فيركلف، الخطاب والتغير الاجتماعي، ترجمة: محمد عناني، المركز القومي للترجمة، ط1، 2016 .
 45. نورمان فيركلف، اللغة والسلطة، ترجمة: محمد عناني، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2016.
 46. هايدن وايت، نظام الشكل، الخطاب السردي والتمثيل التاريخي، ترجمة: نايف الياسين، هيئة البحرين للثقافة والآثار، المنامة، ط1، 2017.
2. 3/المجلات والدوريات:

بالعربية:

1. المقاربة التداولية للأدب، الوفاء الدائم، 31 مايو 2013، منتدى تونس التربوي، www.tunisie.education.com، مقال من الأنترنت، تاريخ التصفح: يوم 2018/11/27.
- إدريس الخضراوي، مقال السرد موضوعا للدراسات الثقافية، مجلة تبين، للدراسات الفكرية والثقافية، العدد8، المجلد الثاني، شتاء 2014.
2. باسل أبو حمدة، مقال رضوى عاشور الروايات كالعفاريت تظهر في أي وقت، التاريخ: 1 يوليو، 2012، حوار أجراه "مسارات" مع رضوى عاشور، عندما قدمت إلى دبي أخيرا، لاستلام جائزة مؤسسة سلطان بن علي العويس الثقافية، حقل القصة، والرواية والمسرحية (جوائز الدورة الثانية عشرة)، دار الحديث حول الأدب والنقد الأدبي والأسرة والمرأة والربيع العربي، ومشاركتها في الثورة المصرية، وعلاقتها بالقضية الفلسطينية. تاريخ التصفح: 2019/02/10 التوقيت 10 صباحا. الموقع: فنون >...< <https://www.albayan.ae>

3. توفيق شومان، اليسار العربي-ماذا تبقى من ايديولوجيته بعد تحولاته الراضخة للواقع-اليساريون استهدفوا المساواة الاجتماعية والديموقراطية السياسية ، الخميس 10 سبتمبر 2020. الموقع: <https://alarabi21.com>story>... تاريخ التصفح: 2021/11/13. الساعة: 23:58.
 4. حياة أم السعد، مقال "الاستعارة التي نحيا ونستعمر بها" المفهوم المعرفي للاستعارة، اللّغة والأدب مجلة أكاديمية محكمة، جامعة الجزائر 2، العدد 28، شارع الدين الأفغاني، الجزائر، جويلية، 2016.
 5. حياة أم السعد، مقال تشكلات خطاب التطرف في روايات الأزمة العربية المعاصرة. حفريات في صناعة الكراهية. -مقال منشور ضمن أعمال المؤتمر الدولي الثاني لكلية الآداب. قسم اللّغة العربية: الخطاب الأدبي المعاصر في العقود الثلاثة الأخيرة في الفترة ما بين 11 و 12 مارس 2020. جامعة الزيتونة.
 6. حياة أم السعد، حضور بعض مقولات لسانيات النص في المسند النظري الباختيني، جامعة الجزائر 2مجلة الأثر، العدد 13، الجزائر، مارس 2012.
 7. حياة أم السعد، مقال-من الحوارية إلى المتعاليات النصية-جينالوجيا مفهوم التناص في الدراسات الغربية، مجلة مقاليد، جامعة قاصدي مرباح ورقلة، العدد 05 ، 2013 .
 8. حياة أم السعد، مقال وظائف تمثيل الخطاب الغيري في الرواية وفق المنظر الباختيني، مقال حياة أم السعد، ضمن مجلة أنساق القطرية، المجلد 1، العدد 2، أكتوبر 2019.
 9. راضية خفيف بوبكري، تحليل الخطاب الأدبي - مقارنة نظرية-، مقال، مجلة الموقف، اتحادالكتاب العرب بدمشق، العدد 399، السنة الرابعة، الجزائر، ص16. الموقع: www.academia.edu/4660247/، تاريخ التصفح: 2018/12/02. الساعة: 07:18 صباحا.
 10. سامية داودي، ميخائيل باختين: الرواية مشروع غير منجز، مقال، مجلة الخطاب، جامعة تيزي وزو، العدد 13.
 11. شادية بن يحي، الرواية الجزائرية ومتغيرات الواقع، السبت 04 مايو 2013، مقال الكتروني، موقع ديوان العرب، ...><http://www.diwanalarab.com> تاريخ الدخول: 2021/12/25
- التوقيت 16:00

12. شوقي بدر يوسف، القمع والحرية في الرواية العربية إشكالية مذابح الأرمن نموذجاً، مقال، دت.
13. صلاح عبد الجواد من دفاتر الحركة الطلابية: سهام صبري وذاكرة لحظة الاعتقال، مقال الكتروني العربي الجديد، 19 أبريل 2019، الموقع الالكتروني: <https://www.alaraby.co.uk>... تاريخ التصفح: 2021/11/22، الساعة: 20:00.
14. عبد الرحيم خالص، في البدء كانت الثورة: قراءة في كتاب حنة أرندت، قسم الدين وقضايا المجتمع الراهنة، 29 مايو 2021، مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، <http://www.mominoun.com>articles
15. عبد الفتاح يوسف، التداولية وتنوع مرجعيات الخطاب-حدود التواصل بين لسانيات الخطاب والثقافة، جامعة المنصورة، عالم الفكر، مصر، دت، دط.
16. علاء الدين شهاب، رواية طير الليل، مقال، الموقع الالكتروني: رواية... <https://www.qalamalfekr.net> تاريخ التصفح: 2021/12/20، الساعة: 08:00.
17. علي سعدي عبد الزهرة جبير، الحراك الشعبي: دراسة نظرية في المفهوم والأسباب، مجلة الحقوق والعلوم الإنسانية المجلد 14 العدد : 02 (2021).
18. فاطمة الزهراء قريشع، الرواية البوليسية: الرواية السوداء والرواية اللّغز والفرق بينهما، 29 يناير 2021 الموقع: <https://www.taima20.com> 2020/10 تاريخ الدخول: 2021/12/30 التوقيت: 23:04.
19. كمال الرياحي، رواية "طير الليل" لعمارة لخص، العنف وأصله في الجزائر، ثقافة <https://www.ultrasant.com> تاريخ التصفح: 2021/12/20. التوقيت: 15:00.
20. محمد أمين بن جيلالي، " ميشيل فوكو" وسؤال السلطة: من الاختزال إلى التشطّي، نحو فينومينولوجيا تأويلية للسلطة وإضافة المفكر به في السياسة، مجلة مؤمنون بلا حدود، مؤسسة دراسات وأبحاث، الرباط.
21. محمد سيد أحمد المتولي، العنوان في الرواية العربية، الرمز والأبعاد الثقافية، مركز نماء للبحوث والدراسات، 12/ مارس/ 2017، مقال الكتروني، تاريخ الدخول: 2021 /11/12.
- الساعة 23.00. الموقع: <https://nama-center.com>

22. محمد لطفي الزليطي، مقال: من تحليل الخطاب إلى التحليل النقدي للخطاب، جامعة الملك سعود السعودية، مجلة الخطاب، العدد 17.
23. محمد مفضل، مقال جماليات السخرية في رواية اللجنة لصنع الله إبراهيم : استطراد استكشاف واستفزاز، جامعة ابن زهر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، أكادير، ورشة الفكاكة والسخرية، الأيام الدراسية 28-29 ماي 2010.
24. محمد نبيل الشيمي، العنف السياسي في العالم العربي . . . دواعيه وتداعياته، الحوار المتمدن، العدد 3009، 2010/05/19، مقال الكتروني، الموقع: www.m.ahewar.org/s.asp
25. محمد يطاوي، مقال -دائرة الخطاب ودائرة السلطة-، مجلة الجديد، جانفي 2019، الموقع الالكتروني: <https://aljadeedmagazine.com> :... تاريخ التصفح: 2019/10/21، الساعة 12:05.
26. مصطفى آيت خرواش، قراءة في رواية "مزرعة الحيوانات"، مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، قسم الدين وقضايا المجتمع الراهنة، 23 مايو 2020، <https://www.mominoun.com/articles> تاريخ الدخول: 2021/12/25 الساعة 17:00 مساء.
27. نائل الطوخي، حوار: رضوى عاشور أكتب كما اعرف- هكذا حاصرنا اللحظة الراهنة في بيوتنا-، مجلة الكلمة، العدد 24/ديسمبر/2008، الموقع: <http://www.alkalimah.net>Read تاريخ التصفح: 2019/02 /20 ، التوقيت: 10:00 صباحا.

المقالات المترجمة:

1. روث بريز، مقال التحليل النقدي للخطاب ونقاده، ترجمة: أمحمد الملاح، مجلة جامعة أم القرى لعلوم اللغات وآدابها، العدد 23، مارس 2019.
2. ريني ديرفن، فرانك بولز هاجن، هانز جورج وولف، اللسانيات المعرفية الايديولوجيا والتحليل النقدي للخطاب، ترجمة: د. أمحمد الملاح، جامعة القاضي عياض، المغرب، مجلة العمدة الدولية في اللسانيات وتحليل الخطاب، المجلد 03، العدد 03، (2019).

3. فرناند هالين، مقال التداولة، ترجمه: زياد عز الدين العوف، مجلة الآداب العالمية، العدد رقم 125، 1 يناير 2006، سوريا/ archive.sakhrit.co/authors.aspx? AID=34035، تاريخ التصفح: 01 /12/ 2018 ، الساعة 08:57 صباحا.
4. لوي ألتوسير، الايديولوجيا وأجهزة الدولة الايديولوجية (ملاحظات نحو التحقيق)، ترجمة: عمرو خيرى، نقلا عن الترجمة الانجليزية، لبين بريوستر، المصدر "الينين والفلسفة ومقالات أخرى"، 1971، نشر هذا المقال للمرة الأولى عام 1970، (الجزء1)، 2014/11/23، 2021/01/21.

2. 4/ المعاجم والقواميس:

1. مجموعة من المؤلفين، المنجد في اللغة والأعلام، دار المشرق، بيروت، ط3، ج2.
2. باتريك شارودو ودومينييك منغنو، معجم تحليل الخطاب، ترجمة: عبد القادر المهيري - حمادي صمود، مراجعة: صلاح الدين الشريف، منشورات دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة تونس، 2008.
3. جاك موشلار وأن ريبول، القاموس الموسوعي للتداولية، ترجمه مجموعة من الأساتذة والباحثين، اشراف: عز الدين مجدوب، مراجعة: خالد ميلاد، دار سيناترا للنشر والتوزيع، تونس، 2010.
4. جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة (الفلاسفة-المناطق-المتكلمون- المتكلمون اللاهوتيون- المتصوفون)، دار الطليعة، بيروت، ط3، 2006.
5. لطيف زيتوني، معجم مصطلحات نقد الرواية، مكتبة لبنان ناشرون، لبنان، ط1، 2002.
6. محمد القاضي وآخرون، معجم السرديات، دار محمد علي للنشر، تونس، ط1، 2010.

2. 5/ الرسائل:

1. أسماء العايب، الخطاب السياسي في رواية المحنة العربية المعاصرة -دراسة في نماذج مختارة-، إشراف حياة أم السعد، أطروحة دكتوراه، تخصص: قضايا الأدب، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر2، أبو القاسم سعد الله، السنة: 2019-2020.

2. أسماء بنت صالح حسن الزهراني، وجهة النظر السردية في البناء القصصي في القصة القصيرة السعودية، إشراف: صالح بن معيض الغامدي، رسالة دكتوراه، جامعة الملك سعود.
3. عبد الله حسن عبد الله القايدي، التحليل النقدي للخطاب: الخطاب الإعلامي للدول المحاصرة لقطر مثالا -رسالة ماجستير-، إشراف: أ. د حافظ اسماعيلي، جامعة قطر، يونيو 2019.
4. علي منصوري، البطل السجين السياسي في الرواية العربية المعاصرة، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه دولة، إشراف: محمد العيد تاورته، جامعة الحاج لخضر باتنة، 2007-2008.

2. 6/المراجع الأجنبية:

1. Austin, J. L. How To Do Things with Words: the Williams James Lectures deliverd at Harvard University in 1955. New York: Oxford U Press, 1965. Print.
2. Blommaret , J , and C. Bulcaen. (2000). "Critical Discourse Analysis". Annual. P 449-448 Review of Anthropology 29, 447-66.
3. Dominique Maingueneau, pramatique pour le discours littéraire 1. Bordas, Paris. 1990.
4. Catherine Depretto et les autres, L'heritage de Mikhail Bakhtine. Edition presses universities de Bordequx 1997.
5. Danielle Forget, Sens et Expression, John Searle, 1982, Trad et Préf . de Joelle Proust. coll. 'Le sens commun' Paris, Minuit, Québécoise de linguistique.
6. Dan sperber et Deirder wilson, la partience, communication et cognition traduit de l'anglais par Abel Gerchenfeld et Dan Sperber, Les Edition de minuit, 1989 .
7. Ducrot, O, Dire et ne pas dire. principe de sémantique linguistique, éd Herman, Paris, 1972 .
8. Dominique Maingueneau : Elements de linguistique pour le texte littéraire : Dunod. Paris. 1993
9. Elfie Poulain , Approche pragmatique de la littérature, L Humattan, France, 2006 .
10. Gayatri Chakravorty Spivak, Three Women's Texts and critique of Imperialism, Critical Inquiry, Vol. 12, No. 1, (1980) .

11. Jean Michel Adam, Eléments de La Linguistique textuelle, Théorie et pratique de l'analyse textuelle, Deuxième édition Margage . 1990.
12. J. P. Meunier, Approches systémiques de la communication, Deboeck, Bruxelles 2002.
13. Mikhaïl Bakhtine: De la préhistoire du discours romanesque : in Esthétique et théorie du roman .
14. Bakhtine/Voloshinov : la structure de l'énoncé : in le principe dialogique Todorov .
- ¹⁵. Mikhaïl Bakhtine : du discours romanesque : in Esthétique et théorie du roman, Traduit de russe par Daria Olivier, Edition Gallimard, 1978.
16. Bakhtine : Marxisme et philosophie de langage : Essai d'application de la méthode sociologique en linguistique , Traduit du russe et présenté par Marina Yaguello, les éditions de minuit, 1977. p146.
17. Reboul, Anne-Réalités de la fiction.
-Rhétorique et stylistique de la fiction, presse universitaire de Nancy, 1992

2. 8/ المواقع الإلكترونية:

1. حوار مع عمارة لخص: المرشح في القائمة الطويلة، الجائزة العالمية للرواية العربية،
2021/03/09. الموقع:
- <https://www.arabicfiction.org/node>. تاريخ الدخول: 2021/12/30. الساعة: 23:04.
2. حاورته نورة لحرش، الكاتب والروائي عمارة لخص في حديث عن روايته الجديدة، 29 تشرين
2019 الموقع: <https://www.annasronline.com/ind...> تاريخ الدخول:
2021/12/30 الساعة: 23:04.
3. مذابح عسكر مصر بالشعب خير شاهد على تاريخه الأسود. 16/ديسمبر/2018. الموقع
الإلكتروني:
- <https://albosla.net..> تاريخ التصفح: 2021/11/17. الساعة: 20:00.
4. مكتبة نور، التقديم لكتاب "الزنانة رقم 10 لأحمد المرزوقي" الموقع الإلكتروني:
<https://www.noor.book-com>

5. عماد عبد اللطيف، التحليل النقدي للخطاب ودراسة السرد، محاضرة، تقديم: عقيل عبد الحسين خلف (أستاذ النقد الحديث في كلية الآداب/جامعة البصرة)، تنظيم: الوحدة الثقافية في كلية الآداب تحت رعاية عميد كلية الآداب: ماجد عبد الحميد الكعبي، جامعة البصرة/ كلية الآداب، على قناة زوم، التاريخ: الأربعاء 2021/12/01 الساعة التاسعة بتوقيت بغداد.
6. academia.edu أو academia-support@academia.edu.

فهرس

الموضوعات

فهرس الموضوعات

مقدمة 06

الفصل الأول: التداولية مدخلا بينيا للتحليل النقدي للخطاب.

1/التداولية وتحليل الخطاب الأدبي (نقطة الالتقاء

والانتقال)..... 14

1. 2/التداولية في النقد المعاصر: (بوادر التغيير والانتقال)..... 15

1. 3/الخطاب الأدبي خطاب تواصل في ذو سياق..... 17

1. 4/الخطاب الأدبي خطاب حوار..... 25

1. 5/الخطاب الأدبي خطاب ذو مقاصد..... 38

2/التداولية والتخييل: Pragmatique et Fiction 49

1. 2/التخييل Fiction 49

3/التحليل النقدي للخطاب Critical Discourse

Analysis..... 55

3. 1/التحليل النقدي للخطاب الإطار النظري والمفهومي..... 59

3. 2/مفهوم الخطاب عند رواد التحليل النقدي للخطاب..... 64

3.3/الايولوجيا والسلطة عند رواد التحليل النقدي للخطاب: رؤية كاليديوسكوبية (متعددة

الجوانب)..... 70

4/اتجاهات التحليل النقدي

للخطاب..... 95

4. 1/الآليات الاجرائية للتحليل النقدي للخطاب.....97

الفصل الثاني: جدلية العلاقة بين الرواية السياسية والسلطة

1/في مفهوم التمثيل.....110

1.1/الخطاب وسلطة التمثيل117

1. 2/السرد وسلطة التمثيل.....120

1. 3/الإعلام وسلطة التمثيل.....122

2/في علاقة الخطاب بالسلطة والايديولوجيا.....125

2. 1/في علاقة الخطاب بالسلطة.....125

2. 2/حضور السلطة في الخطاب.....137

2. 3/علاقة الخطاب بالايديولوجيا.....138

2. 4/دور السلطة في العلاقة بين طرفي الخطاب.....150

3/حضور القمع في الرواية العربية المعاصرة.....153

3. 1/القمع التعريف والمفهوم.....154

3. 2/دوافع نشأة القمع في المجتمعات العربية.....157

3.3/الرواية العربية والقمع.....162

4/ في علاقة الرواية بالسياسة.....167

4. 1/أهم قضايا الرواية السياسية.....174

4. 2/الرواية العربية وأزمة الحرية.....179

4. 3/الرواية السياسية والواقع.....180

4. 4/الرواية السياسية والايديولوجيا.....181

الفصل الثالث: جدلية التمثيل السردي والإدراك الاجتماعي للقمع السلطوي وتشكيل

الوعي.

- 1/المقاربة المعرفية الاجتماعية: (توين.فان ديك) Teun .Van Dijk187
- 2/السياق الاتصالي لرواية"فرج".....188
- 3/الموضوعات: البنى الدلالية الكبرى.....201
3. 1/السياق العام للرواية.....201
3. 2/ السياق الداخلي /سطح النص.....205
3. 3/رمزية العنوان ومقص الرقابة.....205
3. 4/تمثيل القمع السلطوي على مستوى التيمات الكبرى للرواية.....212
- 4/صراع أصوات القمع وأنماط التفاعل الاجتماعي لتشكيل الوعي بمسائل الواقع والذاكرة.....217
4. 1/التفاعل الاجتماعي لشخصيات "فرج" والوعي بفعل القمع السلطوي.....217
4. 2/مسائل التعدد اللساني والإدراك الاجتماعي لفعل القمع السلطوي.....234
- 5/النظام المؤسساتي وتراتبية السلطة.....251
5. 1/ الجامعة.....252
5. 2/ المستشفى وخطابات السلطة.....255
5. 3/ وسائل الإعلام وأساليب التعمية.....259
5. 4/ المدرسة وتفعيل النظام المؤسساتي.....265
- 2/القمع السلطوي في أدب الجريمة: بين فضح الواقع السياسي وتصوير لفساد متجذر (رواية طير الليل لعامة لخص).....270
- 1/التحليل النقدي للخطاب ودراسة السرد.....272
- 1.1/ التحليل النقدي للخطاب دراسة السرد.....272
1. 2/ عالم جورج أوروبيل الحيواني ونقد لغة السياسة.....274
1. 3/ لماذا المقاربة الجدلية العلائقية لنورمان فيركلف.....277

282.....	2/تحليل خطاب المؤلف
282.....	2. 1/ من هوم عمارة لخصوص؟
283.....	2. 2/ عمارة لخصوص والرواية السوداء
285.....	2. 3/ الرواية هاجس التاريخ
287.....	2. 4/ استجابة الجمهور لرواية "طير الليل"
289.....	3/السياق العام للرواية:
سلطة	4/المناصات وتفاعلها من سلطة الإنتاج إلى سلطة
292.....	التأثير
292.....	4. 1/ إيحائية العنوان كتجلي لسلطة الكاتب
295.....	4. 2/ تصدير الكاتب من الموارد اللغوية إلى شرعنة العنف
298.....	4. 3/ النصوص الموازية من الممارسة الخطابية إلى الممارسة الإجتماعية
301.....	5/ من التحليل النصي إلى الممارسة الخطابية للقمع السلطوي
304.....	5. 1/ الحوار وتنازل أصوات الفساد: من السلطة القمعية إلى المقاومة
330.....	5. 2/ التعدّد اللغوي وبلاغة نقد السلطة السياسية
لتحقيق	6/ الممارسة الإجتماعية: التأثير والتأثر
359.....	التغيير
359.....	6. 1/ السياقات المنتجة للحراك والحدث الخطابي
370.....	خاتمة
376.....	قائمة المصادر والمراجع
393.....	فهرس الموضوعات
	ملخص البحث باللغة الانجليزية.

Abstract:

This study, entitled “**The Representation of Authoritarian Repression in the Contemporary Arab Novel: a Pragmatic-Narrative Study of Selected Models**” aims to dive into the direction of critical discourse analysis as it is one of the most recent approaches to discourse analysis that examines the relationships between discourse, its various contexts, from which it originates and to which it leads, and power. It is a study on the relationships of language with society and power, which makes it open to a range of different fields (political, social, religious, philosophical, and others). This openness contributed to the multiplicity of visions of the theorists and founders of critical discourse analysis who use other fields of knowledge (such as pragmatics, syntax, grammar narrative analysis, discourse analysis...etc), to search for representations of the abuse of power within the discourse.

Through this thesis, we approached two novels, the first is the novel "**Faraj**" by the Egyptian "**Radwa Ashour**", and the second is the novel "**Tayr al-lail**" by the Algerian novelist **Amara Lakhous**. For this purpose, the most important sayings of the pioneers of critical discourse analysis, including Van Dyck, Faircliffe, among others, have been drawn upon in this study, which deal with the dialectic of language, power and society, as well as frameworks of pragmatic analysis according to the Bakhtinian perspective. This is to reveal the contents of the novels, which hold innocent connotations that carry an authoritarian and repressive dimension that varies in its representations from one novel to another according to the contextual references to which it is appealed. Accordingly, the relationship between the novel and the discursive and social practices that surround its production, formation and the responses of its recipients have been studied.

Radwa Ashour embodied that through the voices of oppression and their contribution to shaping awareness of issues of reality and memory, and how they are formed and built through the vision it conveys related to ideological beliefs and the writer's intentions and selections, with what is in line with his/her historical moment and vision of the world. It is the same awareness that we traced the way it was formed in the novel “Tayr al-lail” through the relationships of influence and influence, and the interaction between discursive practice and social practice, which aims to search for outlets to counter the echo of the loud voice of authority, which has become an obsession for the Arab peoples.